

مِنْ كُلِّ سُورَةٍ فَايَةٌ

إِعْتِدَاد
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ أَحْمَدَ رَضَائِي

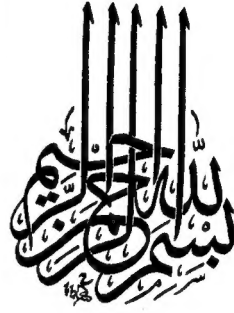
الذِّكْرُ الْأَوَّلُ
لِلشَّيْخِ وَالتَّوَضُّعِ

صنار السبيل
الجزائر

جميع الحقوق محفوظة
للمؤلف

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ١٩١٦٢



دار الآيات
للنشر والتوزيع

جنار السبيل
الجزائر

٢٧ حي الشيخ الطاهر طريق مسجد العزيز

مقابلة مديرية الشؤون الدينية - عنابة - الجزائر

البريد الإلكتروني dar_elatharia@yahoo.fr

مُهَيِّدٌ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ، فَهَذِهِ فَوَائِدُ قُرْآنِيَّةٍ كُنْتُ اسْتَفَدْتُ أَكْثَرَهَا قَدِيمًا مِمَّا كَتَبَهُ بَعْضُ
أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلَمَّا تَقَادَمَ الزَّمَنُ وَبَدَأَ الذَّهْنُ فِي الْكَلَالِ رَأَيْتُ تَدْوِينَهَا كَيْ لَا
يَطْوِيَهَا النَّسْيَانُ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَشْرِكَ الْقَارِئَ فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهَا، وَهِيَ
مُتَنَوِّعَةٌ، فَمِنْهَا فِي الْعَقِيدَةِ، وَمِنْهَا فِي التَّفْسِيرِ، وَمِنْهَا فِي التَّجْوِيدِ، وَمِنْهَا فِي
الْحَدِيثِ، وَمِنْهَا فِي الْفِقْهِ، وَمِنْهَا فِي الْخُلُقِ، وَمِنْهَا فِي اللُّغَةِ وَالْبَلَاغَةِ، وَمِنْهَا مَا
كَانَ مِنْ عِلْمِ الْمُنَاسَبَاتِ، سَوَاءَ كَانَتْ مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ، أَوْ مُنَاسَبَةِ
سُورَةٍ لِسُورَةٍ، أَوْ آيَةٍ لآيَةٍ، أَوْ مُنَاسَبَةِ أَوَّلِ السُّورَةِ لِآخِرِهَا، أَوْ لَفْظَةٍ لَلْفَظَةِ
كَالْمُشَاكَلَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، أَوْ مَا كَانَ مِنْ عِلْمِ التَّفَاسِيمِ وَالْأَشْبَاهِ وَالنِّظَائِرِ، أَوْ مَا
كَانَ مِنْ مُطَابَقَةِ بَيْنِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَغَيْرِهَا.

وَقَدْ جَعَلْتُ عُنْوَانَ الْكِتَابِ: « مِنْ كُلِّ سُورَةٍ فَائِدَةٌ »، وَأَعْنِي: عَلَى
الْأَقْلِ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ أَزِيدُ عَلَى الْفَائِدَةِ الْوَاحِدَةِ، بِحَيْثُ أَذْكُرُ تَحْتَ السُّورَةِ
الْوَاحِدَةِ أَكْثَرَ مِنْ آيَةٍ، وَقَدْ أَذْكُرُ تَحْتَ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ عِدَّةَ فَوَائِدَ، فَتَعَدَّدُ
الْفَوَائِدُ حَيْثُئِذٍ، وَقَدْ كُنْتُ عَزَمْتُ فِي الْأَوَّلِ أَنْ أَسْتَوْعِبُ مَا اجْتَمَعَ فِي الذَّهْنِ
مِنْ فَوَائِدَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ يَطْوُلُ جَدًّا، اكْتَفَيْتُ فِي الْأَغْلَبِ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ

من كلِّ سورة، وهي بُحوثٌ شريفةٌ تدلُّ على إعجازِ الكتابِ الكريمِ، وهو الغرضُ الأسمى الَّذي من أجله جمعتها هنا.

وقد كتبَ كثيرٌ من أهلِ العلمِ في هذا البابِ، وكثرتِ استنباطاتهم وتنوعتْ، ومن اطَّلَعَ عليها رأى التَّفَاوَتَ الكَبِيرَ بَيْنَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ اسْتِنْبَاطُهُ فِي الإِعْجَازِ شَبَهَ يَقِينٍ لِمُوَافَقَتِهِ الْأُصُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مُحْتَمَلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بَعِيدًا مُتَكَلِّفًا، كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الشُّوكَانِي فِي « فَتْحِ الْقَدِيرِ » (١/ ٧٣)، وَرَدَّ عَلَى مَنْ يَتَكَلَّفُ إِيجَادَ مُنَاسِبَةٍ لِكُلِّ آيَةٍ أَوْ سِيَاقَيْنِ، وَضَرَبَ مِثَالًا يَبْعُضُ مَنْ رَأَى أَنَّهُ جَازَفَ فِي هَذَا الْبَابِ وَتَجَاوَزَ الْمَطْلُوبَ أَوْ الْمَرْغُوبَ فِيهِ.

وقد يُلَاحِظُ الْقَارِئُ أَنَّنِي أَكْثَرُ مِنَ النِّقْلِ عَنِ الشَّيْخَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ وَابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ؛ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ رَاجِعٌ فِي جُمْلَتِهِ إِلَى أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَبَحُّرَهُمَا فِي عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْرَثَهُمَا حَسًّا صَادِقًا فِي غَالِبِ مَا يَسْتَنْبِطُونَ.

الثَّانِي: أَنَّ تَشَبُّعَهُمَا بِعِلْمِ السَّلَفِ جَعَلَ اسْتِنْبَاطَاتِهِمَا لَا تَخْرُجُ عَنْ عِلْمِ السَّلَفِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ لَزِمَ غَرَزَ السَّلَفِ فَقَدْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَقَدْ كَانَ مِنْ طَرِيقَتَيْهِمَا أَنَّهُمَا لَا يَسْتَنْبِطَانِ شَيْئًا إِلَّا دَعَمَاهُ بِمَأْثُورٍ مِنْ أَقْوَالِ السَّلَفِ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْمُؤَفَّقِ فِي عِلْمِهِ، فَإِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِحَطَرَاتِ نَفْسِهِ وَاسْتِتَاجَاتِ قَرِيحَتِهِ يَغْرُضُ ذَلِكَ عَلَى عِلْمِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ جَاءَ مَدْحُهُمْ بِحَقٍّ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا مُدِّحٌ مِنْ مُدِّحٍ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا بِبَرَكَةِ مُتَابَعَتِهِ لَهُمْ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

حِفْظُ اللَّهِ لِلْقُرْآنِ

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ حِفْظُ الْكِتَابِ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ إِلَى النَّاسِ، أَلَا وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، فَقَدْ حُفِظَ هَذَا الْكِتَابُ حِفْظًا لَمْ يُعْرِفْ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ قَبْلُ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى حِفْظَهُ، وَسَخَّرَ لَذَلِكَ مَا شَاءَ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَحَفَظَهُ الْأُمَّةُ فِي الْمَحَارِيبِ، وَالصِّبْيَانِ فِي الْكُتَاتِيبِ، لَا تَسْأَلُ عَنْ نَقْطِهِ وَشَكْلِهِ، وَلَا عَنْ نَسْخِهِ وَرَسْمِهِ، فَقَدْ تَفَنَّنَ فِي ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ أَيُّمَا تَفَنَّنٍ، فَجَلَسَ الْقُرَّاءُ يُقَرِّئُونَهُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَالْعُلَمَاءُ يُفَسِّرُونَهُ فِي الْمَعَاهِدِ، وَيُجِيزُونَ طُلَّابَهُمْ فِيهِ بِأَنْتَقَى الْإِجَازَاتِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ الْمُتَّصِلَةِ، لَا يُجَاوِلُ أَحَدٌ تَحْرِيفَ حَرْفٍ مِنْهُ إِلَّا افْتَضَحَ مِنْ تَوَّهِ، قَالَ الْبَاجِي رَحِمَهُ اللَّهُ: « كِتَابُنَا الْمَحْفُوظُ يَحْفَظُهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ الزِّيَادَةَ فِيهِ وَلَا النُّقْصَانَ، وَالَّذِي يَقْرَأُ بِهِ مَنْ فِي أَبْعَدِ الْمَشْرِقِ هُوَ الَّذِي يَقْرَأُ بِهِ مَنْ فِي أَبْعَدِ الْمَغْرِبِ، دُونَ زِيَادَةِ حَرْفٍ وَلَا لَفْظَةٍ وَلَا اخْتِلَافٍ فِي حَرَكَةٍ وَلَا نُقْطَةٍ » مِنْ مَقْدَمَةِ مُحَقِّقِ كِتَابِ الْبَاجِي « فُصُولُ الْأَحْكَامِ » (ص ٦٢)، وَفِي « تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ » (١٠ / ٥-٦) عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ قَالَ: « كَانَ لِلْمَأْمُونِ - وَهُوَ أَمِيرٌ إِذَاكَ - مَجْلِسُ نَظَرٍ، فَدَخَلَ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ حَسَنُ الثَّوْبِ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ وَالْعِبَارَةَ، قَالَ: فَلَمَّا تَقَوَّضَ الْمَجْلِسُ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ، فَقَالَ لَهُ: إِسْرَائِيلِيُّ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ لَهُ: أَسْلِمَ حَتَّى أَفْعَلَ بِكَ وَأَصْنَعَ، وَوَعَدَهُ، فَقَالَ: دِينِي وَدِينَ أَبَائِي!! وَانصَرَفَ، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ

جاءَنَا مُسْلِمًا، قَالَ: فَتَكَلَّمْ عَلَى الْفِقْهِ، فَأَحْسَنَ الْكَلَامَ، فَلَمَّا تَقَوَّضَ
 الْمَجْلِسُ دَعَاهُ الْمَأْمُونُ، وَقَالَ: أَلَسْتَ صَاحِبَنَا بِالْأَمْسِ؟ قَالَ لَهُ: بَلَى!
 قَالَ: فَمَا كَانَ سَبَبُ إِسْلَامِكَ؟ قَالَ: انصَرَفْتُ مِنْ حَضْرَتِكَ، فَأَحْبَبْتُ
 أَنْ أُمْتَحِنَ هَذِهِ الْأَدْيَانَ وَأَنْتَ تَرَانِي حَسَنَ الْخَطِّ، فَعَمَدْتُ إِلَى التَّوْرَةِ
 فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ، فَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْكَنِيسَةَ،
 فَاشْتَرَيْتُ مِنِّْي، وَعَمَدْتُ إِلَى الْإِنْجِيلِ فَكَتَبْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ، فَزِدْتُ فِيهَا
 وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْبَيْعَةَ فَاشْتَرَيْتُ مِنِّْي، وَعَمَدْتُ إِلَى الْقُرْآنِ
 فَعَمِلْتُ ثَلَاثَ نُسَخٍ، وَزِدْتُ فِيهَا وَنَقَصْتُ، وَأَدْخَلْتُهَا الْوَرَّاقِينَ
 فَتَصَفَّحُوهَا، فَلَمَّا أَنْ وَجَدُوا فِيهَا الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ رَمَوْا بِهَا فَلَمْ
 يَشْتَرَوْهَا، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا كِتَابٌ مَحْفُوظٌ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ إِسْلَامِي،
 قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: فَحَجَجْتُ تِلْكَ السَّنَةَ فَلَقِيتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ،
 فَذَكَرْتُ لَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ لِي: مُصْدَقُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ: قُلْتُ:
 فِي أَيِّ مَوْضِعٍ؟ قَالَ: فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ:
 ﴿بِمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (المائدة ٤٤)، فَجَعَلَ حِفْظَهُ إِلَيْهِمْ
 فُضَاعًا، وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر
 ٩)، فَحَفَظَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَيْنَا فَلَمْ يَضِعْ.

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ

أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ لِيُنْزِلَ وَيُعْمَلَ بِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ (الكهف ٢٧)، وَقَالَ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام ١٥٥)، وَقَالَ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف ٣).

وَلَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِالْكِتَابِ الْكَرِيمِ إِلَّا بَعْدَ تَدَبُّرِ مَعَانِيهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص ٢٩)، وَقَدْ حَصَلَ لكَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ ضَعْفٌ مَلْحُوظٌ؛ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِكَثِيرٍ مِنْهُ، وَقَنَعُوا مِنْهُ بِمَا يَجْلِبُ لَهُمْ بَعْضُ مَنَافِعِهِ، فَاتَّخَذُوهُ جُنَّةً مِنَ الْجُنَّةِ، وَاسْتَوْلَدُوا بِهِ الْأَجَنَّةَ، بَلْ جَمَعُوا بِهِ الْأَقْوَاتِ، وَقَصَرُوا نَفْعَهُ لِلْأَمْوَاتِ، وَابْتَدَعُوا قِرَاءَتَهُ إِذَا رَجُلٌ مَاتَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿يَس ٦٩-٧٠﴾، فَأَيْنَ تَفْهَمُهُ وَتَنْوِيرَ الْبَصَائِرِ بِهِ وَإِحْيَاءِ الْقُلُوبِ بِهِ؟! وَأَيْنَ الْعَمَلُ بِهِ وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ؟! فَكَيْفَ بَتَبْلِيغِهِ وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ؟! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون ٦٨)، وَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ الْحَذَرُ مِنْ هَجْرِ تَدَبُّرِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا سَبِيلٌ مَنْ أَقْفَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد ٢٤)؛ فَإِنَّ تَرْكَ تَدَبُّرِهِ أَوَّلُ حَاجِبٍ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ

قد يسره للذكر؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾
 (القمر ١٧)، وكذلك فإن الله أحكم آياته فلا ترى فيها تناقضاً ولا
 انحرافاً، وقد مضى عليه أربعة عشر قرناً فلم يضع منه حرف ولم
 يستنكر منه لفظ؛ قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ
 عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢)، وأخرج
 عبد الرزاق (٥٩٨٤) بسند صحيح عن الحسن أنه قال في قوله تعالى:
 ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْكَ مُبَرَكًا لِيَذَّبَ رُءُوسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾
 (ص ٢٩): « وما تدبر آياته إلا اتباعه بعمله، والله! ما هو بحفظ
 حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله! لقد قرأت
 القرآن كله وما أسقط منه حرفاً واحداً، وقد أسقطه كله! ما ترى له
 في القرآن من خلق ولا عمل، وحتى إن أحدهم ليقول: والله! إني
 لأقرأ السورة في نفس واحد! والله! ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا
 الحكماء ولا الورعة! ومتى كان القراء يقولون مثل هذا؟! لا كثر الله
 في المسلمين من هؤلاء!! ».

وقد جعل الله آياته باهرة، وحججه قاهرة، كلما مر عليه زمن
 ازدادت حجته في الظهور، وأيقنت الخليفة معه بالقصور، ولقد
 تحدى الله به أفصح العرب إنسهم وجنهم على أن يأتوا بمثله فعجزوا
 ولو كانوا مجتمعين، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لِّإِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ
 عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
 لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء ٨٨)، بل تحداهم على أن يأتوا بعشر سور

مِثْلَهُ فَقَطُّ فَعَجَزُوا؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ
 سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَّادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 ﴿١٣﴾ (هود ١٣)، بل تنزل معهم إلى أن تحدّاهم بسورة واحدة، فقال:
 ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
 وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (البقرة ٢٣)،
 وهذا تحدّ ما بعده تحدّ! ولو لم يكن سواه لكفى إعجازاً للبشريّة
 ودلالة لهم على صدق الرّسالة المحمّديّة، وقد كان من فضل الله على
 النّاس أنّه ما يرسل رَسولاً إلّا يُظهر حجّته بإظهار مُعجزته، وجعل
 لرسوله مُحَمَّدٍ ﷺ مُعجزاتٍ كثيرة، أظهرها القرآن الكريم؛ ولذلك
 رَوَى الْبُخَارِيُّ (٤٩٨١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا
 مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا
 كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيّاً أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعاً
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الفتح» (٥٨٢/٦): «وَأَشْهَرُ
 مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ: الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ تَحَدَّى بِهِ الْعَرَبَ وَهُمْ أَفْصَحُ
 النَّاسِ لِسَاناً، وَأَشَدُّهُمْ اقْتِدَاراً عَلَى الْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
 فَعَجَزُوا، مَعَ شِدَّةِ عِدَاوَتِهِمْ لَهُ وَصَدِّهِمْ عَنْهُ! حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:
 أَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ (الكوثر ١)، فَكُلُّ
 قُرْآنٍ مِنْ سُورَةٍ أُخْرَى كَانَ قَدَرُ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ سَوَاءً كَانَ
 آيَةً أَوْ أَكْثَرُ أَوْ بَعْضُ آيَةٍ فَهُوَ دَاخِلٌ فِيهَا تَحْدَاهُمْ بِهِ، وَعَلَى هَذَا فَتَصُلُّ
 مُعْجَزَاتُ الْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ إِلَى عَدَدٍ كَثِيرٍ جِدّاً، وَوُجُوهُ إِعْجَازِ

الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةٍ حُسْنِ تَأْلِيْفِهِ وَالتِّثَامِ كَلِمَاتِهِ وَفَصَاحَتِهِ وَإِيجَازِهِ فِي مَقَامِ
 الْإِيجَازِ، وَبِلَاغَتِهِ ظَاهِرَةً جِدًّا، مَعَ مَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ نَظْمِهِ
 وَغَرَابَةِ أَسْلُوبِهِ، مَعَ كَوْنِهِ عَلَى خِلَافِ قَوَاعِدِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ، هَذَا إِلَى مَا
 اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْمُغَيَّبَاتِ مِمَّا وَقَعَ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِمَّا
 كَانَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَفْرَادٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اجْتَمَعَ
 بِأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا أَخَذَ عَنْهُمْ، وَبِمَا سَيَقَعُ فَوْقَ عَلَى وَفَقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي
 زَمَنِهِ ﷺ وَبَعْدَهُ، هَذَا مَعَ الْهَيْبَةِ الَّتِي تَقَعُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ، وَالْحَشْيَةِ الَّتِي
 تَلْحَقُ سَامِعَهُ، وَعَدَمَ دُخُولِ الْمَلَالِ وَالسَّامَةِ عَلَى قَارِئِهِ وَسَامِعِهِ مَعَ
 تَيْسُرِ حِفْظِهِ لِمُتَعَلِّمِيهِ، وَتَسْهِيلِ سَرْدِهِ لِتَالِيِهِ، وَلَا يُنْكِرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ
 إِلَّا جَاهِلٌ أَوْ مُعَانِدٌ، وَلِهَذَا أَطْلَقَ الْأَثَمَةُ أَنَّ مُعْظَمَ مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ
 الْقُرْآنُ، وَمِنْ أَظْهَرَ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ إِبْقَاؤُهُ مَعَ اسْتِمْرَارِ الْإِعْجَازِ .

وَلَا يَزَالُ التَّحْدِي قَائِمًا إِلَى الْيَوْمِ، فَعَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ
 وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يَجْمَعُوا بِلَاغِيَّتِهِمْ وَشُعْرَاءَهُمْ وَأُدْبَاءَهُمِ الْعَرَبَ لِيَأْتُوا
 بِمِثْلِ سُورَةٍ وَاحِدَةٍ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي تَكْذِيبِ هَذَا الْكِتَابِ! وَهَلْ
 يُعْقَلُ أَنْ يَأْتِيَ أُمِّيٌّ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِكِتَابٍ يَتَحَدَّى بِهِ جُمُوعَ قَوْمِهِ
 وَفِيهِمُ الْخُطَبَاءُ وَالْبُلُغَاءُ، ثُمَّ يَتَحَدَّى أَحْفَادَهُمْ وَأَحْفَادَ أَحْفَادِهِمْ إِلَى
 آخِرِ زَمَنِ الْبَشَرِيَّةِ؟! وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَغْلِبَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مَلَائِينَ الرِّجَالِ
 عَلَى مَدَى التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ؟! قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ »
 (٤/ ١٥٤٧- العمران): « إِنْ حَصَلَ لَكُمْ رَيْبٌ فِي الْقُرْآنِ وَصَدَقَ مَنْ
 جَاءَ بِهِ وَقُلْتُمْ: إِنَّهُ مُفْتَعَلٌّ، فَأَتُوا وَلَوْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ تُشَبِّهُهُ، وَهَذَا

خطابٌ لأهل الأرض أجمعهم، ومن المحال أن يأتي واحدٌ منهم
 بكلامٍ يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه، ثمَّ يطالبُ أهل الأرض
 بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزءٍ منه، يكونُ مقداره ثلاث آياتٍ من
 عدَّة ألوفٍ، ثمَّ تعجزُ الخلائقُ كلُّهم عن ذلك، حتَّى إنَّ الذين رامُوا
 مُعارضته كانَ ما عارضوه من أقوى الأدلَّة على صدِّقه، فإنَّهم أتوا
 بشيءٍ يستحيي العقلاء من سماعه، ويحكمون بسماجته وقُبْح ركاكته
 وخِسِّته، فهو كمن أظهرَ طيباً لم يشمَّ أحدٌ مثْل رِيحه قط، وتحْدَى
 الخلائقُ مُلوكتهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرةٍ طيبٍ مثله، فاستحَى
 العقلاء وعرفوا عجزهم، وجاء الحُمقانُ بعذرةٍ مُتنتِة خبيثة، وقالوا:
 قد جئنا بمثل ما جئتَ به، فهل يزيدُ هذا ما جاء به إلَّا قوَّة وبرهاناً
 وعظمةً وجلالةً؟! ».

استنباط الأحكام والفوائد من القرآن

مباحث القرآن مباحث شريفة، لا سيما ما كان منها في علم التفسير؛ فإن القرآن كلام الله، وكلما تبين لطالب العلم وجوه إعجاز الكلام ازداد تعظيماً للمتكلم وعرفاناً بحقه، وأيقن أن هذا لا يقوله إلا حكيماً عليم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّكَ لَتَلْقَى الْفَرَاتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل ٦)، وإحكام الكلام يدل على حكمة المتكلم ومحمدته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَكَتَبَ عَزِيزٌ﴾ (١١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿١٢﴾ (فصلت ٤١-٤٢)، وهذا يتأتى إدراكه أكثر لمن آتاه الله قوة الاستنباط والفهم في كتاب الله، أو هداه الله لمطالعة كتب الراسخين من أهل العلم في هذا الباب؛ فإن كتاب الله ملى بالدُرر، بل كله دُرر لا تُقدَّر بثمن، وكل من أطلعه الله على شيء منها ازداد إيماناً؛ قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة ١٢٤)، وأوفر نصيب من هذه الزيادة يكون لمن كان أسدَّ اجتهداً وأحسن استنباطاً، قال ابن مسعود: «مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ» أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨١٤) وابن أبي شيبة (١٠٠٦٧- ط الهندية) بإسناد صحيح، على الرغم من أن فيه أبا إسحاق السبيعي وهو ثقة اختلط بآخره، إلا أن الراوي عنه هنا هو سُفيان الثوري، وهو أثبت الناس فيه كما قال المزي في «تهذيب

الكَمَال « (١٠٩/٢٢)، وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « إِعْلَامُ الْمُوقِّعِينَ »
 (١٧٣/١): « وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْإِسْتِنْبَاطِ فِي كِتَابِهِ، وَأَخْبَرَ
 أَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِسْتِنْبَاطَ إِنَّمَا هُوَ اسْتِنْبَاطُ الْمَعَانِي
 وَالْعِلَلِ، وَنَسَبَهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَيُعْتَبَرُ مَا يَصِحُّ مِنْهَا بِصِحَّةِ مِثْلِهِ
 وَمُشَبِّهِهِ وَنَظِيرِهِ، وَيُلْغَى مَا لَا يَصِحُّ، هَذَا الَّذِي يَعْقِلُهُ النَّاسُ مِنَ
 الْإِسْتِنْبَاطِ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْإِسْتِنْبَاطُ كَالِاسْتِخْرَاجِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ
 قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ فَهْمِ اللَّفْظِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ طَرِيقَةَ الْإِسْتِنْبَاطِ؛ إِذْ
 مَوْضُوعَاتُ الْأَلْفَاظِ لَا تُبْنَى بِالْإِسْتِنْبَاطِ، وَإِنَّمَا تُبْنَى بِهِ الْعِلَلُ وَالْمَعَانِي
 وَالْأَشْبَاهُ وَالنَّظَائِرُ وَمَقَاصِدُ الْمُتَكَلِّمِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَمٌّ مَنْ سَمِعَ ظَاهِرًا
 مُجَرَّدًا فَادَّاعَاهُ وَأَفْشَاهُ، وَحَدَّ مَنْ اسْتَنْبَطَ مِنْ أَوَّلِ الْعِلْمِ حَقِيقَتَهُ
 وَمَعْنَاهُ^(١)، وَيُوضِّحُهُ أَنَّ الْإِسْتِنْبَاطَ اسْتِخْرَاجَ الْأَمْرِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ
 يَخْفَى عَلَى غَيْرِ مُسْتَنْبِطِهِ، وَمِنْهُ اسْتِنْبَاطُ الْمَاءِ مِنْ أَرْضِ الْبُيْرِ وَالْعَيْنِ،
 وَمِنْ هَذَا قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَقَدْ سُئِلَ: (هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ دُونَ النَّاسِ؟ فَقَالَ: لَا! وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ!
 إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ)^(٢)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْفَهْمَ قَدْرٌ زَائِدٌ
 عَلَى مَعْرِفَةِ مَوْضُوعِ اللَّفْظِ وَعُمُومِهِ أَوْ خُصُوصِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا قَدْرٌ
 مُشْتَرَكٌ بَيْنَ سَائِرِ مَنْ يَعْرِفُ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَإِنَّمَا هَذَا فَهْمٌ لَوَازِمِ الْمَعْنَى

(١) يُرِيدُ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ
 إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء ٨٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠٤٧).

وَنَظَائِرِهِ وَمُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ بِكَلَامِهِ وَمَعْرِفَةِ حُدُودِ كَلَامِهِ، بِحَيْثُ لَا يَدْخُلُ
فِيهَا غَيْرُ الْمُرَادِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا شَيْءٌ مِنَ الْمُرَادِ «، ثُمَّ ضَرَبَ بَعْضُ
الْأَمْثِلَةِ لَذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: « وَفَهُمْ هَذَا الْقَدْرُ زَائِدٌ عَلَى فَهْمِ مُجَرَّدِ اللَّفْظِ
وَوَضْعِهِ فِي أَصْلِ اللِّسَانِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانِ، وَلَا حَوْلَ
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ».

أنواع التفسير

اختلفت مناهج المفسرين للقرآن الكريم، فمنهم من عمدته الرأي، ومنهم من عمدته اللغة العربية، ومنهم من عمدته الإشارات الخفية والمعاني الباطنية، وأسعدهم بالحق من عمدته الأثر، فيفسر القرآن بالقرآن، ويفسره بالسنة، ويفسره بأثار السلف، مع ما آتاه الله ﷻ من معرفة واسعة باللسان العربي، فمن جمع الله له علم هذه المناحي الأربعة فقد جمع له أسباب التوفيق إلى إصابة المعنى الصحيح من كلام الله إن شاء الله، مع ما يكون عليه من سلامة معتقد وفقه في الدين وتقوى لله رب العالمين، وقد يكون ضليعاً في اللغة ضعيفاً في الاطلاع على الأثر فيقوته خير كثير؛ فإن اللغة واسعة ذات مفردات متشعبة المعاني، وقد يوجد في القرآن أو في السنة ما يعين إحدى مفردات اللفظ القرآني وهو لا يذري، أو يكون للصحابي علم بالقرآن الحالية للتزليل المعينة على صحيح التأويل فيخفى ذلك على غيره، أو يكون قد انطلق من بعض القواعد القرآنية الجامعة، ويكون اللغوي غير مطلع عليها، فيخالف السلف ظناً منه أن الوضع اللغوي وحده كافٍ لأن يقول في كتاب الله ما قال.

وقد يكون المنتصب للتفسير متخصصاً في العلوم الكونية لكن بضاعته الشرعية مزجاةً، فيتخيل في كل آية ما يسمي اليوم بـ (الإعجاز العلمي)، حتى الصلاة فقد يفسرها بريضة بدنية!! فتضيع حلاوة العبادة وهيبة الخشوع والقرب من الله بين أحضان مثل هذا

التفسير المادّي، وقد رأينا من فسّر القرآن كله على هذا النمط، فحوّل هذا الكتاب الهادي إلى كتابٍ مادّي، وحرّف معاني آياته بحسب تأثره بأوهام المدنية الحديثة.

وقد يكون المنتصب للتفسير خرافيّ المعتقد، فيلجّد في آيات الكتاب، ويُلصق بها من الخرافات العجب العجّاب!!

والموفق من راعى تلك الأصول التي بدأنا بها هذا الفصل، فجعل اللغة بين يديه، وتفسير السلف نصب عينيه، مع معرفته بصحیحها من سقیمها؛ فإنّ القوم قد عرفوا عن الله ورسوله ما لم يعرفه غيرهم إلاّ من كان من مشرّ بهم ينهل، وقد أيّدهم الله بالتوفيق وإصابة الحقّ لما كانوا عليه من أسباب التقوى وحسن الديانة.

وكلامنا هنا مرتبط بالاستنباط أكثر منه بالتفسير، وهما - وإن كانا قريبين - إلاّ أنّ الاستنباط أخصّ، وأهله أخصّ، ولذلك فإنّ باب الاستنباط من الكتاب والسنة غير مُشرع للجميع؛ فإنّ من دخل فيما لا يحسن أفسد أكثر ممّا يتوهم أنّه يصلح، كما أنّ من دخل في غير فنّه أتى بالعجائب، وقد رأيت لابن القيم رحمه الله كلمة جامعة بين فيها اختلاف الناس في أصول تفاسيرهم، وبين أيضاً الاحترازات التي ينبغي أن يراعيها من لآخ له معنى في كتاب الله، فقال في « التبيان في أقسام القرآن » (١/ ٥٠): « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول:

- تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون.

- وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف.

- وتفسيرٌ على الإِشارة والقياس، وهو الَّذي يَنْحُو إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِأَرْبَعَةِ شَرَائِطَ:

- أَنْ لَا يُنَاقِضَ مَعْنَى الْآيَةِ.

- وَأَنْ يَكُونَ مَعْنَى صَحِيحاً فِي نَفْسِهِ.

- وَأَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظِ إِشْعَارٌ بِهِ.

- وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْنَى الْآيَةِ ارْتِبَاطٌ وَتِلَازَمٌ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ كَانَ اسْتِنْبَاطُ حَسَنًا «، وَانْظُرْ « الْمُوَافَقَاتِ » لِلشَّاطِبِيِّ (٣/ ٣٩٤).

وَهَذَا الَّذِي قَوَّاهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي حُسْنِ الْاسْتِنْبَاطِ فِي تَأْوِيلِ كَلَامِ اللَّهِ يَقُومُ عَلَى دِعَامَةِ الْفَقْهِ الدِّينِ، وَقَدْ جَمَعَهَا الرَّسُولُ ﷺ لِحَبْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ؓ فِي دُعَائِهِ لَهُ بِقَوْلِهِ: « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْلَهُ التَّأْوِيلَ » رَوَاهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٦٦) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنَ الْمَحَلِّ الْمَعْرُوفِ فِي التَّفْسِيرِ خَاصَّةً.

ثُمَّ إِنَّ لِلْاسْتِنْبَاطِ طَرُقًا شَتَّى، فَقَدْ يَعْتَمِدُ صَاحِبُهُ عَلَى التَّفَاسِيمِ وَالنَّظَائِرِ، كَأَنْ يَقُولَ: جَمَعْتُ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، أَوْ يُقَالَ: جَمَعْتُ بَيْنَ أَصُولِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، أَوْ يَقُولَ: جَمَعْتُ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ حُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ، أَوْ يَقُولَ: هِيَ عَلَى قَاعِدَةِ التَّحْذِيرِ مِنْ مَرَضِ الشُّبْهَةِ وَمَرَضِ الشَّهْوَةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْرِفُهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى الْقَوَاعِدِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُصُولِ الْجَامِعَةِ، وَقَدْ يَعْتَمِدُ الْمُسْتَنْبِطُ عَلَى قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ جَمْعاً بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَهْدَافِ الْكُلِّيَّةِ، كَمَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ

لسورة النّصر، فقد روى البخاري (٤٢٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « كان عمرُ يُدخلني مع أشياخ بذر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال: إنه ممن قد علمتم! قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، قال: وما أريته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ❶ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ❷ ﴿ (النّصر - ١ - ٢) حتى ختم السّورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا بدري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس! أكذاك تقول؟ قلت: لا! قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ❶: فتح مكة، فذاك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ❷، قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم ».

فأين يجد المرء في هذه السّورة ذكرا للأجل لولا توفيق الله لمن شاء من عباده؟! فنقول كما قال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١/٣٣٨ - العمران) في مناسبة أخرى: «فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءة لها وسماحك إياها، وهكذا سائر آيات القرآن فما أشدها من حسرة وأعظمها من غيبة على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن ولا باشر قلبه أسرارَه ومعانيه، فالله المستعان»، وقال في «مدارج السّالكين» (١/٤٣): «فالفهم عن الله ورسوله عنوان»

الصَّدِيقِيَّةَ وَمَنْشُورُ الْوَلَايَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَفِيهِ تَفَاوُتَ مَرَاتِبُ الْعُلَمَاءِ حَتَّى
عَدَّ أَلْفٌ بَوَاحِدٍ! فَانْظُرْ إِلَى فَهْمِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَدْ سَأَلَهُ عُمَرُ وَمَنْ حَضَرَ
مِنْ أَهْلِ بَدْرِ وَغَيْرِهِمْ عَنْ سُورَةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَمَا
خُصَّ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ فَهْمِهِ مِنْهَا أَنَّهَا نَعِيُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهِ إِلَى نَفْسِهِ
وَإِعْلَامُهُ بِحُضُورِ أَجَلِهِ، وَمُوَافَقَةُ عُمَرُ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَخَفَائِهِ عَنْ
غَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ، وَابْنُ عَبَّاسٍ إِذْ ذَاكَ أَحَدُهُمْ سَنًّا! وَأَيْنَ تَجِدُ فِي
هَذِهِ السُّورَةِ الْإِعْلَامَ بِأَجَلِهِ لَوْلَا الْفَهْمُ الْخَاصُّ؟! وَيَدِقُّ هَذَا حَتَّى
يَصِلَ إِلَى مَرَاتِبَ تَتَقَاصَرُ عَنْهَا أَفْهَامُ أَكْثَرِ النَّاسِ، فَيَحْتَاجُ مَعَ النَّصِّ
إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَقَعُ الْاسْتِغْنَاءُ بِالنُّصُوصِ فِي حَقِّهِ، وَأَمَّا فِي حَقِّ صَاحِبِ
الْفَهْمِ فَلَا يَحْتَاجُ مَعَ النُّصُوصِ إِلَى غَيْرِهَا.

وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَنَّ وَجْهَ ذَلِكَ كَامِنٌ فِي لَفْظِ الْاسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ الَّذِي عُلِمَ بِاسْتِقْرَاءِ نُّصُوصِ الشَّرِيعَةِ أَنَّهُ يَجِيءُ فِي
خَاتِمَةِ الْأَعْمَالِ، مَعَ مُنَاسِبَةِ إِنْهَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَظِيفَتِهِ الَّتِي أُرْسِلَ
لِتَحْقِيقِهَا، فَقَالَ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٤١٨/١٦): «وَهَذَا بَاطِنُ
الْآيَةِ الْمُوَافِقِ لظَاهِرِهَا؛ فَإِنَّهُ لَمَّا أُمِرَ بِالْاسْتِغْفَارِ عِنْدَ ظُهُورِ الدِّينِ -
وَالْاسْتِغْفَارُ يُؤْمَرُ بِهِ عِنْدَ خِتَامِ الْأَعْمَالِ، وَبِظُهُورِ الدِّينِ حَصَلَ
مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ - عَلِمُوا أَنَّهُ إِعْلَامٌ بِقُرْبِ الْأَجَلِ مَعَ أُمُورٍ أُخَرِ، وَفَوْقَ
كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ، وَالْاسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَلْزُومَاتِهِ، وَالشَّيْءُ قَدْ
يَكُونُ لَهُ لَازِمٌ، وَلِلْأَزْمَةِ لَازِمٌ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ
أَفْطَنَ بِمَعْرِفَةِ اللَّوْازِمِ مِنْ غَيْرِهِ يَسْتَدِلُّ بِالْمَلْزُومِ عَلَى اللَّازِمِ ...».

وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَمِدُ عَلَى جَمْعِ الْآيَاتِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهَا حُكْمًا خَفِيًّا لَوْ أُخِذَتْ كُلُّ آيَةٍ عَلَى حِدَةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف ١٥)، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْمُدَّةَ لِلْحَمْلِ وَالْفِصَالِ، وَالْفِصَالُ هُوَ فِطَامُ الْوَلَدِ حِينَ لَبَنَ أُمِّهِ، وَهَذَا يَكُونُ بَعْدَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ شَهْرًا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة ٢٣٣)، فَإِذَا طَرَحْنَا مُدَّةَ الْفِصَالِ مِنْ مَجْمُوعِ ثَلَاثِينَ شَهْرًا نَتَجَّ لَنَا مُدَّةُ الْحَمْلِ الَّتِي هِيَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذِهِ أَقَلُّ مُدَّةِ الْحَمْلِ، وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢/٤٩١) وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا (١٨٥٦٧) وَالْحَاكِمُ (٢/٣٠٨) وَالْبَيْهَقِيُّ (٧/٤٤٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِدَلَالَةِ مَجْمُوعِ أدَلَّةِ الْقُرْآنِ، كَمَا ذَكَرَ الْآمِدِيُّ فِي «الْإِحْكَامِ فِي أُصُولِ الْأَحْكَامِ» (٣/٧٣)، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَحْقَافِ السَّابِقَةِ بَعْدَ أَنْ نَسَبَ ذَاكَ الْاسْتِنْبَاطَ لِعَلِيِّ اللَّهِ ع: «وَهُوَ اسْتِنْبَاطٌ قَوِيٌّ صَحِيحٌ، وَوَافِقُهُ عَلَيْهِ عُثْمَانُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ»، وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «الْاسْتِذْكَارِ» (٧/٤٩٣): «لَا أَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيمَا قَالَهُ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذَا الْبَابِ فِي أَقَلِّ الْحَمْلِ، وَهُوَ أَصْلٌ وَإِجْمَاعٌ، وَفِي الْحَبْرِ بِذَلِكَ فَضِيلَةٌ كَبِيرَةٌ وَشَهَادَةٌ عَادِلَةٌ لِعَلِيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ فِي مَوْضِعِهِمَا مِنَ الْفِقْهِ فِي دِينِ اللَّهِ ﷻ وَالْمَعْرِفَةِ بِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ».

وفيه قصَّةٌ رَوَاهَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١٣٤٤٩) وَابْنُ شَبَّةٍ فِي «أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ» (١٦٩١) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ

أَخْبَرَهُ قَالَ: « إِنِّي لَصَاحِبُ الْمَرَأَةِ الَّتِي أَتَى بِهَا عُمَرُ وَضَعَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَأَنْكَرَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِعُمَرَ: لِمَ تَظْلِمُ؟ فَقَالَ: كَيْفَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: اقْرَأْ: ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾، كَمْ الْحَوْلُ؟ قُلْتُ: سَنَةٌ، قَالَ: قُلْتُ: كَمْ السَّنَّةُ؟ قَالَ: اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا، قَالَ: قُلْتُ: فَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا حَوْلَانِ كَامِلَانِ، وَيُؤَخَّرُ مِنَ الْحَمْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَيُقَدَّمُ، فَاسْتَرَحَ عُمَرُ إِلَى قَوْلِي. »

وقد وَقَعَتْ أَيْضاً بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُثْمَانَ رضي الله عنه، فَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١٣٤٤٦) وَابْنُ شُبَّةٍ فِي « أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ » (١٦٨٨) وَ(١٦٩٠) وَابْنُ جَرِيرٍ فِي « تَفْسِيرِهِ » (٤٩١/٢) وَابْنُ وَهْبٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » كَمَا فِي « التَّلْخِصِ الْحَبِيرِ » لِابْنِ حَجَرَ (٢١٩/٣) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَوْفٍ قَالَ: « رُفِعَتْ إِلَى عُثْمَانَ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَقَالَ: إِنَّهَا رُفِعَتْ إِلَيَّ امْرَأَةٌ - لَا أُرَاهُ إِلَّا قَالَ -: وَقَدْ جَاءَتْ بِشَرٍّ أَوْ نَحْوَ هَذَا، وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذَا أَمَّتَ الرِّضَاعَ كَانَ الْحَمْلُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، قَالَ وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾، فَإِذَا أَمَّتَ الرِّضَاعَ كَانَ الْحَمْلُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، » وَصَحَّحَهَا ابْنُ حَجَرَ فِي الْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ.

وَفِي لَفْظٍ رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١٣٤٤٧) وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي « سُنَنِهِ » (٢٠٧٥) وَابْنُ شُبَّةٍ (١٦٨٩) عَنْ قَائِدِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: « أَتَى

عثمانُ بامرأةٍ ولدت في سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَأَمَرَ بِرَجِّهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ادْنُونِي مِنْهُ، فَلَمَّا أَدْنَوْهُ مِنْهُ، قَالَ: إِنَّهَا إِنْ تُخَاصِمَكَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَخْصِمُكَ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، وَيَقُولُ اللَّهُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، فَقَدْ حَمَلَتْهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَهِيَ تُرْضِعُهُ لَكُمْ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ، قَالَ: فَدَعَا بِهَا عُثْمَانُ فَخَلَّى سَبِيلَهَا».

ووردت روايات أخرى فيها أن ذلك وقع بين عليٍّ وعُمَرَ (رضي الله عنهما)، أَخْرَجَهَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ (١٣٤٤٣-١٣٤٤٤) و(١٣٤٤٨) وسعيد بن منصور (٢٠٧٤) وابنُ شَبَّةَ (١٦٩٢) والبيهقي (٤٤٢/٧).

وفي أخرى أن ذلك كان بين عليٍّ وعُثْمَانَ (رضي الله عنهما)، أَخْرَجَهَا ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تفسيره» (١٨٥٦٦) وابنُ شَبَّةَ (١٦٩٣) والبيهقي (٤٤٢/٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقد يَعْتَمِدُ الْمُسْتَنْبِطُ عَلَى النَّظَرِ فِي السِّيَاقِ وَالسَّبَاقِ، وَكَانَ هَذَا النُّوعُ أَيْضاً مَعْرُوفاً عِنْدَ السَّلَفِ؛ فَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ (٥٩٨٨) عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ كَيْفَ يَقْرَأُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَلْيَسْأَلْهُ عَمَّا قَبْلَهَا»، وَهُوَ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَقَدْ صَحَّحُوهَا كَمَا فِي «شَرْحِ عِلَلِ التِّرْمِذِيِّ» لِابْنِ رَجَبٍ (٥٥٦/١)، وَرَوَى أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٣٧٧) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٣٥٥٨٨) وَأَبُو نُعَيْمٍ (٢٩٢/٢) عَنْ مُسْلِمٍ بْنِ يَسَارٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «إِذَا حَدَّثْتَ عَنْ اللَّهِ

حَدِيثًا، فَقِفْ حَتَّى تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ .

وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَفْهَمَهُ فَهْمًا غَلَطًا، بَلْ جُلُّ الْبِدْعِ ظَهَرَ بِسَبَبِ الْأَخْذِ بِبَعْضِ الْآيَاتِ وَإِغْفَالِ الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَمِثَالُهُ مَا فِي قِصَّةِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ فَارَقُوا الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أَفْهَمُ لِكِتَابِ اللَّهِ مِنْهُمْ، فَأَخَذُوا بِبَعْضِ الْآيَاتِ الَّتِي ظَاهَرُهَا التَّكْفِيرُ بِالْكَبِيرَةِ وَعَزَلُوهَا عَنْ أَخَوَاتِهَا الْأُخْرَى، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا خَطَأً قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (المائدة ٣٧) عَلَى أَنَّ ذَلِكَ فِي حَقِّ كُلِّ مَنْ دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، فَفِي «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ يَزِيدَ بْنِ صُهَيْبٍ الْفَقِيرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)، قَالَ: فَقُلْتُ لَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: يَقُولُ اللَّهُ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾! قَالَ: أَتُلُّ أَوَّلَ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الْآيَةَ (المائدة ٣٦)، أَلَا إِنَّهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا»، أَيْ إِنَّ أَوَّلَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا بَعْدَهَا - الَّذِي هُوَ الْخُلُودُ فِي النَّارِ - خَاصٌّ بِالْكَفَّارِ.

أمثلة من التفسير الإشاري المنحرف:

أمّا التفسيرُ الإشاري الذي جاء في كلام ابن القيم السابق، فقد اشتهر به الصوفية، ومنه ما هو صحيح، وهو ما اشتمل على ما ذكره رحمته الله، ومنه ما هو تحريفٌ محضٌ لكتاب الله ولعبٌ بألفاظ الدين وتقول على الله بغير علم، كاستنباط بعضهم من قصة موسى مع الخضر عليه السلام أنه يسعُ الأولياء الصالحين الخروج عن دين الأنبياء عليهم السلام!! أو القول بأن للقرآن ظهراً وبطناً، ويمثل أهل هذا الاتجاه لهذه الضلالة بقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ (الحج ٢٦)؛ فقد قالوا: ظاهرُ الآية دالٌّ على الكعبة، وباطنُها دالٌّ على قلب المؤمن الذي أكرمه الله وجعله محلَّ معرفته!! قال أبو بكر بن العربي رحمته الله في «قانون التأويل» (ص ٥٣٩-٥٤٠) بعد أن بيّن المراد بالبيت في الآية وردَّ على من قال: لا حظٌّ للكعبة في تفسير البيت، قال: «ولو هُديت لهذا الفرقة الضالة من الشيعة والباطنية لما كانت عن سبيل الحق ناكبةً وقالت: إنَّ المراد بقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ القلب ولا حظٌّ للكعبة فيه!! ولكنَّه كما أخبر تعالى عنه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة ٢٦)».

وقال الشاطبي رحمته الله في «الموافقات» (٣/ ٤٠١) فيما انتقده على بعضهم: «ومن ذلك أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ٩٦) الآية: باطنُ البيت قلبُ محمد صلى الله عليه وآله يؤمنُ به من أثبت الله في قلبه التوحيد واقتدى بهديته!! وهذا التفسير يحتاج إلى

بيان؛ فإن هذا المعنى لا تعرفه العرب، ولا فيه من جهتها وضع مجازي مناسب، ولا يلائمه مساق الحال، فكيف هذا؟! والعذر عنه أنه لم يقع فيه ما يدل على أنه تفسير للقرآن، فرأى الإشكال إذاً، وبقي النظر في هذه الدعوى، ولا بد - إن شاء الله - من بيانها، وقال أيضاً (٣/ ٤٠٢-٤٠٣): « ونُقل في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ ﴾ (طه ١٢) أن باطن النعلين هو الكونان: الدنيا والآخرة، فذكر عن الشبلي أن معنى ﴿ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ ﴾ اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية، وعن ابن عطاء: ﴿ فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ ﴾ عن الكون فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب، وقال: النعل: النفس، والوادي المقدس: دين المرء، أي حان وقت خلوك من نفسك والقيام معنا بدينك، وقيل غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف، وهذا كله إن صح نقله خارج عما تفهمه العرب، ودعوى ما لا دليل عليه في مراد الله بكلامه، ولقد قال الصديق: أي سماء تطلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟! وفي الخبر: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)^(١)، وما أشبه ذلك من التحذيرات.

وقال ابن حجر رحمته الله في « فتح الباري » (٦/ ٤١٢) في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ (البقرة ٢٦٠) قال: « وحكى ابن التين عن بعض من لا تحصيل عنده أنه أراد بقوله: ﴿ قُلُوبِي ﴾ رجلاً

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٢) والترمذي (٢٩٥٢) بإسناد ضعفه فيها الألباني.

صالحاً كَانَ يَصْحَبُهُ سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ!! وَأَبْعَدُ مِنْهُ مَا حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ
الْمُفَسِّرُ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّهُ سَأَلَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُجِيبِي
الْقُلُوبَ!!!».

وَأَضَلُّ مِنْهُمْ سَعِيًّا وَأَسْوَأُ مِنْهُمْ هَدِيًّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيْسَ
آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ، فَلَمَّا تَلَّى عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ
رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿
(الأحزاب ٤٠)، ذَهَبَ يَفْسِّرُ كَلِمَةَ (خَاتَمَ) هُنَا بِخَاتَمِ الزَّيْنَةِ، أَيِ إِنَّهُ ﷺ
زَيْنَةُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا أَنَّ الْخَاتَمَ الَّذِي يُلْبَسُ هُوَ زَيْنَةُ أَصَابِعِ الْيَدِ!!

وَكَذَا مَنْ فَسَّرَ بَقَرَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعَائِشَةَ ؓ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِ
اللَّهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بِقَرَّةٍ﴾ (البقرة
٦٧)!! فَأَيُّ عَقْلِ يَقْبَلُ هَذِهِ السَّخَافَةَ الرَّافِضِيَّةَ؟! وَأَيْنَ كَانَتْ عَائِشَةُ
ؓ يَوْمَ خَاطَبَ مُوسَىٰ ﷺ قَوْمَهُ بِهَذَا؟! وَمَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (الرحمن ١٩) بِعَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ ؓ!! وَقَوْلَهُ ﷻ: ﴿
مَخْرُجٌ مِّنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن ٢٢) بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ
ؓ!! وَمَنْ فَسَّرَ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾: بِفَاطِمَةَ ؓ!!
وَقَوْلَهُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ بِالْحَسَنِ ﷺ!! وَقَوْلَهُ: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ﴾ بِالْحُسَيْنِ ﷺ!! وَمَنْ فَسَّرَ النُّورَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (النور ٣٥) بِأَتَمَّةِ الشَّيْعَةِ الرَّوَافِضِ، فَقَالَ: «يَهْدِي
اللَّهُ لِلْأَتَمَّةِ مَنْ يَشَاءُ»!!! وَانْظُرْ لِهَذِهِ الْعَجَائِبِ كِتَابَ «الْأُصُولِ مِنَ
الْكَافِي» لِلْكَلِينِي (١/ ١٩٤) الَّذِي قِيلَ عَنْهُ: إِنَّهُ لِلشَّيْعَةِ الرَّوَافِضِ

كصحيح البخاري لأهل السُّنة، وقارنَ بينهما كما تُقارن بين الهدى والضلال لتعرف نعمة السُّنة عليك! بل قارنَ بينهما كما تُقارن بين العقل والجنون لتعرف نعمة العقل عليك! وحينما تقرأ هذه التُّرَّهاتِ، فإنَّكَ لا تدري: أأنتَ تقرأ القرآنَ العربيَّ المُبِين بِلُغَتِهِ، أم تقرأه بِلُغَةٍ لم تُدرِّسَ لا عندَ الجنِّ ولا عندَ الإنس!! قال الشَّاطبي في «الموافقات» (٣/ ٣٩١-٣٩٢): «كُلُّ معنى مُستنبطٍ من القرآن غير جارٍ على اللِّسانِ العربيِّ فليس من علوم القرآن في شيء، لا ممَّا يُستفادُ منه، ولا ممَّا يُستفادُ به، ومن ادَّعى فيه ذلك فهو في دَعواه مُبطلٌ...

ومن أمثلة هذا الفصل ما ادَّعاه من لا خلاق له من أنَّه مُسمَّى في القرآن»، وكان ممَّا مثَّل له أن قال ﷺ: «وحكى بعض العلماء أن عبید الله الشَّيعيَّ المسمَّى بالمهدي حين ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة يتصرُّ بهما على أمره، وكان أحدهما يسمَّى بنصر الله، والآخر بالفتح، فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله في كتابه، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ❀!!! قالوا: وقد كان غمِلَ ذلك في آياتٍ من كتاب الله تعالى، فبدَّل قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ❀ (آل عمران ١١٠)، بقوله: (كتامة خير أمة أُخْرِجَتْ للناس)!!! ومن كان في عقله لا يقول مثل هذا؛ لأنَّ المُتسمِّين بنصر الله والفتح المذكورين إنَّما وُجدا بعد مِئين من السنين من وفاة رسول الله ﷺ، فيصير المعنى: إذا متَّ يا محمَّد! ثمَّ خلق هذان، ورأيت النَّاسَ يَدْخُلُونَ في دين الله أفواجا فسبَّح، الآية! فأبي تناقضٍ وراء

هَذَا الْإِفْكُ الَّذِي افْتَرَاهُ الشَّيْعِيُّ؟! قَاتِلَهُ اللَّهُ!». وَمَا تَرَكْتُهُ أَكْثَرُ مِمَّا مَثَلْتُ بِهِ، وَكُلُّ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَى هَذِهِ السَّخَافَاتِ مِنْ أَيِّ دِينٍ كَانَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى سَلَامَتِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي دِينٍ كَهَذَا، بَلْ لَنْ تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ أَبَدًا بِالْأَلِيفَاتِ إِلَى كِتَابٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي لَنْ تَكُونَ إِلَى هِدَايَةِ النَّاسِ بِسَبِيلٍ.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

اشْتِمَالُهَا عَلَى شِفَاءِ الْقُلُوبِ وَشِفَاءِ الْأَبْدَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾.

خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا لَتَقْوَى صَلْتُهُ بِالْقَوِيِّ الْمَتِينِ سُبْحَانَهُ، فَيَطْلُبُهُ عِنْدَ الضَّعْفِ، وَيَسْتَعِينُ بِهِ عِنْدَ الْعَجْزِ، وَيَسْتَبِينُ بِهِ الطَّرِيقَ عِنْدَ التَّيْسِ، بَلْ يَذْكُرُهُ فِي رَخَائِهِ كَمَا يَذْكُرُهُ فِي شِدَّتِهِ وَحَاجَتِهِ، وَكَانَ مِنْ ضَعْفِ الْإِنْسَانِ انْزِعَاجُ قَلْبِهِ وَاضْطِرَابُهُ وَوَحْشَتُهُ، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ الطَّمَأْنِينَةَ وَالسَّكِينَةَ وَرَاحَةَ النَّفْسِ، كَمَا قَالَ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ⑧ (الرعد ٢٨)، وَالْقُرْآنُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ⑨ (الأنبياء ٥٠)، بَلْ هُوَ أَصْلُ الذِّكْرِ، وَلِذَلِكَ ذَكَرَهُ اللَّهُ مَعْرَفًا بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ⑩ (الحجر ٩).

وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ اللَّهِ شِفَاءً لِلْقُلُوبِ، وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَصْلَ الذِّكْرِ وَأَفْضَلَهُ، جَعَلَ اللَّهُ ﷻ الْقُرْآنَ كُلَّهُ شِفَاءً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ⑪ (الإسراء ٨٢)، وَ(مِنْ) هُنَا لِلْجِنْسِ وَلَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ، قَالَه

ابن الجوزي في « مُتَخَبِ قَرَّةِ الْعُيُونِ النَّوَظِرِ فِي الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ »
عند كَلَامِهِ على كَلِمَةِ (من)، وَقَالَ ابنُ الْقَيْمِ في « زَادَ الْمَعَادَ »
(١٧٧ / ٤): « وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ بَعْضَ الْكَلَامِ لَهُ خَوَاصٌّ وَمَنَافِعٌ مَجْرَبَةٌ،
فَمَا الظَّنُّ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي فَضَّلَهُ عَلَى كُلِّ كَلَامٍ كَفَضَلَ اللَّهُ عَلَى
خَلْقِهِ، الَّذِي هُوَ الشِّفَاءُ التَّامُّ وَالْعِصْمَةُ النَّافِعَةُ وَالنُّورُ الْهَادِي وَالرَّحْمَةُ
الْعَامَّةُ، الَّذِي لَوْ أُنْزِلَ عَلَى جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالَتِهِ، قَالَ
تَعَالَى: ﴿ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ
الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء ٨٢)، و (من) ههنا لبيان الجنس لا
للتبعض، هذا أصحُّ القولين «؛ لأنَّ القرآنَ كلُّهُ شِفَاءٌ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ
ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ (فصلت ٤٤)، وقوله:
﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس ٥٧).

أنواع الأمراض:

قَالَ ابنُ الْقَيْمِ في « زَادَ الْمَعَادَ » (٤ / ٥ - ٧): « الْمَرَضُ نَوْعَانِ:
مَرَضُ الْقُلُوبِ، وَمَرَضُ الْأَبْدَانِ، وَهُمَا مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ.
وَمَرَضُ الْقُلُوبِ نَوْعَانِ: مَرَضٌ شُبْهَةٌ وَشَكٌّ، وَمَرَضٌ شَهْوَةٌ
وَعِْيٌّ، وَكِلَاهُمَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى فِي مَرَضِ الشُّبْهَةِ: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة ١٠)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ (المدثر ٣١)، وَقَالَ
تَعَالَى فِي حَقِّ مَنْ دُعِيَ إِلَى تَحْكِيمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَأَبَى وَأَعْرَضَ: ﴿ وَإِذَا

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ هُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾
(النور: ٤٨-٥٠)، فهذا مرضُ الشُّبهاتِ والشُّكوكِ.

وأما مرضُ الشَّهواتِ، فقال تعالى: ﴿يَنْبِسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب: ٣٢)...

فأما طِبُّ القلوبِ فمُسَلَّمٌ إلى الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا سَبِيلَ إلى حُصُولِهِ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِمْ وَعَلَى أَيْدِيهِمْ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ القلوبِ أَنْ تَكُونَ عَارِفَةً بِرَبِّهَا وَفَاطِرِهَا، وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَأَنْ تَكُونَ مُؤَثَّرَةً لِمَرْضَاتِهِ وَمَحَابِّهِ، مُتَجَنِّبَةً لِمَنَاهِيهِ وَمَسَاخِطِهِ، وَلَا صَحَّةَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ الْبَتَّةِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَا سَبِيلَ إلى تَلْقَائِهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ، وَمَا يُظَنُّ مِنْ حُصُولِ صَحَّةِ الْقَلْبِ بِدُونِ اتِّبَاعِهِمْ فغلطٌ مِّمَّنْ يَظُنُّ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ حَيَاةُ نَفْسِهِ الْبَهِيمِيَّةِ الشَّهَوَانِيَّةِ وَصَحَّتْهَا وَقَوَّتْهَا، وَحَيَاةُ قَلْبِهِ وَصَحَّتْهُ وَقَوَّتْهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَعزِلٍ، وَمَنْ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَلْيَبِكْ عَلَى حَيَاةِ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ، وَعَلَى نُورِهِ؛ فَإِنَّهُ مُنْغَمَسٌ فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ «.

شِفَاءُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ لِلْقُلُوبِ:

بعد أن عَرَفْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الشِّفَاءَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ كُلِّهِ، فَلْيُعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَصَّ سُورَةً وَأَيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ بِزِيَادَةٍ فِي خَاصِّيَةِ الشِّفَاءِ

والتأثير، منها سورة الفاتحة، فقد ذكر الله فيها المنعم عليهم أصحاب الصراط المستقيم الذين عرفوا الحق وعملوا به، وقابلهم بمن انحرف عن ذلك، وهم أمتان: اليهود الذين عرفوا الحق وتركوا العمل به بسبب مرض الشهوات خاصة وإن كانوا لا يسلمون من الشبهات، والنصارى الذين ضلوا عن معرفة الحق بسبب الشبهات خاصة وإن كانوا لا يسلمون من الشهوات، قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (١/ ٥٢-٥٥): «فأما اشتغالها على شفاء القلوب، فإنها اشتملت عليه أتم اشتغال؛ فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصليْن: فساد العلم، وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد وأوجه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة؛ لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه...».

وقال في «زاد المعاد» (٤/ ١٧٨): «وبالجُملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه والاستعانة به والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية، وقد قيل: إن موضع الرقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»،

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ مِنْ أَقْوَى أَجْزَاءِ هَذَا الدَّوَاءِ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا مِنْ عُمُومِ التَّفْوِیْضِ وَالتَّوَكُّلِ وَالتَّجَوُّزِ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالِافْتِقَارِ وَالطَّلَبِ.

ثُمَّ أَجْمَلَ هَذَا فِي كَلِمَةٍ جَامِعَةٍ نَافِعَةٍ، فَبَيَّنَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى: «الْجَمْعِ بَيْنَ أَعْلَى الْغَايَاتِ وَهِيَ عِبَادَةُ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وَأَشْرَفِ الْوَسَائِلِ وَهِيَ الْاسْتِعَانَةُ بِهِ عَلَى عِبَادَتِهِ...»، وَقَدْ فَصَّلَ ﷺ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ مِنْ كِتَابِهِ «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» فَقَالَ: «وَلَا شِفَاءَ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِدَوَاءِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾... فَإِذَا رَكَّبَهَا الطَّبِيبُ اللَّطِيفُ الْعَالِمُ بِالْمَرَضِ وَاسْتَعْمَلَهَا الْمَرِیْضُ حَصَلَ بِهَا الشِّفَاءُ التَّامُّ، وَمَا نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ فَهُوَ لِفَوَاتِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا أَوْ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْزُضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامِيًا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بَدَّ، وَهُمَا الرِّيَاءُ وَالْكِبَرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَدَوَاءُ الْكِبَرِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبَرِيَاءَ، فَإِذَا عُوفِيَ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَمِنْ مَرَضِ الْكِبَرِيَاءِ وَالْعُجْبِ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَمِنْ مَرَضِ الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ بـ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، عُوفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ وَرَفَلَ فِي أَثْوَابِ الْعَافِيَةِ وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْقَصْدِ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ

وعَدَلُوا عنه، والضَّالِّينَ وَهُمْ أَهْلُ فَسَادِ الْعِلْمِ الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَحَقَّ لِسُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى هَذَيْنِ الشِّفَاءَيْنِ أَنْ يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَلِهَذَا لَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَى هَذَا الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الشِّفَاءَيْنِ كَانَ حُصُولُ الشِّفَاءِ الْأَدْنَى بِهَا أَوْلَى، كَمَا سَنُبَيِّنُهُ فَلَا شَيْءَ أَشْفَى لِلْقُلُوبِ الَّتِي عَقَلَتْ عَنْ اللَّهِ وَكَلَامِهِ، وَفَهِمَتْ عَنْهُ فَهْمًا خَاصًّا اخْتَصَّهَا بِهِ مِنْ مَعَانِي هَذِهِ السُّورَةِ».

شِفَاءُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ لِلْأَبْدَانِ:

جَرَى كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَثِّرِينَ بِالْتِمَدُّنِ الْمُقَلِّينَ مِنْ مُطَالَعَةِ كُتُبِ السَّلَفِ عَلَى إِنْكَارِ مُعَالَجَةِ الْبَدَنِ بِالْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ الْمَسْنُونَةِ؛ تَوَهُّمًا مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ ضَرْبٌ مِنَ الْخُرَافَةِ، وَأَنَّ فِيهِ تَشْجِيعًا عَلَى الْخُمُولِ وَالرُّكُونِ إِلَى الْكُهْنَةِ وَأَشْكَالِهِمْ مِنَ الْإِنْتِهَازِيِّينَ، وَنَظَرًا لِقَلَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِالسُّنَّةِ وَجُرْأَتِهِمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِاسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ ظَنُّوا أَنَّ الْأَمْرَاضَ الْحَسِّيَّةَ لَا تُدَاوَى إِلَّا بِالْأَدْوِيَةِ الْحَسِّيَّةِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَى الْاسْتِشْفَاءِ الْحَسِّيِّ بِالْفَاتِحَةِ، فَذَكَرَ حُكْمَهُ وَدَلِيلَهُ بِهَا لَا مَرَدَّ لَهُ، فَقَالَ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/٥٥): «وَأَمَّا تَضَمُّنُهَا لِشِفَاءِ الْأَبْدَانِ فَنَذَكُرُ مِنْهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ وَمَا شَهِدَتْ بِهِ قَوَاعِدُ الطَّبِّ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ التَّجَرِبَةُ، فَأَمَّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ، فَفِي الصَّحِيحِ^(١) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِحَيٍّ مِنَ الْعَرَبِ، فَلَمْ يَقْرُوهُمْ وَلَمْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٢٧٦) وَمُسْلِمٌ (٢٢٠١).

يُضَيِّقُوهُمْ، فَلَدَغَ سَيِّدُ الْحَيِّ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ رُقِيَّةٍ أَوْ هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ! وَلَكِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُؤُوا، فَلَا نَفْعَ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعَلًا، فَجَعَلُوا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ، فَجَعَلَ رَجُلٌ مِّنَّا يَقْرَأُ عَلَيْهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَقَامَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلْبَةٌ^(١)، فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْنَاهُ فَذَكَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟! كُلُّوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ، فَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ حُصُولَ شِفَاءِ هَذَا اللَّدِيغِ بِقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ عَلَيْهِ، فَأَغْتَنَتْهُ عَنِ الدَّوَاءِ، وَرَبَّمَا بَلَغَتْ مِنْ شِفَائِهِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ الدَّوَاءُ، هَذَا مَعَ كَوْنِ الْمَحَلِّ غَيْرِ قَابِلٍ؛ إِمَّا لَكَوْنِ هَؤُلَاءِ الْحَيِّ غَيْرِ مُسْلِمِينَ أَوْ أَهْلِ بُخْلِ وَلُؤْمٍ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْمَحَلُّ قَابِلًا؟!».

فَهَذَا صَرِيحٌ فِي التَّدَاوِي بِالْقُرْآنِ لِدَاءِ حَسِّيِّ بَحْتٍ، أَلَا وَهُوَ لَدَغَةُ الْعَقْرَبِ، كَمَا أَنَّ التَّجَارِبَ شَهِدَتْ بِصِدْقِهِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَيْضًا (١/٥٧-٥٨): «وَأَمَّا شَهَادَةُ التَّجَارِبِ بِذَلِكَ، فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا مِنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِي وَفِي غَيْرِي أُمُورًا عَجِيبَةً، وَلَا سِوَا مَدَّةِ الْمَقَامِ بِمَكَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَعْزُضُ لِي أَلَامٌ مُزْعِجٌ بَحِيثٌ تَكَادُ تَقْطَعُ الْحَرَكَةَ مِنِّي، وَذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الطَّوَافِ وَغَيْرِهِ، فَأُبَادِرُ إِلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ وَأَمْسَحُ بِهَا عَلَى مَحَلِّ الْأَلَمِ، فَكَأَنَّهُ حَصَاةٌ تَسْقُطُ! جَرَّبْتُ ذَلِكَ مِرَارًا عَدِيدَةً».

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١٠/٢١٠): «مَا بِهِ قَلْبَةٌ: بَفَتْحِ اللَّامِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةً، أَيِ مَا بِهِ أَلَمٌ يُقَلَّبُ لِأَجْلِهِ عَلَى الْفِرَاشِ، وَقِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ الْقَلَابِ بِضَمِّ الْقَافِ، وَهُوَ دَاءٌ يَأْخُذُ الْبَعِيرَ فَيُمْسِكُ عَلَى قَلْبِهِ فَيَمُوتُ مِنْ يَوْمِهِ».

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مُنَاسِبَةُ مَطْلَعِهَا خَاتِمَتُهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَطْلَعِهَا: ﴿الَّذِينَ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ (البقرة ١- ٢)، وَقَالَ فِي خَاتِمَتِهَا حَاكِياً دُعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة ٢٨٦).

مَطْلَعُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَدِيثٌ عَنِ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتِمَتُهَا حَدِيثٌ عَنِ النَّصْرِ الْمُبِينِ، وَبَيْنَ التَّقْوَى وَالنَّصْرِ كَمَا بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ؛ لِأَنَّ الْمُتَّقِينَ هُمُ أَهْلُ النَّصْرِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: بِتَقْوَى اللَّهِ تُنصَرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! وَلِهَذَا الْحُكْمُ نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة ١٩٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ (النحل ١٢٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٩﴾ (الجنات ١٩)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨﴾ (فصلت ١٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ (هود ٤٩)، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾ (الأعراف ١٢٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾ (طه ١٣٢)، كُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَنْصُرُ صَرَاحَةً عَلَى أَنَّ النَّصْرَ مَقْرُونٌ بِالتَّقْوَى، مَعَ ذَلِكَ يَأْتِي الْمُتَعَجِّلُونَ مُغْمَضِي الْأَعْيُنِ عَنْهَا بَاحِثِينَ عَنِ النَّصْرِ فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ لغيرِ اللَّهِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، كَمَا

لَا يَجُوزُ إلْغَاءُ مَا شَرَطَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، فَكَيْفَ إِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ النُّصُوصُ كُلُّهَا عِنْدَ مَنْ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ ﷺ وَمَلَأَ قُلُوبَهُمُ الْيَقِينَ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ؟! فكم من عاجزٍ عن تَرْبِيَةِ النَّاسِ عَلَى التَّقْوَى مُسْتَعِجِلٍ بِالْحَدِيثِ الطَّوِيلِ وَالْعَرِيضِ عَنِ الْجِهَادِ وَالنَّصْرِ، كَانَتْ نَهَايَتُهُ هِيَ نَهَايَةُ مَنْ قِيلَ فِيهِ: مَنْ اسْتَعْجَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ، عُوقِبَ بِحِرْمَانِهِ.

ثُمَّ فَصَّلَ اللَّهُ الْكَلَامَ عَنِ التَّقْوَى فِيمَا بَيْنَ الْمَطْلَعِ وَالْمُنْتَهَى مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ؛ فَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي بَهَا تُنَالُ دَرَجَةُ التَّقْوَى: مِنَ الْمُعْتَقَدِ السَّلِيمِ، وَأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ، وَأَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ مِنْ أَخْلَاقٍ وَبُيُوعٍ وَأَحْكَامِ نِكَاحٍ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَغَيْرِهَا، وَقَدْ جَمَعَهَا اللَّهُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ جَامِعَةٍ مِنْهَا وَنَصَّ فِي آخِرِهَا عَلَى أَنَّهَا صِفَاتُ الْمُتَّقِينَ، فَقَالَ: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة ١٧٧)، وَإِذَا تَدَبَّرْتَ كُلَّ مَقْطَعٍ مِنْ مَقَاطِعِ السُّورَةِ وَجَدْتَ اللَّهَ يَحْتِمُهُ غَالِبًا بِالتَّنْوِيهِ بِالتَّقْوَى، وَقَدْ يُنَوِّهُ بِهَا عَلَى رَأْسِهِ، وَقَدْ يَجْمَعُ بَيْنَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي أَكْثَرِهَا، فَأَوَّلُ آيَةٍ فِيهَا - بَلْ فِي الْمُصْحَفِ كُلِّهِ عَلَى تَرْتِيبِهِ - أَمَرَ

الله فيها بالتوحيد نجد الله ختمها بالتقوى، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
 أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة
 ٢١)، وقد وصف في بداية السورة المتقين بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة،
 كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢-٣)، وختم آيات الصيام بالتقوى
 فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِّلنَّاسِ
 لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٨٧)، وختم آيات الحج بها فقال:
 ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ
 تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
 ﴾ (البقرة ٢٠٣)، وختم آيات القصاص بها فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي
 الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٩)،
 وختم آية الأهلّة بها فقال: ﴿وَٱتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة ١٨٩)،
 وختم آية الجهاد بها فقال: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا
 عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ
 ﴾ (البقرة ١٩٤)، وختم آيات الطلاق بها فقال: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَنِعٌ
 بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢٤١)، وختم آيات الرّبا
 بها فقال: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة ٢٨١)، وختم آية
 الدين بها فقال: ﴿وَٱتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
 ﴾ (البقرة ٢٨٢) وكذا الآية التي بعدها.

هذا، وقد قصّ الله علينا في السورة قصصاً كثيراً بينَ فيه أثر

التقصير في تقوى الله في حرمان النصر، كما هو شأن بني إسرائيل الذين أخذت قصتهم حيزاً كبيراً من هذه السورة، فكان ممّا قصّه الله علينا في هذه السورة أنّه كَبَتَ عدوّهم ويسّر لهم العودة إلى قريتهم بعد التّيه، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة ٥٨)، أي أمرهم مُقابل ذلك بدخول القرية سُجَّدًا سُكْرًا له سُبحانه، وبأن يقولوا حِطَّة: أي احطط عنا خطايانا، وفي هذا إصلاحٌ للفعل والقول، قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: «وحاصل الأمر أنّهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ٣» (النصر ١-٣)، فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباسٍ بأنّه نُعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها وأقرّه على ذلك عمر رضي الله عنه، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونُعي إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوعُ جدّاً عند النصر، كما روي أنّه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا وإنّه لخاضعٌ لربه حتّى

إِنَّ عُنُونَهُ لِيَمْسُ مَوْرَكَ رَحْلِهِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ ^(١)، ثُمَّ لَمَّا دَخَلَ الْبَلَدَ
 اغْتَسَلَ وَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ وَذَلِكَ ضُحَى ^(٢)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ
 صَلَاةُ الضُّحَى، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ صَلَاةُ الْفَتْحِ، فَاسْتَحَبُّوا لِلْإِمَامِ
 وَلِلْأَمِيرِ إِذَا فَتَحَ بَلَدًا أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ عِنْدَ أَوَّلِ دُخُولِهِ كَمَا
 فَعَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا دَخَلَ إِيوَانَ كَسْرَى صَلَّى فِيهِ ثَمَانِي
 رَكَعَاتٍ «، وَيُرِيدُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ عِنْدَ النَّعْمِ بِالتَّسْبِيحِ، وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِيهِ
 الصَّلَاةُ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا التَّسْبِيحُ كَمَا نَقَلَهُ الْمَفْسَّرُونَ عَنْ
 بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ فَسَّرَ بِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
 ﴿١٤٣﴾﴾ (الصفات ١٤٣)، وَفِي السُّنَّةِ قَوْلُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ
 عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يُؤَخَّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مِيقَاتِهَا وَيَخْتَفُونَهَا إِلَى شَرْقِ الْمَوْتَى،
 فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِمِيقَاتِهَا وَاجْعَلُوا
 صَلَاتَكُمْ مَعَهُمْ سُبْحَةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ كَمَا أَمَرَ بَنُو
 إِسْرَائِيلَ هُنَا بِالسُّجُودِ، أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُورَةِ النَّصْرِ بِالتَّسْبِيحِ الَّذِي
 مِنْهُ الصَّلَاةُ، وَكَمَا أَمَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هُنَا بِسُؤَالِ حَطِّ الْخَطَايَا، أَمَرَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُورَةِ النَّصْرِ بِالِاسْتِعْفَارِ، وَالْمُنَاسَبَةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ فَتْحُ الْبِلَادِ مِنْ
 يَدِ الْعَدُوِّ وَالتَّمَكُّنُ مِنْ دُخُولِهَا، وَهَذَا مِنْ عَجِيبِ النَّظَائِرِ الَّتِي اهْتَدَى
 إِلَيْهَا ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَمَرُوا بِالشُّكْرِ بِالْفِعْلِ

(١) ضَعَّفَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «فَقْهِ السَّيْرَةِ» (ص ٤١٢) وَالشَّيْخُ مُقْبِلُ الْوَادِعِيِّ فِي

تَعْلِيْقِهِ عَلَى «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ» (١/ ١٨٧).

(٢) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

والقول، لكن بدلوا الفعل بغير الفعل، والقول بغير القول، كما نبّه عليه أيضاً ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٠٤) والمباركفوري في «تحفة الأحوذى» (٧/ ٢٣٤)، فأما الفعل فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مؤخرتهم، وأما القول فبدلاً من أن يسألوا ربهم أن يحطّ عنهم خطاياهم فقد قالوا باستهزاء: حنطة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل: ﴿وَادْخُلُوا آلَ الْبَابِ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾، فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شجرة!!»، قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (البقرة ٥٩).

والحاصل أن الله أخبرنا في هذه السورة - سورة البقرة - أنه أمر بني إسرائيل بتقواه فقال: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونِ﴾ (البقرة ٤١)، وكان من ذلك الشكر بالقول والفعل فخالفوا فجنوا الخذلان والعذاب، كما قص الله علينا قصة طالوت وجالوت لما فيها من عبرة لكل من استعجل النصر ولم يكن من أهل التقوى؛ لأنهم طلبوا القتال فنهاهم نبيهم عنه بسبب ضعفهم، فلما أصرّوا على ذلك أراهم الله من أنفسهم المخالفة للأوامر وعدم الثبات عند اللقاء إلا لفئة قليلة منهم وهم المؤمنون المتقون، كما قال سبحانه: ﴿فَشَرِّبُوا مِنهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوديه قال الذين يظنون أنهم ملقوا الله كم من فئة قليلة

غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿ (البقرة ٢٤٩)، وَلَمَّا كَانَ مَوْضُوعُ الطَّلَاقِ
مِمَّا تَشَحُّ فِيهِ النَّفُوسُ وَتَنْزَعُ إِلَى الْإِنْتِقَامِ وَالْإِعْتِدَاءِ فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ
التَّقْوَى قَدْ تَخَلَّلَهُ خَمْسَ مَرَّاتٍ.

وَالْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ بَسَطْتُ الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ
بَيَانُ أَنَّهَا حِينَ ابْتَدَأْتُ بِذِكْرِ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ وَخُتِمَتْ بِالْإِعْدَاءِ بِالنَّصْرِ
أَنَّ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلنَّصْرِ هُمْ أَهْلُ التَّقْوَى، وَتَخَلَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ تَفْصِيلُ
أَحْوَالِ الْمُتَّقِينَ وَتَعْرِيفُ بِطَرِيقِهِمْ لَتُسَلِّكَ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ
هَذَا بَدَأَ اللَّهُ السُّورَةَ بِالتَّوْبَةِ بِكِتَابِهِ، فَقَالَ: ﴿ ذَلِكَ أَلْكَتُبَ لَا رَيْبَ
فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؛ لِأَنَّهُ حَوَى بَيَانَ أَسْبَابِ التَّقْوَى، لَا سِوَا
وَأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَرْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِهِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَامِرِ بْنِ
وَإِلَّةِ « أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَكَانَ عُمَرُ
يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنُ
أَبَزَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبَزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ
عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ،
قَالَ عُمَرُ: أَمَّا إِنْ نَبِّئَكُمْ ﷻ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا
وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ ».

وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا أَشَارَ اللَّهُ إِلَى كِتَابِهِ هُنَا بِلَفْظِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ
عَلَى الْبُعْدِ، وَهُوَ: ﴿ ذَلِكَ ﴾، قَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي « تَفْسِيرِهِ » (١/ ٢٤):
« وَمَعْنَى الْبُعْدِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْإِشْعَارِ بِعُلُوِّ شَأْنِهِ، وَالْمَعْنَى: ذَلِكَ الْكِتَابُ
الْعَجِيبُ الشَّأْنِ الْبَالِغُ أَقْصَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ »، وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ إِنَّمَا

رَفَعَهُمُ اللَّهُ بِتَقْوَاهُمْ جَاءَ التَّنْصِيفُ عَلَى رِفْعَتِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ بِذَلِكَ فِي
السُّورَةِ نَفْسِهَا، فَقَالَ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (البقرة ٢١٢)، وفي
المَبْحَثِ الَّذِي يَلِي هَذَا بَيَانُ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُنْصَرُّ بِهَا الْكِتَابُ الْكَرِيمُ لِنَيْلِ
التَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

مُجَاهِدَةٌ مُخَالِفِي الْقُرْآنِ عَلَى تَنْزِيلِهِ وَعَلَى تَأْوِيلِهِ

أُرِيدُ أَنْ أُنبِّهَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى بَعْضِ الْفَوَائِدِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَجَلَّ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: نَوَّهَ اللَّهُ بِشَأْنِ كِتَابِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً، وَبَيَّنَ مَا فِيهِ مِنْ هِدَايَةٍ لِلْبَشَرِيَّةِ وَإِسْعَادٍ لِحَيَاتِهِمْ فِي الْحَالِ، وَمَا يَوْوُلُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ كَرَامَةٍ وَحُسْنِ مَالٍ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ افْتَتَحَ السُّورَةَ بِذِكْرِ كِتَابِهِ الْمُنَزَّلِ، فَقَالَ: ﴿الْمَرْكُ﴾ ذَلِكَ أَلَكِتَبُ لَا رَبِّبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ (البقرة ١-٢)، وَأَعَادَ ذِكْرَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي وَسْطِ السُّورَةِ، فَقَالَ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ (البقرة ١٣٦)، وَأَعَادَ ذِكْرَهُ مَرَّةً ثَالِثَةً، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ أَلَكِتَبَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة ١٧٦)، وَغَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: يُلَاحَظُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يُقَرَّنُ الْحَدِيثُ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْاِخْتِلَافِ فِيهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يُنْتِجُ الشَّقَاقَ بَيْنَ النَّاسِ، مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ انْقِسَامَ النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ بِكِتَابِهِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: هُمْ أَهْلُ الْهُدَى الْمُفْلِحُونَ، الَّذِينَ التَّزَمُوا بِالْكِتَابِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥﴾ (البقرة ٥).

القِسْمُ الثَّانِي: هُم أَهْلُ الْكُفْرِ، الَّذِينَ نَبَذُوا الْكِتَابَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة ٦).

القِسْمُ الثَّالِثُ: هُم أَهْلُ النِّفَاقِ، الَّذِينَ التَّزَمُوا بِالْكِتَابِ ظَاهِرًا وَكَفَرُوا بِهِ بَاطِنًا، وَهُم الَّذِينَ يَتَظَاهَرُونَ مَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالْإِيمَانِ وَقُلُوبُهُمْ مَعَ أَهْلِ الْكُفْرَانِ، قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة ٨)، وانظر « الرَّحْلَةُ إِلَى إفريقيا » للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ ص (١٨-١٩).

وَأَمَّا الْمَوْضِعُ الثَّانِي، فَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ فِي الْإِيمَانِ بِكَلَامِهِ الْمَنْزَلِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الشَّقَاقَ هُوَ نَتِيجَتُهُ الْأُولَى، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِمْ فَقَدْ آهَتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ (البقرة ١٣٧).

وَأَكَّدَهُ فِي الْمَوْضِعِ الثَّالِثِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (البقرة ١٧٦).

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّقَاقَ الْمَقْرُونِ بِكَلَامِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يَحْصُلُ لِسَبَبَيْنِ مَذْمُومَيْنِ:

الأَوَّلُ: اخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ، كَالَّذِي وَقَعَ مِنَ الْمَلَلِ، وَهُوَ الْكُفْرُ الصَّرْفُ؛ لِأَنَّهُ يَتِمَثَّلُ فِي الْإِيمَانِ بِبَعْضِ الْحَقِّ الْمَنْزَلِ وَالْكَفْرُ بِالْبَعْضِ الْآخَرِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ هَذَا الْكُفْرِ إِلَّا هَذِهِ الْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ آمَنُوا بِكِتَابِهِمْ وَكَفَرُوا بِمَا أُنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِكِتَابِهِمْ وَكَفَرُوا بِمَا أُنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُمْ - مَعَ

إيمانهم بما أنزل على محمد ﷺ - قَدْ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُوسَى
 ﷺ وَالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى عِيسَى ﷺ، ولعله من أجل هذا افْتُتِحَتْ
 السُّورَةُ بِضُرُورَةِ الْإِيمَانِ بِالْكَلِّ، قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي مَطْلَعِ هَذِهِ السُّورَةِ:
 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (البقرة ٤)، كَمَا
 خُتِمَتْ بِهِ، حَيْثُ قَالَ اللَّهُ ﷻ فِي آخِرِهَا: ﴿وَأَمَنِ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
 مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥)، فَجَمَعَ الْكُتُبَ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ
 الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْحَقِّ الْمُنَزَّلِ الَّذِي لَمْ تَنْلُهُ يَدُ التَّحْرِيفِ، وَأَمَّا الْإِيمَانُ
 بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ فَهُوَ الْاِخْتِلَافُ الْمَذْمُومُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السُّورَةِ
 نَفْسِهَا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ
 وَأُنْزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا
 اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
 فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ
 يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة ٢١٣)، فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ هَهُنَا
 أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِبَعْضٍ مَا أُنْزِلَ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ هُمُ الْمُتَسَبِّبُونَ فِي افْتِرَاقِ
 الْبَشَرِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَلِذَلِكَ دَعَاهُمْ إِلَى الْاِتِّحَادِ عَلَى
 الْحَقِّ فَأَبَوْا إِلَّا كُفُورًا، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
 سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران ٦٤)، وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ
 (١٥٩٤٦) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ
 مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَدْ كَفَرَ بِهِ أَجْمَعٌ».

والثاني: اختلافٌ في تأويله، وهذا الذي حصل للفرق المسلمة التي خرجت عن جماعة المسلمين ببدعة ما، وكلٌّ من انحرف عن الصدر الأول انحرف بسبب تأويل كلام الله على غير مراد الله.

وإذا كانت مجاهدة من كفر بالقرآن المنزل معلومة، فليعلم أن مجاهدة المبتدعة على تأويل القرآن مطلوبة لحفظ وحدة هذه الأمة، وقد جاءت الرواية بذلك، قال أبو سعيد الخدري: « كُنَّا جُلُوسًا نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا مِنْ بَعْضِ بُيُوتِ نِسَائِهِ، قَالَ: فَقُمْنَا مَعَهُ، فَانْقَطَعَتْ نَعْلُهُ، فَتَخَلَّفَ عَلَيْهَا عَلِيٌّ يَخْصِفُهَا، فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَضَيْنَا مَعَهُ، ثُمَّ قَامَ يَنْتَظِرُهُ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَقَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ هَذَا الْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلْتُ عَلَى تَنْزِيلِهِ، فَاسْتَشَرْنَا وَفِينَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: لَا! وَلَكِنَّهُ خَاصِصُ النَّعْلِ، قَالَ: فَجِئْنَا نُبَشِّرُهُ، قَالَ: وَكَأَنَّهُ قَدْ سَمِعَهُ » رواه أحمد (٨٢/٣) وابن حبان (٦٩٣٧) والحاكم (١٢٢/٣ - ١٢٣)، وصححه هو والذهبي، وانظره في « السلسلة الصحيحة » للألباني (٢٤٨٧)، وهذا في قتال أهل البدع والأهواء؛ فإن الله أكرم علياً ﷺ بقتال أول فرقة خرجت عن جماعة المسلمين بسبب سوء تأويلها لكتاب الله، وهي فرقة الخوارج، وشرحه ابن حبان في « صحيحه » بأن بوب له بعده بقوله: « ذَكَرُ وَصَفِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ »، ثم ذكر قتاله الخوارج، ولذلك قال يوسف الملطي في « المعتصر من المختصر » (٢٢١/١) عقب هذا الحديث: « وَمِمَّا حَقَّقَ الْوَعْدَ مَا كَانَ مِنْ قِتَالِ

عَلَى لِلخَوَارِجِ .»

والخلاصة أن الله قرّن بين التنويه بكتابه وبين التحذير من الفرقة والشقاق؛ لأنّ ذلك يقع عند الاختلاف في الإيمان بكلامه، حتّى يُنكر المخالف الحقّ الذي عند غيره، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (البقرة ١١٣)، كما يقع عند الاختلاف في تأويل كلام الله، قال ابنُ تيمية في « تفسير آيات أشكلت » (٢/ ٧٠٤): « فَإِنَّ الْأُمَّةَ اضْطَرَبَتْ فِي هَذَا اضْطِرَاباً عَظِيماً، وَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بِالْأَهْوَاءِ وَالظُّنُونِ بَعْدَ مُضِيِّ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، لَمَّا حَدَّثَتْ فِيهِمُ الْجَهْمِيَّةُ الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الصَّابَةِ »، ثمّ ساق بعض الآيات السابقة، وقال متحدثاً عن القرآن: « وَالْاِخْتِلَافُ فِيهِ نَوْعَانِ: اِخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ، وَاِخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهِ، وَالْمُخْتَلِفُونَ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ هُمُ الْمُخْتَلِفُونَ فِي الْحَقِّ، بَأَن يُنْكِرَ هَؤُلَاءِ الْحَقَّ الَّذِي مَعَ أَوْلَئِكَ وَبِالْعَكْسِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْحَقِّ الْمَنْزَلِ، فَأَمَّا مَنْ آمَنَ بِذَلِكَ وَكَفَرَ بِهِ غَيْرُهُ، فَهُوَ اِخْتِلَافٌ يَذُمُّ فِيهِ أَحَدُ الصَّنَفَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (البقرة ٢٥٣)، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ﴾ (البقرة ٢٥٣)، وَالْاِخْتِلَافُ فِي تَنْزِيلِهِ أَعْظَمُ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي قَصَدْنَاهُ هُنَا، فَنَقُولُ: الْاِخْتِلَافُ فِي تَنْزِيلِهِ هُوَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ، وَالْكَافِرُونَ

كَفَرُوا بِالكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، فَاَلْمُؤْمِنُونَ بِجِنْسِ الرُّسُلِ وَالْكِتَابِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، وَالْكَافِرُونَ بِجِنْسِ الْكِتَابِ وَالرُّسُلِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمَجُوسِ وَالصَّابِئِينَ يَكْفُرُونَ بِذَلِكَ «، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ آيَاتِ الْبِقَرَةِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا، وَقَالَ: « وَقَالَ فِي السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿الْعَمَلُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران ١- ٤)، وَذَكَرَ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَهُ ^(١)، وَكَذَلِكَ فِي آخِرِهَا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾ (آل عمران ١٩٣)، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴾ (آل عمران ١٩٩)، وَهَذَا عَظُمُ تَقْرِيرِ هَذَا الْأَصْلِ فِي الْقُرْآنِ، فَتَارَةً يَفْتِخُ بِهِ السُّورَ...».

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا بَيَانُ عِظَمِ شَأْنِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ فِي وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَهَدَايَتِهَا، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ غَضِّ الطَّرْفِ عَنْ اجْتِمَاعِ عَقْدِ الْقُلُوبِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الْأَوَّلُ، وَأَنَّ الَّذِينَ انْتَدَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِتَبْلِيغِ النَّاسِ مَعْنَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ صَافِيًا نَقِيًّا مِنْ تَفَاسِيرِ أَهْلِ الْبِدْعِ هُمْ فِي جِهَادٍ عَظِيمٍ، كَمَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْكَرَامَةُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، فَقَدْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِمُجَاهَدَةِ الْخَوَارِجِ عَلَى تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ، كَمَا جَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ

(١) يَرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنْزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران ٥٣).

من قَبْلَ عَلَى تَنْزِيلِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٌ: يَحْيَى بْنُ
يَحْيَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الذَّبُّ عَنِ السُّنَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ
حَمَّادُ بْنُ يَحْيَى الدُّهْلِيُّ: قُلْتُ لِيَحْيَى: الرَّجُلُ يُنْفِقُ مَالَهُ وَيُتْعِبُ نَفْسَهُ
وَيُجَاهِدُ، فَهَذَا أَفْضَلُ مِنْهُ؟! قَالَ: نَعَمْ، بكَثِيرٍ! «رَوَاهُ الْهَرَوِيُّ فِي «ذَمِّ
الْكَلَامِ» (١٠٨٩).

وَأَنْتَ لَتَتَصَفَّحَ الْمَكْتَبَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ أَوَّلِ مَا بَدَأَ عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
فِي التَّأْلِيفِ، فَيَبْهَرُكَ الْعَدَدُ الْهَائِلُ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي أَلْفَهَا الصَّدْرُ الْأَوَّلُ
فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، وَهَذِهِ الرُّدُودُ تُثَمِّلُ جِهَادَ الْأُمَّةِ عَلَى تَأْوِيلِ
الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، وَلَوْ لَا جِهَادُهُمْ ذَلِكَ مَا وَصَلْنَا هَذَا الدِّينَ إِلَّا مُحَرَّفًا،
وَرَبَّمَا بَلَغَ تَحْرِيفُهُ إِلَى حَدٍّ لَا يُفَرِّقُ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَيِّ دِينٍ وَثْنِي كَمَا
حَصَلَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَتَبَ بِفَضْلِهِ حِفْظَ هَذَا الدِّينِ،
وَاخْتَارَ لِهَذَا الْحِفْظِ رِجَالًا انْتَدَبَهُمْ لِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ الْعَظِيمَةِ؛ لَمَّا عَلِمَ
طَهَارَةَ قُلُوبِهِمُ الَّتِي لَمْ تَتَدَنَسْ بِفِكْرَةٍ مُجَامِلَةٍ أَهْلِ الْبِدْعِ، أَوْ مُحَاوَلَةٍ جَمْعِ
الْكَلِمَةِ وَلَوْ عَلَى التَّأْوِيلِ الْمُنْكَرِ لِمَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَالْمُسْلِمُ الْمَوْفِقُ يَتَسَعَّ
صَدْرُهُ لِلْجِهَادَيْنِ، وَلَا يَتْرِكُ جِهَادَ أَهْلِ الْبِدْعِ مِنْ أَجْلِ وُجُودِ كُفَّارٍ
مُعَانِدِينَ لِدِينِ اللَّهِ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ أَصُولِ بَعْضِ النَّاسِ الْمُشْتَغَلِينَ
بِالدَّعْوَةِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ بِمُجَاهَدَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ
الْمُشَوِّهِينَ لِحِمَالِ الشَّرِيعَةِ وَالْمُكَدِّرِينَ لَصَفْوِهَا وَالْمُتَسَبِّبِينَ فِي شَقِّ
صَفْهَا، فَقَالُوا: نَعْمَلُ فِيهَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ، وَيَعْذُرُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِيهَا اخْتَلَفْنَا
فِيهِ، فَاجْتَمَعُوا بِالْحَاقِدِينَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِالْمُعْتَدِينَ

على حقّ الله في أن يُفرد بالألوهيّة، وبالْمُنْتَقِصِينَ اللهَ في أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ،
وبالْمُسْتَهْزِئِينَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وبغيرهم مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ شَرِيعَةِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى بَدْعَةٍ مِنَ الْبِدَعِ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ لَهُمْ شَعْرَةٌ غَيْرَةً عَلَى دِينِ
اللهِ ﷻ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ المُحَافَظَةُ عَلَى الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ أُولَى الْأَلْبَابِ أَنَّهُمْ يَدْعُونَهُ قَائِلِينَ:
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾
رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا
فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿٢٧﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا
مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٨﴾
(آل عمران ١٩٢-١٩٤).

أَدْعِيَةُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ جَامِعَةٌ مَانِعَةٌ، لَا يَتَأَتَّى لِلبَشَرِ أَنْ يَنْسُجُوا عَلَى
مِنْوَالِهَا؛ لِأَنَّهَا وَحْيٌ، وَمَهْمَا تَأَمَّلْتَ فِي أَدْعِيَةِ الْبَشَرِ مِنْ رَوْنِقٍ وَجَمَالٍ
وَحُسْنِ أَدَاءٍ وَتَأَثِيرٍ، فَإِنَّ الْخَلَلَ مُصَاحِبُهَا مُصَاحِبَةُ النَّقْصِ لِلْبَشَرِ،
وَمَنْ أَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى مَا أُوْدِعَ مِنْ حِكْمٍ وَقَوَاعِدَ فِي أَدْعِيَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ
أَدْرَكَ لِأَوَّلٍ وَهْلَةً أَنَّ هَذَا مِنْ تَنْزِيلِ حَكِيمٍ عَلِيمٍ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ
سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِثَالُ قُرْآنِيٍّ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «بَدَائِعِ
الْفَوَائِدِ» (٢/ ٤٣٤-٤٣٥): «وَالشَّرُّ الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَوْجُودٌ يُطْلَبُ رَفْعُهُ.

وَالثَّانِي: مَعْدُومٌ يُطْلَبُ بَقَاؤُهُ عَلَى الْعَدَمِ وَأَنْ لَا يُوجَدَ.

كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ الْمُطْلَقَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَوْجُودٌ فَيُطْلَبُ دَوَامُهُ وَثَبَاتُهُ وَأَنْ لَا يُسْلَبَ.

والثاني: معدومٌ فيُطلبُ وجودُه وحُصولُه.

فهذه أربعةٌ هي أمّهاتُ مطالبِ السَّائِلِينَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وعليها ندارُ طلباتهم، وقد جاءت هذه المطالبُ الأربعةُ في قوله تعالى حِكَايَةً عَنْ دُعَاءِ عِبَادِهِ فِي آخِرِ آلِ عِمْرَانَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ (آل عمران ١٩٣)، فهذا الطَّلَبُ لِدَفْعِ الشَّرِّ الْمَوْجُودِ؛ فَإِنَّ لِلذُّنُوبِ وَالسَّيِّئَاتِ شَرًّا كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، نَهَذَا طَلَبٌ لِدَوَامِ الْخَيْرِ الْمَوْجُودِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتَوَفَّاهُمْ عَلَيْهِ، نَهَذَانِ قِسْمَانِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ (آل عمران ١٩٤)، فَهَذَا طَلَبٌ لِلْخَيْرِ الْمَعْدُومِ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، فَهَذَا طَلَبٌ أَنْ لَا يُوقَعَ بِهِمُ الشَّرُّ الْمَعْدُومُ، وَهُوَ خِزْيُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَانْتَضَمَتِ الْآيَتَانِ لِلْمَطَالِبِ الْأَرْبَعَةِ أَحْسَنَ انْتِظَامٍ، مُرْتَبَةً أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ، قُدِّمَ فِيهَا النَّوعَانِ اللَّذَانِ فِي الدُّنْيَا، وَهُمَا الْمَغْفِرَةُ وَدَوَامُ الْإِسْلَامِ إِلَى الْمَوْتِ، ثُمَّ أُتْبِعَا بِالنَّوعَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمَا أَنْ يُعْطُوا مَا وَعَدُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأَنْ لَا يُخْزِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا عُرِفَ هَذَا، فَقَوْلُهُ فِي تَشْهَدِ الْخُطْبَةِ: (وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا)^(١) يُتَنَاوَلُ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنَ شَرِّ النَّفْسِ الَّذِي هُوَ مَعْدُومٌ، لَكِنَّهُ فِيهَا بِالْقُوَّةِ، فَيَسْأَلُ دَفْعَهُ وَأَنْ لَا يُوجَدَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: (مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا)، فَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ اسْتِعَاذَةٌ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الَّتِي قَدْ

(١) أَخْرَجَهُ أَهْلُ السُّنَنِ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «حُطْبَةِ الْحَاجَّةِ».

وُجِدَتْ، فَيَكُونُ الْحَدِيثُ قَدْ تَنَاوَلَ نَوْعِي الاستِعاذَةِ مِنَ الشَّرِّ الْمَعْدُومِ
الَّذِي لَمْ يُوجَدْ، وَمِنَ الشَّرِّ الْمَوْجُودِ، فَطُلِبَ دَفْعُ الْأَوَّلِ وَرَفْعُ الثَّانِي،
وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ هِيَ عُقُوبَاتُهَا وَمُوجِبَاتُهَا السَّيِّئَةُ الَّتِي
تَسُوءُ صَاحِبَهَا، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مِنَ الاستِعاذَةِ الدَّفْعُ أَيْضاً دَفْعُ
الْمُسَبِّبِ، وَالْأَوَّلُ دَفْعُ السَّبَبِ، فَيَكُونُ قَدْ اسْتَعَاذَ مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ
وَأَسْبَابِهِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ إِضَافَةُ السَّيِّئَاتِ إِلَى الْأَعْمَالِ مِنْ بَابِ
إِضَافَةِ النَّوعِ إِلَى جِنْسِهِ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ جِنْسٌ وَسَيِّئَاتُهَا نَوْعٌ مِنْهَا، وَعَلَى
الثَّانِي يَكُونُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمُسَبِّبِ إِلَى سَبَبِهِ، وَالْمَعْلُولُ إِلَى عِلَّتِهِ، كَأَنَّهُ
قَالَ: مِنْ عُقُوبَةِ عَمَلِي، وَالْقَوْلَانِ مُحْتَمَلَانِ، فَتَأَمَّلْ أَيُّهُمَا أَلَيُّهُمَا بِالْحَدِيثِ
وَأَوْلَى بِهِ؛ فَإِنَّ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نَوْعاً مِنَ التَّرْجِيحِ، فَيَتَرَجَّحُ الْأَوَّلُ
بِأَنَّ مَنَشَأَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ مِنَ شَرِّ النَّفْسِ، فَشَرُّ النَّفْسِ يُؤَلِّدُ الْأَعْمَالَ
السَّيِّئَةَ، فَاسْتَعَاذَ مِنْ صِفَةِ النَّفْسِ وَمِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْ تِلْكَ
الصِّفَةِ، وَهَذَانِ جَمَاعُ الشَّرِّ وَأَسْبَابُ كُلِّ أَلَمٍ، فَمَتَى عُوِفِي مِنْهَا عُوِفِي مِنَ
الشَّرِّ بِحَذَائِفِرِهِ، وَيَتَرَجَّحُ الثَّانِي بِأَنَّ سَيِّئَاتِ الْأَعْمَالِ هِيَ الْعُقُوبَاتُ
الَّتِي تَسُوءُ الْعَامِلَ، وَأَسْبَابُهَا شَرُّ النَّفْسِ، فَاسْتَعَاذَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ
وَالْآلَامِ وَأَسْبَابِهَا، وَالْقَوْلَانِ فِي الْحَقِيقَةِ مُتَلَازِمَانِ، وَالاستِعاذَةُ مِنْ
أَحَدِهِمَا تَسْتَلْزِمُ الاستِعاذَةَ مِنَ الْآخَرِ.

ثُمَّ قَالَ: « وَلَمَّا كَانَ الشَّرُّ لَهُ سَبَبٌ هُوَ مَبْدَرُهُ، وَلَهُ مَوْرَدٌ وَمُنْتَهَى،
وَكَانَ السَّبَبُ إِمَّا مِنْ ذَاتِ الْعَبْدِ، وَإِمَّا مِنْ خَارِجِهِ، وَمَوْرَدُهُ وَمُنْتَهَاهُ
إِمَّا نَفْسُهُ، وَإِمَّا غَيْرُهُ، كَانَ هُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ:

شَرُّ مَصْدَرُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً، وَعَلَى غَيْرِهِ أُخْرَى،
 وَشَرُّ مَصْدَرُهُ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ السَّبَبُ فِيهِ وَيَعُودُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً، وَعَلَى
 غَيْرِهِ أُخْرَى، جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الْأَرْبَعَةَ فِي الدُّعَاءِ الَّذِي
 عَلَّمَهُ الصَّدِيقُ أَنْ يَقُولَهُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَعَ وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ:
 (اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ
 شَيْءٍ وَمَلِيكَه أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ
 الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أُجْرَهُ إِلَى مُسْلِمٍ^(١)،
 فَذَكَرَ مَصْدَرِي الشَّرِّ، وَهُمَا النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ، وَذَكَرَ مَوْرَدِيهِ وَنَهَائِيَّتِيهِ،
 وَهُمَا عَوْدُهُ عَلَى النَّفْسِ أَوْ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، فَجَمَعَ الْحَدِيثُ مَصَادِرَ
 الشَّرِّ وَمَوَارِدَهُ فِي أَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَخْصَرِهِ وَأَجْمَعِهِ وَأَبْيَنَهُ .

وَأَمَّا مِنَ السُّنَّةِ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى الْأَلَّا يَسْتَبْدِلَ
 أَصْحَابُهُ ﷺ حَرْفًا مِنْ أَدْعِيَتِهِمْ بِحَرْفٍ مِنْ أَدْعِيَّتِهِ، وَهُمْ مَنْ هُمْ، فَفِي
 الصَّحِيحَيْنِ عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ
 فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ:
 اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي
 إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ
 آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِنْ
 لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٥٢٩) وَالْحَاكِمُ (٥١٣/١) وَصَحَّحَاهُ، وَانْظُرْ « السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ »

على النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ:
وَرَسُولِكَ، قَالَ: لَا! وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ.

وما دُمْنَا فِي بَابِ بَيَانِ مَا فِي الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ مِنْ كَمَالٍ، فَإِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ
أُتَحِفَ الْقَارِئُ بِمَا فِي هَذَا الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ مِنَ الْمَعَانِي الْعَالِيَةِ وَالْقَوَاعِدِ الْغَالِيَةِ،
فَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ اسْتِنْبَاطَهَا، كُلُّ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، مِنْهُمْ الْحَافِظُ
ابْنُ حَجَرٍ فِي « فَتْحِ الْبَارِي » (١١٠/١١٢)، وَالْكَرْمَانِيُّ فِي « الْكَوَاكِبِ
الدَّرَارِيِّ » شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ « (٣/١٠٦-١٠٩)، وَابْنُ بَطَّالٍ فِي
« شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ » (١/٣٦٥)، وَأَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْقُرْطُبِيُّ فِي
« الْمُنْهَجِ لِمَا أَشْكَلَ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ مُسْلِمٍ » (٧/٣٧)، وَقَدْ تَلَخَّصَ مِنْ
أَقْوَالِهِمْ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا يَأْتِي:

١- فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْوُضُوءِ وَهَذَا الدُّعَاءِ إِشَارَةٌ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الطَّهَارَتَيْنِ:
الْبَدَنِيَّةِ وَالْقَلْبِيَّةِ؛ فَالْوُضُوءُ لِلطَّهَارَةِ الْبَدَنِيَّةِ، وَالذِّكْرُ لِلطَّهَارَةِ الْقَلْبِيَّةِ، بَلْ هُوَ
خَيْرٌ مَا تُطَهَّرُ بِهِ الْقُلُوبُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ
اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ عَقِبَ
رَوَايَتِهِ الْحَدِيثِ بِرَقْمٍ (٣٥٧٤): « وَلَا نَعْلَمُ فِي شَيْءٍ مِنَ الرُّوَايَاتِ ذِكْرَ
الْوُضُوءِ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ »، قُلْتُ: لَعَلَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ
اللَّطِيفَةِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ حَجَرٍ.

٢- لَمَّا كَانَ التَّوْحِيدُ أَفْضَلَ الذِّكْرِ فَقَدْ جَمَعَ هَذَا الدُّعَاءُ أَصُولَ الْإِيمَانِ
السَّتَّةَ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْكَرْمَانِيُّ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، وَهَذَا تَفْصِيلُهُ الْمُخْتَصَرُ:

- فالإيمان بالله واضحٌ من النداء: «اللَّهُمَّ».

- والإيمان بالكتب في قوله: «آمَنْتُ بِكِتَابِكَ».

- والإيمان بالملائكة في قوله: «الَّذِي أَنْزَلْتَ»؛ لأنَّ الملكَ هو الَّذي يَنْزِلُ بكلام الله كما هو معلومٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِتَنزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَزَلُّ بِهِ أَلْرُوحُ الْأَمِينُ ﴿﴾ (الشُّعراء ١٩٢-١٩٣).

- والإيمان بالرُّسل في قوله: «وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، ويظهرُ هنا فائدةٌ عَدَمُ تَبْدِيلِ لَفْظَةِ (نَبِيِّكَ) بَلَفْظَةِ (رَسُولِكَ) كما وَقَعَ لِلْبَرَاءِ؛ لَأَنَّهُ - زِيَادَةً عَلَى مَا قِيلَ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ - فَإِنَّ الْمَلَكَ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ اسْمِ النَّبِيِّ، لَكِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَ اسْمِ الرَّسُولِ، كَمَا جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ كَثِيرًا، مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج ٧٥)، قَالَهُ ابْنُ بَطَّالٍ.

- والإيمان باليوم الآخر في قوله: «رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ»، فَالرَّغْبَةُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ، وَالرَّهْبَةُ مِنَ النَّارِ وَالْعِقَابِ.

- والإيمان بالقدر في قوله: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»، نَبَهَ عَلَى هَذَيْنِ الْكِرْمَانِي.

٣- فِي الْحَدِيثِ إِسْلَامُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ لِلَّهِ، أَيْ الْخُلُوصُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفَاقُ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ»، وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٧٤٨٨): «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ»، فَهُمَا عَلَى هَذِهِ جُمْلَتَانِ، وَقَدْ جَعَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّفْسَ هُنَا عَلَى مَعْنَى الذَّاتِ، وَالْوَجْهَ عَلَى مَعْنَى الْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ؛ كَمَا قِيلَ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيَهُ رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ يُقَالُ: أَيَّ وَجْهِ تُرِيدُ؟ أَيَّ وَجْهَةٍ تَقْصِدُ؟ وَعَكْسَهُ بَعْضُهُمْ فَجَعَلَ إِسْلَامَ النَّفْسِ لَانْقِيَادِ الْبَاطِنِ، وَتَوَجُّيَةِ الْوَجْهِ لَانْقِيَادِ الظَّاهِرِ، انْظُرْ «الفتح» في الموضع المُشار إِلَيْهِ و«أضواء البيان» للشيخ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ (١/ ٤٢٠)، وَإِنْ كَانَ الْخِلَافُ هُنَا سَهْلًا، فَلَعَلَّ الْقَوْلَ الْأَخِيرَ هُوَ الْأَقْرَبُ وَقَدْ مَالَ إِلَيْهِ الْكِرْمَانِيُّ؛ لِأَنَّ الْجُمْلَتَيْنِ وَرَدَتَا عَلَى سَبِيلِ التَّقَابُلِ وَالِاقْتِرَانِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْطُبِيُّ، بِخِلَافِ لَوْ تَفَرَّقَتَا، فَإِنَّهُ يَأْخُذُ كُلُّ مِثْمَا مَعْنَى الْآخَرِ؛ عَلَى قَاعِدَةٍ: إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَكِنْ يُسْتَخْلَصُ مِنْ هَذِهِ الْفَائِدَةِ أَنَّ فِي الدُّعَاءِ بِهِذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ إِيْذَانًا بِتَسْلِيمِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ كُلَّهَا لِلَّهِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فَقَدْ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٠/ ١٤٩): «الْعِبَادَةُ هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ».

٤- فِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَلِلتَّوَكُّلِ رُكْنَانِ: الْحِسُّ وَالْمَعْنَى، فَتَقْوِيضُ الْأَمْرِ الْمَعْنَوِيِّ لِلَّهِ فِي قَوْلِهِ: «وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، وَتَقْوِيضُ الْحِسِّيِّ فِي قَوْلِهِ: «وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ»، وَخَصَّهُ بِالظَّهْرِ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ جَرَتْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْتَمِدُ بِظَهْرِهِ إِلَى مَا يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ، فَفِيهِ مَعْنَى: اعْتَمَدْتُ عَلَيْكَ فِي أُمُورِي كُلِّهَا كَمَا فِي «الفتح»، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٥- فِي الْحَدِيثِ أَرْكَانُ الْعِبَادَةِ الثَّلَاثَةُ: الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ وَالْحُبُّ، فَأَمَّا الرَّجَاءُ فَفِي قَوْلِهِ: «رَغْبَةً»، وَأَمَّا الْخَوْفُ فَفِي قَوْلِهِ: «رَهْبَةً»، وَأَمَّا الْحُبُّ

ففي قوله: « لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ »؛ فَإِنَّهُ لَا يُلْجَأُ إِلَّا إِلَى مَحْبُوبٍ، لَا سِوَاهُ وَأَنَّهُ لَا يَفِرُّ مُؤْمِنٌ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ.

٦- في اشتغال هذا الذكر على كل ما يجب الإتيان به، وعلى إسلام الظاهر والباطن لله، وتفويض الأمر الحسي والمعنوي له، تفسير لقوله ﷺ فيه: « فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ »؛ فَإِنَّ الْفِطْرَةَ هِيَ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ.

هَذَا نَمُودَجٌ حَدِيثِيٌّ مِنَ الْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ، وَذَلِكَ نَمُودَجٌ قُرْآنِيٌّ، فَنَظَرُ إِلَى مَعَانِيهَا الشَّرِيفَةِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا، مَعَ أَنْ مَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنَ الْمَعَانِي الْمُسْتَنْبَطَةِ وَالْأُصُولِ الْجَامِعَةِ أَكْثَرُ! وَلِذَلِكَ أَحَبُّ أَنْ أُنْقَلَ هُنَا وَفِي هَذَا الْمَعْنَى كَلِمَةً لِلْمُهَلَّبِ نَقْلَهَا عَنْهُ ابْنُ بَطَّالٍ فِي « شَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ » (١/ ٣٦٥) أَنَّهُ قَالَ: « إِنَّمَا لَمْ تُبَدَّلِ أَلْفَاظُهُ ﷺ؛ لِأَنَّهَا يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ وَجَوَامِعُ الْكَلَامِ، فَلَوْ جُوزَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْ كَلَامِهِ بِكَلَامٍ غَيْرِهِ سَقَطَتْ فَائِدَةُ النَّهَايَةِ فِي الْبَلَاغَةِ الَّتِي أُعْطِيَهَا ﷺ »، وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٢/ ٥٢٥): « وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَيْبًا مَنْ يَتَّخِذُ حِزْبًا لَيْسَ بِمَأْثُورٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنْ كَانَ حِزْبًا لِبَعْضِ الْمَشَايخِ، وَيَدْعُ الْأَحْزَابَ النَّبَوِيَّةَ الَّتِي كَانَ يَقُولُهَا سَيِّدُ بَنِي آدَمَ وَإِمَامُ الْخَلْقِ وَحُجَّةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ! ».

وَمِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَنَعَ الْبَرَاءَ مِنْ أَنْ يُغَيَّرَ لَفْظًا وَاحِدًا مِنْ أَلْفَاظِ دُعَائِهِ هَذَا، مَعَ أَنَّ التَّغْيِيرَ كَانَ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ قَرِيبَتَيِ الْمَعْنَى،

فَقَدْ قَالَ الْبَرَاءُ: قُلْتُ: وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فاعْتَرَضَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَقَالَ لَهُ: « لَا! وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ »، فَكَيْفَ يَجْتَرِئُ أَحَدٌ بَعْدَ هَذَا لِيَخْتَرَعَ لِلنَّاسِ الْأَذْكَارَ؟!!

وكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِيمَا رَتَّبَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ ثَوَاباً مَا عَلَى عَدَدِ مَخْصُوصٍ مِنَ الذِّكْرِ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي « الْفَتْحِ » (٢/ ٣٣٠) وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّسْبِيحِ بَعْدَ الصَّلَاةِ: « وَاسْتَنْبَطَ مِنْ هَذَا أَنَّ مُرَاعَاةَ الْعَدَدِ الْمَخْصُوصِ فِي الْأَذْكَارِ مُعْتَبَرَةٌ، وَإِلَّا لَكَانَ يُمَكَّنُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: أَضَيْفُوا لَهَا التَّهْلِيلَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الْأَعْدَادَ الْوَارِدَةَ كَالذِّكْرِ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ إِذَا رُتِّبَ عَلَيْهَا ثَوَابٌ مَخْصُوصٌ فزَادَ الْآتِي بِهَا عَلَى الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ لَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ الثَّوَابُ الْمَخْصُوصُ؛ لَاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لِتِلْكَ الْأَعْدَادِ حِكْمَةٌ وَخَاصِيَّةٌ تَفُوتُ بِمُجَاوِزَةِ ذَلِكَ الْعَدَدِ... وَقَدْ مَثَّلَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِالدَّوَاءِ يَكُونُ مِثْلًا فِيهِ أُوقِيَّةٌ سَكَّرَ، فَلَوْ زِيدَ فِيهِ أُوقِيَّةٌ أُخْرَى لَتَخَلَّفَ الْإِنْتِفَاعُ بِهِ، فَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى الْأُوقِيَّةِ فِي الدَّوَاءِ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَ مِنَ السُّكَّرِ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ لَمْ يَتَخَلَّفَ الْإِنْتِفَاعُ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَذْكَارَ الْمُتَغَايِرَةَ إِذَا وَرَدَ لِكُلِّ مِنْهَا عَدَدٌ مَخْصُوصٌ مَعَ طَلَبِ الْإِتْيَانِ بِجَمِيعِهَا مُتَوَالِيَةً لَمْ تَحْسُنِ الزِّيَادَةُ عَلَى الْعَدَدِ الْمَخْصُوصِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ قَطْعِ الْمُوَالَاةِ؛ لَاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لِلْمُوَالَاةِ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ خَاصَّةٌ تَفُوتُ بِفَوَائِدِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ».

وَقَدْ نَبَّهَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى ضَرُورَةِ الْقَنَاعَةِ بِالْأَلْفَاظِ النَّبَوِيَّةِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَذْكَارِ؛ لِأَنَّهَا شَرِيعَةٌ لَنَا، وَاسْتَدَلُّوا بِزِيَادَةِ عَلَى مَا مَضَى بِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ

(٢١٣٧) عن سَمُرَةَ بن جُنْدَب قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بَابَيْنِ بَدَأَتْ »، وَمَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ: « لَا يَضُرُّكَ بَابَيْنِ بَدَأَتْ »، فَدَلَّ بِمَنْطُوقِهِ عَلَى التَّقْيُّدِ بِالْكَلَامِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ لَفْظَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نُقْصَانٍ إِلَّا مَا وَرَدَ بِهِ الدَّلِيلُ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ بَعَيْنِهَا، وَالْمُؤْمِنَ لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ غَيْرَ مَا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ وَرَسُولُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب ٣٦)، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا: « فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مُخَالَفَتُهُ، وَلَا اخْتِيَارَ لِأَحَدٍ هُنَا، وَلَا رَأْيٍ وَلَا قَوْلَ »، كَمَا دَلَّ بِمَنْطُوقِهِ أَيْضًا عَلَى أَنَّ التَّقْيُّدَ بِتَرْتِيبِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ خَاصَّةٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ، وَدَلَّ بِمَفْهُومِهِ عَلَى أَنَّ التَّقْيُّدَ بِتَرْتِيبِ الْأَذْكَارِ الْأُخْرَى هُوَ الْأَضْلُّ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ مَرَّ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمَّا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ ذَلِكَ لَشِدَّةِ اتِّبَاعِهِمْ لِلسُّنَّةِ وَوُقُوفِهِمْ عِنْدَ حَرْفِيَةِ اللَّفْظِ النَّبَوِيِّ، بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ تَرْتِيبَ جُمْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْخَاصَّةِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لَيْسَ أَمْرًا مَطْلُوبًا فَاسْتَنَاهُ وَنَفَى الضَّرَرَ عَمَّنْ لَمْ يُرْتَّبْهَا، الْأَمْرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّقْيُّدَ بِالْأَلْفَاظِ النَّبَوِيَّةِ وَأَعْدَادِهَا وَتَرْتِيبِهَا كَمَا جَاءَتْ هُوَ جَادَّةُ أَهْلِ الْإِتِّبَاعِ الَّذِينَ يَرْجُونَ الْقَبُولَ عِنْدَ اللَّهِ.

وَأَمَّا دُعَاءُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ بِمَا شَاءَ مِنْ حَاجَاتِهِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَنْحَصِرُ فَلَا شَكَّ فِي جَوَازِهِ مَا لَمْ يَصْحَبْهُ مَحْظُورٌ شَرْعِيٌّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠)، وَيَشْرَطُ أَنْ لَا يَجْعَلَ مَا جَرَّبَهُ مِنْ أَدْعِيَةٍ مُحْتَزَّةٍ سَنَةً لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ، وَلَوْ وَجَدَ صَاحِبُهَا فِيهَا نَوْعَ اسْتِجَابَةٍ وَتَأْثِيرٍ؛ لِأَنَّ التَّجَرُّبَةَ لَيْسَتْ مِنْ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هَذَا دُعَاءٌ مُجَرَّبٌ بُغْيَةً تَرْتِيبَهُ لِلنَّاسِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْذَنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْرَعَ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ قَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى ٢١)، وَلِلْقَاضِي عِيَّاضُ كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى، نَقَلَهَا عَنْهُ ابْنُ عَلَّانَ فِي «شَرْحِ الْأَذْكَارِ» (١٧/١) أَنَّهُ قَالَ: «أَذِنَ اللَّهُ فِي دُعَائِهِ، وَعَلَّمَ الدُّعَاءَ فِي كِتَابِهِ لِحَلِيقَتِهِ، وَعَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الدُّعَاءَ لِأُمَّتِهِ، وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: الْعِلْمُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْعِلْمُ بِاللُّغَةِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلأُمَّةِ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ دُعَائِهِ ﷺ، وَقَدْ احْتَالَ الشَّيْطَانُ لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ، فَقَيَّضَ لَهُمْ قَوْمَ سُوءٍ يَخْتَرِعُونَ لَهُمُ الْأَدْعِيَةَ، يَسْتَغْلِقُونَ بِهَا عَنِ الْإِقْدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَأَشَدُّ مَا فِي الْإِحَالَةِ أَنَّهُمْ يَنْسِبُونَهَا إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَيَقُولُونَ: دُعَاءُ نُوحٍ! دُعَاءُ يُونُسَ! دُعَاءُ أَبِي بَكْرٍ! فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِكُمْ، لَا تَسْتَغْلِقُوا مِنَ الْحَدِيثِ إِلَّا الصَّحِيحَ».

وَبَعْدُ، فَهَذِهِ عِبْرَةٌ لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ الْأَلْفَافِ النَّبَوِيَّةِ، الْمُتَوَسِّعِينَ فِي ابْتِدَاعِ الْأَذْكَارِ وَالْأَدْعِيَةِ، الْمُفْتُونِينَ بِالْأَلْفَافِ الْبَشَرِيَّةِ، لَا سِوَا مَا تُرْثِرُ فِيهِ بَزْخُرْفٍ مِنَ السَّجْعِ، كَمَا أَنَّهَا تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْتَغْلِقُونَ جَهْلَ الْعَوَّامِ وَحُبَّهُمُ لِلذِّكْرِ لِيَبْعَثُوا لَهُمُ الْأَدْعِيَةَ؛ كَيْ تُمَلَأَ لَهُمُ الْأَوْعِيَةُ، وَالسَّعِيدُ مَنْ اتَّبَعَ

السُّنَّةُ، وَأَيَقَنَ أَنَّهَا خَيْرٌ مَا تُعْبَدُ بِهِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّةُ، وَقَدْ كَانَ خَيْرُهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ
 أَيْقَظَ النَّاسَ لَاتِّبَاعِ الْأَذْكَارِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا نَطَقَ بِهَا الْمُصْطَفَى ﷺ، فَعَنْ نَافِعٍ
 « أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ إِلَى جَنْبِ ابْنِ عُمَرَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى
 رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَأَنَا أَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ
 اللَّهِ، وَلَيْسَ هَكَذَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَلَّمَنَا أَنْ نَقُولَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى
 كُلِّ حَالٍ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٧٣٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

وَأَمَّا كَوْنُ أَدْعِيَةِ الْبَشَرِ لَا تَسْلُمُ مِنَ النَّقْصِ، فَإِنِّي أُمَثِّلُ لَهُ بِمِثَالِ مَا تَع
 وَمُقْنَعٍ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٨٨) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ
 رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ: هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ! كُنْتُ أَقُولُ:
 اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ! أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي
 الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، قَالَ: فَدَعَا اللَّهُ لَهُ
 فَشَفَّاهُ ».

فَهَذَا صَحَابِيٌّ كَادَ يُهْلِكُ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا حِينَ اخْتَارَ هَذَا الدُّعَاءَ الَّذِي
 ظَاهِرُهُ خَيْرٌ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْحَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ، لَكِنْ مَنْ ذَا الَّذِي يُطِيقُ عَذَابَ
 اللَّهِ؟! فَإِذَا كَانَ الصَّحَابِيُّ - الَّذِي كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - عُرْضَةً لِلْخَطِإِ فِي
 اخْتِيَارِ الْأَدْعِيَةِ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُ؟! وَاللَّهُ الْعَاصِمُ.

سُورَةُ النِّسَاءِ

دَلِيلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّمَا الْعَفْوُ مَا كَانَ عَنْ مَقْدَرَةٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (٤٨) ﴿إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ (٤٩) (النساء ١٤٩).

في هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فَائِدَتَانِ:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ لِلْمَظْلُومِ أَنْ يُعَامِلَ الظَّالِمَ بِالْعَدْلِ فَيَنْتَصِرَ مِنْهُ، لَكِنَّهُ لَوْ عَفَا عَنْهُ لَكَانَ هُوَ الْفَضْلُ الَّذِي نَدَبَ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَيْهِ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ كَثِيرًا مَا يَجْتَمِعَانِ فِي آيِ الْقُرْآنِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۚ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى ٤٠)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) (الشورى ٤١-٤٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل ١٢٦)، وَهُمَا الْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ (٩٠): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾، وَهُمَا الْحَقُّ الْجَائِزُ اسْتِيفَاؤُهُ مِنَ الصَّدَاقِ وَالْعَفْوُ الْمَدْبُوبُ إِلَيْهِ فِيهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢٣٧) فِي حَقِّ الْمُطَلَّاقَةِ غَيْرِ الْمَسْوُوسَةِ وَالْمَفْرُوضِ لَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ

فَرِيضَةٌ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوبَ أَوْ يُعْفُوا الَّذِي يَبْدِيهِ عُقْدَةُ
 النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ۖ وَهُمَا الْإِنْظَارُ وَالتَّصَدُّقُ
 الْمَذْكُورَانِ فِي حَقِّ الْمَدِينِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَيْضاً (٢٨٠) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ
 كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ ۖ وَهُمَا الْقِصَاصُ وَالتَّصَدُّقُ الْمَذْكُورَانِ فِي سُورَةِ
 الْمَائِدَةِ (٤٥) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ
 بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ
 قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾.

الفائدة الثانية: الله ممدوح بكل اسم تسمى به، وبكل صفة اتصف
 بها، وذلك على سبيل الانفراد، فإذا قرن اسم من أسمائه بآخر أو
 بصفة من صفاته كان كمالاً في كمال، قال ابن القيم في «تهذيب
 السنن» (١٧٩/٥): «وهذا نوع آخر من الثناء عليه غير الثناء
 بمفردات تلك الأوصاف العلية، فله سبحانه من أوصافه العلى نوعاً
 ثناءً: نوع متعلق بكل صفة على انفرادها، ونوع متعلق باجتماعها،
 وهو كمال مع كمال، وهو عامة الكمال»، ثم مثل لذلك ببعض
 الآيات، منها هذه الآية التي اخترناها من سورة النساء، ثم قال:
 «وهذا يطالع ذا اللب على رياض من العلم أنيقات، ويفتح له باب
 محبة الله ومعرفته، والله المستعان وعليه التكلان»، وبين ﷺ في
 «جلاء الأفهام» (٣١٨/١) أن اجتماع هذين الاسمين: (العفو
 والقدير) من اجتماع معنى الإكرام بمعنى العظمة؛ وذلك لأن العفو

من معاني الإكرام والإحسان إلى الخلق، وأما القدرة فمن معاني العظمة كما هو ظاهر، وانظر أيضاً « مدارج السالكين » (١ / ٣٦ - ٣٧).

وقد قرن الله هنا بين اسمه العفو واسمه القدير لحكمة بالغة، وهي أن عفو المجني عليه عن الجاني يحبب شرعاً إذا كان عن مقدرة، ولم أر من نبه على هذه الفائدة القرآنية البديعة قبل الإمام البخاري رحمه الله، وذلك فيما نقله عن إبراهيم النخعي رحمه الله، فقد قال في « صحيحه » (٥ / ٩٩ - مع الفتح): « باب الانتصار من الظالم؛ لقوله جل ذكره: ﴿ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (النساء ١٤٨) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (الشورى ٣٩)، قال إبراهيم: كانوا يكرهون أن يستدلوا، فإذا قدرُوا عَفُوا، وهذا الأثر وصله سفيان في « تفسيره » (١ / ١٦٨) وابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في « تفسير ابن كثير » بسند صحيح، وانظر « تغليق التعليق » لابن حجر (٣ / ٣٣٢ - ٣٣٣)، ثم أتبعه البخاري بقوله: « باب عفو المظلوم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خُفِّوهُ أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ (١) ، ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ (الشورى ٤٠) ، قال ابن حجر في « الفتح » (٥ / ١٠٠): « أي وقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ إلخ، وكأنه يشير إلى ما أخرجه الطبري عن السدي في قوله: ﴿ أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ ﴾: أي عن ظلم، وروى ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مِثْلَهَا»، قَالَ: إِذَا شَتَمَكَ شَتَمْتَهُ بِمِثْلِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَعْتَدِيَ، ﴿وَجَزَؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وعن الحسن: رُخِّصَ لَهُ إِذَا سَبَّهُ أَحَدٌ أَنْ يَسْبَهُ، وَفِي الْبَابِ حَدِيثٌ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَجَلَانَ^(١) عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ مَظْلَمَةً فَعَفَا عَنْهَا إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ^(٢)». «

وَمِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي جَاءَ التَّصْرِيحُ فِيهَا بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَةُ الْبَابِ مَا رَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٦٢١٧) وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣٣٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةٌ، وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَى يُحِبُّهَا، قَالَ: يَا رَبِّ! أَيُّ عِبَادِكَ أَتَقَى؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُ وَلَا يَنْسَى، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَهْدَى؟ قَالَ: الَّذِي يَتَّبِعُ الْهَدَى، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعَزُّ؟ قَالَ: الَّذِي إِذَا قَدَرَ غَفَرَ، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: الَّذِي يَرْضَى بِمَا يُؤْتَى، قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَفْقَرُ؟ قَالَ: صَاحِبٌ مَنَقُوصٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) فِي الْأَصْلِ: مِنْ طَرِيقِ عَجَلَانَ، وَهُوَ خَطَأٌ وَاضِحٌ مِنَ النَّاسِخِ أَوْ الطَّائِعِ.

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٤٣٦/٢) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٩٦-٤٨٩٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٢٢٣١).

لَيْسَ الْغِنَى عَنْ ظَهْرٍ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ جَعَلَ غِنَاهُ فِي نَفْسِهِ وَتُقَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ شَرٍّ جَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَمَعْنَى «صَاحِبُ مَنَقُوصٍ» أَي جَشِيعٌ، مَهْمَا أُعْطِيَ مِنْ خَيْرٍ لَمْ يَقْنَعْ بِهِ، فَسَّرَهُ ابْنُ حَبَّانٍ هَذَا فِي الْحَدِيثِ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: «يَسْتَقِلُّ مَا أُوتِيَ، وَيَطْلُبُ الْفَضْلَ».

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ مَدَحَ اللَّهُ الَّذِينَ يَنْتَصِرُونَ مِنَ الْبُغَاةِ، فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٢٤٠)، مَعَ أَنَّهُ مَدَحَ الْعَافِينَ التَّارِكِينَ لِلانْتِصَارِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ؟ كَانَ تَوْجِيهُ ذَلِكَ بِأَرْبَعَةِ أَجَوِبَةٍ:

الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْانْتِصَارُ بِقَدْرِ الْبَغْيِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ، وَقَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى تَرْكِ الْمَجَاوِزَةِ، فَمِنْ أَجْلِ صَبْرِهِ عَلَى الْعَدْلِ فِي مُبَادَلَةِ الْجَنَانِ جِنَانِيَّتَهُ كَانَ الْمَدْحُ، وَلَثَلَا يَحْصُلُ الظُّلْمُ عِنْدَ دَفْعِ الْمَظْلَمَةِ أَتْبَعَهُ اللَّهُ بَيَانَهُ، فَقَالَ بَعْدَ الْآيَةِ: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا﴾، أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٩٩/٥ وَ ١٠٠) وَالْقَارِي فِي «عُمْدَةِ الْقَارِي» (٢٩١/١٢).

الثَّانِي: أَنْ مَدَحَ الْعَفْوُ مَقْرُونٌ بِالْقُدْرَةِ، فَإِذَا انْعَدَمَتْ كَانَ الْانْتِصَارُ أَوْلَى؛ لَثَلَا يَجْتَرِئُ الْفُسَّاقُ عَلَى الصَّالِحِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «غَرِيبِ الْحَدِيثِ» (٥٩-٦٠)؛ وَلَأَنَّ الْانْتِصَارَ يَكُونُ حِينَئِذٍ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ عَفَا وَلَمْ يَنْتَصِرْ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى مُنْكَرٍ، وَنَقَلَهُ الشَّعَالِيُّ فِي «الْجَوَاهِرِ الْحَسَنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (١١٤/٤) عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ.

الثالث: أَنَّ الانتِصارَ المَحمودَ هُوَ مَا كَانَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُم
بَغْيُ الْمُشْرِكِينَ فِي الدِّينِ انتَصَرُوا عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ، قَالَه الْقَارِي فِي
«عَمْدَةِ الْقَارِي» (١٢/٢٩١).

الرَّابِع: أَنَّ الانتِصارَ غَيْرُ الْعُقُوبَةِ؛ لِأَنَّهُ مُجَرَّدُ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، فَإِذَا
أَمَكَنَ اللَّهُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ عَفَا عَنْهُ، قَالَه ابْنُ الْقِيمِ فِي
«الرُّوحِ» (ص ٢٤١-٢٤٣)، وَابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ
وَالْحِكَمِ» (ص ٢٧٥-٢٧٦).

وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَجُوبَةِ، وَلِذَلِكَ جَمَعَهَا كُلُّهَا ابْنُ
الْقِيمِ بِقَوْلِهِ فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ: «وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ وَالذُّلِّ أَنَّ الْعَفْوَ
إِسْقَاطُ حَقِّكَ جُوداً وَكِرْماً وَإِحْسَاناً مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى الانتِقامِ، فَتُؤَثِّرُ
التَّرْكَ رَغْبَةً فِي الإِحْسَانِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، بِخِلَافِ الذُّلِّ فَإِنَّ صَاحِبَهُ
يَتْرُكُ الانتِقامَ عَجْزاً وَخَوْفاً وَمَهَانَةً نَفْسٍ، فَهَذَا مَذْمُومٌ غَيْرُ مَحْمُودٍ،
وَلَعَلَّ الْمُنتَقِمَ بِالْحَقِّ أَحْسَنُ حَالاً مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ
الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (الشورى ٣٩)، فَمَدَحَهُم بِقُوَّتِهِمْ عَلَى
الانتِصارِ لِنُفُوسِهِمْ وَتَقَاضِيهِمْ مِنْهَا ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا قَدَرُوا عَلَى مَنْ
بَغَى عَلَيْهِمْ وَتَمَكَّنُوا مِنْ اسْتِيفَاءِ مَا لَهُمْ عَلَيْهِ نَدَبَهُمْ إِلَى الْخُلُقِ الشَّرِيفِ
مِنَ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ، فَقَالَ: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى ٤٠)،
فَذَكَرَ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةَ: الْعَدْلَ وَأَبَاحَهُ، وَالْفَضْلَ وَنَدَبَ إِلَيْهِ، وَالظُّلْمَ
وَحَرَمَهُ، فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ مَدَحَهُمْ عَلَى الانتِصارِ وَالْعَفْوِ وَهُمَا

مُتَنَافِيَانِ؟ قِيلَ: لَمْ يَمْدَحْهُمْ عَلَى الْإِسْتِيفَاءِ وَالْإِنْتِقَامِ، وَإِنَّمَا مَدَحَهُمْ عَلَى الْإِنْتِصَارِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ عَلَى اسْتِيفَاءِ حَقِّهِمْ، فَلَمَّا قَدَرُوا نَدَبَهُمْ إِلَى الْعَفْوِ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَا، فَمَدَحَهُمْ عَلَى عَفْوٍ بَعْدَ قُدْرَةٍ، لَا عَلَى عَفْوٍ ذُلٍّ وَعَجْزٍ وَمَهَانَةٍ، وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي مَدَحَ سُبْحَانَهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا قَدِيرًا^(١)، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ٢١٨)، وَفِي أَثَرٍ مَعْرُوفٍ: حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: اثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ، وَاثْنَانِ يَقُولَانِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ، وَلِهَذَا قَالَ الْمَسِيحُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة ١١٨)، أَيْ إِنْ غَفَرْتَ لَهُمْ غَفَرْتَ عَنْ عِزَّةٍ: وَهِيَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَحِكْمَةٍ: وَهِيَ كَمَالُ الْعِلْمِ، فَغَفَرْتَ بَعْدَ أَنْ عَلِمْتَ مَا عَمِلُوا وَأَحَاطْتَ بِهِمْ قُدْرَتُكَ؛ إِذِ الْمَخْلُوقُ قَدْ يَغْفِرُ لِعَجْزِهِ عَنِ الْإِنْتِقَامِ وَجَهْلِهِ بِحَقِيقَةِ مَا صَدَرَ مِنَ الْمُسِيءِ، وَالْعَفْوُ مِنَ الْمَخْلُوقِ ظَاهِرُهُ ضَمِيمٌ وَذُلٌّ، وَبَاطِنُهُ عِزٌّ وَمَهَابَةٌ، وَإِنْتِقَامُ ظَاهِرُهُ عِزٌّ وَبَاطِنُهُ ذُلٌّ، فَمَا زَادَ اللَّهُ بِعَفْوِهِ إِلَّا عِزًّا، وَلَا انْتَقَمَ أَحَدٌ لِنَفْسِهِ إِلَّا ذُلٌّ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِفَوَاتِ عِزِّ الْعَفْوِ، وَلِهَذَا مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ لِنَفْسِهِ قَطُّ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (الشورى ٣٩)، كَيْفَ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ مَا

(١) الْآيَةُ بِلَفْظٍ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾.

يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً - بل لا بد من المجاوزة - شرع فيه سبحانه المائلة والمساواة، وحرّم الزيادة وندب إلى العفو، والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والدّل من أخلاق الأمارة، ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظّه ورقّ هواه، فإنه حينئذ ينال حظاً من العز الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بُغِيَ عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزّه به؛ غيرة على ذلك العز أن يستصام ويُقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستدلّ، فهو يقول للباغي عليه: أنا مملوك من لا يُذلّ مملوكه ولا يجب أن يُذله أحد، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحبّ بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظّها وظفرها بالباغي تشفياً فيه وإذلالاً له، وأمّا النفس التي خرجت من ذل حظّها ورقّ هواها إلى عزّ توحيدها وإنابتها إلى ربّها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزّها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربّها ومولآها، وقد ضرب لذلك مثل بعبدين من عبيد الغلة حرّائين، ضرب أحدهما صاحبه، فعفا المضروب عن الضارب نصحاً منه لسيّده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيّد، فلم يجشم سيّده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي على عفوّه، ووقع منه بموقع، وعبد آخر قد أقامه بين يديه،

وَجَمَلَهُ وَأَلْبَسَهُ ثِيَاباً يَقِفُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعَمَدَ بَعْضُ سُؤَاسِ الدَّوَابِّ وَأَضْرَابِهِمْ وَلَطَخَ تِلْكَ الثِّيَابَ بِالْعَدْرَةِ أَوْ مَرْقَهَا، فَلَوْ عَفَا عَمَّنْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ لَمْ يُوَافِقْ عَفْوُهُ رَأْيَ سَيِّدِهِ وَلَا مُحِبَّتَهُ، وَكَانَ الْإِنْتِصَارُ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَأَوْفَقَ لِمَرْضَاتِهِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكَ جُرْأَةً عَلَيَّ وَاسْتِخْفَافاً بِسُلْطَانِي، فَإِذَا أَمَكَّنَهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ فَأَذَلَّهُ وَقَهَّرَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَبْطِشَ بِهِ، فَذَلَّ وَانْكَسَرَ قَلْبُهُ، فَإِنَّ سَيِّدَهُ يَحِبُّ مِنْهُ أَنْ لَا يُعَاقِبَهُ لِحِظَةٍ، وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ حَقَّ السَّيِّدِ، فَيَكُونُ إِنْتِصَارُهُ حِينَئِذٍ لِمَحْضِ حَقِّ سَيِّدِهِ لَا لِنَفْسِهِ، كَمَا رَوَى عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ فَاسْتَعَاثَ بِهِ، وَقَالَ: هَذَا مَنْعَنِي حَقِّي وَلَمْ يُعْطِنِي إِيَّاهُ، فَقَالَ: أَعْطِهِ حَقَّهُ، فَلَمَّا جَاوَزَهُمَا لَجَّ الظَّالِمُ وَلَطَمَ صَاحِبَ الْحَقِّ، فَاسْتَعَاثَ بِعَلِيٍّ، فَرَجَعَ وَقَالَ: أَتَاكَ الْغَوْثُ، فَقَالَ لَهُ: اسْتَقْدَمْتَهُ، فَقَالَ: قَدْ عَفَوْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَضْرَبَهُ عَلِيٌّ تِسْعَ دَرَرٍ، وَقَالَ: قَدْ عَفَا عَنْكَ مَنْ لَطَمْتَهُ، وَهَذَا حَقُّ السُّلْطَانِ، فَعَاقَبَهُ عَلِيٌّ لَمَّا اجْتَرَأَ عَلَى سُلْطَانِ اللَّهِ وَلَمْ يَدْعُهُ، وَيُشَبِّهُ هَذَا قِصَّةَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ عليه السلام، فَقَالَ: احْمِلْنِي؛ فَوَاللَّهِ! لَأَنَا أَفْرَسُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِكَ، وَعِنْدَهُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِهِ وَصَلَكَ بِهَا أَنْفَ الرَّجُلِ، فَسَالَ الدَّمَ، فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ عليه السلام، فَقَالُوا: أَقْدَنَا مِنَ الْمُغِيرَةِ، فَقَالَ: أَنَا أَقِيدُكُمْ مِنْ وَزَعَةِ اللَّهِ ^(١)؟! لَا أَقِيدُكُمْ مِنْهُ، فَرَأَى أَبُو بَكْرٍ أَنَّ ذَلِكَ إِنْتِصَارٌ مِنَ الْمُغِيرَةِ وَحَمِيَّةٌ لِلَّهِ وَلِلْعَزِّ الَّذِي أَعَزَّ بِهِ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِيَتِمَّكَنَ بِذَلِكَ الْعَزُّ مِنْ حُسْنِ خِلَافَتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَتَرَكَ قَوْدَهُ

(١) جَمْعُ وَازِعٍ: وَهُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الصَّفَّ فَيُصْلِحُهُ، كَمَا فِي «مُخْتَارِ الصَّحَاحِ».

لا جبرائله على عز الله وسُلطانه الذي أعزَّ به رَسوله ودينه وخليفته،
فهَذَا لَوْنٌ، وَالضَّرْبُ حِمَّةٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ لَوْنٌ».

فِي تَلَخُّصٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْوِبَةِ أَنَّ الْعَفْوَ هُوَ الْجَادَّةُ الْمَسْلُوكَةُ الْفُضْلَى
عِنْدَ الْقُدْرَةِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي « تَفْسِيرِ الْبَغْوِيِّ » (١٢٩/٤ - ١٣٠):
« قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ: صِنْفٌ يَغْفُونَ عَنْ ظَالِمِيهِمْ
فَبَدَأَ بِذِكْرِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشُّورَى
٣٧)، وَصِنْفٌ يَتَنَصَّرُونَ مِنْ ظَالِمِيهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي هَذِهِ
الْآيَةِ »، ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ.

قُلْتُ: وَكَذَلِكَ خَتَمَ آيَةَ الْإِنْتِصَارِ بِآيَةِ الْعَفْوِ، فَقَالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشُّورَى ٤٠)، لَكِنْ
عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْقَائِلِ:

إِذَا قِيلَ حِلْمٌ قُلْ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ
وَقَوْلُ الْآخَرِ:

كُلُّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ إِقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَا جِئُ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

سِرُّ التَّغْيِيرِ بِالرُّكُوعِ وَإِرَادَةِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ (المائدة ٥٥).

مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا مَا يَحْتَثُّ عِبَادَهُ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ بِذِكْرِ جُزْءٍ مِنْهَا، وَغَالِبًا مَا يُنَوِّهُ بِالسُّجُودِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (آل عمران ١١٣)، وَقَوْلِهِ: ﴿ سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (الفتح ٢٩)، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنْ آلِئِلٍ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (الإنسان ٢٦)، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ هِيَ أَنَّ السُّجُودَ أَقْرَبُ حَالَةٍ يَكُونُ فِيهَا الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ؛ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ »، وَقَدْ دَلَّ عَلَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق ١٩)، فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ، أَيْ بَيْنَ السُّجُودِ وَالِاقْتِرَابِ! لَكِنْ جَاءَ التَّنْوِيهُ فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ هَذِهِ بِالصَّلَاةِ بِذِكْرِ الرُّكُوعِ لَا السُّجُودِ، حَيْثُ قَالَ ﷻ: ﴿ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾، فَمَا وَجْهُهُ؟

الْجَوَابُ: لَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ مَدْحَ هَؤُلَاءِ لَا بِمَجَرَّدِ أَدَاءِ الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى زَائِدٍ عَلَى الْأَدَاءِ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُضْمَنٌ فِي كَلِمَةِ الرُّكُوعِ وَيَكُونُ مِمَّا اخْتَصَّتْ بِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، وَمِمَّا لَا

يُخَفَى عَلَى الْقَارِئِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَنَّ فِي الرُّكُوعِ مِيزَةً إِدْرَاكِ الْجَمَاعَةِ،
فَمَنْ أَدْرَكَ الرُّكُوعَ مَعَ الْإِمَامِ فَقَدْ أَدْرَكَ الرَّكْعَةَ بِخِلَافِ السُّجُودِ؛
فَعَنْ ابْنِ مُغْفَلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِذَا وَجَدْتُمُ الْإِمَامَ سَاجِدًا
فَاسْجُدُوا، أَوْ رَاكِعًا فَارْكَعُوا، أَوْ قَائِمًا فَقُومُوا، وَلَا تَعْتَدُوا بِالسُّجُودِ
إِذَا لَمْ تُدْرِكُوا الرَّكْعَةَ » أَخْرَجَهُ إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورِ الْمُرُوزِيِّ فِي
« مَسَائِلِ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ » - كَمَا فِي « السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ » لِلْأَلْبَانِيِّ
(١١٨٨) - وَالْبَيْهَقِيِّ (٢/ ٨٩)، وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ هُنَاكَ، فَدَلَّ
هَذَا السِّيَاقُ الْقِرَاءَتِيَّ الْكَرِيمُ عَلَى التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْجَمَاعَةِ زِيَادَةً عَلَى التَّنْوِيهِ
بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ نَفْسَهَا.

وَأَيَّةُ الْمَائِدَةِ هَذِهِ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ الْبَقَرَةِ (٤٣) الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ فِيهَا:
﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ٤٣، وَقَدْ نَبَّهَ
عَلَيْهِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « مِنْهَاجِ السُّنَّةِ » (٧/ ٢٧٣)، فَقَالَ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ:
« قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ فِي الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الرَّكْعَةَ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِإِدْرَاكِ
الرُّكُوعِ ».

وَتَتِمُّمًا لِلْفَائِدَةِ أَقُولُ: فَقَدْ اخْتَرَعَ الْحَاقِدُونَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا كَذِبًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتَتِجُونَ مِنْهُ أَنَّ عَلِيًّا ؓ
أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ آيَةَ الْمَائِدَةِ هَذِهِ نَزَلَتْ فِيهِ رَعَمُوا، فَرَوَا
أَنَّ سَائِلًا أَتَى يَسْأَلُ النَّاسَ وَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَكَانَ عَلِيٌّ ؓ رَاكِعًا وَفِي
أَصْبَعِهِ خَاتَمٌ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ لِيَسْحَبَ الْخَاتَمَ مِنْ يَدِهِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ
أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ كَذِبِهَا لِسَخَافَتِهَا وَسَخَافَةِ عُقُولِ

مُصَدِّقِيهَا فَضْلاً عَنْ وَاضِعِيهَا، فَإِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُنْقَلَ رَدُّ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ
 ﷺ عَلَى مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَا مِنْ أَوْلَئِكَ؛ بُغْيَةً أَنْ يُمَيِّزَ الْقَارِئُ الَّذِي هَدَاهُ
 اللَّهُ إِلَى السُّنَّةِ الْفَرَقَ الْكَبِيرَ بَيْنَ أَهْلِ النُّورِ وَالْبَصِيرَةِ وَأَهْلِ الظُّلَامِ
 وَالْعَمَى، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ ﷺ فِي « مِنْهَاجِ السُّنَّةِ » (٢/ ٣٠-٣٣):
 « وَقَدْ وَضَعَ بَعْضُ الْكَذَّابِينَ حَدِيثاً مُفْتَرِئاً: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي
 عَلِيٍّ لَمَّا تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا كَذِبٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ
 بِالنُّقْلِ، وَكَذِبُهُ بَيِّنٌ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ:

- مِنْهَا أَنْ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِينَ﴾ صِيغَةُ جَمْعٍ، وَعَلِيٌّ وَاحِدٌ.

- وَمِنْهَا أَنَّ الْوَائِدَ لَيْسَتْ وَائِدُ الْحَالِ^(١)؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ لَا
 يَسُوعُ أَنْ يُتَوَلَّى إِلَّا مَنْ أُعْطِيَ الزَّكَاةَ فِي حَالِ الرُّكُوعِ، فَلَا يُتَوَلَّى سَائِرُ
 الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ.

- وَمِنْهَا أَنَّ الْمَدْحَ إِنَّمَا يَكُونُ بِعَمَلٍ وَاجِبٍ أَوْ مُسْتَحَبٍّ، وَإِيتَاءُ
 الزَّكَاةِ فِي نَفْسِ الصَّلَاةِ لَيْسَ وَاجِباً وَلَا مُسْتَحَبّاً بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ؛ فَإِنَّ
 فِي الصَّلَاةِ شُغْلاً^(٢).

- وَمِنْهَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيْتَاؤُهَا فِي الصَّلَاةِ حَسَناً لَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ حَالِ
 الرُّكُوعِ وَغَيْرِ حَالِ الرُّكُوعِ، بَلْ إِيْتَاؤُهَا فِي الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ أَمَكَّنَ.

(١) أَيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: « كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ فَيَرُدُّ
 عَلَيْنَا، فَلَمَّا رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِ النَّجَاشِيِّ سَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْنَا، وَقَالَ: إِنَّ فِي الصَّلَاةِ
 شُغْلاً » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

- ومنها أن علياً لم يكن عليه زكاة على عهد النبي ﷺ^(١).

- ومنها أنه لم يكن له أيضاً خاتم ولا كانوا يلبسون الخواتم، حتى كتب النبي ﷺ كتاباً إلى كسرى، فقليل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلاّ محتوماً، فاتخذ خاتماً من ورق ونقش فيها: محمدٌ رهول الله^(٢).

- ومنها أن إيتاء غير الخاتم في الزكاة خيرٌ من إيتاء الخاتم؛ فإن أكثر الفقهاء يقولون لا يجزئ إخراج الخاتم في الزكاة.

- ومنها أن هذا الحديث فيه أنه أعطاه السائل، والمدح في الزكاة أن يُخرجها ابتداءً ويُخرجها على الفور لا يتتظر أن يسأله سائل.

- ومنها أن الكلام في سياق النهي عن موالاة الكفار والأمر بموالاة المؤمنين، كما يدل عليه سياق الكلام، وسيجيئ - إن شاء الله - تمام الكلام على هذه الآية؛ فإن الرافضة لا يكادون يحتجون بحجة إلاّ

(١) لأنه كان فقيراً؛ فقد قال ابن عباس: «لما تزوج عليّ فاطمة قال له رسول الله ﷺ: أعطها شيئاً، قال: ما عندي شيء! قال: أين دِزْعُك الحُطْمِيّة؟» رواه أبو داود (٢١٢٥)، وصحّحه الألباني فيه، قال في «عون المعبود» (١١٤/٦) شارحاً كلمة (الحُطْمِيّة): «بضم الحاء المهملة وفتح الطاء المهملة منسوبة إلى الحطم، سُميت بذلك؛ لأنها تُحطّم السيوف، وقيل: منسوبة إلى بطنٍ من عبد القيس يُقال له: حطمة ابن مُحارب، كانوا يعملون الدروع، كذا في النهاية».

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٦٥) ومسلم (٢٠٩٢) عن أنس بن مالك قال: «لما أَرَادَ رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم، قال: قالوا: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلاّ محتوماً، قال: فاتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من فضة، كأنّي أنظر إلى بياضه في يد رسول الله ﷺ نقشه: (محمدٌ رسول الله)».

كَانَتْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ، كَا حَتِجَاجِهِمْ بِهِذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْوَلَايَةِ الَّتِي هِيَ الْإِمَارَةُ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْوَلَايَةِ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، وَالرَّافِضَةُ مُحَالِفُونَ لَهَا، وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَالنُّصَيْرِيَّةُ وَنَحْوُهُمْ يُوَالُونَ الْكُفَّارَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ فِيهِمْ، يُعَادُونَ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُوَالُونَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِنَ التُّرُكِ وَغَيْرِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال ٦٤)، أَيِ اللَّهِ كَافِيكَ وَكَافِي مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالصَّحَابَةُ أَفْضَلُ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوَّلُهُمْ.

فَانظُرْ - أَخِي السُّنِّيَّ! - إِلَى مَا هَذَاكَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ بَلَاغَةٍ تَجْعَلُ الْعُقُولَ الْمُتَدَبِّرَةَ وَاقِفَةً أَمَامَ إِعْجَازِهِ مُتَحِيرَةً، وَقَابِلُهَا بِتِلْكَ السَّخَافَةِ الَّتِي نَجَّكَ اللَّهُ مِنْهَا، وَاحْمَدِ الْهَادِيَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هل جاء في القرآن حكم الحوت الطافي؟

قال الله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَكُمْ

وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة ٩٦).

جاءت السنة القولية والفعلية صريحة بإباحة الحوت الذي قذف به البحر، أما القولية ففيها رواه أحمد (٩٧/٢) وابن ماجه (٣٢١٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١١٨) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ»، وأما الفعلية ففيها رواه البخاري ومسلم عن جابر قال: «بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمرٍ لم نجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يُعطينا ثمرة تمر، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يَمصُّ الصَّبِيُّ ثم نشربُ عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضربُ بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفِعَ لنا على ساحل البحر كهَيْئَةِ الكَثِيبِ الضَّخَمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ، قال: قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ، ثم قال: لا! بل نحنُ رُسُلُ رسولِ الله ﷺ وفي سبيلِ الله وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحنُ ثلاث مائةٍ حتَّى سَمِنَّا... وتزوّدنا من لحمه وشائق، فلما قَدِمْنَا المدينةَ أَتَيْنَا رسولَ الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: هُوَ رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ فَتُطْعِمُونَا؟ قال: فأرسلنا إلى رسولِ الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ»، وقد دلَّ الحديثُ على حُكْمَيْنِ:

الأول: إباحة ما رمى به البحر من حيوانه.

الثاني: إباحته مطلقاً دون تقييد بحالة الضرورة؛ لأن الصحابة لم يكتفوا بسد الرَّمق منه، بل ذكّر جابرٌ أنهم تزودوا منه، كما أن الرسول ﷺ سألهم أن يطعموه منه وهو بالمدينة، وهذا ليس طعام ضرورة كما لا يخفى.

هذا من السنة، وأمّا من القرآن، فقد استنبط ذلك من آية الباب عمرُ بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، روى ابن جرير في «جامع البيان» عن تأويل أي القرآن «(٧٢٦/٨- هجر) بسند حسن عن أبي هريرة قال: «كنت بالبحرين، فسألوني عما قذف البحر، قال: فأفتيتهم أن يأكلوا، فلما قدمت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكرت ذلك له، فقال لي: بم أفتيتهم؟ قال: قلت: أفتيتهم أن يأكلوا، قال: لو أفتيتهم بغير ذلك لعلوئك بالدرّة، قال: ثم قال: إنّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَعًا لَكُمْ﴾، فصيده ما صيد منه، وطعامه ما قذف».

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الطعام المنصوص عليه في الآية هو الصيد البحري المملح، وردّه ابن جرير واختار القول الأول، وعلّله بتعليل بلاغي قوي، فقال (٧٣٤/٨): «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندنا قول من قال ﴿طعامه﴾: ما قذفه البحر أو حسر عنه فوجد ميتاً على ساحله؛ وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر قبله صيد البحر الذي يُصاد، فقال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، فالذي

يَجِبُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَيْهِ فِي الْمَفْهُومِ مَا لَمْ يُصَدِّ مِنْهُ، فَيُقَالُ: أُحِلَّ لَكُمْ مَا صَدَّتْهُ مِنَ الْبَحْرِ وَمَا لَمْ تَصِيدُوهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْمَلِيحُ فَإِنَّهُ مَا كَانَ مِنْهُ مُلْحٌ بَعْدَ الْإِصْطِيَادِ فَقَدْ دَخَلَ فِي جُمْلَةِ قَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، فَلَا وَجْهَ لَتَكْرِيرِهِ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَقَدْ أَعْلَمَ عِبَادَهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ إِحْلَالَهُ مَا صِيدَ مِنَ الْبَحْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، فَلَا فَائِدَةَ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ: وَمَلِيحُهُ الَّذِي صِيدَ حَلَالٌ لَكُمْ؛ لِأَنَّ مَا صِيدَ مِنْهُ، فَقَدْ بَيَّنَّ تَحْلِيلَهُ طَرِيقًا كَانَ أَوْ مَلِيحًا بِقَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾، وَاللَّهُ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُخَاطَبَ عِبَادَهُ بِمَا لَا يُفِيدُهُمْ بِهِ فَائِدَةٌ».

وَأَمَّا الْحُكْمُ الثَّانِي الَّذِي هُوَ الْإِبَاحَةُ مُطْلَقًا، فَإِنَّهُ مُسْتَخْلَصٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَتَنَعَا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، وَالْمَقْصُودُ مِنَ السَّيَّارَةِ: السَّائِرُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ صَيْدَ الْبَحْرِ بِشَقِيهِ السَّابِقِينَ حَلَالًا لِلْجَمِيعِ: الْحَاضِرِينَ مِنْهُمْ وَالْمُسَافِرِينَ، فَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِأَهْلِ الضَّرُورَةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

أَحْسَنُ رَدِّ قُرْآنِيٍّ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ فِي خَبَرِ الْآحَادِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأنعام ١٤٨).

مَعْلُومٌ أَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ لَا يَأْخُذُونَ بِخَبَرِ الْآحَادِ فِي الْعَقِيدَةِ، وَيَأْخُذُونَ بِهِ فِي الْأَحْكَامِ؛ مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ خَبَرَ الْآحَادِ يُفِيدُ الظَّنَّ، وَزَعَمُوا أَنَّ كُلَّ الْآيَاتِ الَّتِي ذَمَّتِ الْأَخْذَ بِالظَّنِّ وَرَدَّتْ فِي الْعَقَائِدِ!

وَهَاتَانِ مُقَدِّمَتَانِ غَيْرُ مُسَلِّمَتَيْنِ؛ لِأَنَّ إِفَادَةَ الْآحَادِ الظَّنَّ لَوْ سُلِّمَ لَهُمْ لَكَانَ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ: إِنَّهُ يُفِيدُ الظَّنَّ الرَّاجِحَ، وَقَدْ جَاءَتْ شَرِيعَتُنَا بِالْأَخْذِ بِالظَّنِّ الرَّاجِحِ وَهُمْ يُسَلِّمُونَ بِهَذَا، وَلَسْنَا الْآنَ بِصَدْدِهِ، وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَّةُ - وَهِيَ زَعْمُهُمْ أَنَّ الْآيَاتِ الدَّامَّةَ لَا تُبَاعِ الظَّنَّ وَرَدَّتْ فِي الْعَقَائِدِ دُونَ الْأَحْكَامِ - فَمَنْقُوضَةٌ أَيْضًا، قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الْحَدِيثُ حُجَّةٌ بِنَفْسِهِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ» (ص ٢٦-٢٨): «لَقَدْ عَرَضْتُ لَهُمْ شُبْهَةً ثُمَّ صَارَتْ لَدَيْهِمْ عَقِيدَةً، وَهِيَ أَنَّ حَدِيثَ الْآحَادِ لَا يُفِيدُ إِلَّا الظَّنَّ، وَيَعْنُونَ بِهِ الظَّنَّ الرَّاجِحَ طَبْعًا، وَالظَّنَّ الرَّاجِحُ يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ فِي الْأَحْكَامِ اتِّفَاقًا، وَلَا يَجُوزُ الْأَخْذُ بِهِ عِنْدَهُمْ فِي الْأَخْبَارِ الْغَيْبِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ، وَهِيَ الْمُرَادُ بِالْعَقِيدَةِ،

وَنَحْنُ لَوْ سَلَّمْنَا لَهُمْ جَدَلًا بِقَوْلِهِمْ: (إِنَّ حَدِيثَ الْآحَادِ لَا يُفِيدُ إِلَّا الظَّنَّ) عَلَى إِطْلَاقِهِ، فَإِنَّا نَسْأَلُهُمْ: مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هَذَا التَّفْرِيقُ؟ وَمَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْأَخْذُ بِحَدِيثِ الْآحَادِ فِي الْعَقِيدَةِ؟!

لَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ الْمُعَاصِرِينَ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْمُرْكِينَ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم ٢٣)، وَبِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس ٣٦)، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يَدْعُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا الْمُرْكِينَ عَلَى اتِّبَاعِهِمُ الظَّنَّ، وَفَاتَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَدِلِّينَ أَنَّ الظَّنَّ الْمَذْكُورَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الظَّنُّ الْغَالِبُ الَّذِي يُفِيدُهُ خَبَرُ الْآحَادِ - وَالْوَاجِبُ الْأَخْذُ بِهِ اتِّفَاقًا - وَإِنَّمَا هُوَ الشَّكُّ الَّذِي هُوَ الْخَرَصُ، فَقَدْ جَاءَ فِي (النَّهَائَةِ) وَ(اللِّسَانِ) وَغَيْرَهُمَا مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ: (الظَّنُّ: الشَّكُّ يَعْرُضُ لَكَ فِي الشَّيْءِ فَتَحَقَّقْهُ وَتَحَكَّمْ بِهِ)، فَهَذَا هُوَ الظَّنُّ الَّذِي نَعَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُرْكِينَ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١٤٨)، فَجَعَلَ الظَّنَّ هُوَ الْخَرَصَ الَّذِي هُوَ مُجَرَّدُ الْخَزَرِ وَالتَّخْمِينِ.

وَلَوْ كَانَ الظَّنُّ الْمُنْعَى عَلَى الْمُرْكِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ هُوَ الظَّنُّ الْغَالِبُ كَمَا زَعَمَ أَوْلَئِكَ الْمُسْتَدِلُّونَ لَمْ يَجْزِ الْأَخْذُ بِهِ فِي الْأَحْكَامِ أَيْضًا؛ وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ إِنْكَارًا مُطْلَقًا، وَلَمْ يَخْصَّهِ بِالْعَقِيدَةِ دُونَ الْأَحْكَامِ.

الآخر: أنه تعالى صرَّحَ في بعض الآيات أن الظَّنَّ الذي أنكره على المشركين يشمل القول به في الأحكام أيضاً، فاسمع إلى قوله تعالى الصَّريح في ذلك: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا ﴾، فهذا عقيدة، ﴿ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾، وهذا حكم، ﴿ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾، ويُفسرُها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف ٣٣)، فثبت مما تقدَّم أن الظَّنَّ الذي لا يجوز الأخذ به إنما هو الظَّنُّ اللُّغويُّ المرادفُ للخرص والتَّخمينِ والقول بغير علم، وأنه يحرمُ الحكمُ به في الأحكام كما يحرمُ الأخذُ به في العقائد ولا فرق، وإذا كان الأمر كذلك فقد سلمَ لنا القولُ المُتقدِّم: إنَّ كلَّ الآياتِ والأحاديثِ المُتقدِّمة الدَّالة على وجوبِ الأخذِ بحديثِ الآحادِ في الأحكام، تدُلُّ أيضاً بعُموِمِها وشُمولِها على وجوبِ الأخذِ به في العقائد أيضاً، والحقُّ أنَّ التَّفريقَ بينَ العقيدةِ والأحكامِ في وجوبِ الأخذِ فيها بحديثِ الآحادِ فلسفةٌ دُخيلةٌ في الإسلام، لا يعرفُها السَّلفُ الصَّالحُ ولا الأئمَّةُ الأربعة الذين يُقلِّدُهم جماهيرُ المسلمين في العصرِ الحاضرِ.

لقد حرصتُ على نقل كلام الشيخ رحمه الله؛ لأنه احتجَّ على المتكلِّمين بأية عظيمة لا قبلَ لهم بها، ولم أرَ من سبقَ الشيخَ إلى التَّنبيةِ

على هذه الآية، وعلى هذا، فإن استدّلوا بآية الباب لزمهم أن يدعوا الاستدلال بحديث الآحاد في الأحكام أيضاً لما سبق في كلام الشيخ، وهو مذهب لا يقولون به، وقد نسبته شيخنا الشيخ أحمد محمود عبد الوهاب الشنقيطي - حفظه الله - في كتابه «خبر الواحد وحجيته» (ص ١٤١) إلى قوم من الرافضة والمعتزلة، ولما كانت نصوص السنة المتواترة أقل من نصوص الآحاد، فإن المتكلمين لو امتنعوا من الأخذ بخبر الآحاد في الأحكام أيضاً لأسقطوا أكثر الشريعة بعد أن أسقطوا كثيراً منها في أصلها الأصيل، ألا وهو العقيدة الصحيحة، وإنا لله!!

الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ قَبْلَ النَّحْلِ

استَدَلَّ أَهْلُ الْعِلْمِ بِآيَةِ الْبَابِ - أَيِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ - عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ النَّحْلِ، قَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ بـ « الْعَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّخْسِيرِ » (٢/٦٢٥ - ٦٢٠): « أَمَّا جُلُّ سُورَةِ الْأَنْعَامِ فَهِيَ نَازِلَةٌ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بَلَاءَ خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ نَازِلَةٌ قَبْلَ النَّحْلِ بَلَاءَ شَكٍّ، وَالنَّحْلُ مِنْ لِقُرْآنِ الْمَكِّيِّ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ فِي مَوْضِعَيْنِ أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ النَّحْلِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا نَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ (النَّحْلُ ١١٨)، فَهَذَا الْمَحْرَمُ الْمَقْصُوصُ مِنْ قَبْلِ مُحَالٍ عَلَيْهِ هُوَ النَّازِلُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْإِجْمَاعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ (الْأَنْعَامُ ١٤٦).

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ هَذِهِ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ (الْأَنْعَامُ ١٤٨)، فَبَيْنَ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِدَلَالَةِ حَرْفِ التَّنْفِيسِ الَّذِي هُوَ السَّيْنُ، ثُمَّ بَيْنَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْعُودَ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَقَعَ وَثَبَتَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (النَّحْلُ ٣٥)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَهَا.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مُطَابَقَةُ حَدِيثِ الْوَلِيِّ لِلكِتَابِ الْكَرِيمِ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿۱۹۸﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿۱۹۹﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿۲۰۰﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿۲۰۱﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿۲۰۲﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿۲۰۳﴾ إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿۲۰۴﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿۲۰۵﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿۲۰۶﴾ ﴿

لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ: لِمَاذَا ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْأَصْنَامِ أَرْجُلٌ وَلَا
أَيْدٍ وَلَا أَعْيُنٌ وَلَا آذَانٌ يَنْتَفِعُونَ بِهَا مَعَ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ مُشَاهَدٌ؟
وَالْجَوَابُ يَتَبَيَّنُ مِنْ خَمْسِ فَوَائِدَ عَزِيزَةٍ:

١- أَنْ يُعْلَمَ بَادِي ذِي بَدءٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ هِيَ آيَاتُ الْوَلَايَةِ؛
بَدَلِيلٌ أَنَّهُ تَخَلَّلَهَا الْكَلَامُ عَنْ وَلَايَةِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، وَهُوَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ:
﴿إِنْ وَلَّيَ اللَّهُ الَّذِي تَزَلَّ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
مَنْ اخْتَذَ اللَّهَ وَلِيًّا بِصِدْقٍ اخْتَذَهُ اللَّهُ وَلِيًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَعَنْ شَيْبَةَ

الْحَضَرِيُّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَحَدَّثَنَا عُزُورَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ
 عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ أَخْلَفُ عَلَيْهِنَّ: لَا يَجْعَلُ اللَّهُ
 ﷻ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ كَمَنْ لَا سَهْمَ لَهُ، فَأَسْهُمُ الْإِسْلَامِ ثَلَاثَةٌ:
 الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالزَّكَاةُ، وَلَا يَتَوَلَّى اللَّهُ ﷻ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا فَيُؤْلِيَهُ غَيْرَهُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ ﷻ مَعَهُمْ، وَالرَّابِعَةُ لَوْ
 حَلَفْتُ عَلَيْهَا رَجَوْتُ أَنْ لَا أَمُتَ: لَا يَسْتُرُ اللَّهُ ﷻ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا
 سَتَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: إِذَا سَمِعْتُمْ مِثْلَ هَذَا
 الْحَدِيثِ مِنْ مِثْلِ عُزُورَةَ يَرْوِيهِ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَاحْفَظُوهُ «
 أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٤٥/٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ التَّرْغِيبِ
 وَالتَّرْهيبِ» (٣٧٤)، وَمَنْ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ حَفَظَهُ اللَّهُ فِي سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ
 وَرِجْلِهِ وَيَدَيْهِ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ
 عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ
 بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ
 الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ
 سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا
 فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»، فَذَكَرَ
 هَذِهِ الْأَرْبَعُ: السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالرَّجْلَ وَالْيَدَ، كَمَا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَرْبَعُ كُلَّهَا
 فِي آيَاتِ الْوَلَايَةِ السَّابِقَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
 بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا»، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وَالْمَقْصُودُ نَفْيُ هَذِهِ الْأَرْبَعِ عَنِ الْأَصْنَامِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «بَلْ هِيَ جَمَادٌ لَا تَتَحَرَّكُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَعَابِدُوهَا أَكْمَلُ مِنْهَا بِسْمْعِهِمْ وَبَصَرِهِمْ وَبَطْشِهِمْ!»، وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَبْلَغُ شَيْءٍ فِي بَابِهِ؛ لِأَنَّهَا تَبْكِيَتْ لَمَنْ اتَّخَذَ أَصْنَامًا آلهَةً وَهِيَ لَا تَمْلِكُ سَمْعًا وَلَا بَصَرًا، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهَا تَحْفَظُ سَمْعَ غَيْرِهَا وَبَصَرَهُ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ أَرْجُلًا وَلَا أَيْدِيًا، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهَا تَحْفَظُ أَرْجُلَ غَيْرِهَا وَأَيْدِيَهُمْ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ تَطَابَقَتِ الْآيَتَانِ مَعَ الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ، ثُمَّ وَجَدْتُ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٠٩/١٦) صَرَّحَ بِعِلَاقَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ بِحَدِيثِ الْوَلِيِّ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ: «وَاسْتَفْهَمَ اسْتِفْهَامَ انْكَارٍ وَجُحُودٍ لَطُرُقِ الْإِذْرَاكِ التَّامِّ وَهُوَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَالْعَمَلُ التَّامُّ وَهُوَ الْيَدُ وَالرَّجُلُ، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَخْبَرَ فِيهَا رَوَى عَنْهُ رَسُولُهُ عَنْ أَحِبَّابِهِ الْمُتَقَرِّبِينَ إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ، فَقَالَ: وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، هَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الْأُولَى.

٢- وَإِذَا قُلْتَ: مَا الْحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْأَرْبَعِ دُونَ غَيْرِهَا؟ قِيلَ لَكَ: إِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ الرَّجُلِ وَالْيَدِ ذِكْرُ أَدَوَاتِ الْعَمَلِ، وَمِنْ ذِكْرِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ذِكْرُ أَدَوَاتِ الْعِلْمِ، وَكَمَا أَلِ الْمَرْءُ بِكَمَالِ عِلْمِهِ وَعَمَلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمُ خَيْرُ

الْبَرِيَّةُ ﴿٧﴾ (البينة ٧)، وَلَا يَزَالُ الْمَرْءُ مَحْفُوظًا بِوِلَايَةِ اللَّهِ مَا حَفِظَ عِلْمَهُ وَعَمَلَهُ، وَهَذَا هُوَ الْحِفْظُ الرَّبَّانِيُّ الْكَامِلُ، وَالْعِلْمُ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَالْعَمَلُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، هَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ.

٣- والفائدة الثالثة هي أَنَّا إِذَا جَعَلْنَا آيَةَ الْوِلَايَةِ هَذِهِ بَرَزَخًا فِي ذَلِكَ السِّيَاقِ الْكَرِيمِ بَيْنَ سِيَاقَيْنِ، نَتَجَّ لَدَيْنَا قِسْمَانِ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: يَبْدَأُ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وَيَنْتَهِي بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: يَبْدَأُ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، وَيَنْتَهِي بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ آهْدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٣٨﴾.

وَإِذَا تَدَبَّرْنَا الْقِسْمَيْنِ وَجَدْنَا أَنَّ الْكَلَامَ فِيهِمَا عَمَّنْ هُوَ عَاجِزٌ عَنِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي نَفْسِهِ، فَضْلًا عَنْ تَوَلِّي الْعِبَادِ فِيهِمَا، وَذَلِكَ عَلَى نَحْوِ التَّفْصِيلِ الْآتِي:

أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فَإِنَّ فِيهِ تَقْرِيرَ الْعَجْزِ عَنِ الْعَمَلِ عِنْدَ تِلْكَ الْأَلْهَةِ الَّتِي اخْتَذَتْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَوَلَّاهَا عَابِدُوهَا وَلَمْ يَتَوَلَّوْا الْوَلِيَّ الْحَقِيقِيَّ سُبْحَانَهُ، فَبَدَأَ اللَّهُ ﷻ بِنَفْيِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْخَلْقِ، فَقَالَ: ﴿أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿٣٨﴾، وَالْخَلْقُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا رَيْبَ، ثُمَّ نَفَى عَنْهُمْ الْقُدْرَةَ عَلَى النَّصْرِ وَالْإِنْتِصَارِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا

يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٦﴾، فَالنَّصْرُ لِلغَيْرِ
وَالانْتِصَارُ لِلنَّفْسِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الَّذِي يَعِجْزُ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ وَنَصْرِ
غَيْرِهِ يُعَدُّ أَعْجَزَ الْخَلْقِ عَنِ الْعَمَلِ.

وَأَمَّا تَقْرِيرُ عَجْزِهَا الْعِلْمِيِّ، فَفِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾،
فَنَفَى عَنْهُمْ الْإِتِّبَاعَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ دُعُوا إِلَى الْهُدَى، الْأَمْرُ الَّذِي
يَدُلُّ عَلَى تَعْطِيلِ وَسَائِلِ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ، الَّتِي هِيَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ،
وَلِذَلِكَ فَصَّلَهُ بَعْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
صَامِتُونَ﴾، فَقَابَلَ بَيْنَ الدَّاعِي وَالصَّامِتِ، فَيَكُونُ الدَّاعِي إِذَا هُوَ
الْمُتَكَلِّمُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدَّعْوَةَ بِالْكَلَامِ تُوجَّهُ لِمَنْ لَهُ سَمْعٌ، وَأَمَّا الصَّامِتُ
فَهُوَ الدَّاعِي غَيْرُهُ بِالْإِشَارَةِ أَوْ بِمَا يَقُومُ مَقَامَهَا، وَالدَّعْوَةُ بِالْإِشَارَةِ
تَكُونُ لِلْأَصَمِّ الْبَصِيرِ، فَنَفَى اللَّهُ عَنْهُمْ هَذَا وَهَذَا لِيَدُلَّ عَلَى نَفْيِ السَّمْعِ
وَالْبَصَرِ عَنْهُمْ، وَهَذَا أَوْجَزُ تَعْبِيرٍ وَأَتَمُّ وَأَحْسَنُهُ؛ لِأَنَّ عَدَمَ اسْتِجَابَتِهِمْ
لِلدَّعْوَةِ الصَّامِتَةِ دَلِيلُ تَعْطِيلِ الْبَصَرِ عَنْهُمْ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يُبْصِرُونَ
لَفَهَمُوا الْخِطَابَ، كَمَا أَنَّ عَدَمَ اسْتِجَابَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ اللَّسَانِيَّةِ دَلِيلُ تَعْطِيلِ
السَّمْعِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَسْمَعُونَ لَفَهَمُوا الْخِطَابَ، وَهَذَا هُوَ
وَاقِعُ الْأَصْنَامِ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَتُتَّخَذُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى، كَمَا
قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ: ﴿يَتَأْتَبَرُ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ
شَيْئًا﴾ (مريم ٤٢)، أَيِ نَفْيِ وَسَائِلِ الْعِلْمِ عَنْهَا، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا
يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﷻ هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصْرًا وَلَا

أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٧﴾، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ يَعِدُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ إِنْ رَدَّاهُمْ إِلَى الدُّنْيَا؛ وَيَسْتَدْلُونَ عَلَى زَعْمِهِمْ هَذَا بِأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا وَسَمِعُوا، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٨﴾﴾ (السَّجْدَةُ ١٢)، وَهَذِهِ هِيَ الْعَلَاقَةُ الَّتِي بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ سِيَاقَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ بِنَفْيِ الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ عَنْ أَنْ يَفْعَلُوا لَهُمْ شَيْئًا مِمَّا يَطْلُبُونَهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾﴾، وَكَوْنُ الْأَصْنَامِ الَّتِي تُدْعَى عَاجِزَةً عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِدَاعِيهَا دَلِيلٌ عَلَى تَعْطِيلِ وَسَائِلِ الْعَمَلِ عِنْدَهَا، إِذَا فَهِيَ لَا تَقْدِرُ عَلَى عِلْمٍ نَافِعٍ وَلَا عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ يَطْمَعُ طَامِعٌ فِي أَنْ تَكُونَ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا؟!!

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي مِنَ السِّيَاقِ: فَفِيهِ نَفْيُ الْقُدْرَةِ الْعَمَلِيَّةِ أَوَّلًا عَنْ تِلْكَ الْمَعْبُودَاتِ؛ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، ثُمَّ فَصَّلَ فِي نَفْيِ الْقُدْرَةِ الْعِلْمِيَّةِ عَنْهَا بِتَعْيِينِ وَسِيلَتَيْهِ الْمُعْطَلَتَيْنِ عِنْدَهَا: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْكُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ولذلك قال ابن القيم في « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » (ص ٢٢١) عن حديث الولي: « وخصّ في الحديث السَّمْعَ والبَصَرَ واليَدَ والرَّجْلَ بالذكر؛ فإنَّ هذه الآلاتِ آلاتُ الإدراكِ وآلاتُ الفعلِ، والسَّمْعُ والبَصَرُ يُوردانِ على القلبِ الإرادةَ والكراهةَ، ويجلبانِ إليه الحبَّ والبُغْضَ، فيستعملُ اليَدَ والرَّجْلَ، فإذا كانَ سَمْعُ العَبْدِ باللهِ وببَصَرُهُ باللهِ كانَ محفوظاً في آلاتِ إدراكِهِ، وكانَ محفوظاً في حُبِّهِ وبُغْضِهِ، فحُفِظَ في بَطْشِهِ وَمَشْيِهِ، وتأمَّلْ كيفَ اكتفى بذكرِ السَّمْعِ والبَصَرِ واليَدِ والرَّجْلِ عن اللِّسانِ؛ فإنَّه إذا كانَ إدراكُ السَّمْعِ الَّذي يَحْصُلُ باختيارِهِ تارةً، وبغيرِ اختيارِهِ تارةً، وكذلك البَصَرُ قد يَقَعُ بغيرِ الاختيارِ فجأةً، وكذلك حَرَكَةُ اليَدِ والرَّجْلِ الَّتِي لَا بَدَّ لِلْعَبْدِ مِنْهُمَا، فكيفَ بحَرَكَةِ اللِّسانِ الَّتِي لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَصْدٍ واختيارٍ؟ وقد يَسْتَغْنِي العَبْدُ عَنْهَا إِلَّا حَيْثُ أُمِرَ بِهَا، وأيضاً فانفعَالَ اللِّسانِ عَنِ الْقَلْبِ أَتَمُّ مِنْ انفعَالِ سائرِ الجوارحِ؛ فإنَّه ترجأه ورسوله، وتأمَّلْ كيفَ حَقَّقَ تَعَالَى كَوْنَ العَبْدِ بِهِ عِنْدَ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَبَطْشِهِ وَمَشْيِهِ، بقوله: (كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا)، تحقيقاً لكونِهِ مَعَ عَبْدِهِ وَكَوْنَ عَبْدِهِ فِي إِدْرَاكِاتِهِ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وحَرَكَاتِهِ بِيَدَيْهِ وَرِجْلِهِ... كقوله في الحديث الآخر: (أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ)^(١)، وهذه المعيةُ هِيَ المعيةُ الخاصةُ المذكورةُ

(١) علَّقَه البخاري في « صحيحه » (١٣/٤٩٩ مع الفتح)، ووصله في « خَلْقُ أفعال

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة ٤٠)، وقول النبي ﷺ: (مَا ظَنَنْكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا) ^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت ٦٩)، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل ١٢٨)، وقوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأففال ٤٦)، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء ٦٢)، وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه ٤٦)... فَمَتَى كَانَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَشَاقُّ وَانْقَلَبَتِ الْمَخَافَةُ فِي حَقِّهِ أَمَانًا، فَبِاللَّهِ يَهْوُنُ كُلُّ صَعَبٍ، وَيَسْهَلُ كُلُّ عَسِيرٍ، وَيَقْرُبُ كُلُّ بَعِيدٍ، وَبِاللَّهِ تَزُولُ الْأَحْزَانُ وَالْهُمُومُ وَالْغُمُومُ، فَلَا هَمَّ مَعَ اللَّهِ، وَلَا غَمٌّ وَلَا حُزْنَ إِلَّا حَيْثُ يَفُوتُهُ مَعْنَى هَذِهِ الْبَاءِ فَيَصِيرُ قَلْبُهُ حَيْثُ نَزَلَتْ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ يَثْبُ وَيَنْقَلِبُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا حَصَلَتْ هَذِهِ الْمُوَافَقَةُ مَعَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ فِي مَحَابِّهِ حَصَلَتْ مُوَافَقَةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ فِي حَوَائِجِهِ وَمَطَالِبِهِ، فَقَالَ: (وَلَيْنِ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَيْنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ)، أَي كَمَا وَافَقَنِي فِي مُرَادِي بِامْتِثَالِ أَوْامِرِي وَالتَّقَرُّبِ إِلَيَّ بِمَحَابِّ، فَأَنَا أَوْافِقُهُ فِي رَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ فِيمَا يَسْأَلُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ بِهِ، وَيَسْتَعِيذُنِي أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ، وَقَوِي أَمْرُ هَذِهِ الْمُوَافَقَةِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ...».

هَذَا التَّفْصِيلُ هُوَ جَوَابُ ذَلِكَ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ بَيَانُ تَطَابُقِ

الْعِبَادِ «(٤٣٦)، وَكَذَا ابْنُ مَاجَهَ فِي «سُنَنِهِ» (٣٧٩٢)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَدِيثِ الْوَلِيِّ لآيَاتِ الْبَابِ.

٤- تَأَمَّلِ التَّطَابُقَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ:
﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ فِي أَوَاخِرِ ذَاكَ الْحَدِيثِ
الْقُدْسِيِّ: « وَإِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ »؛ تُدْرِكُ أَنَّ
الْحَدِيثَ وَالْآيَاتِ السَّابِقَةَ وَحْيٍ كُلَّهُ، وَهَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ.

٥- الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: فِي الْاِقْتِصَارِ فِي آيَاتِ الْبَابِ عَلَى الْكَلَامِ عَنْ
الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْخَلْقِ وَالتَّفَضُّلِ بِالِاسْتِجَابَةِ لَطَلَبَاتِ الطَّالِبِينَ
حِكْمَةً بِالِغَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ يَتَوَجَّهُونَ عَادَةً إِلَى مَنْ عِنْدَهُ
صِفَاتُ الْكَمَالِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى »
(٣١٢/١١ - ٣١٣): « صِفَاتُ الْكَمَالِ تَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: الْعِلْمُ،
وَالْقُدْرَةُ، وَالْغِنَى، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَقُولَ: الْعِلْمُ، وَالْقُدْرَةُ، وَالْقُدْرَةُ إِمَّا
عَلَى الْفِعْلِ وَهُوَ التَّأَثُّرُ، وَإِمَّا عَلَى التَّرْكِ وَهُوَ الْغِنَى، وَالْأَوَّلُ أَجْوَدُ،
وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ، وَقَدْ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثَّلَاثَةِ بِقَوْلِهِ:
﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي
مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ ﴾ (الأنعام ٥٠)، وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ ﷺ،
فَهَذَا أَوَّلُ أُولِي الْعِزِّمْ وَأَوَّلُ رَسُولِ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ،
وَهَذَا خَاتَمُ الرُّسُلِ وَخَاتَمُ أُولِي الْعِزِّمْ، كِلَاهُمَا يَتَبَرَّأُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا
لَأَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى

هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ (الملك ٢٥)، و: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ (الأعراف ١٨٧)، وتارةً بالتأثير، كقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٢٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٢٧﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿٢٨﴾ (الإسراء ٩٠ - ٩٢)، إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ (الإسراء ٩٣)، وتارةً يعبئون عليه الحاجة البشرية، كقوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ (الفرقان ٧ - ٨)، فأمره أن يُخبر أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا هو ملكٌ غنيٌّ عن الأكل والمال، إن هو إلا مُتَّبِعٌ لما أُوحِيَ إِلَيْهِ، واتباعٌ ما أُوحِيَ إِلَيْهِ هو الدين، وهو طاعةُ الله وعبادته علماً وعملاً بالباطن والظاهر، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يُعْطِيهِ اللهُ تعالى، فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره اللهُ عليه، ويستغني عما أغناه اللهُ عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس «إلخ ما ذكر، ولعل من هذا القبيل ما جاء في دعاء الاستخارة؛ فإنه قد اجتمعت هذه الثلاثة فيه، ثم اختصرها في اثنتين في الجملة الثانية على ما قاله ابن تيمية في أول كلامه السابق، روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا

يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ « إلخ الدعاء المشهور، فاجتماع هذه الثلاثة ظاهرٌ هنا: العلم والقدرة والغنى، ثم وجدت ابن تيمية أشار إلى هذه الفائدة العزيزة، فقال في « مجموع الفتاوى » (٣٣/١): « جماعٌ هذا أنك أنت إذا كنتَ غيرَ عالمٍ بمصلحتك ولا قادرٍ عليها ولا مُريدٍ لها كما ينبغي، فغيرك من النَّاسِ أُولَى الْأَمْرِ بِمَا يَكُونُ عَالِمًا بِمَصْلَحَتِكَ وَلَا قَادِرًا عَلَيْهَا وَلَا مُرِيدًا لَهَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا تَعْلَمُ، وَيَقْدِرُ وَلَا تَقْدِرُ، وَيُعْطِيكَ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الاسْتِخَارَةِ... »، وَقَالَ (٢٦٧/٦) بَعْدَ أَنْ سَأَلَ حَدِيثَ الاسْتِخَارَةِ: « فَسَأَلَهُ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمِنْ فَضْلِهِ... وَهَذِهِ الصِّفَاتُ هِيَ جَمَاعُ صِفَاتِ الْكَمَالِ »، وَكَوْنُهُ ﷺ كَرَّرَ اثْنَتَيْنِ مِنْهَا فَقَطُّ فِي قَوْلِهِ: « فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » لَا يُنَاقِيهِ؛ فَقَدْ مَرَّ فِي كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ أَنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُّ عَلَيْهِمَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي « الاسْتِغَاثَةِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْبُكَرِيِّ » (ص ١٣٠ - دَارُ الْمِنْهَاجِ): « وَبَيَّنَّ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ، وَأَخْصَّ وَصَفَ الرَّبِّ لَيْسَ هُوَ صِفَةً وَاحِدَةً، بَلْ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَخَلْقُهُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ »، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَسْرَارِ تَنْزِيلِهِ.

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

حِكْمَةُ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ تَارَةً وَاسْمِ الْفَاعِلِ تَارَةً

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اَللّٰهُمَّ اِنْ كُنْتَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَتْنِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كُنَّا لَآلِهَةٍ لِّيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا لَآلِهَةٍ مُّعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال ٣٢-٣٣).

الفائدة الأولى: قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقَعِينَ» (١/ ١٧٤): «وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَآلِهَةٍ لِّيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيهِمْ﴾، كَيْفَ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ وُجُودُ بَدَنِهِ وَذَاتِهِ فِيهِمْ دَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَهُمْ أَعْدَاؤُهُ، فَكَيْفَ وُجُودُ سِرِّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَوُجُودُ مَا جَاءَ بِهِ إِذَا كَانَ فِي قَوْمٍ أَوْ كَانَ فِي شَخْصٍ؟! أَفَلَيْسَ دَفْعُهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى؟!».

الفائدة الثانية: قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ السَّفَّارِينِي فِي «غِذَاءِ الْأَلْبَابِ شَرْحَ مَنَظُومَةِ الْأَدَابِ» (٢/ ٣٧٧): «وَقَرَنَ تَعَالَى الْإِسْتِغْفَارَ بِبَقَاءِ الرَّسُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَآلِهَةٍ لِّيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كُنَّا لَآلِهَةٍ مُّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وَلِذَا قَالَ أَبُو مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كَانَ لَنَا أَمَانَانِ ذَهَبَ أَحَدُهُمَا، وَبَقِيَ الْآخَرُ) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، قَالَ الْإِمَامُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ: الْإِسْتِغْفَارُ الَّذِي يَمْنَعُ الْعَذَابَ هُوَ الْإِسْتِغْفَارُ بِالْإِقْلَاعِ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَأَمَّا مَنْ أَصَرَ عَلَى الذَّنْبِ وَطَلَبَ مِنَ اللهِ الْمَغْفِرَةَ، فَاسْتِغْفَارُهُ لَا يَمْنَعُ الْعَذَابَ؛ لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ هِيَ مَحْوُ

الذَّنْبِ وَإِزَالَةُ أَثَرِهِ وَوَقَايَةُ شَرِّهِ، لَا كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا السِّتْرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتُرُ عَلَى مَنْ يَغْفِرُ لَهُ وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَهُ، فَحَقِيقَتُهَا وَقَايَةُ شَرِّ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ الْمَغْفَرُ لِمَا يَبْقَى الرَّأْسِ مِنَ الْأَذَى، وَالسِّتْرُ لَازِمٌ لِهَذَا الْمَعْنَى، وَإِلَّا فَالْعِمَامَةُ لَا تُسَمَّى مَغْفَرًا وَلَا الْقُبْعَةُ وَنَحْوُهُ مَعَ سِتْرِهِ، **انْتَهَى** .

الفائدة الثالثة: الْمُلَاحَظَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ نَفْيَ التَّعْذِيبِ جَاءَ فِي الْأَوَّلِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، وَجَاءَ فِي الثَّانِي بِصِيغَةِ الْأِسْمِ الَّذِي هُوَ: ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾، وَالْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالْحُدُوثِ، وَالْإِسْمُ يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَاللُّزُومِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ نَفْيَ تَعْذِيبِهِمْ مَعَ وُجُودِهِ ﷺ فِيهِمْ قَصِيرٌ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُوقٌ بِحَيَاتِهِ ﷺ إِكْرَامًا لَهُ، وَحَيَاةُ الْبَشَرِ جَمِيعًا قَصِيرَةٌ مَهْمَا عَاشُوا، أَمَّا مَعَ الْإِسْتِغْفَارِ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى ذَنْبٌ مَعَهُ؛ وَلِذَلِكَ أَتَى فِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي بِاسْمِ الْفَاعِلِ الدَّالِّ عَلَى الْوَصْفِ وَالثُّبُوتِ، وَانْظُرْ «بَدَائِعُ الْفَوَائِدِ» لِابْنِ الْقَيِّمِ (١/١٣٧)، وَمِثْلُهُ الزَّرْكَشِيُّ فِي «الْبَرْهَانِ» (٤/٣٤٥)، فَقَدْ قَالَ: «كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، فَجَاءَ بِلَاَمِ الْجَحْدِ حَيْثُ كَانَتْ نَفْيًا لِأَمْرٍ مُتَوَقَّعٍ خَوْفٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣١)، فَجَاءَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ الَّذِي لَا يَخْتَصُّ بِزَمَانٍ حَيْثُ أَرَادَ نَفْيَ الْعَذَابِ بِالْمُسْتَغْفِرِينَ عَلَى الْعُمُومِ فِي الْأَحْوَالِ»، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ إِبْلِيسَ فِي مُخَادَعَتِهِ آدَمَ ﷺ: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف ٢١)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَكُمَا

أَنْصَحُ، وَلَكِنْ اسْتَعْمَلَ اسْمَ الْفَاعِلِ، فَقَالَ: ﴿الْأَنْصَحِيَّتِ﴾، قَالَ
ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» (١١٣/١) مُعَدِّدًا أَنْوَاعَ الْمُحْسِّنَاتِ
الْلَفْظِيَّةِ الَّتِي كَادَ بِهَا إِبْلِيسُ آدَمَ ﷺ: «الرَّابِعُ: إِيثَانُهُ بِاسْمِ الْفَاعِلِ
الدَّالُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَاللُّزُومِ، دُونَ الْفِعْلِ الدَّالِّ عَلَى التَّجَدُّدِ، أَيْ
النَّصْحِ صِفَتِي وَسَجِيَّتِي، لَيْسَ أَمْرًا عَارِضًا لِي!!».

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَاطِرٍ (٣): ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَمَرُ اللَّهُ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي «الْبُرْهَانِ فِي عُلُومِ
الْقُرْآنِ» (٦٧/٤): «لَوْ قِيلَ: (رَازِقُكُمْ) لَفَاتَ مَا أَفَادَهُ الْفِعْلُ مِنْ
تَجَدُّدِ الرِّزْقِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَلِهَذَا جَاءَتْ الْحَالُ فِي صُورَةِ الْمُضَارَعِ،
مَعَ أَنَّ الْعَامِلَ الَّذِي يُفِيدُهُ مَاضٍ، كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ يَضْرِبُ، وَفِي
التَّنْزِيلِ: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (يُوسُفُ ١٦)؛ إِذِ الْمُرَادُ أَنْ
يُرِيدَ صُورَةً مَا هُمْ عَلَيْهِ وَقْتَ الْمَجِيءِ وَأَنْتَهُمْ آخِذُونَ فِي الْبُكَاءِ يُجَدِّدُونَهُ
شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْإِعْرَاضِ عَنْ اسْمِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ إِلَى
صَرِيحِ الْفِعْلِ وَالْمَصْدَرِ».

سُورَةُ التَّوْبَةِ حُكْمُ الْقِرَاءَةِ بِالْمَدِّ الْمُتَّصِلِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (الآيَةُ (التَّوْبَةِ

(٦٠).

عن ابن يزيد الكِنْدِي قَالَ: « كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يُقْرَأُ الْقُرْآنَ رَجُلًا، فَقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ مُرْسَلَةً، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا هَكَذَا أَقْرَأْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: كَيْفَ أَقْرَأَكَهَا يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: أَقْرَأْنِيهَا: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ فَمَدَّهَا « رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي « الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ » (٨٦٧٧)، وَابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي « النَّشْرِ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ » (٣١٦ / ١) وَقَوَّاهُ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي « السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٢٢٣٧).

فِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الْأُولَى: فِيهِ الْاسْتِدْلَالُ لِلْمَدِّ الْمُتَّصِلِ.

الثَّانِيَّةُ: فِيهِ تَأْيِيدٌ لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي كِتَابِهِ الْمَذْكُورِ، مِنْ وَجُوبِ مَدِّ الْمُتَّصِلِ، بَلْ ذَكَرَ أَنْ قَصْرَهُ غَيْرُ جَائِزٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْقُرَّاءِ، وَقَالَ عَنْ بَعْضِ الْقُرَّاءِ (٣١٥ / ١): « ثُمَّ ذَكَرَ التَّفَرُّقَةَ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ كَلِمَةٍ فِيمَدُّ، وَمَا هُوَ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَيُقْصَرُ، قَالَ: وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ الْحِجَازِ غَيْرِ وَرَشٍ وَسَهْلٍ وَيَعْقُوبَ، وَاخْتَلَفَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَهَذَا نَصٌّ فِيمَا قُلْنَاهُ، فَوَجَبَ أَنْ لَا يُعْتَقَدَ أَنْ قَصَرَ الْمُتَّصِلِ جَائِزٌ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْقُرَّاءِ، وَقَدْ تَبَعْتُهُ فَلَمْ أَجِدْهُ فِي قِرَاءَةٍ صَحِيحَةٍ وَلَا شَاذَةٍ، بَلْ رَأَيْتُ

النَّصَّ بِمَدِّهِ، وَرَدَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا أَخْبَرَنِي
الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّالِحِي فِيمَا قُرِئَ عَلَيْهِ وَشَافَهَنِي بِهِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ
الْمَقْدِسِيِّ «، ثُمَّ أَسْنَدَهُ مِنْ طَرِيقِ الطَّبْرَانِيِّ، وَقَالَ: « وَهَذَا حَدِيثٌ جَلِيلٌ
حِجَّةٌ وَنَصٌّ فِي هَذَا الْبَابِ، رِجَالُ إِسْنَادِهِ ثِقَاتٌ... ».

الثَّالِثَةُ: أَنَّ لِقَاعِدَةَ الْقُرَّاءِ: (الْقُرْآنُ يُؤْخَذُ مِنْ أَفْوَاهِ أَهْلِهِ) أَصْلًا؛
فَإِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنْكَرَ عَلَى الرَّجُلِ تَرْكَ هَذَا الْمَدِّ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَا
تَعَلَّمَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ إِسْنَادَ إِقْرَاءِ الْقُرْآنِ لَا يَنْقَطِعُ،
وَتَجِدُ الْقُرَّاءَ يُسَيِّدُونَ إِلَى شُيُوخِهِمْ - وَلَوْ فِي عَصْرِنَا هَذَا - حَتَّى يَبْلُغُوا
بِالْإِسْنَادِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لِكِتَابِهِ، وَالْحَمْدُ
لِلَّهِ.

فَائِدَةٌ: قَدْ يَجْتَمِعُ فِي الْكَلِمَةِ الْمَرْسُومَةِ رَسْمَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مَدَّانٍ:
أَحَدُهُمَا مُنْفَصِلٌ، وَالْآخَرُ مُتَّصِلٌ؛ وَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَةُ فِي أَصْلِهَا
كَلِمَتَيْنِ، مِثْلَ كَلِمَةِ (هُؤُلَاءِ)، فَإِنَّ الْمَدَّ الْأَوَّلَ مُنْفَصِلٌ وَهُوَ (هَـ)،
وَالثَّانِي مُتَّصِلٌ وَهُوَ ﴿أُولَآءِ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ مُكُونَةٌ مِنْ
كَلِمَتَيْنِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرَّاءَ الَّذِينَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَدِّ
الْمُتَّصِلِ يَمْدُونَ الْأَوَّلَ مَدًّا طَبِيعِيًّا وَيَزِيدُونَ فِي الثَّانِي، وَإِنْ شَرَطَ
بَعْضُهُمْ لِذَلِكَ شُرُوطًا، لَكِنْ لَيْسَ هَذَا بِحِشْنًا.

سُورَةُ يُوسُفَ دَلَالَةُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ وَإِثْبَاتِهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس ٢٥).

لم يذكر الله تعالى المفعول في الشطر الأول من الآية، وذكره في الشطر الثاني، أي أَيْبَهُمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَدْعُوُّ هُنَا، فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو الْجَمِيعَ إِلَى الْجَنَّةِ دَارِ السَّلَامِ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَيَهْدِي﴾ أَشَارَ إِلَى الْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ الْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَخْصُ بِهِدَايَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، هَذِهِ الْفَائِدَةُ اسْتَفَدْتُهَا مِنْ كِتَابِ «قَطْفِ الْجَنَى الدَّانِي فِي شَرْحِ مُقَدِّمَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي» لِشَيْخِنَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْعَبَّادِ الْبَذَرِ حَفَظَهُ اللَّهُ، فَقَدْ قَالَ (ص ١٠٧): «وَالْهُدَايَةُ هِدَايَتَانِ: هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، وَهَذِهِ حَاصِلَةٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهِدَايَةُ التَّوْفِيقِ وَهِيَ حَاصِلَةٌ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ، وَمِنْ أَدَلَّةِ الْهُدَايَةِ الْأُولَى قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشُّورَى ١٤)، أَيْ إِنَّكَ تَدْعُو كُلَّ أَحَدٍ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِنْ أَدَلَّةِ الْهُدَايَةِ الثَّانِيَةِ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (الْقَصَصُ ٥٦)، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ الْهُدَايَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يونس ٢٥)، فَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أَيُّ كُلِّ أَحَدٍ، فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ لِإِرَادَةِ الْعُمُومِ، وَهَذِهِ هِيَ

هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ وَهَدَىٰ مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَظْهَرَ الْمَفْعُولَ لِإِفَادَةِ الْخُصُوصِ، وَهِيَ هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ .»

وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ أَيْضًا بَيْنَ الْهِدَايَتَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ الْآيَةُ مَا قَبْلَ الْأَخِيرَةِ مِنْ سُورَةِ الشُّورَى، وَهِيَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ٥٢)، لَكِن مَعَ اخْتِلَافِ الْفَاعِلِ؛ فَإِنَّ فَاعِلَ الْهِدَايَتَيْنِ فِي سُورَةِ يُوسُفَ هُوَ اللَّهُ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ الشُّورَى فَإِنَّ فَاعِلَ الْهِدَايَةِ الْأُولَى هُوَ اللَّهُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْفِعْلُ بِحَرْفِ نُونِ الْعِظْمَةِ وَعُدِّي بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَفْعُولِ؛ لِأَنَّهَا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾، وَأَمَّا فَاعِلُ الْهِدَايَةِ الثَّانِيَةِ فَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْفِعْلُ بِحَرْفِ تَاءِ الْمُخَاطَبِ وَعُدِّي بِ (إِلَى)؛ لِأَنَّهَا هِدَايَةُ الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾، هَذَا مُلَخَّصٌ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ لِأَصُولِ التَّفْسِيرِ.

وَنُظِيرُهُ مِنْ السُّنَّةِ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا اخْتَلَفَ الْبَيْعَانِ وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ، فَهُوَ مَا يَقُولُ رَبُّ السَّلْعَةِ أَوْ يَتَّارَكَانِ » أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٥١١) وَغَيْرُهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ، وَالشَّاهِدُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ هُنَا اخْتِلَافَ الْمُتَبَايَعِينَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الْمُخْتَلَفَ فِيهِ، قَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي « نَيْلِ الْأَوْطَارِ » (٣٤١/٥): « وَلَمْ يَذْكُرِ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ الْإِخْتِلَافُ، وَحَذَفُ الْمُتَعَلِّقِ مُشْعِرٌ بِالتَّعْمِيمِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ عَلَى مَا

تَقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي، فَيَعُمُّ الْإِخْتِلَافُ فِي الْمَبِيعِ وَالثَّمَنِ، وَفِي كُلِّ أَمْرٍ
يَرْجَعُ إِلَيْهِمَا، وَفِي سَائِرِ الشُّرُوطِ الْمُعْتَبَرَةِ، وَالتَّصْرِيحُ بِالِاخْتِلَافِ فِي
الثَّمَنِ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ كَمَا وَقَعَ فِي الْبَابِ لَا يُنَافِي هَذَا الْعُمُومَ
الْمُسْتَفَادَ مِنَ الْحَذْفِ .

سُورَةُ هُودٍ

سِرُّ اقْتِرَانِ التَّوْبَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۖ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَلَنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾ (هود ٢-٣).

تَكَرَّرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَرْنُ التَّوْبَةِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ مِنْهَا، وَفِيهَا أَيْضًا فِي قِصَّةِ هُودٍ ﷺ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝﴾ (هود ٥٢)، وَالْمَوْضِعُ الثَّلَاثُ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ ﷺ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ نَبِيَّ قَرِيبٍ مُّجِيبٌ ۝﴾ (هود ٦١)، وَالْمَوْضِعُ الرَّابِعُ فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ ﷺ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ نَبِيَّ رَحِيمٍ وَدُودٌ ۝﴾ (هود ٩٠)، وَقَالَ ﷻ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ (المائدة ٧٤)، وَلَعَلَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ لَمَّا كَانَ خَطَاءً، فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ مِنْ أَخْطَائِهِ، فَهَذَا هُوَ الْاسْتِغْفَارُ الَّذِي فِي الْآيَاتِ، كَمَا أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَعِزَّمَ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ إِلَى ذُنُوبِهِ، وَهَذَا هُوَ التَّوْبَةُ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي الْآيَاتِ، وَالْإِنْسَانُ شَدِيدُ الْغَفْلَةِ فَهُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُحْفَظَ مِنْ سَيِّئَاتِ مَاضِيهِ

وَأَنْ يَحْذَرَ سَيِّئَاتِ مُسْتَقْبَلِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ لِلْمَاضِي، وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ لِلْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا حَكَاهُ الشُّوكَايُّ فِي « فَتَحِ الْقَدِيرِ » (٢/ ٤٨١) عَنْ بَعْضِهِمْ، لَكِنْ لَعَلَّ طَالِبَ الْعِلْمِ الْمُتَدَبِّرَ لآيَاتِ الْبَابِ قَدْ شَدَّ انْتِبَاهَهُ أَمْرُ ثَالِثٍ تَكَرَّرَ فِيهَا أَيْضاً سِوَى الْأَمْرِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ، أَلَا وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، جَاءَ فِي الْآيَةِ (٢) وَ(٢٦) وَجَاءَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ أُخْرَى (٥٠) وَ(٦١) وَ(٨٤) بِلَفْظٍ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾، فَكَانَ مَا ذُكِرَ فِي الْأَمْرَيْنِ السَّابِقَيْنِ خَاصّاً بِإِصْلَاحِ وَقْتِ مَضَى وَوَقْتِ مُسْتَقْبَلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَوْقَاتَ ثَلَاثَةً، وَالْوَقْتُ الثَّلَاثُ الْمُتَبَقَّى هُوَ الْوَقْتُ الْحَاضِرُ، فَيَكُونُ هَذَا هُوَ مَحَلُّ امْتِثَالِ الْأَمْرِ الثَّلَاثِ الْمُنَوَّهِ بِهِ قَرِيباً، نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ الْفَذُّ « الْفَوَائِدِ » فَقَالَ (ص ١١٦ - ١١٧): « هَلُمَّ إِلَى الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ وَمُجَاوَرَتِهِ فِي دَارِ السَّلَامِ بِلَا نَصَبٍ وَلَا تَعَبٍ وَلَا عَنَاءٍ، بَلْ مِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ وَأَسْهَلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي وَقْتِ بَيْنَ وَقَتَيْنِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُمْرُكَ، وَهُوَ وَقْتُكَ الْحَاضِرُ بَيْنَ مَا مَضَى وَمَا يُسْتَقْبَلُ، فَالَّذِي مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا تَعَبَ عَلَيْكَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ وَلَا مُعَانَاةَ عَمَلٍ شَاقٍّ، إِنَّهَا هِيَ عَمَلُ قَلْبٍ، وَتَمْتَنِعُ فِيهَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَامْتِنَاعُكَ تَرْكُ وَرَاحَةٍ لَيْسَ هُوَ عَمَلًا بِالْجَوَارِحِ يَشْقُ عَلَيْكَ مُعَانَاتُهُ، وَإِنَّهَا هِيَ عَزْمٌ وَنِيَّةٌ جَازِمَةٌ تُرِيحُ بَدَنَكَ وَقَلْبَكَ وَسِرَّكَ، فَمَا مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ، وَمَا يُسْتَقْبَلُ تُصْلِحُهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ، وَلَيْسَ لِلْجَوَارِحِ فِي هَذَيْنِ

نَصَبٌ وَلَا تَعَبٌ، وَلَكِنْ الشَّأْنُ فِي عُمْرِكَ، وَهُوَ وَقْتُكَ الَّذِي بَيْنَ
الْوَقْتَيْنِ، فَإِنْ أَضَعْتَهُ أَضَعْتَ سَعَادَتَكَ وَنَجَاتَكَ، وَإِنْ حَفِظْتَهُ مَعَ
إِصْلَاحِ الْوَقْتَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بِمَا ذَكَرَ نَجَوْتَ وَفُزْتَ بِالرَّاحَةِ
وَاللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ، وَحِفْظُهُ أَشَقُّ مِنْ إِصْلَاحِ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، فَإِنْ حَفِظَهُ
أَنْ تُلْزِمَ نَفْسَكَ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهَا وَأَنْفَعُ لَهَا وَأَعْظَمُ تَحْصِيلاً لِسَعَادَتِهَا، وَفِي
هَذَا تَفَاوُتَ النَّاسِ أَعْظَمُ تَفَاوُتٍ، فَهِيَ - وَاللَّهِ! - أَيَّامُكَ الْخَالِيَةُ الَّتِي
تَجْمَعُ فِيهَا الزَّادُ لِمَعَادِكَ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، فَإِنْ اتَّخَذْتَ إِلَيْهَا
سَبِيلًا إِلَى رَبِّكَ بَلَغْتَ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى وَالْفَوْزَ الْأَكْبَرَ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ
الْيَسِيرَةِ الَّتِي لَا نِسْبَةَ لَهَا إِلَى الْأَبَدِ، وَإِنْ آثَرَتِ الشَّهَوَاتِ وَالرَّاحَاتِ
وَاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ انْقَضَتْ عَنْكَ بِسُرْعَةٍ وَأَعْقَبَتْكَ الْأَلَمَ الْعَظِيمَ الدَّائِمَ
الَّذِي مُقَاسَاتُهُ وَمُعَانَاتُهُ أَشَقُّ وَأَصْعَبُ وَأَذْوَمُ مِنْ مُعَانَاةِ الصَّبْرِ عَنْ
مَحَارِمِ اللَّهِ وَالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى لِأَجَلِهِ.

إِنَّ هَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ الْقَيْمِ رحمته الله الْآيَاتِ السَّابِقَةَ اسْتِنْبَاطُ
عَارِفٍ بِهِذِي السَّلَفِ، مُتَشَبِّعٍ بِمَا هُدُوا إِلَيْهِ مِنْ مَعَانِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ،
فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ الْكَبِيرِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (١٩٦/٢ - ١٩٧) آثَارٌ فِي
هَذَا الْمَعْنَى، مِنْهَا (٤٧٧) عَنْ الْحَسَنِ قَالَ: «الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ: أَمَّا أَمْسٌ
فَقَدْ ذَهَبَ بِهَا فِيهِ، وَأَمَّا غَدًا فَلَعَلَّكَ أَنْ لَا تُدْرِكَه، فَالْيَوْمُ لَكَ فَاعْمَلْ
فِيهِ»، وَرَوَى أَيْضًا (٤٧٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُنَازِلٍ قَالَ: «مَنْ اشْتَغَلَ
بِالْأَوْقَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ ذَهَبَ وَقْتُهُ بِلَا فَائِدَةٍ».

قُلْتُ: هَذَا عَلَى مَعْنَى أَنَّ مَنْ تَرَكَ وَقْتَهُ الْحَاضِرَ اسْتِغْلَالًا بِوَسَاوِسِ

الْوَقْتِ الْقَدِيمِ، فَإِنَّ هَذَا يُقَعِّدُهُ عَنِ الْعَمَلِ، لَا سِوَا إِنْ كَانَ فِيهِ مِنْ أَهْلِ التَّفْرِيطِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يُذَكِّرُهُ بِهَا حَتَّى يَبْعَثَ فِي نَفْسِهِ الْيَأْسَ، وَكَذَلِكَ مَنْ اشْتَغَلَ بِالْمُسْتَقْبَلِ عَنْ حَاضِرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ فِي الْأَحْلَامِ وَالْحَيَالَاتِ حَتَّى يَنْطَبِعَ قَلْبُهُ عَلَى طُولِ الْأَمَلِ، وَلِذَلِكَ رَوَى أَيْضاً (٤٧٩) عَنْ شَمِيطِ بْنِ عَجَلَانَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: إِنَّمَا هِيَ ثَلَاثَةٌ: فَقَدْ مَضَى أَمْسٌ بِمَا فِيهِ، وَغَدَاً أَمَلٌ لِعَلَّكَ لَا تُدْرِكُهُ، إِنَّكَ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ غَدٍ، فَإِنَّ غَدًا يَجِيءُ بِرِزْقِ غَدٍ، إِنْ دُونَ غَدٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً تُخْتَرَمُ فِيهَا أَنْفُسٌ كَثِيرَةٌ، لِعَلَّكَ الْمُخْتَرَمُ فِيهَا، كَفَى كُلَّ يَوْمٍ هُمًّا»، وَرَوَى أَيْضاً (٤٨٠) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَرَّازِ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِسْتِغَالُ بِوَقْتِ مَاضٍ تَضْيِيعُ وَقْتِ ثَانٍ»، وَرَوَى أَيْضاً (٤٨٢) عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَيْبَانَ الزَّاهِدِ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْقَاتَهُ فَلَا يُضَيِّعُهَا بِمَا لَا يُرِضِي اللَّهَ فِيهِ، حَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ»، وَقَدْ قِيلَ:

فَاغْنَمُوا فُرْصَتِي فَإِنِّي فَانٍ وَاسْتَفِيدُوا مَا عِشْتُمْ مِنْ عِظَاتِي
مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

سُورَةُ يُوسُفَ

أنواع تعبير الرؤيا الصالحة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا لِي أَنرِي أَعْصِرْ خَمِيرًا وَقَالَ الْآخَرُ لِي أَنرِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (يوسف ٣٦).

ذَكَرَ اللَّهُ هَهُنَا نَوْعَيْنِ مِنَ الرُّؤْيَى، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْصُرُ عَلَيْنَا مَا لَا فائدةَ فِيهِ، وَالْجَوَابُ يُعْلَمُ مِنْ تَأْوِيلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبرَهَا فَقَالَ: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمِيرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ (يوسف ٤١)، فَكَانَ تَعْبِيرُهُ لِلأُولَى مُطَابِقًا لظَاهِرِهَا، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَقَدْ كَانَ تَعْبِيرُهُ لَهَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ؛ لِنَسْتَفِيدَ نَحْنُ أَنْ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا عَلَى قِسْمَيْنِ:

١- مِنْهُ مَا هُوَ حَقِيقَةٌ، فَيُعْبَرُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا تَعْبِيرُ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّؤْيَا الَّتِي قَصَّهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ بِظَاهِرِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا لِي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْنَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (الصَّافَّاتِ ١٠٢)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَهَبَ يَعْمَلُ بِحَقِيقَتِهَا، كَمَا قَالَ: سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣٠﴾ وَنَدَّيْنَاهُ أَنْ يَتْلِي بِرَبِّهِمْ ﴿١٣١﴾﴾ قَدْ صَدَقَتْ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ (الصَّافَّاتِ ١٠٣-١٠٥)، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى

مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الرُّؤْيَ لَا تُؤَوَّلُ إِلَّا بِعَكْسِهَا.

- ومنه ما هو مثل لا حقيقة، فيحتاج في تعبيره إلى النظر في الأمثال والنظائر ليُخَرَّجَ عَلَيْهَا، وقد سألت عن ذلك شيخنا الشيخ عبد المحسن بن حمد البدر - حفظه الله من كل سوء - فأجابني بما لخصته آنفاً، والحقيقة أن كلاً من النوعين يحتاج إلى إعمال فكر وروية، وما يُفسَّر على ظاهره ليس بأسهل مما يُؤَوَّل على غيره؛ لأنَّ أوَّل خطوة تصعبُ على المعبر هي التَّمييزُ بين الأوَّل والثَّاني، فربَّ رؤيا ليس لها تأويل إلا ما دلَّ عليه ظاهرها يتكلَّف لها المعبر الأمثال فيبعد، ثمَّ إنَّ ما كان من باب الأمثالِ بابٌ واسعٌ، فقد يكونُ بدلالة القرآن أو بدلالة السُّنة أو بالأمثالِ السَّائرة أو بالموافقات اللَّفْظِيَّة أو بقلب الرؤيا وغيرها، وسيجدُ القارئُ له أمثلةً عديدةً عند التَّعرُّض لسورة المُنَافِقُونَ إن شاء الله.

دَفْعُ إِشْكَالٍ فِي تَنْوَعِ الضَّمَائِرِ وَالْفَرَحِ بِذَلِكَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَىٰ الرُّسُلُ وُظُنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يُرْدُ بِأُسْنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف ١١٠).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « تَفْسِيرِهِ »: « يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّ نَصْرَهُ يَنْزِلُ عَلَى رُسُلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَانْتِظَارِ الْفَرَجِ مِنَ اللَّهِ فِي أَحْوَجِ الْأَوْقَاتِ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَزَلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (البقرة ٢١٤) ».

قُرِئَتْ آيَةُ الْبَابِ بِالتَّشْدِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كُذِّبُوا ﴾، وَجَاءَ تَفْسِيرُهَا فِي « صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ » (٤٦٩٥) عَنْ عُرْوَةَ « أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لَهُ - وَهُوَ يَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَىٰ الرُّسُلُ ﴾ - قَالَ: قُلْتُ: أَمْ ﴿ كُذِّبُوا ﴾ أَمْ ﴿ كُذِّبُوا ﴾؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: ﴿ كُذِّبُوا ﴾، قُلْتُ: فَقَدْ اسْتَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، فَمَا هُوَ بِالظَّنِّ، قَالَتْ: أَجَلُ لَعَمْرِي! لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهَا: وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا؟ قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ! لَمْ تَكُنِ الرُّسُلُ تَظُنُّ ذَلِكَ بَرَبِّهَا، قُلْتُ: فَمَا هَذِهِ الْآيَةُ؟ قَالَتْ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمْ النَّصْرُ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَى الرُّسُلُ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ قَدْ كَذَّبُوهُمْ جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ ».

كَمَا قُرِئَتْ بِالتَّخْفِيفِ: ﴿ كُذِّبُوا ﴾، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ النَّاسِ

مَعْنَى أَنَّ الرُّسُلَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا؛ لِأَنَّهُ فَعِهِمْ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الرُّسُلَ
 ظَنُّوا أَنَّ رَبَّهُمْ كَذَبَهُمْ حِينَ وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ وَلَمْ يَحْصُلْ فِي زَمَنِ مَا،
 وَحَاشَاهُمْ أَنْ يَخْطُرَ هَذَا مِنْهُمْ عَلَى بَالٍ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا الْاِسْتِشْكَالُ
 لِبَعْضِ السَّلَفِ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ حِينَ يَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ
 أَجْلِ ذَلِكَ الْاِسْكَالِ الَّذِي كَانَ يُرَاوِدُهُ، لَكِنَّهُ سَارَعَ إِلَى سُؤَالِ أَهْلِ
 الْعِلْمِ عَنْهُ وَفَرَحَ بِمَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ
 رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣/ ٣٨٧-٣٨٨) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ
 إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي حَرَّةَ الْجَزْرِيِّ قَالَ: «سَأَلَ فُتًى مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَ بْنِ
 جُبَيْرٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! كَيْفَ تَقْرَأُ هَذَا الْحَرْفَ؟ فَإِنِّي إِذَا أَتَيْتُ
 عَلَيْهِ تَمَنَيْتُ أَنْ لَا أَقْرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا
 أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؟ قَالَ: نَعَمْ! حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ
 أَنْ يُصَدِّقُوهُمْ وَظَنَّ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبُوا، قَالَ: فَقَالَ
 الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ رَجُلًا يُدْعَى إِلَى عِلْمٍ
 فَيَتَلَكَّأُ!! لَوْ رَحَلْتُ فِي هَذِهِ إِلَى الْيَمَنِ كَانَ قَلِيلًا!!»، وَرَوَى أَيْضًا
 بِسَنَدٍ حَسَنِ عَنْ كَلْثُومِ بْنِ جَبْرِ أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ يَسَارٍ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ
 جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! آيَةٌ بَلَغَتْ مِنِّي كُلَّ مَبْلَغٍ: ﴿حَتَّى إِذَا
 اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾، فَهَذَا الْمَوْتُ أَنْ تَظَنَّ الرُّسُلُ
 أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا أَوْ نَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا (مُخَفَّفَةً)!! قَالَ: فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ
 جُبَيْرٍ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ
 يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ كَذَبَتْهُمْ ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى

مَن نَشَاءَ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾ ، قَالَ: فَقَامَ مُسْلِمٌ
 إِلَى سَعِيدٍ فَاعْتَنَقَهُ، وَقَالَ: فَرَجَّ اللَّهُ عَنْكَ كَمَا فَرَجْتَ عَنِّي! «؛ وَذَلِكَ
 بَعْدَ الضَّمِيرِ فِي (ظَنُّوا) عَلَى الْكُفَّارِ، وَلَوْ كَانَ عَائِداً عَلَى الرُّسُلِ
 لِأَوْهَمَ أَنَّ الرُّسُلَ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ كَذَبَهُمْ، وَهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَصَوَّرَ
 فِيهِمْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَلَا بَدَّ حِينَئِذٍ مِنْ تَعَدُّدِ الضَّاهِرِ هُنَا، فَيَكُونُ
 فَاعِلُ ﴿أَسْتَيْسَسَ﴾ هُوَ الرُّسُلُ أَنْفُسُهُمْ، وَفَاعِلُ ﴿ظَنُّوا﴾ هُوَ الضَّمِيرُ
 الظَّاهِرُ الْوَائِي الْعَائِدُ عَلَى الْكُفَّارِ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ﴿١﴾ (الفتح ٩)، فَإِنَّ
 ضَمِيرَ الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ،
 وَأَمَّا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا
 يُسَبِّحُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ آيَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا تَكَادُ تُحْصَى، وَيُرَاجَعُ
 «تَهْذِيبُ الْأَجُوبَةِ» لِلْحَسَنِ بْنِ حَامِدٍ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (٤٠٣ هـ)
 (٢/٧٤٥-٧٤٦) وَكَذَا «تَفْسِيرُ الشُّوكَانِيِّ» عِنْدَ آيَةِ الْفَتْحِ.

سورة الرعد

دعوة التوحيد هي دعوة الحق

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد ١٤).

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ رحمته الله فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٣/ ٤٨٥-٤٨٦) عَنْ عَلِيٍّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ دَعْوَةَ الْحَقِّ فِي الْآيَةِ هِيَ التَّوْحِيدُ، وَرَوَاهُ أَيْضاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَابْنَ زَيْدٍ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَاجَعَ لَهُ «تَفْسِيرُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ» (٢/ ٣٣٤) وَ«الدُّعَاءُ» لِلطَّبْرَانِيِّ (١٥٨٠-١٥٨١) وَ«الْفَوَائِدُ الْمُنْتَقَاةُ عَنِ الشُّيُوخِ الْعَوَالِي» لِأَبِي الْحَسَنِ الْحَرَبِيِّ (٨٢) وَ«الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٠٤).

وَهَذَا التَّفْسِيرُ السَّلَفِيُّ الْمُخْتَارُ وَاضِحُ الْمَعْنَى مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: السِّبَاق؛ فَإِنَّ مَا بَعْدَهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الْآيَةِ.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ كُلَّ دَعْوَةٍ لَمْ تُوصَلْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَلَمْ تُؤَسَّسْ عَلَيْهِ فَلَا نَفْعَ فِيهَا وَلَا ثُبُوتَ لَهَا وَلَا قَرَارَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا مُخَالَفَةُ جَمِيعِ الرُّسُلِ لَكَفَى بِهِ إِثْمًا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء ٢٥)، وَفِي هَذَا أَبْلَغُ وَاعِظٌ لِلدَّعَوَاتِ الَّتِي لَا تَهْتَمُّ بِالتَّوْحِيدِ أَوْ لَا تُرَكِّزُ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَةٍ تَجْهَلُ التَّوْحِيدَ مِنْ

أصله ولا تُفَرَّقُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالشُّرْكِ؟! فَكَيْفَ بَدْعُوهُ تُحَارِبُ
التَّوْحِيدَ وَأَهْلَهُ؟!

وَكَمْ هُمُ الَّذِينَ لَمْ تَنْشَرْحْ صُدُورُهُمْ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ؛ بَزَعُمُ أَنَّ
الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ تُنْفَرُّ النَّاسَ عَنِ الدِّينِ، أَوْ أَنَّ النَّاسَ يَمْلُونُ
خِطَابَهَا وَلَا يَنْفَعِلُونَ مَعَهَا، وَأَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي مِنْ صَاحِبِهَا تَأْجِيلَهَا،
وَهَؤُلَاءِ يُخْطِئُونَ خَطَأً فَاخِشاً؛ لِأَنَّهُمْ بِهِذَا يَطْعَنُونَ عَلَى دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَمِنْهُ جَعَلَ الْأَنْبِيَاءُ غَيْرَ حُكَمَاءَ!!!

وَإِنَّهُ لِمِنْ حُسْنِ الْاِخْتِيَارِ أَنْ تُسَمِّيَ بَعْضُ الْمَوْسَّاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ
الْكَلِّيَّةِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْعَقِيدَةِ: كَلِّيَّةَ الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى مُعْتَقَدِ السَّلَفِ
الصَّالِحِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ هِيَ أَصْلُ
الدَّعْوَةِ وَرَكِيزَتُهَا الْأُولَى، وَمَهْمَا دَعَتِ الْجَمَاعَاتُ وَالْجَمْعِيَّاتُ - فَضْلاً
عَنِ الْأَفْرَادِ - إِلَى الْأَبْوَابِ الْآخَرَى مِنْ عُلُومِ الدِّينِ، فَإِنَّ عَمَلَهُمْ لَا
يُعَدُّ شَيْئاً، حَتَّى يُعْنَوْا بِحَقِّ اللَّهِ ﷻ الَّذِي هُوَ أَنْ يُفَرَّدَ سُبْحَانَهُ بِالْعِبَادَةِ
لَا تَأْخُذُهُمْ فِي ذَلِكَ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، مُقَدِّمِينَ حَقَّ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْحُقُوقِ،
وَمُقْتَدِينَ فِي ذَلِكَ بِرُسُلِ اللَّهِ ﷻ، مُتَيَقِّنِينَ بِأَنَّ هَدْيَهُمْ هُوَ أَكْمَلُ هَدْيٍ،
وَأَنَّ السَّبِيلَ الدَّعْوِيَّةَ الْآخَرَى مَهْمَا كَثُرَ أَتْبَاعُهَا وَتَمَكَّنَ أَشْيَاعُهَا فَإِنَّمَا
هِيَ تَزْيِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ
فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ (فَاطِرُ ٨)، مُدْرِكِينَ بِأَنَّ
تَجْمَهُرَ النَّاسِ حَوْلَ خُطْبِهِمُ الرِّثَانَةَ الْغَنِيَّةَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى التَّوْحِيدِ

وَالسُّنَّةُ مَا هُوَ إِلَّا فِتْنَةٌ لَهُمْ؛ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (١١١): ﴿وَإِنْ أَدْرَى
لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ، وَأَنَّ جَمَاهَا كَجَمَالِ حَسَنَاءِ تُوشِكُ
أَنْ تُسَيَّءَ الْجَوَارِ وَتُوَجِّشَ الدِّيَارَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ لِابْنِهِ، وَذَكَرَ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ وَعَظَهُ
بِهِ هُوَ التَّحْذِيرُ مِنَ الشِّرْكِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذَا قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ: وَهُوَ يَعِظُهُ،
يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لُقْمَانُ ١٣)، وَذَكَرَ
رَبُّنَا أَنَّهُ أَتَى لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ﴾ (لُقْمَانُ
١٢)، وَبَعْضُ الدَّعَوَاتِ تَدْعِي أَنْ تَأْجِيلَ الْحَدِيثَ عَنِ التَّوْحِيدِ
وَالشِّرْكِ هُوَ الْحِكْمَةُ؛ بِحُجَّةٍ أَنْ مُخَالَفَةَ مَا أَدَّعَوْهُ يُنْفِرُ النَّاسَ الَّذِينَ
اعْتَادُوا بَعْضَ الطُّقُوسِ الشَّرَكِيَّةِ!! وَقَارِئُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَوْ
صَدَّقَهُمْ فِيهَا أَدَّعَوْهُ لَرَمَى لُقْمَانَ الْحَكِيمَ بِمُجَانِبَةِ الْحِكْمَةِ، وَلَطَعَنَ عَلَى
كِتَابِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَاللَّهُ يَصِفُ الدَّاعِيَ إِلَى التَّوْحِيدِ بِلِ
الْبَادِئِ بِهِ بِالْحِكْمَةِ، وَهُمْ يُخَالِفُونَ ذَلِكَ! فَلْيَكُنْ هَؤُلَاءِ الْمُخَالِفُونَ
لِحِكْمَةِ لُقْمَانَ أَوَّلَ الْمُسْتَفِيدِينَ مِنْ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ، وَسَيِّدُ الْحُكَمَاءِ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أَرْسَلَهُ إِلَى الْيَمَنِ دَاعِيًا: «إِنَّكَ تَقْدُمُ
عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ أَنْ يُوحِدُوا اللَّهَ
تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي
يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي
أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ
وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ» مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

أَلَا - أَيُّهَا الْمُتَصَدُّونَ لِدَعْوَةِ النَّاسِ! - كُونُوا مُتَّبِعِينَ لَا مُتَّبَعِينَ،
وَعَظَّمُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَظَّمُوا فِي عَيْنِ اللَّهِ، وَلَا يَغَرَّنَّكُمْ تَصَفِّيقُ أَتْبَاعِكُمْ،
وَكَثْرَةُ أَشْيَاعِكُمْ، وَجَرُّ أَذْيَالِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ
اللَّهِ شَيْئًا، وَلَن تَنْجَحَ دَعْوَتُكُمْ أَبَدًا مَا أَعْرَضْتُمْ عَنْ دَعْوَةِ الْحَقِّ، وَكُلِّ
تَجْرِبَةٍ دَعْوِيَّةٍ تَرَوْنَهَا جَمِيلَةً لَمَاعَةً، وَلِلجَاهِيرِ جَمَاعَةً، وَلِلْقُلُوبِ مِيَالَةً،
وَلِلدَّمُوعِ سَيَالَةً، فَلَا تُسَلِّمُوا لَهَا حَتَّى يَكُونَ عَلَيْهَا بُرْهَانٌ مِنْ صَاحِبِ
الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ - كَغَيْرَهَا مِنْ مُهِمَّاتِ الدِّينِ - لَا تَكُونُ إِلَّا بِإِذْنِ
مِنْ اللَّهِ وَتَشْرِيعِهِ، لَا التَّجَارِبِ وَالْعَوَاطِفِ وَالِاسْتِجَابَةِ لِرَغَبَاتِ
الْعَوَامِّ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٥/١٦١ - ١٦٤):
«وَدَعَوْتُهُ إِلَى اللَّهِ هِيَ بِإِذْنِهِ، لَمْ يَشْرَعْ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٦) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا
مُنِيرًا (١٧)» (الأحزاب ٤٥-٤٦)، خِلَافَ الَّذِينَ ذَمَّهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ لَهُمْ
شُرَكَاءُ اشْتَرَوْا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (الشورى ٢١)، وَقَدْ قَالَ
تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا
وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفَتَّرُونَ﴾ (يونس ٥٩)، وَمِمَّا
يُبَيِّنُ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَارَةً، وَتَارَةً
بِالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل ١٢٥)؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي
يَدْعُو غَيْرَهُ إِلَى أَمْرٍ لَا بَدَّ فِيهِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمَقْصُودُ
الْمُرَادُّ، وَالثَّانِي: الْوَسِيلَةُ وَالطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَى الْمَقْصُودِ، فَلِهَذَا يَذْكُرُ

الدَّعْوَةُ: تَارَةً إِلَى اللَّهِ، وَتَارَةً إِلَى سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْمَرَادُ الْمَقْصُودُ بِالْدَّعْوَةِ... وَذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِتَحْقِيقِ الْأُلُوهِيَّةِ لِلَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَامْتِنَاعِ الشِّرْكِ، وَفَسَادِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِتَقْدِيرِ إِلَهٍ غَيْرِهِ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَالشِّرْكِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ الْعِبَادَةَ فُطِرُوا عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِأَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا كَمَالَ لَهَا وَلَا صَلَاحَ وَلَا لَذَّةَ وَلَا سُورَ وَلَا فَرْحَ وَلَا سَعَادَةَ بِدُونِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي فِي تَحْقِيقِهِ تَحْقِيقُ مَقْصُودِ الدَّعْوَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالرَّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ لُبُّ الْقُرْآنِ وَزُبْدُهُ، وَبَيَانِ التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْقَوْلِيِّ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ❶ اللَّهُ الصَّمَدُ ❷ ﴿(الإخلاص ١- ٢)﴾، وَالتَّوْحِيدِ الْقَضَدِيِّ الْعَمَلِيِّ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأَيَّمُوا لِكُفْرِهِمْ﴾ (الكافرون ١)، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ؛ فَإِنَّ هَذَا بَيَانٌ لِأَصْلِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَحَقِيقَتِهَا وَمَقْصُودِهَا .

وَهَذَا مَقَامٌ شَرِيفٌ، بَلْ هُوَ أَشْرَفُ مَقَامٍ قَامَهُ الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ، وَلَوْ فَرَّغْتُ لَهُ وَجَرَدْتُ قَلَمِي لَهُ خَالِصاً مَا أَدَيْتُ مَا يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيَّ فِيهِ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: اسْتِنْهَاضُ هِمَمِ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ نَحْوِ التَّوْحِيدِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ، لَا سِوَا الزَّاهِدِينَ الْمُزْهَدِينَ لِلْأُمَّةِ فِيهِ، وَالْأَمْرُ يَشْتَدُّ مَعَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي هَذَا الْجَانِبِ شِعَاراً لِدَعْوَتِهِمْ؛ زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يَتَجَنَّبُونَ مَا يُمِلُّ النَّاسُ أَوْ يَجْرَحُ مَشَاعِرَهُمْ وَلَوْ كَانَ هُوَ حَقُّ اللَّهِ الْخَالِصِ!! فَالتَّوْحِيدُ هُوَ

حق الله الأعظم، ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد، قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه، قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم»، وقد نبّه القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٩٠) على نكتة بديعة في مناسبة قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ١٦٣) لآية قبلها، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (البقرة ١٥٩)، فقال: «لما حذر تعالى من كتمان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتمانه التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان».

الثاني: التذكير بأن تفسير السلف هو أحسن تفسير، وإن نبث عنه أفهام الناس، كما رأينا في تفسير آية الباب، فهذه هي المحجة البيضاء، وهؤلاء هم السالكون جادتها، فخذوا طريقها، والزمو فريقها، والعاقبة للتقوى.

تنبية: كتب بعض من لا يهتم بالتوحيد ما سمّوه: «التوحيد أولاً لو كانوا يعلمون»، لكن سداه ولحمته عندهم الحاكمية والتشهير بمثالب السلاطين، وكل همهم في ذلك الوصول إلى تكفير الحكام بلا تفصيل!! وآيتهم الثرثرة بالارجاء ورمي كل من لا يوافقهم به، فليحذر هؤلاء؛ فإن الحق فيما كتبوا أن يسمى: التكفير أولاً لو كانوا يعلمون!!

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بَعْضُ أَسْرَارِ تَنْوَعِ أَدَوَاتِ الْحَضَرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخَّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ (إبراهيم ١٠-١١).

حَرْفُ (إِنَّمَا) يَجِيءُ لِقَضْرِ الصِّفَةِ عَلَى الْمَوْصُوفِ، أَوِ الْمَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ، وَهُوَ لِلْحَضَرِ عِنْدَ جَمَاعَةٍ كَالنَّفْيِ مَعَ الْإِسْتِثْنَاءِ، كَمَا فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» لابن تَيْمِيَّةٍ (٢٦٦/١٨) وَ«الْبُرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ» لِلزَّرْكَشِيِّ (٢٣١/٤) وَ«الْإِتْقَانُ» لِلشَّيْطَانِيِّ (٦٤/٢)، وَالْمَقْصُودُ بِالنَّفْيِ مَعَ الْإِسْتِثْنَاءِ أَنْ يَكُونَ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، مِثْلُ اسْتِعْمَالِ أَدَاةِ (لَا) النَّافِيَةِ، ثُمَّ إِتْبَاعُهَا بِأَدَاةِ الْإِسْتِثْنَاءِ (إِلَّا)، وَقَدْ فَرَّقَ الْبَيَانِيُّونَ بَيْنَ أَدَاةِ (إِنَّمَا) وَغَيْرِهَا مِنْ أَدَوَاتِ الْحَضَرِ بِقَوْلِهِمْ: الْأَصْلُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ (إِنَّمَا) فِيمَا يَعْلَمُهُ الْمُخَاطَبُ وَلَا يُنْكِرُهُ، وَمَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الْمَلِكُ ٢٦)، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ (هُودُ ٣٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ (الْأَعْرَافُ ١٨٧)، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الشُّورَى ٤٢)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ﴾ (آلْ عِمْرَانُ ٢٠)،

وقد ذكر السيوطي في « الإِتقان » (٢ / ٦٥) أن أحسن ما تُستعمل فيه (إنما) هو ما كان من مواقع التعريض، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد ١٩)، كأنه قيل لهم: التذكُّر محصورٌ في أولي الألباب، ولما لم تكونوا منهم لم تتذكروا، هذا اخِصارُ الكلام في أداة (إنما)، وأما ما يُستعمل له النفي والاستثناء فالأصل فيه أن يكون فيما يجهله المخاطب أو ينكره، نحو قوله ﷺ: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان ٤٤)، وقوله حاكياً مقولة الكفار: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٧) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (المؤمنون ٣٧-٣٨)؛ وذلك لأن رسلهم جاءَ بإثبات البعث والرسالة، فادَّعوا ضده واستعملوا لإنكاره أداة النفي والاستثناء.

وجاء في بعض السياقات القرآنية استعمال الحضر في موضع النفي والاستثناء، واستعمال النفي والاستثناء في موضع الحضر، ومنه قول الله ﷻ في المنافقين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقرة ١١)، فقد استعملوا أداة (إنما) في ادِّعاء أنهم مُصلِحون، كأنها مخاطبون من يدري في قرارة نفسه أنهم مُصلِحون، مع أن العكس هو الصحيح؛ لأنَّ المنافقين مُفسِدون وليسوا من الإصلاح بسبيل، وقد أعرضوا عن الأسلوب الدال على واقعهم لادِّعائهم أن إصلاحهم معلومٌ ظهوره، فنسبوا الإصلاح إلى أنفسهم واستعملوا له أداة (إنما) خدعةً لسانية، وانظر « البرهان »

للزركشي (٣١٢/٤).

ومنه ما جاء مجتمعاً من هذا ومن هذا، كقول الله تعالى في سورة الشعراء (١٥٣-١٥٤) عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٣١) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِغَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣٢)، وقوله فيها (١٨٥-١٨٦) إخباراً عن رد أصحاب الأيكة على نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٣٣) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٤)، فقد عبروا عما يُنكره كل رسول بأداة ما لا يُنكر وهي (إنما)، وذلك في وصفهم للرسل بالسحر؛ لأنهم ادَّعوا أن هذا الوصف معلوم، فنزلوا المنكر المجهول بمنزلة المعروف المعلوم، وهذا من تعنتهم، كما أنهم عبروا عما هو معلوم ولا يُنكر باستعمال أسلوب ما يُجهل أو يُنكر، ألا وهو بشرية الأنبياء، وهذا من تنزيل المعلوم بمنزلة المجهول لاعتبار مناسب، فيستعمل له النفي والاستثناء، ونحوه قوله تعالى في آية الباب: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ (إبراهيم ١٠)؛ فَإِنَّ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام نَفَوْا الْبَشَرِيَّةَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وادَّعَوْا الْمَلَائِكِيَّةَ، وهذا لم يكن، لكن الكفار كانوا يعتقدون أن الله لا يرسل إلا ملائكة، وزعموا أن الرسل بادَّعوا النبوة ينفون عن أنفسهم البشرية، فأخرج الكلام مخرج ما يعتقدون، وأخرج الجواب أيضاً مخرج ما قالوا، حكاية لقولهم كما يحكي المجادل كلام خصمه، ثم يكرر عليه بالإبطال، وهو قوله عليه السلام: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا

بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ»، فاستعملوا النفي مع الاستثناء في محل استعمال القصر
 للمُناسبِ المُعتَبَرِ، فكأنه قيل: ليس الأمرُ كما زعمتم من اختصاص
 الملائكة بالرسالة، فإنَّ اللهَ يبعثُ من الملائكة رُسُلًا ومن النَّاسِ،
 وانظر المصدَر السابق، وجعله الكرماني في «تحقيق الفوائد الغيائية»
 (٥١١/٢ - ٥١٢) من باب المجازاة والتماشي مع الخصم وإرخاء
 العنان معه لتبكيته، وهو قريب مما ذكرنا.

والذي يدلُّ على أنَّ المقامَ مقامُ جدالٍ أَنَّهُ جاءَ في الآية الأولى قوله
 تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾، وقالَ في بداية الآية التي تليها:
 ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فإنَّ بينهما زيادة (لَهُمْ)؛
 لأنَّ الجدلَ يُزيلُ بعضَ الحواجز ويُجرئُ على العتابِ، كما حصلَ بينَ
 موسى والخضر عليه السلام، فقد أخبرَ اللهُ ﷻ أَنَّ الخضرَ ﷻ قالَ لموسى
ﷻ لما عصاه أوَّلَ مرَّةٍ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢)
 (الكهف ٧٢)، فلمَّا عصاه في المرَّة الثانية، قالَ له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ
 تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥)، والفرقُ بينَ الجُمْلَتَيْنِ في زيادة
 لفظ ﴿لَكَ﴾ في المرَّة الثانية، والتي تُفيدُ مُواجهةَ المُخاطَبِ نَفْسِهِ؛ وهو
 من زيادة العتابِ كما يُفعلُ مع مَنْ يُنهى عن فعلٍ ثمَّ يعودُ إليه، كذا في
 «درة التنزيل وغيرة التأويل» للخطيب الإسكافي (ص ٢٨٥)
 و«تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» لنظام الدين النيسابوري
 (٤٥٠/٤)، وقالَ: «وإنَّما زادَ ههنا ﴿لَكَ﴾ لأنَّ الإنكارَ أكثرُ وموجبُ
 العتابِ أقوى، وقيلَ: أكَّدَ التقريرَ الثاني بقوله: ﴿لَكَ﴾ كما تقولُ لمن

تُوبُّهُ: (لَكَ أَقُولُ وَإِيَّاكَ أَعْنِي!)...»، وقال ابنُ الجوزي في « زاد المسير » (١٧٤ / ٥): « وسمعتُ أبا مُحَمَّد الخشَّاب يَقُولُ: وَقَرَّه في الأول فلم يُواجهه بكافِ الخطابِ، فلمَّا خالَفَ في الثاني واجَهَهُ بها، » وانظر « عناية القاضي وكفاية الرازي » لشهاب الدين الحفاجي في حاشيته على « تفسير البضاوي » (١٢٤ / ٦) و« كشف المعاني في المتشابه والمثاني » لابن جماعة (ص ٢٤٨) و« رُوح المعاني » للألوسي (٢ / ١٦).

ومن استعمال النَّفْي والاستثناء بدلَ القصرِ إخبارُ الله سبحانه عن عيسى ﷺ أَنَّهُ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ١١٧)، ولا ريبَ أَنَّ المُخاطَبَ هُنا هو الله ﷻ، ولا ريبَ أَنَّهُ لَا يَجْهَلُ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ عِيسَى ﷺ وَلَا يُنْكِرُهُ، ولكن رُوعيَ في هَذَا الاستعمالِ جِهَةُ التَّكَلُّمِ، وهو عِيسَى ﷺ، والمَقَامُ مَقَامُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كما رُوعيَ فِيهِ التَّهْمَةُ المُلصِّقَةُ بِهِ من جِهَةِ قَوْمِهِ الَّذِينَ عَبدوه، وادَّعَوْا أَنَّ ذَلِكَ هو الدِّينُ الَّذِي جاءَهُم بِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ المَتَّهَمَ يَسْتَعْمِلُ أَقْوَى مَا يُؤْتَاهُ لِتَخْلِيصِ نَفْسِهِ.

ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَن مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٤٤)، فَإِنَّهُ خِطَابٌ لِلصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَجْهَلُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ إِلَّا رَسُولًا مَاتَ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ، لَكِنْ نُزِّلَ اسْتِعْظَامُهُمْ مَوْتَ الرَّسُولِ ﷺ مَنزِلَةً

مَنْ يَجْهَلْ ذَلِكَ؛ وَلَأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ لَا بَدَّ مِنْ مَوْتِهِ، فَمَنْ اسْتَبْعَدَ مَوْتَهُ
كَأَنَّهُ اسْتَبْعَدَ رِسَالَتَهُ، كَمَا فِي «الْإِتْقَانِ» لِلشُّيُوطِيِّ (٢/٦٥) وَ«مَجْمُوعِ
الْفَتَاوَى» لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ (١٨/٢٦٧).

وَهَذَا لِأَنَّ قُوَّةَ حُبِّهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْسَتْهُمْ إِمْكَانِيَّةَ فِرَاقِهِ فِي
ذَلِكَ الْوَقْتِ، لَا سِيَّامَا وَأَنَّهُ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ لِعَدَمِ إِنْهَائِهِ بَعْضَ مُهِمَّاتِهِ ﷺ فِي
ظَنِّ بَعْضِ الصَّحَابَةِ، كَمَا وَقَعَ لِعُمَرَ وَلكَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَعَنِ أَبِي
سَلَمَةَ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكِنِهِ
بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى
عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمُ^(١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُغْشَى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ^(٢)، فَكَشَفَ
عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ
اللَّهِ! وَاللَّهِ! لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ
مَتَّهَا، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا
بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ!
فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا
بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ
يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾، وَقَالَ: وَاللَّهِ!
لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ!

(١) أَيِ قَصَدَهُ.

(٢) هُوَ مَا كَانَ مَحْطُوطًا مِنَ الثِّيَابِ.

فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوها،
فَأَخْبَرَنِي ^(١) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ: وَاللَّهِ! مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ
أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ ^(٢)، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى
الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ «.

(١) الْفَائِلُ هُوَ الزُّهْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي « هَذَا السَّارِي » (ص ١٥٩) فِي مَعْنَى عَقِرْتُ: « بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَكَسْرِ
الْقَافِ، وَوَهْمٍ مَنْ ضَمَّهُ، أَيْ دَهَشْتُ، وَالاسْمُ الْعَقَرُ بَفَتْحَتَيْنِ، وَهُوَ فَجَاءَةُ الْفَرْعِ،
قَوْلُهُ: رَفَعَ عَقِيرَتَهُ: أَيْ صَوْتَهُ، قِيلَ: أَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا قُطِعَتْ رِجْلُهُ، فَكَانَ يَرْفَعُ
الْمَقْطُوعَةَ عَلَى الصَّحِيحَةِ وَيَصِيحُ «، وَقَوْلُهُ: « فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ » مَعْنَاهُ:
فَدِهَشْتُ حَتَّى مَا تَحْمِلُنِي رِجْلَايَ.

سورة الحج

مِنْ فِىهِ الْجِهَادُ الَّذِي يَخْفَى عَلَى جَمَاعَاتِ الْجِهَادِ الْيَوْمَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) إِنَّا
كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٢) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٣) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٤) فَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٥) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٦)
(الحج ٩٤-٩٩).

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرَيَاتِ ثَلَاثَةُ أَوَامِرَ وَنَهْيٍ وَوَعْدٌ، أَمَّا الْأَوَامِرُ
فَهِيَ:

الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ بِالذِّعْوَةِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

وَالثَّانِي: الْأَمْرُ بِالْعِبَادَةِ؛ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٥).

وَالثَّلَاثُ: الْأَمْرُ بِالذِّمُومَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ
حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٦).

وَأَمَّا النَّهْيُ، فَالنَّهْيُ عَنِ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ:
﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَأَمَّا الْوَعْدُ، فَوَعْدُهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِكَفَايَتِهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَدَفْعِ
شَرِّهِمْ عَنْهُ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ شَأْنُ الْجِهَادِ عِنْدَ الْإِسْتِضْعَافِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ

قَبْلَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ
زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِالْصَّدْعِ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِ، نَهَى عَنِ التَّعَرُّضِ
لِلْكَفَّارِ مَعَ إِخْبَارِهِ بِأَنَّهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ مُعْتَدُونَ، فَكَانَتْ قِيلَ: إِنَّهُمْ لَنْ
يَتْرُكُونَنَا وَلَوْ تَرَكْنَاهُمْ! وَلَنْ يَتَسَامَحُوا مَعَنَا وَلَوْ تَسَامَحْنَا مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ
سَيَقْضُونَ عَلَيْنَا إِنْ بَقِينَا مَكْتُوفِي الْأَيْدِي! فَجَاءَ الْجَوَابُ بِالْوَعْدِ
الصَّادِقِ: ﴿إِنَّا كَفَيْتُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، أَيِ إِنَّ الدِّفَاعَ عَنْكُمْ عَلَى اللَّهِ؛
لَأَنْتُمْ ضُعَفَاءُ، وَخَوْضُكُمْ الْمَعْرَكَةَ مَعَهُمْ يُؤَدِّي إِلَى هَلَكَتِكُمْ، فَكَانَتْ
قِيلَ بَعْدَهُ: إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْمُخَالَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ...!!
فَجَاءَ الْجَوَابُ بِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا ذَلِكَ، بَلِ إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ شَرًّا مِمَّا
تَذْكُرُونَ عَنْهُمْ، بَلِ إِنَّهُمْ مُرْتَكِبُونَ لأكْبَرِ شَرٍّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَلَا وَهُوَ
أَنَّهُمْ ﴿يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، فَمَهْمَا ذَكَرْتُمْ عَنْهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ
فَلَنْ يَبْلُغُوا شَرًّا مِنَ الشُّرْكِ، فَانْتُمْ مَأْمُورُونَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ مَا دُمْتُمْ
ضُعَفَاءَ، ثُمَّ جَاءَتِ التَّسْلِيَةُ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، لَكِنِ الْمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ مَسْأَلَةَ انتِقَامٍ، كَمَا أَنَّهَا
لَيْسَتْ مَسْأَلَةُ خِذْلَانٍ لِلْحَقِّ وَجُبْنٍ، إِنَّمَا هِيَ اتِّبَاعٌ وَتَحْكِيمٌ لِأَمْرِ اللَّهِ،
فَأَمْرُهُ رَبُّهُ - زِيَادَةٌ عَلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ - أَنْ يَفْزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي
بِهَا طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ وَرَاحَةُ النَّفْسِ مِنْ مُكَابَدَةِ الْمُوَاجَهَةِ الْمُنْهِي عَنْهَا عِنْدَ
عَدَمِ الْقُدْرَةِ، وَكَيْ لَا يَقُولَ جَاهِلٌ بِفَقْهِ الْجِهَادِ أَوْ عَارِفٌ غَلَبَ عَلَيْهِ
الْإِسْتِعْجَالُ وَالْعِنَادُ: إِلَى مَتَى وَنَحْنُ صَابِرُونَ؟! أَوْ يَظُنَّ آخِرُ أَنْ هَذِهِ
الْعِبَادَةُ شُرْعَتٌ مِنْ أَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنْ كَيْدِ الْعَدُوِّ فَحَسَبُ، أَمَرَ اللَّهُ

بالاستمرار عليها إلى الممات الذي هو اليقين، فقال: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿١١﴾.

فما أعظمَ هذا البَلَسَ لجراح المسلمين اليومَ، وهم يُكابِدُونَ من الأعداء ما لا يُوصَفُ مع قَلَّةِ ذاتِ اليدِ! وما أعظمَ الحِكْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ في هذه الأوامر الثلاث والنهي الحكيم والوعد الصادق الأمين! وكذلك يفعل المسلمون كلما شابهت حالهم تلك الحال، ولن يضرَّهم الأعداء ما تمسَّكوا بهدي الكتاب الكريم وتأسَّوا بسُنَّةِ النَّبِيِّ الصَّابِرِ الْمُطِيعِ الْمُتَنَصِّرِ ﷺ، ولن يَحِيبَ مُتَّبِعُ صَادِقِ أَمَامٍ أَيْ عَدُوِّ شَرِّ غَشُومٍ، ولو كانت الدنيا له تبع، والنَّاسُ له شِيعَ، وإنَّما الحَيَبَةُ لِمَنْ يَنْطَلِقُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَيَسْتَجِيبُ لاسْتِفْزَازِ عَدُوِّهِ، دُونَ أَنْ يُرَاعِيَ فِقَّةَ الْجِهَادِ كَهَذَا الَّذِي نَحْنُ بِصَدْدِهِ، وَتَغْلِبُهُ عَاطِفَةُ الْغَضَبِ، فَتَعَصِفُ بِهِ بَعِيداً عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعاً، يَحْسِبُهَا غَضَبَةً لِلَّهِ وَهِيَ انْتِقَامٌ لِلنَّفْسِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ولهذه الآيات نظائر كثيرة في كتاب الله، أَكْتَفِي بِسُورَتَيْنِ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَقْرَأُ بهما في المحافل العامة، الأولى سورة (ق)، ومعلوم أن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بها في خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ كما في «صحيح مسلم» (٨٧٣)، والثانية سورة الغاشية، ومعلوم أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بها في صَلَاةِ الْجُمُعَةِ والعِيدَيْنِ كما في «صحيح مسلم» أيضاً (٨٧٨).

ففي السُّورَةِ الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ مَخَافٍ وَعِيدٍ﴾ (ق ٤٥)، وفي الثَّانِيَةِ قَوْلُهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿١٢﴾ (الغاشية ١٢)،

وهما في الأمر بالدعوة كقوله هنا: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.
 وفي الأولى قوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (ق
 ٤٥)، وفي الثانية قوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢٢)، كقوله هنا:
 ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.
 وتفصيل الكلام حول هذه الآيات وغيرها يتحمله موضع آخر
 إن شاء الله، وإنما أردت لفت نظر المستفيد وتعجيل بعض الفوائد له،
 والله الموفق للفقه في كتابه والعمل به.

سُورَةُ النَّحْلِ

اخْتِرَاعُ السَّيَّارَاتِ وَغَيْرِهَا فِي الْقُرْآنِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٨).

امتنَّ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَا خَلَقَهُ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ النَّقْلِ وَمَرْكُوبَاتِ الْأَسْفَارِ، وَذَكَرَ مِنْهَا نَوْعَيْنِ:

- نَوْعٌ رَأَى النَّاسُ يَوْمَ نُزُولِ الْآيَةِ وَعَرَفُوهُ وَتَمَتَّعُوا بِهِ لِحَاجَتِهِمْ، وَهُوَ مَا عَيْنُهُ بِالْحَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ.

- وَنَوْعٌ لَمْ يُعَيْنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ يَوْمَئِذٍ، وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُهُ لَهُمْ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِمَا رَأَى النَّاسُ فِي عُصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَا سِوَا فِي هَذَا الْعَصْرِ؛ حَيْثُ خَلَقَ اللهُ لِعِبَادِهِ عَجَائِبَ الْمَرْكُوبَاتِ، مِنْ سَيَّارَاتٍ وَقَاطِرَاتٍ وَطَائِرَاتٍ وَسُفُنَ بَحْرِيَّةٍ وَفَضَائِيَّةٍ وَمَصَاعِدَ لِلْبَنَائِيَّاتِ، فِي أَشْيَاءٍ وَأَشْكَالٍ تُذْهِلُ الْعُقُولَ!! قَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ « أَضْوَاءُ الْبَيَانِ فِي إِیْضَاحِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ » (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥): « ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ يَخْلُقُ مَا لَا يَعْلَمُ الْمُخَاطَبُونَ وَقَتَ نُزُولِهَا، وَأَبْهَمَ ذَلِكَ الَّذِي يَخْلُقُهُ لِتَغْيِيرِهِ عَنْهُ بِالْمَوْصُولِ، وَلَمْ يُصَرِّحْ هُنَا بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَلَكِنَّ قَرِينَةَ ذِكْرِ ذَلِكَ فِي مَعْرَضِ الْاِمْتِنَانِ بِالْمَرْكُوبَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْهُ مَا هُوَ مِنْ الْمَرْكُوبَاتِ، وَقَدْ شُوْهِدَ ذَلِكَ فِي إِنْعَامِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ بِمَرْكُوبَاتٍ لَمْ تَكُنْ مَعْلُومَةً وَقَتَ نُزُولِ الْآيَةِ، كَالطَّائِرَاتِ وَالْقِطَارَاتِ وَالسَّيَّارَاتِ،

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ إِشَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، قَالَ مُسْلِمٌ بْنُ الْحَجَّاجِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ مِينَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (وَاللَّهِ! لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلْيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلْيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلْيَضَعَنَّ الْحِزْيَةَ، وَلْيَتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ^(١) فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلْتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلْيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ) اهـ، وَمَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ قَوْلُهُ: (وَلْيَتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا)؛ فَإِنَّهُ قَسَمَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَتَتَرَكَ الْإِبِلَ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَهَذَا مُشَاهِدٌ الْآنَ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْ رُكُوبِهَا بِالْمَرَائِبِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مُعْجِزَةٌ عَظُمَى تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ مُعْجِزَاتُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا تُسَمَّى دَلَالَةَ الْاِقْتِرَانِ، وَقَدْ ضَعَّفَهَا أَكْثَرُ أَهْلِ الْأُصُولِ، كَمَا أَشَارَ لَهُ صَاحِبُ (مَرَاقِي السُّعُودِ) بِقَوْلِهِ:

أَمَّا قِرَانُ اللَّفْظِ فِي الْمَشْهُورِ فَلَا يُسَاوِي فِي سِوَى الْمَذْكُورِ
وَأَصْرَحَ فِيهِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى اخْتِرَاعِ هَذِهِ الْمَرْكُوبَاتِ حَدِيثُ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيَكُونُ فِي
آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى سُرُوجٍ كَأَشْبَاهِ الرَّحَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى

(١) هِيَ الْفَتْيَةُ مِنَ النَّيَاقِ، وَالْقِلَاصُ جَمْعُ الْجَنْعِ، كَمَا فِي «فَتْحِ الْبَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (١٨٠/٧).

أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، نِسَاؤُهُمْ كَأَسِيَّاتٍ عَارِيَّاتٍ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ كَأَسْنِمَةٍ
 الْبُخْتِ الْعِجَافِ^(١)، الْعَنُوهُنَّ؛ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ، لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ
 مِنَ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ كَمَا يَخْدِمُنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ «
 رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢٢٣/٢) وَالْحَاكِمُ (٤٣٦/٤) وَصَحَّحَهُ هُوَ وَالشَّيْخُ
 أَحْمَدُ شَاكِرٌ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى « الْمُسْنَدِ » (٣٨/١٢) وَالشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي
 « السُّلْسَلَةِ الصَّحِيْحَةِ » (٢٦٨٣)، وَهُوَ غَيْرُ الْحَدِيثِ (٩٣) الَّذِي
 تَرَجَعَ عَنْ تَصْحِيْحِهِ ﷺ وَحَذَفَهُ مِنْهَا فِي الطَّبَعَةِ الْجَدِيدَةِ جَزَاهُ اللَّهُ
 خَيْرًا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثُ مُعْجَزَاتٍ، هِيَ:

الْأُولَى: إِخْبَارُهُ ﷺ بِتَبَرُّجِ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ، وَقَدْ حَصَلَ كَمَا أَخْبَرَ،
 حَتَّى إِنَّهُنَّ وَقَعْنَ فِي عُرْيٍ فَاضِحٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ
 فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنَّ مُسْلِمَةً تَفْعَلُهُ!

الثَّانِيَةُ: إِخْبَارُهُ ﷺ عَنْ صِفَةِ غَرِيبَةٍ فِي وَقْتِهِ فِي تَرْجِيلِ النِّسَاءِ
 شُعُورَهُنَّ، أَلَا وَهِيَ أَنْ تَضُمَّ إِحْدَاهُنَّ شَعْرَهَا وَتَرْفَعَهُ فَوْقَ رَأْسِهَا،
 ثُمَّ تَبْرُزُ بِهِ أَمَامَ الرِّجَالِ مِنْ غَيْرِ الْمَحَارَمِ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُشَبِّهُ فِي
 ارْتِفَاعِ مَا عَلَيْهِ ظَهَرَ الْبَعِيرِ النَّحِيفِ طَوِيلِ الْعُنُقِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى
 أَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ!!

الثَّالِثَةُ: مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، أَلَا وَهُوَ اخْتِرَاعُ هَذِهِ الْمَرْكُوبَاتِ الْحَدِيثَةِ،

(١) وَالْأَسْنِمَةُ: جَمْعُ سَنَمٍ، وَهُوَ أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالْبُخْتُ: جِمَالٌ طَوِيلَةُ الْأَعْنَاقِ، وَالْعِجَافُ:
 جَمْعُ عَجَفَاءَ، وَهِيَ الْهَرَبِيلَةُ.

وقد جاء في رواية الحاكم بلفظ: « يَرْكَبُونَ الْمَيَاثِرَ »، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيَّاشٍ وَهُوَ أَحَدُ رُوَاةِ الْحَدِيثِ: « فَقُلْتُ لِأَبِي: وَمَا الْمَيَاثِرُ؟ قَالَ: سُرُوجًا عِظَامًا »، وَالْمَيَاثِرُ جَمْعُ مَيْثَرَةٍ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي « النَّهَايَةِ: « مِفْعَلَةٌ مِنَ الْوَثَارَةِ، يُقَالُ: وَثُرَ وَثَارَةٌ فَهُوَ وَثِيرٌ، لَيْ وَطِئٌ لَيْنٌ، تُعْمَلُ مِنْ حَرِيرٍ أَوْ دِيبَاجٍ، يَجْعَلُهَا الرَّكَّابُ تَحْتَهُ عَلَى الرَّحَالِ فَوْقَ الْجِمَالِ »، قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ بَعْدَ أَنْ نَقَلَ هَذَا الْكَلَامَ: « فَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَرَوَايَةُ الْحَاكِمِ مُفَسَّرَةٌ لِلرَّوَايَةِ الْأُولَى، وَبِالْجَمْعِ بَيْنَهُمَا يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ السُّرُوجَ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا تَكُونُ وَطِيئَةً لَيِّنَةً، وَأَنَّهَا - أَعْنِي السُّرُوجَ - هِيَ كَأَشْبَاهِ الرَّحَالِ، أَيْ مِنْ حَيْثُ سَعَتْهَا... وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ السُّرُوجَ الَّتِي يَرْكَبُهَا أَوْلَثُكَ الرِّجَالُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَيْسَتْ سُرُوجًا حَقِيقِيَّةً تُوَضَّعُ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَشْبَاهُ الرَّحَالِ، وَأَنْتَ إِذَا تَذَكَّرْتَ أَنَّ الرِّحَالَ جَمْعُ رَحْلٍ، وَأَنَّ تَفْسِيرَهُ كَمَا فِي (المُصْبَاحِ الْمُنِيرِ) وَغَيْرِهِ: (كُلُّ شَيْءٍ يُعَدُّ لِلرَّحِيلِ مِنْ وِعَاءٍ لِلْمَتَاعِ وَمَرْكَبٍ لِلْبَعِيرِ)، إِذَا عَلِمْتَ هَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ - بِإِذْنِ اللَّهِ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَرْكُوبَةِ الَّتِي ابْتَكَرَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، أَلَا وَهِيَ السَّيَّارَاتُ؛ فَإِنَّهَا وَثِيرَةٌ وَطِيئَةٌ لَيِّنَةٌ كَأَشْبَاهِ الرَّحَالِ... وَإِذَا فَفِي الْحَدِيثِ مُعْجِزَةٌ عِلْمِيَّةٌ غَيْبِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالنِّسَاءِ الْكَاسِيَّاتِ الْعَارِيَّاتِ، أَلَا وَهِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِرِجَالِهِنَّ الَّذِينَ يَرْكَبُونَ السَّيَّارَاتِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ! إِنَّهَا لَنُبُوءَةٌ صَادِقَةٌ تُشَاهِدُهَا كُلُّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ حِينَهَا تَتَجَمَّعُ السَّيَّارَاتُ أَمَامَ الْمَسَاجِدِ، حَتَّى لِيَكَادُ الطَّرِيقُ عَلَى

رَحْبِهِ يَضِيقُ بِهَا، يَنْزِلُ مِنْهَا رِجَالٌ لِيَحْضُرُوا صَلَاةَ الْجُمُعَةِ،
وَجُمْهُورُهُمْ لَا يُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، أَوْ عَلَى الْأَقْلَ لَا يُصَلُّونَهَا
فِي الْمَسَاجِدِ، فَكَأَنَّهُمْ قَنَعُوا مِنَ الصَّلَوَاتِ بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَيَنْزِلُونَ
بَسِيَّارَتِهِمْ أَمَامَ الْمَسَاجِدِ فَلَا تَظْهَرُ ثَمَرَةُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ، وَفِي مُعَامَلَتِهِمْ
لَا زَوَاجَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ، فَهُمْ بِحَقِّ (نِسَاؤُهُمْ كَأَسِيَّاتٍ عَارِيَّاتٍ) ...!

هَذَا هُوَ الْوَجْهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدِي، فَإِنْ أَصَبْتُ فَمِنْ
اللَّهِ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ فَمِنْ نَفْسِي، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَغْفِرَ لِي
خَطْئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي .

وَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى بَيَانِ إِعْجَازِ آيَةِ الْبَابِ وَدَعَمْتُهَا بِالْحَدِيثِ
النَّبَوِيِّ السَّابِقِ إِظْهَاراً لَصِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي
« الْجَوَابِ الصَّحِيحِ لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ » (٢٩٣/٤): « إِذَا أَخْبَرْتَ
الرُّسُلَ الصَّادِقُونَ بِمَا يَعْجِزُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ عَنْهُ عُلِمَ صِدْقُهُمْ ».

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ) مُقَارَنَةٌ بَيْنَ ضَمِيرِ الْخِطَابِ وَالْغَائِبِ فِي آيَتَيْنِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِنُوا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الْإِسْرَاءُ ٣١)، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمَّا يَنْتَحِنُوا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الْأَنْعَامُ ١٥١).

بَحْثُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ يَنْبَنِي عَلَى مُقَدِّمَةٍ، ثُمَّ بَيَانُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ فَرْقٍ، ثُمَّ تَعْلِيلٌ مَعَ ذِكْرِ الدَّلِيلِ.

أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ، فَهِيَ الَّتِي أَنْقَلُهَا مِنْ كِتَابِ « دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ » لِلْخَطِيبِ الْإِسْكَافِيِّ، فَقَدْ قَالَ (ص ٩٩): « لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ، فَيَقُولَ: قَوْلُهُ ﷻ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ هُوَ مَا عَلَيْهِ الْاِخْتِيَارُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ تَقْدِيمِ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ عَلَى ضَمِيرِ الْغَائِبِ؛ بِنَاءً عَلَى قَوْلِكَ: أَعْطَيْتُكَ، وَالْآيَةُ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُدِّمَ فِيهَا ضَمِيرُ الْغَائِبِ عَلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ، فَكَأَنَّهَا بُنِيَتْ عَلَى قَوْلِكَ: أَعْطَيْتُهُوَكَ، وَهَذَا لَيْسَ بِمُخْتَارٍ، فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ اخْتِصَاصَ الْأَوَّلِ بِتَقْدِيمِ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ، وَأَوْجَبَ اخْتِصَاصَ الثَّانِي بِتَقْدِيمِ ضَمِيرِ الْغَائِبِ؟

الْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ: أَوَّلًا: لَيْسَ الضَّمِيرَانِ إِذَا اتَّصَلَا بِالْفِعْلِ كَالضَّمِيرَيْنِ إِذَا انفَصَلَ أَحَدُهُمَا وَعُطِفَ عَلَى الْآخَرِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: أَكْرَمْتُهُ وَإِيَّاكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ: أَكْرَمْتُكَ وَإِيَّاهُ، فِي أَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُخْتَارٌ

في مكانه الذي يُوجب تقديم ما قُدِّم وتأخير ما أُخِّر، بخلاف ما يختار إذا اتَّصلاً بالفعل في مثل: مَا أُعْطِيَتْكَ .

وأما بيان ما بين آيتي الباب من فرقٍ مع تعليله، فقد ذكر ابن كثير في « تفسيره » أن الله قَدَّمَ ضَمِيرَ الغائبِ العائدِ على الأولادِ في آيةِ الإسراءِ عندَ قوله: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾، على ضَمِيرِ المخاطَبِ العائدِ على الآباءِ في قوله: ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾؛ لأنَّ الفقرَ المخوفَ مُتَوَقَّعٌ في المال، وليسَ حاصلًا في الحال، فقَدَّمَ الاهتمامُ برزقِ الأولادِ على رزقِ الآباءِ؛ لأنَّ الآباءَ أغنياء، بخلاف ما في سورةِ الأنعام، فقد قَدَّمَ ضَمِيرُ المخاطَبِ العائدُ على الآباءِ في قوله: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ على ضَمِيرِ الغائبِ العائدِ على الأبناءِ في قوله: ﴿ وَإِيَّاهُمْ ﴾؛ وذلك لأنَّ الفقرَ حاضرٌ، فقَدَّمَ الاهتمامُ برزقِ الآباءِ على الأبناءِ الذين لم يُوجدوا بعدُ، وقال أبو السَّعود في « تفسيره »: « وقيل: هذا في الفقرِ النَّاجِزِ، وذَا في المُتَوَقَّعِ ».

فإن قيل: ما الدليل على أنَّ الآباءَ المخاطَبينَ في سورةِ الإسراءِ كانوا أغنياء، وأنَّ المخاطَبينَ في سورةِ الأنعام كانوا فقراء؟ الجواب: من قُرِينَةِ لَفْظِيَّةٍ في الآيتين، قال الزركشي في « البرهان » (٣/ ٢٨٥): « ومنها قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الأنعام ١٥١)، وقال في سورةِ الإسراءِ: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾، قَدَّمَ المخاطَبينَ في الأولى دُونَ الثانية؛ لأنَّ الخطابَ في الأولى في الفقراء؛ بدليل قوله: ﴿ مِمَّنْ إِمْلَقَ ﴾، فكان رِزْقُهُمْ عندهم أَهَمُّ مِنْ رِزْقِ أولادِهِمْ، فقَدَّمَ الوَعْدَ برزقِهِمْ على الوَعْدِ برزقِ أولادِهِمْ،

والخطابُ في الثانية للأغنياء؛ بدليل: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾؛ فإنَّ الخشيةَ إنما تكونُ ممَّا لم يقعَ فكانَ رزقُ أولادِهِم هو المطلوبُ دونَ رزقِهِم؛ لأنَّه حاصلٌ، فكانَ أهمُّ، فقدَّم الوعدُ برزقِ أولادِهِم على الوعدِ برزقِهِم، وهذا هو الدليلُ الَّذي وعدتُ به، واللهُ أعلم.

آيَةُ جَمَعَتْ أَرْكَانَ الْعِبَادَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ (الإسراء ٥٧).

أركانُ العبادةِ ثلاثةٌ، هي: الحبُّ والرَّجاءُ والخوفُ، ذكرَ ابنُ تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/٨١، ٢٠٧) وابنُ القيم في «بدائع الفوائد» (٣/٨٥١) وغيرُهما من الأئمة عن بعض السلفِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «مَنْ عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زَنَدِيقٌ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حُرُورِيٌّ»^(١)، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِيٌّ، وَمَنْ عَبْدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ»، قَالَ ابنُ القيم في المصدرِ السَّابِقِ: «وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فَابْتِغَاءُ الْوَسِيلَةِ هُوَ مُحَبَّتُهُ الدَّاعِيَةُ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهَا الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ عِبَادِهِ وَأَوَّلِيائِهِ، وَرَبِّهَا آلُ الْأَمْرِ بِمَنْ عَبْدَهُ بِالْحُبِّ الْمَجْرَدِ إِلَى اسْتِحْلَالِ الْمَحْرَمَاتِ وَيَقُولُ: الْمُحِبُّ لَا يَضُرُّهُ ذَنْبٌ...»

فَإِذَا اقْتَرَنَ بِالْخَوْفِ جَمَعَهُ عَلَى الطَّرِيقِ وَرَدَّهُ إِلَيْهَا كُلَّمَا شَرَدَ، كَأَنَّ الْخَوْفَ سَوَاطٍ يَضْرِبُ بِهِ مَطِيَّتَهُ لئَلَّا تَخْرَجَ عَنِ الدَّرَبِ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ يَحْدُوها يُطِيبُ لَهَا السَّيْرَ، وَالْحُبُّ قَائِدُهَا وَزِمَامُهَا الَّذِي يَسَوِّقُهَا، فَإِذَا

(١) أي خارجي.

لَمْ يَكُنْ لِلْمُطَيَّئَةِ سَوْطٌ وَلَا عَصاً يَرُدُّهَا إِذَا حَادَتْ عَنِ الطَّرِيقِ وَتُرِكَتْ
تَرَكَبُ التَّعَاسِيفَ، خَرَجَتْ عَنِ الطَّرِيقِ وَضَلَّتْ عَنْهَا، فَمَا حُفِظَتْ
حُدُودُ اللَّهِ وَمَحَارِمُهُ وَوَصَلَ الْوَاصِلُونَ إِلَيْهِ بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ
وَمَحَبَّتِهِ، فَمَتَى خَلَا الْقَلْبُ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَسَدَ فَسَاداً لَا يُرْجَى
صَلَاحُهُ أَبَداً، وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ ضَعُفَ إِيمَانُهُ بِحَسَبِهِ .

سُورَةُ الْكَهْفِ

حُكْمُ تَأْخِيرِ الْاسْتِثْنَاءِ عَنِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٣-٢٤).
يَشَاءُ اللَّهُ وَأَذْكُرَنَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴿﴾ (الكهف ٢٣-٢٤).

قَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ فِي « أَضْوَاءِ الْبَيَانِ »
(٢٥٥/٣): « اشتهر على ألسنة العلماء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه
استنبط من هذه الآية الكريمة أنَّ الاستثناء يصحُّ تأخيرُهُ عن المُسْتَثْنَى
منهُ زمنًا طويلاً، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِلَى شَهْرٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِلَى سَنَةٍ، وَقَالَ
بَعْضُهُمْ عَنْهُ: لَهُ الْاسْتِثْنَاءُ أَبَدًا، وَوَجْهُ أَخْذِهِ ذَٰلِكَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى نَهَى نَبِيَّهٖ أَنْ يَقُولَ: إِنَّهُ سَيَفْعَلُ شَيْئًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا مِنَ الْاسْتِثْنَاءِ
بـ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ)، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَذْكُرَنَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أَيِ إِنْ نَسِيتَ أَنْ
تَسْتَنْبِيحَ بـ (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) فَاسْتَنْ إِذَا تَذَكَّرْتَ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِاتِّصَالٍ وَلَا
قُرْبٍ، وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ لَا يَصَحُّ إِلَّا مُقْتَرِنًا
بِالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَأَنَّ الْاسْتِثْنَاءَ الْمُتَأَخَّرَ لَا أَثَرَ لَهُ وَلَا تَحُلُّ بِهِ الْيَمِينُ، وَلَوْ
كَانَ الْاسْتِثْنَاءُ الْمُتَأَخَّرُ يَصَحُّ لَمَّا عَلِمَ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ تَقَرَّرَ عَقْدٌ وَلَا يَمِينٌ
وَلَا غَيْرُ ذَٰلِكَ؛ لِاحْتِمَالِ طُرُوقِ الْاسْتِثْنَاءِ بَعْدَ ذَٰلِكَ، وَهَٰذَا فِي غَايَةِ
الْبُطْلَانِ كَمَا تَرَى، وَيُحْكِي عَنِ الْمَنْصُورِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ رحمته الله
يُخَالِفُ مَذْهَبَ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورَ، فَاسْتَحْضَرَهُ لِيُنْكِرَ عَلَيْهِ ذَٰلِكَ،
فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ لِلْمَنْصُورِ: هَٰذَا يَرْجِعُ عَلَيْكَ؛ لِأَنَّكَ تَأْخُذُ
الْبَيْعَةَ بِالْأَيَّامِ، أَفَتَرْضَى أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ عِنْدِكَ فَيَسْتَنْوُوا فَيَخْرُجُوا

عليك؟! فاستحسن كلامه ورضي عنه.

فائدة:

قال ابن العربي المالكي: سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لا يؤب: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْثًا فَأَضْرِبِيهِ وَلَا تَحْتِ﴾ (ص ٤٤)، بل يقول: استثنى بـ (إن شاء الله)، انتهى منه بواسطة نقل صاحب (نشر البُود) في شرح قوله في (مراقي السُّود):

بِشُرْكَهٖ وَبِالتَّوَاتُطِي قَالَا بَعْضُ وَأَوْجَبَ فِيهِ الْإِتِّصَالَ
وَفِي الْبَوَاقِي دُونَ مَا اضْطَرَّارِ وَأَبْطَلْنَ بِالصَّمْتِ لِلتَّذْكَارِ
فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَوَابُ الصَّحِيحُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ
مِنَ الْقَوْلِ بِصَحَّةِ الْإِسْتِثْنَاءِ الْمَتَأَخَّرِ؟

فالجواب أن مراد ابن عباس ﷺ أن الله عاتب نبيه على قوله: إنه سيفعل كذا غداً، ولم يقل: إن شاء الله، وبين له أن التعليق بمشيئة الله هو الذي ينبغي أن يفعل؛ لأنه تعالى لا يقع شيء إلا بمشيئته، فإذا نسي التعليق بالمشيئة ثم تذكر - ولو بعد طول - فإنه يقول: إن شاء الله ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة، ويكون قد فوض الأمر إلى من لا يقع إلا بمشيئته، فنتيجة هذا الاستثناء هي الخروج من عهدة تركه الموجب للعتاب السابق، لأنه محل اليمين؛ لأن تداركها قد فات بالانفصال، هذا هو مراد ابن عباس كما جزم به الطبري وغيره، وهذا لا محذور فيه ولا إشكال، وأجاب بعض أهل العلم

بجوابٍ آخر، وهو أنّه نَوَى الاستِثْناءَ بقلبه ونَسِيَ النّطقَ به بلسانه،
فأظهرَ بعدَ ذلكَ الاستِثْناءَ الَّذِي نَوَاهِ وَقَتَ الْيَمِينِ، هَكَذَا قَالَه
بَعْضُهُمْ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الظَّاهِرُ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

سُورَةُ مَرْيَمَ الرَّدُّ عَلَى الْخُرَافِيِّنَ مُسْقِطِي الشَّرَائِعِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم ٣١).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدُّ صَرِيحٌ عَلَى مُسْقِطِي التَّكْلِيفِ بَزْعَمِ الْوُصُولِ؛ فَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عُلِقَ الْأَمْرُ بِوُجُوبِ الْعِبَادَةِ عَلَى حَيَاتِهِ، وَفِيهَا تَفْسِيرٌ قَاطِعٌ لِلْخِلَافِ الَّذِي أَوْرَدَهُ مَنْ لَا عِبْرَةَ بِخِلَافِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر ٩٩)، فَقَدْ زَعَمَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْيَقِينَ دَرَجَةٌ إِذَا بَلَغَهَا الشَّيْخُ الْعَارِفُ لَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى الْعِبَادَةِ!! وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَقَدْ فَنَدُوا هَذَا التَّفْسِيرَ وَفَسَّرُوا الْيَقِينَ بِالْمَوْتِ، أَيْ أَدِيمُوا عِبَادَةَ اللَّهِ حَتَّى تَمُوتُوا، وَيُؤَيِّدُهُ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ خَارِجَةَ بِنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ - امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ - أَخْبَرَتْهُ «أَنَّهُ اقْتَسَمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي آيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُؤْفِي فِيهِ، فَلَمَّا تُؤْفِي وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ! فَشَهِدَاتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَمَا يُذْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟! فَقُلْتُ: بِأَيِّ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهُ! إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ! مَا أَدْرِي - وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ - مَا يُفْعَلُ بِي! قَالَتْ: فَوَاللَّهِ! لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا»، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَيْضًا (٨/٣٨٣ -

(الفتح): قال سالم: « اليقين الموت »، ووصله ابن أبي شيبة (٣٥٢٨٢) بإسنادٍ صحيح.

هذا تفسيرُ سلفِ هذه الأمة، ومن فسّر (اليقين) الذي في آية الحجر ببلوغ رتبة تسقط معها التكاليف، وأنه حينئذ لا يضر معها اقتراف الكبائر، فقد قال على الله بغير علم، بل أتى بالإفك المبين، ولذلك ذكر الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٤/٥٣٦) أنه سئل أبو علي الروذباري عن يسمع الملاهي (أي آلات الموسيقى) ويقول: هي حلالٌ لي؛ لأنني قد وصلتُ إلى رتبة لا يؤثر فيه اختلاف الأحوال!! فقال: نعم! قد وصل، ولكن إلى سقر!!، وانظر « حلية الأولياء » لأبي نعيم (١٠/٣٥٦).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في « أضواء البيان » (٢/٣٢٥): « اعلم أن ما يُفسر به هذه الآية الكريمة بعض الزنادقة الكفرة المدّعين للتصوّف من أن معنى اليقين المعرفة بالله جلّ وعلا، وأن الآية تدلّ على أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدرجة المعبر عنها باليقين أنه تسقط عنه العبادات والتكاليف؛ لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة، إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهذا النوع لا يُسمّى في الاصطلاح تأويلاً، بل يُسمّى لعباً، كما قدّمنا في آل عمران، ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم وأصحابه هم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع

ذلك أكثر الناس عبادة لله جل وعلا، وأشدّهم خوفاً منه وطمعاً في
رحمته، وقد قال جلّ وعلا: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر
٢٨)، والعلم عند الله تعالى،، وانظر « مدارج السالكين » لابن القيم
(١/١٠٤).

سُورَةُ طه

مُقَارَنَةٌ بَيْنَ مَطْلَعِ السُّورَةِ وَمُتْنِهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَطْلَعِ سُورَةِ طه: ﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢١﴾ (طه ١-٢)، وَقَالَ فِي آوَاخِرِهَا: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٢٥﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿٢٦﴾﴾ (طه ١٢٣-١٢٧).

بَيْنَ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا تَنَاسُبٌ، يَتَجَلَّى لِلْقَارِئِ مِنْ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ الْآتِي، حَيْثُ قَالَ فِي « الْفَوَائِدِ » (ص ١٣٤): « وَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ (النور ٢١)، فَفَضْلُهُ هِدَايَتُهُ وَرَحْمَتُهُ وَإِنْعَامُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ وَبِرُّهُ بِهِمْ، وَقَالَ: ﴿فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه ١٢٣)، وَالْهُدَى مَنَعُهُ مِنَ الضَّلَالِ، وَالرَّحْمَةُ مَنَعُهُ مِنَ الشَّقَاءِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢١﴾ (طه ١-٢)، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ وَنَفْيِ الشَّقَاءِ عَنْهُ، كَمَا قَالَ فِي آخِرِهَا فِي حَقِّ اتِّبَاعِهِ: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه ١٢٣)، فَالْهُدَى وَالْفَضْلُ وَالنِّعْمَةُ وَالرَّحْمَةُ مُتَلَازِمَاتٌ لَا يَنْفَكُ

بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، كَمَا أَنَّ الضَّلَالَ وَالشَّقَاءَ مُتَلَازِمَانِ لَا يَنفَكُ أَحَدُهُمَا
 عَنِ الْآخَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٤٧) (القمر)،
 وَالسُّعُرُ جَمْعُ سَعِيرٍ، وَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي هُوَ غَايَةُ الشَّقَاءِ، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا
 يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا
 أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٩) (الأعراف)،
 وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي
 أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك ١٠) .

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَخْسَرِينَ وَالْأَسْفَلِينَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠)

(الأنبياء ٧٠).

مَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْهُ بِالْقَائِهِ فِي النَّارِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ كَيْدَهُمْ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُمُ الْأَخْسَرِينَ، هَكَذَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ (٩٨) فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَهُمُ الْأَسْفَلِينَ، فَقَالَ: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨)، فَمَا وَجْهُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ؟

وَالْجَوَابُ أَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ حَسَبَ السِّيَاقِ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ أَنَّ الْكُفَّارَ بَنَوْا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُنْيَانًا عَالِيًا وَرَفَعُوهُ فَوْقَهُ لِيَرْمُوا بِهِ مِنْ هُنَاكَ إِلَى النَّارِ الَّتِي أَجْجَوْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا آتِنَا لَهُدُ بُنْيَانًا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (الصَّافَّاتِ ٩٧)، فَلَمَّا عَلَوْا ذَلِكَ الْبِنَاءَ وَحَطُّوه مِنْهُ إِلَى أَسْفَلٍ جَعَلَهُمُ اللَّهُ الْأَسْفَلِينَ، فَنَاسَبَ أَنْ يُوصَفُوا بِالسُّفُولِ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَ أَرَادُوا الْعُلُوَّ قَابَلَهُمُ اللَّهُ بِضِدِّ مُرَادِهِمْ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مُرَادُ اللَّهِ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْكَيْدَ كَانَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، فِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَعَّدَهُمُ بِالْكَيْدِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿وَتَاللَّهِ لَا كَيْدَ أَصْنَعُكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء ٥٧)، وَهُمْ تَوَعَّدُوهُ أَيْضًا بِالْإِحْرَاقِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء ٦٨)، إِذَا فَالْكَيْدُ

مُتَبَادَلٌ، وَالْمَعْرَكَةُ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَتَمَخَّضَ بَعْدَ كُلِّ مَعْرَكَةٍ
نَتِيجَةٌ يَكُونُ فِيهَا فَائِزٌ وَخَاسِرٌ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ الْكَيْدَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، وَصَفَ
الْمُنْهَزَمَ بِالْخَاسِرِ فَتَأَمَّلْ، هَذَا مُحْصَلُ جَوَابِ الْإِسْكَافِيِّ فِي « دُرَّةَ
التَّنْزِيلِ » (ص ٢٠٩ - ٢١٠)، وَاسْتَحْسَنَهُ الشُّيُوطِيُّ فِي « مُعْتَرَكِ
الْأَقْرَانِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ » فَقَالَ (٨٣ / ٣): « وَقِيلَ: رُوعِي فِي الصِّفَةِ
مُقَابِلَةَ قَوْلِهِمْ: ﴿ أَتَبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا ﴾ (الصَّافَّاتُ ٩٧)؛ لِأَنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ إِرَادَتُهُمْ
عُلُوَّ أَمْرِهِمْ بِفِعْلِهِمْ ذَلِكَ، فَتُؤْبَلُوا بِالضَّدِّ فَجُعِلُوا الْأَسْفَلِينَ، وَهُوَ
حَسَنٌ ».

سُورَةُ الْحَجِّ

تركيب الكلمة التي أريد بها الفعل والتي أريد بها الوصف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ (الحج ٢).
ههنا ثلاثُ فوائد:

الأولى: معلومٌ لدى علماء العربية أنَّ الأوصافَ المختصَّةَ بالإناثِ كثيراً ما تأتي مجرَّدةً من التَّاءِ الدَّالَّةِ على التَّأنيثِ، فتقولُ: امرأةٌ حامِلٌ بدلاً من حامِلة، وحائِضٌ بدلاً من حائِضة، وطالِقٌ بدلاً من طالِقة، ومُرْضِعٌ بدلاً من مُرْضِعة، وقد جاءت هذه الكلمةُ هنا (مُرْضِعة) بإثباتِ التَّاءِ، فما وجهه؟

الجواب: قال أهلُ العِلْمِ: كلمةُ (مُرْضِعة) هنا أبلغُ من كلمةِ (مُرْضِع)؛ لأنَّه أريدَ بها الفعلُ لا الوصفُ أو النَّسبُ، والمرأةُ تسمَّى مُرْضِعاً إذا كانَ من شأنيها الإرضاعُ ولو لم تكن تُبَاشِرُه في ذلكَ الحينِ، أمَّا حينَ تُبَاشِرُه فإنَّه يُقالُ لها: (مُرْضِعة)، كما ذَكَرَ ذلكَ البَغَوِيُّ في «معالم التنزيل» (٢٧٣/٣) وابن القيم في «بدائع الفوائد» (٨٧٧/٣ - ٨٧٩) وأبو السَّعُود في «تفسيره» (٩١/٦) ومحمَّد الأمين الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢٥٥/٤)، ولا ريبَ أنَّ وَصْفَ الأمَّهاتِ المُرْضِعاتِ بهذا عندَ زلزلةِ السَّاعةِ أبلغُ في الدَّلالةِ

على الذُّهولِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهْنًا آنذاك؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: (كُلُّ مُرْضِعٍ) لاحتَمَلَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَكُنْ سَاعَتَهَا تُرْضِعُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا: مُرْضِعٌ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الَّذِي مِنْ عَادَتِهَا أَنْ تُرْضِعَ، فَيَكُونُ الْإِحْبَارُ عَلَى هَذَا أَنَّهَا تَنْسَى رَضِيعَهَا وَلَا تَبْحَثُ عَنْهُ هَوْلُ الزَّلْزَلَةِ وَتَنْشَغِلُ بِنَفْسِهَا، أَمَّا كَلِمَةُ (مُرْضِعَةٍ) فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَذْهَلُ عَنْ رَضِيعِهَا بَعْدَ أَنْ أَلْقَمَتْهُ ثَدْيَهَا، فَيَا لِلَّهِ مَا أَشَدَّ هَوْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ! وَانْظُرْ « التَّسْهِيلَ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ » لِلْكَلْبِيِّ (٣/ ٣٥).

الثَّانِيَّةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ﴾ دَلِيلٌ ثَانٍ عَلَى شِدَّةِ الْهَوْلِ؛ لِأَنَّهُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ الْمُرْضِعَاتِ جَمِيعًا يَسْتَوِينَ يَوْمَهَا فِي هَذَا الْوَصْفِ الَّذِي لَمْ يُعْرَفْ لَهُ نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَا سِوَا عِنْدَ النِّسَاءِ صَوَاحِبِ الْعَوَاطِفِ الْحَيَّاشَةِ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: ﴿عَمَّا﴾ الدَّالُّ عَلَى الْعُمُومِ بَدَلًا مِنْ (عَمَّن) الدَّالُّ عَلَى تَخْصِيصِهِ بِالْعُقَلَاءِ، لِأَنَّ فِي التَّعْمِيمِ تَأَكِيدٌ لِلذُّهُولِ الْعَامِّ، بَحِثُ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهَا مَنْ هُوَ الرَّضِيعُ بِخُصُوصِهِ وَلَا مَا هُوَ بَعْدَ فَرَاغِ قَلْبِهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى هَمِّهَا بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّ كَرْبَ الْيَوْمِ قَتَلَ فِيهَا عَاطِفَةَ الْأُمُومَةِ، نَبَأَ عَلَيْهِ أَبُو السُّعُودِ فِي كِتَابِهِ السَّابِقِ (٢/ ١١٩) وَ(٦/ ٩٢). فَهَذِهِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ بَلَاغِيَّةٍ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

تَنْظِيرٌ مِنْ جِهَةِ التَّقَابُلِ: يُقَابِلُ الْفِعْلَ الْوَصْفُ، فَإِنَّهُ قَدْ يُذَكَّرُ الشَّيْءُ بِوَصْفِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلًا لَهُ وَقْتَ الْوَصْفِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ » (٣/ ٨٧٩): « أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: (لَا يَقْبَلُ اللَّهُ

صَلَاةَ حَائِضٍ إِلَّا بِخِيَارٍ^(١)؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمَوْصُوفَةُ بِكَوْنِهَا مِنْ أَهْلِ
 الْحَيْضِ لَا مَنْ يَجْرِي دُمُهَا، فَالْحَائِضُ وَالْمُرْضِعُ وَصِفٌ عَامٌّ، يُقَالُ عَلَى
 مَنْ لَهَا ذَلِكَ وَصِفاً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَائِماً بِهَا، وَيُقَالُ عَلَى مَنْ قَامَ بِهَا الْفِعْلُ،
 فَأَدْخَلْتَ التَّاءَ ههنا إِذَا نَأَى بَأَنَّ الْمُرَادَ: مَنْ تَفَعَّلَ الرَّضَاعَ فَإِنَّهَا تَذْهَلُ عَمَّا
 تُرْضِعُهُ لَشِدَّةِ هَوْلِ زَلْزَلَةِ السَّاعَةِ، وَأَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿عَمَّا
 أَرْضَعَتْ﴾، فَعُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ الْمُرْضِعَةَ الَّتِي تُرْضِعُ بِالْفِعْلِ لَا بِالْقُوَّةِ
 وَالتَّهَيُّؤِ، وَتَرْجِيحُ هَذَا الْمَذْهَبِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرٌ غَيْرُ هَذَا.

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٥٠/٦) وَأَبُو دَاوُدَ (٦٤١) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٧٧) وَابْنُ مَاجَهَ (٦٥٥)،
 وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي تَعْلِيلِهِ عَلَى «السُّنَنِ».

عَاقِبَةُ الْعَدْلِ فِي الْإِنْتِصَارِ مِنَ الْبَاغِي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (الحج ٦٠).

قَدْ عَلِمَ مِنْ نُصُوصِ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْإِنْتِصَارَ مِنَ الظَّالِمِ جَائِزٌ بِشَرَطٍ أَنْ يَكُونَ بِالْمِثْلِ، وَعُلِمَ أَيْضًا أَنَّ مُسَاحَتَهُ وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ أَكْمَلُ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ إِذَا كَانَ مِنْ قَادِرٍ عَلَى الْإِنْتِصَارِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ، وَقَدْ اجْتَمَعَ هَذَانِ الْحُكْمَانِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشُّورَى ٤٠)، هَذَا مَعْلُومٌ، لَكِنْ الْحُكْمُ الَّذِي قَدْ يَخْفَى عَلَى النَّاسِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ الْمَظْلُومَ الْمُنْتَصِرَ بِالنَّصْرِ، فَكَيْفَ بِالْمَظْلُومِ غَيْرِ الْمُنْتَصِرِ؟ وَهَذَا مِنْ بَدَائِعِ اسْتِنْبَاطَاتِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَدْ قَالَ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (٢/٤٦٤): «فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ ضَمَّنَ لَهُ النَّصْرَ مَعَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْفَى حَقَّهُ أَوَّلًا، فَكَيْفَ بَمَنْ لَمْ يَسْتَوْفِ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ؟! بَلْ بُغِيَ عَلَيْهِ وَهُوَ صَابِرٌ، وَمَا مِنْ الذُّنُوبِ ذَنْبٌ أَسْرَعَ عُقُوبَةَ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(١)، وَقَدْ سَبَقَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ لَوْ بُغِيَ جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ جُعِلَ الْبَاغِي مِنْهَا دَكًّا.

(١) يُشِيرُ إِلَى حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا - مَعَ مَا يَدْخُرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ - مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٠٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٥١١) وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢١١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهَا.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مِنْ مَوَانِعِ اعْتِبَارِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧ المؤمنون).

لَيْسَ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَفْهُومٌ مُخَالَفَةٌ، فَلَا يُقَالُ: إِنَّ مَنْ كَانَ لَهُ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ نَجَا مِنَ الْوَعِيدِ الْمَذْكُورِ، وَإِنَّمَا هَذَا يُقَالُ لَهُ: صِفَةٌ كَاشِفَةٌ؛ أَيْ إِنَّ حَقِيقَةَ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ أَنَّهُ لَا بُرْهَانَ لَهُ الْبَتَّةَ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْمَقْصُودِ، قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَضْوَاءِ الْبَيَانِ» (٣٦٤ / ٥): «تَقَرَّرَ فِي فَنِّ الْأُصُولِ أَنَّ مِنْ مَوَانِعِ اعْتِبَارِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ كَوْنُ تَخْصِصِ الْوَصْفِ بِالذِّكْرِ لِمُوَافَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ، فَيَرُدُّ النَّصُّ ذَاكِرًا الْوَصْفَ الْمُوَافِقَ لِلْوَاقِعِ لِيُطَبَّقَ عَلَيْهِ الْحُكْمُ، فَتَخْصِصُهُ بِالذِّكْرِ إِذَا لَيْسَ لِإِخْرَاجِ الْمَفْهُومِ عَنْ حُكْمِ الْمَنْطُوقِ، بَلْ لَتَخْصِصِ الْوَصْفِ بِالذِّكْرِ لِمُوَافَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ، وَمِنْ أَمْثَلِيهِ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وَصَفٌ مُطَابِقٌ لِلْوَاقِعِ؛ لِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ بِلَا بُرْهَانٍ، فَذَكَرَ الْوَصْفَ، لِمُوَافَقَتِهِ الْوَاقِعَ، لِإِخْرَاجِ الْمَفْهُومِ عَنْ حُكْمِ الْمَنْطُوقِ».

وَلِهَذِهِ الْآيَةِ نَظَائِرٌ، مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِسُورَةِ النَّسَاءِ، عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (النساء ١٠١)، قَالَ: «أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ

أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١﴾، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجِ الْغَالِبِ حَالِ
نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ، كَانَ غَالِبُ
أَسْفَارِهِمْ مَخُوفَةً، بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَى غَزْوٍ عَامٍّ أَوْ فِي سَرِيَّةٍ
خَاصَّةٍ، وَسَائِرُ الْأَحْيَاءِ حَرْبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ
مَخْرَجَ الْغَالِبِ أَوْ عَلَى حَادِثَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا
فَتْيَتَيْكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (النُّور ٣٣)، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَرَبِّيبُكُمْ أَلْتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ (النِّسَاء ٢٣) «، ثُمَّ
أَسْنَدَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: « سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ
قُلْتُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ
يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وَقَدْ أَمَّنَ اللَّهُ النَّاسَ؟ فَقَالَ لِي عُمَرُ: عَجِبْتُ بِمَا
عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ
اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ «، قَالَ: « وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَهْلُ
السُّنَنِ ».

وَتَعْلِيلُ عَدَمِ اعْتِبَارِ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ هُنَا هُوَ الْجَرِيُّ عَلَى الْغَالِبِ؛
لَأَنَّهُ مِنْ مَوَانِعِهِ، كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ فِي « أَضْوَاءِ
الْبَيَانِ » (١/ ١٨٥).

وَمِثْلُهُ مَا ذَكَرُوهُ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي
الْيَتَامَىٰ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ﴾ (النِّسَاء ٣)،
فَإِنَّ خَوْفَ عَدَمِ الْإِقْسَاطِ فِي الْيَتَامَى لَيْسَ شَرْطًا فِي جَوَازِ نِكَاحِهِنَّ،
قَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي « فَتْحِ الْقَدِيرِ » (١/ ٤٢٠): « وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ

على أن هذا الشرط المذكور في الآية لا مفهوم له وأنه يجوز لمن لم يخف أن يُقسط في اليتامى أن ينكح أكثر من واحدة».

ومثله ما ذكره في قوله ﷺ: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ كُمْ﴾ (التوبة ٨٠).

بل إن الرسول ﷺ نفسه لم يعتبر مفهوم العدد، فقد روى البخاري (٤٦٧١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: «لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنْدَةَ سَلُّوا، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أَبِي وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟! أَعَدَّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: أَخْرَعْ عَنِّي يَا عُمَرُ! فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمُكِّثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ (التوبة ٨٤)، قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ! وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ».

وعند البخاري (٤٦٧٠) ومسلم (٢٧٧٤) من رواية ابن عمر أن رسول الله ﷺ قَالَ: «وسأزيده على السبعين»، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الفتح» (٣٣٦/٨): «وقد تَمَسَّكَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ مَنْ جَعَلَ مَفْهُومَ الْعَدَدِ حُجَّةً، وَكَذَا مَفْهُومَ الصِّفَةِ مِنْ بَابِ الْأَوَّلَى، وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ أَنَّهُ ﷺ فَهِمَ أَنَّ مَا زَادَ عَلَى السَّبْعِينَ بِخِلَافِ السَّبْعِينَ، فَقَالَ: (سَأَزِيدُ عَلَى

السَّبعِينَ)، وأجاب مَنْ أنكَرَ القَوْلَ بِالمَفْهُومِ بِمَا وَقَعَ فِي بَقِيَّةِ القِصَّةِ،
وليسَ ذَلِكَ بِدَافِعٍ لِلحُجَّةِ؛ لِأَنَّهُ لو لم يَقُمْ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ المَقْصُودَ
بِالسَّبعِينَ المُبَالِغَةَ لَكَانَ الاسْتِدْلَالُ بِالمَفْهُومِ باقياً .

يُرِيدُ بِكَلَامِهِ الأَخِيرِ أَنَّ اللهَ نَهَاهُ عَنْ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى المُنَافِقِينَ مُطْلَقاً
بِالآيَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ أخيراً، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى إلْغَاءِ مَفْهُومِ العَدَدِ فِي
الآيَةِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَهَا، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: « فَمَا صَلَّى
رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُنَافِقٍ وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ »،
وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ أَيْضاً (٨ / ٣٣٥): « وَفَهُمُ عُمَرُ أَيْضاً مِنْ قَوْلِهِ:
﴿ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ أَنَّهَا لِلْمُبَالِغَةِ، وَأَنَّ العَدَدَ المُعَيَّنَ لَا مَفْهُومَ لَهُ، بَلِ المُرَادُ
نَفْيُ المَغْفِرَةِ لَهُمْ وَلَوْ كَثُرَ الاسْتِغْفَارُ، فَيَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ النِّهْيُ عَنْ
الاسْتِغْفَارِ فَأُطْلِقَهُ ».

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِفَايَتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (البقرة ٦١)، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ
أَنْ يَأْخُذَ بِمَفْهُومِ المُخَالَفَةِ هُنَا فَيَدَّعِي جَوَازَ قَتْلِ الأنْبِيَاءِ إِذَا كَانَ بِحَقٍّ،
وَأِنْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ هَذَا الِاعْتِقَادُ الفَاسِدُ فِي الخَوَارِجِ، فَإِنَّ
أَوَّلَهُمُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اْعْدِلْ؛ فَمَا أَرَاكَ تَعْدِلُ!! وَهُوَ مَا قَالَهُ إِلَّا وَهُوَ
يَتَصَوَّرُ جَوَازَ الظُّلْمِ عَلَى الأنْبِيَاءِ، نَسَأَلَ اللهُ العَافِيَةَ!

وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: « لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ
فَلْيَلِجِ النَّارَ » رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١٠٦) وَمُسْلِمٌ (١)، فَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ
الكِذْبَ لِلرَّسُولِ ﷺ جَائِزٌ بَلْ فِيهِ الأَجْرُ؛ لِأَنَّهُ كَذَبَ لَهُ، وَإِنَّمَا نَهَى عَنْ

الكذب عليه، كما يدل عليه مفهوم الحديث، وفيهم قال الشيوطي:
وشرهم صوفية قد وضعوا ملتَمِسِينَ الأجر فيما قد دعوا
وقال ابن حجر في «الفتح» (١/ ١٩٩-٢٠٠): «هو عام في كل
كاذب، ومعناه: لا تنسبوا الكذب إليّ، ولا مفهوم لقوله: (عليّ)؛ لأنّه
لا يتصور أن يكذب له لينهي عن مطلق الكذب، وقد اغترّ قوم من
الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب، وقالوا: نحن لم
نكذب عليه، بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته!! وما ذروا أن تقويله ﷺ
ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى؛ لأنّه إثبات حكم من الأحكام
الشرعية، سواء كان في الإيجاب أو النّذب، وكذا مقابلهما، وهو
الحرام والمكروه، ولا يعتد بمن خالف ذلك من الكرامية، حيث
جوزوا وضع الكذب في الترغيب والترهيب في تثبيت ما ورد في
القرآن والسنة، واحتجّ بأنّه كذب له لا عليه، وهو جهل باللغة
العربية، وتمسك بعضهم بما ورد في بعض طرق الحديث من زيادة لم
تثبت، وهي ما أخرجه البراء من حديث ابن مسعود بلفظ: (من
كذب عليّ ليضلّ به الناس) الحديث، وقد اختلف في وصله وإرساله،
ورجح الدارقطني والحاكم إرساله، وأخرجه الدارمي من حديث
يعلّى بن مرة بسند ضعيف، وعلى تقدير ثبوته فليست اللّام فيه للعلّة،
بل للصيرورة، كما فسّر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ (الأنعام ١٤٤)، والمعنى أن مآل أمره إلى
الإضلال أو هو من تخصيص بعض أفراد العموم بالذكر فلا مفهوم

له، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَرْبَابًا أُضْعِفُوا مُضْعَفَةً﴾ (آلِ عِمْرَانَ ١٣٠)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ (الْأَنْعَامُ ١٥١)؛ فَإِنَّ قَتْلَ الْأَوْلَادِ وَمُضَاعَفَةَ الرَّبَا وَالْإِضْلَالَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِنَّهَا هِيَ لَتَأْكِيدُ الْأَمْرِ فِيهَا، لَا لِاخْتِصَاصِ الْحُكْمِ.

سُورَةُ النُّورِ أَدْنَى عَدَدٍ لِلتُّوَاثِرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤).

مَعْلُومٌ أَنَّ الشَّارَعَ الْحَكِيمَ يُنِيطُ قَبُولَ الشَّهَادَةِ عُمُومًا بِمَنْ كَانَ عَدْلًا مَرْضِيًّا، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٣٥٧/١٥): «وَبَابُ الشَّهَادَةِ مَدَارُهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ الشَّهِيدُ مَرْضِيًّا، أَوْ يَكُونَ ذَا عَدْلٍ يَتَحَرَّى الْقِسْطَ وَالْعَدْلَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَالصَّدْقَ فِي شَهَادَتِهِ وَخَبْرِهِ».

وَدَلِيلُ هَذَا الْآيَةِ السَّابِقَةُ؛ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضًا (٣٥٣/١٥): «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، فَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَذْفَةَ لَا تُقْبَلُ لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا، وَاحِدًا كَانُوا أَوْ عَدَدًا، بَلْ لَفْظُ الْآيَةِ يَنْتَظِمُ الْعَدَدَ عَلَى سَبِيلِ الْجَمْعِ وَالْبَدَلِ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْإِفْكِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالتَّفْسِيرِ، وَكَانَ الَّذِينَ قَذَفُوا عَائِشَةَ عَدَدًا وَلَمْ يَكُونُوا وَاحِدًا».

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْعَدَالَةِ الْمَشْرُوطَةِ فِي الشُّهَدَاءِ، فَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٥٦/١٥): «وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْعَدَالَةِ الْمَشْرُوطَةِ فِي هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ، فَإِنَّهَا الصَّلَاحُ فِي الدِّينِ وَالْمُرُوءَةِ، وَالصَّلَاحُ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْكَبِيرَةِ وَالْإِضْرَارِ عَلَى الصَّغِيرَةِ، وَالصَّلَاحُ فِي الْمُرُوءَةِ اسْتِعْمَالُ مَا

يَجْمَلُهُ وَيَزِينُهُ واجْتِنَابُ مَا يُدْنِسُهُ وَيَشِينُهُ، فَإِذَا وُجِدَ هَذَا فِي شَخْصٍ كَانَ عَدْلًا فِي شَهَادَتِهِ، وَكَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ الْأَبْرَارِ ».

وَالْعَدَالَةُ مَطْلُوبَةٌ فِي الشَّهَادَةِ وَالْإِخْبَارِ جَمِيعًا؛ أَمَّا فِي الشَّهَادَةِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (الطَّلَاق ٢)، وَأَمَّا فِي الْإِخْبَارِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَلٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات ٦)، إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ اسْتَشْنَوْا عَدَمَ اشْتِرَاطِ عَدَالَةِ الْمُخْبِرِينَ فِي الْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ؛ لِأَنَّهُمْ يُعَلِّلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ عَدَمَ تَوَاطُؤِهِمْ عَلَى الْكُذِبِ عَادَةٌ كَافٍ لِقَبُولِ خَبَرِهِمْ فِي الْمَحْسُوسَاتِ لَا الْمَعْقُولَاتِ؛ لِأَنَّ الْمَعْقُولَاتِ الْخَاطِئَةَ قَدْ تَتَوَاطَأُ عَلَيْهَا آلَافُ الْعُقُولِ كَتَوَاطُؤِ الْفَلَّاسِفَةِ عَلَى قِدَمِ الْعَالَمِ مَثَلًا، كَمَا قَالَ صَاحِبُ «مَرَاقِي السَّعُودِ» (١/ ٣٧٩) مَعَ نَثْرِ الْوُرُودِ:

وَاقْطَعَ بِصَدَقِ خَبَرِ التَّوَاتُرِ وَسَوَّيْنَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ

وَقَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ فِي «نَثْرِ الْوُرُودِ عَلَى مَرَاقِي السَّعُودِ» (١/ ٣٨٠): «الْمُتَوَاتَرُ فِي الْإِصْطِلَاحِ هُوَ خَبَرٌ جَمَعَ يَمْتَنِعُ عَادَةً تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكُذِبِ - أَيْ تَوَافُقُهُمْ عَلَيْهِ - إِذَا كَانَ خَبَرُهُمْ عَنْ مَحْسُوسٍ بِإِحْدَى الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ ...»، وَبِمَا أَنَّ آيَةَ الْبَابِ نَصَّتْ عَلَى رَفْضِ شَهَادَةِ الْفَسَاقِ وَلَوْ كَانُوا أَرْبَعَةً، فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ اسْتَنْبَطُوا مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَدَّ الْأَدْنَى لِلتَّوَاتُرِ مَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَةٍ، قَالَ فِي «مَرَاقِي السَّعُودِ» (١/ ٣٨١):

إِلْغَاءُ الْأَرْبَعَةِ فِيهِ رَاجِحٌ وَمَا عَلَيْهَا زَادَ فَهُوَ صَالِحٌ
قَالَ شَارِحُهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَعْنِي أَنَّ إِلْغَاءَ الْأَرْبَعَةِ فِي
عَدَدِ التَّوَاتُرِ وَالْحُكْمَ بِأَنَّهَا لَا تَكْفِي فِيهِ رَاجِحٌ، وَوَجْهُ رُجْحَانِهِ أَنَّهُمْ لَوْ
شَهِدُوا بَزْنِي لاحتاجوا إلى التَّزْكِيَةِ، وَمَا يَحْصُلُ بِهِ التَّوَاتُرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى
تَزْكِيَةٍ قَطْعًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ لِلْمُؤَلِّفِ أَنَّ الْمُسْلِمَ وَالْكَافِرَ فِيهِ سَوَاءٌ، وَمِمَّنْ
ذَكَرَ عَدَمَ صِلَاحِيَةِ الْأَرْبَعَةِ الْبَاقِلَانِي وَالسُّبْكِي.»

حُكْمُ لِبَسِ الْمَرَأَةِ الْكَعْبِ الْعَالِيِّ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾
وَتَوَبُّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ (النُّور)

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «كَانَتِ الْمَرَأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَفِي رِجْلِهَا خَلْخَالٌ صَامِتٌ لَا يُعْلَمُ صَوْتُهُ، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الْأَرْضَ فَيَعْلَمُ الرَّجَالُ طَنِينَهُ، فَهَيَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَكَذَا إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ زِينَتِهَا مَسْتَوْرًا فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لَتُظْهَرَ مَا هُوَ خَفِيٌّ دَخَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ».

وَهَذَا الْحُكْمُ الْمُسْتَنْبَطُ مِنَ الْآيَةِ خَرَّجَهُ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَصْلٍ سَدِّ الدَّرَائِعِ، فَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقَّعِينَ» (٣/ ١١٠) مِنْ بَيْنِ تِسْعَةِ وَتِسْعِينَ وَجْهًا مِنَ الْوُجُوهِ الدَّالَّةِ عَلَى سَدِّ الدَّرَائِعِ، فَقَالَ فِي ثَانِيهَا: «فَمَنْعَهُنَّ مِنَ الضَّرْبِ بِالْأَرْجُلِ - وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي نَفْسِهِ - لِئَلَّا يَكُونَ سَبَبًا إِلَى سَمْعِ الرِّجَالِ صَوْتِ الْخَلْخَالِ؛ فَيُثِيرُ ذَلِكَ دَوَاعِيَ الشَّهْوَةِ مِنْهُمْ إِلَيْهِنَّ».

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي النَّهْيِ اتِّخَاذُ الْمَرَأَةِ الْيَوْمَ حِذَاءً ذَا كَعْبٍ عَالٍ، وَلَا سِيَّما أَنَّهُ يُحْدِثُ عَادَةً صَوْتًا يَلْفُتُ الْإِنْتِبَاهَ؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ (٢٢٥٢) وَأَحْمَدُ (٤٠/ ٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَصِيرَةً تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ

مُسْكًا وَهُوَ أَطْيَبُ الطَّيْبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرَاتَيْنِ فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَنَقَضَ شُعْبَةُ يَدَهُ «، وفي رواية صحيحة في « مُسْنَدُ أَحْمَد » (٤٦/٣): « قَالَ الْمُسْتَمِرُّ - وَهُوَ أَحَدُ الرُّوَاةِ - بِخِنْصَرِهِ الْيُسْرَى، فَأَشْخَصَهَا دُونَ أَصَابِعِهِ الثَّلَاثِ شَيْئًا، وَقَبَضَ الثَّلَاثَةَ ».

وفي هذا دليل على أَنَّ الْكَعْبَ الْعَالِيَّ بَدْعَةٌ يَهُودِيَّةٌ، وَلَا يَزَالُ الْيَهُودُ - إِلَى يَوْمِنَا هَذَا - هُمُ الْمُتَفَنِّينَ فِي تَصْمِيمِ الْأَزْيَاءِ الْفَاتِنَةِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَكُلُّ مَنْ يُشَاهِدُ الْمَرْأَةَ بِالْكَعْبِ الْعَالِي يَدْرِكُ الْحِكْمَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا حَذَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ اتِّخَاذِهِ؛ فَإِنَّهُ يَجْعَلُهَا تَتَكَسَّرُ فِي مِشْيَتِهَا وَلَوْ لَمْ تُرْدَ، كَمَا يُغَيِّرُ مِنْ هَيْئَةِ جِسْمِهَا وَلَوْ كَانَتْ قَائِمَةً لَا تَتَحَرَّكُ؛ لِأَنَّهُ يُبْرِزُ صَدْرَهَا وَعَجِيزَتَهَا، وَهَلْ فِي جِسْمِ الْمَرْأَةِ فِتْنَةٌ أَشَدُّ مِنْ هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ؟! وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الْأَحْدِيَةِ يَدْرُسُ الْمُخْتَصُّونَ بَعَرَضِ الْأَزْيَاءِ كَيْفِيَّةَ صِنَاعَتِهِ بُغْيَةَ الْوُصُولِ إِلَى أَقْوَى مَا تَحْصُلُ بِهِ فِتْنَةُ الرِّجَالِ، وَيُصَمِّمُونَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ لَا تَنْتَبَهُ لِهَذَا بَعْضُ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ، مَعَ أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ يَحْرُضْنَ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْحِرْصِ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ بَيَّنْتُ بَعْضَ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ فِي مَعْرَضِ التَّحْذِيرِ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ، فَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمَوْضِعِ الْأَخِيرِ بَلْفَظٍ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الدُّنْيَا فَقَالَ: « إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَاتَّقُوهَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، ثُمَّ ذَكَرَ نِسْوَةً ثَلَاثًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ تُعْرِفَانِ، وَامْرَأَةً قَصِيرَةً لَا تُعْرِفُ، فَاتَّخَذَتْ رَجُلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ وَصَاغَتْ خَاتَمًا فَحَشَنَتْهُ مِنْ أَطْيَبِ الطَّيْبِ: الْمِسْكِ، وَجَعَلَتْ لَهُ غَلَقًا،

فَإِذَا مَرَّتْ بِالْمَلَأِ أَوْ بِالْمَجْلِسِ قَالَتْ بِهِ فَفَتَحَتْهُ فَفَاحَ رِيحُهُ».

وقد أورده الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٤٨٦)، وقال: « فائدة: في هذا الحديث تنبيه ظاهر إلى أن عادة النساء الفاسقات لبس ما يلفت الأنظار إليهن، ومن ذلك ما شاع بينهن من انتعال النعال العالية الكعاب، وبخاصة منها التي تُنعل من أسفلها بالحديد؛ ليستدّ ظهور صوتها عند المشي، ولعلّ أصل ذلك من اختراع اليهود كما يُشير هذا الحديث، فعلى المسلمات أن يتقين ذلك، والله المستعان ».

وهذا دليل على أن النساء يتخذن الكعب العالي - كما يتخذن الطيب خارج البيوت - بغيّة الفتنه، وبُغيّة أن يتعرّف عليهن الرجال، بل إنّ منهنّ من تُعاني من لبسه مشقّة وضرراً جسيماً وألماً شديداً في القدمين وفي العمود الفقري، فتصبر له وتتجلّد؛ لأنّها هدفاً تُريد تحقيقه، فهل تصبر يوم القيامة على النار؟! قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (البقرة: ١٧٥)، والله يعصم بنات المسلمين من كلّ سوء.

سورة الفرقان تَذَارُكَ الْفَوَائِتِ

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان ٦٢).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « زَادَ الْمَعَادَ » (١/ ٣٥٦) وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الضُّحَى: « وَقَدْ أَوْصَى بِهَا وَنَدَبَ إِلَيْهَا وَحَضَّ عَلَيْهَا، وَكَانَ يَسْتَغْنِي عَنْهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّ فِيهِ غُنْيَةً عَنْهَا، وَهِيَ كَالْبَدَلِ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: عَوَضًا وَخَلْفًا يَقُومُ أَحَدُهُمَا مَقَامَ صَاحِبِهِ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَلٌ فِي أَحَدِهِمَا قَضَاهُ فِي الْآخَرِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَأَدُّوا لِلَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا فِي هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ فَإِنَّهُمَا مَطْيَتَانِ يُقْجِمَانِ النَّاسَ إِلَى آجَالِهِمْ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيَجِيئَانِ بِكُلِّ مَوْعِدٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ شَقِيقٌ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: فَاتَتْنِي الصَّلَاةُ اللَّيْلَةُ، فَقَالَ: أَدْرِكُ مَا فَاتَكَ مِنْ لَيْلَتِكَ فِي نَهَارِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا^(١) ».

قُلْتُ: وَيَدُلُّ لَصَحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٤٦) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَتْبَتَهُ، وَكَانَ إِذَا نَامَ مِنْ

(١) انظر « مصنف عبد الرزاق » (٤٧٤٩).

الليل أو مَرَضَ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، قَالَتْ: وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ لَيْلَةً وَمَا صَامَ شَهْرًا مُتَتَابِعًا إِلَّا رَمَضَانَ، وَرَوَى أَيْضًا (٧٤٧) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ».

وَعَلَى هَذِهِ الْوَصِيَّةِ دَرَجَ عَمَلُ السَّلَفِ، فَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ (٤٧٥٠) وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٣٥٣٨٨- بَعْضُهُ) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: «كَانَ يُعْجِبُهُمُ الزِّيَادَةُ فِي الْعَمَلِ وَيَكْرَهُونَ النُّقْصَانَ، وَالْأَشْيَاءَ دِيمَةً، وَإِذَا فَاتَهُمْ شَيْءٌ مِنَ اللَّيْلِ قَضَوْهُ بِالنَّهَارِ». فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ لَنَا فِي النَّهَارِ مَا نَتَدَارَكُ بِهِ عَمَلَ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ لَنَا فِي اللَّيْلِ مَا نَتَدَارَكُ بِهِ عَمَلَ النَّهَارِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَلَّا يُثْقَلَ عَلَيْنَا الْعِبَادَةُ، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنَّا صَالِحَ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ تَقْصِيرِنَا، إِنَّ رَبَّنَا لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ.

سُورَةُ الشَّعَرَاءِ

مُصَاحَبَةُ الشَّيَاطِينِ لِذَوِي الْخُلُقِ السَّيِّئِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الشَّعَرَاءِ ٢٢١-٢٢٣).

دَلَّ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ عَلَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَقْتَرِنُ بِمَن يُشَاكِلُهَا وَيُشَابِهُهَا، وَهُوَ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ؟ قِيلَ: لِأَنَّ الْأَفَّاكُ هُوَ الْكَذُوبُ فِي قَوْلِهِ، وَالْأَثِيمُ هُوَ الْفَاجِرُ فِي فِعْلِهِ، كَمَا فِي «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»، وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «تَفْسِيرِ آيَاتِ أَشْكَلَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ» (٢/٧٢٧-٧٢٨): «فَأَخْبَرَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ إِنَّمَا تَنَزَّلُ عَلَى مَن يُنَاسِبُهَا، وَهُوَ الْكَاذِبُ فِي قَوْلِهِ، الْفَاجِرُ فِي عَمَلِهِ، بِخِلَافِ الصَّادِقِ الْبَرِّ، وَأَنَّ الشَّعَرَاءَ إِنَّمَا يُحْرَكُونَ النُّفُوسَ إِلَى أَهْوَائِهَا فَيَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْأَهْوَاءَ وَشَهَوَاتِ الْغَيِّ، فَتَفَى كُلًّا مِنْهُمَا بَانْتِفَاءً لَّازِمَهُ، وَيَبْنَ مَا تَجْتَمِعُ فِيهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ».

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ: «الْأَهْوَاءَ وَشَهَوَاتِ الْغَيِّ» الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، أَيِ إِنْ الشَّيَاطِينَ تَدْعُو إِلَيْهَا، وَاللَّهُ نَزَّهَ أَنْبَاءَهُ مِنْهَا.

وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي فِي آيَةِ الْبَابِ هِيَ صِفَاتُ الْمُنْحَرِفِينَ خُلُقِيًّا، وَكَوْنُ الشَّيَاطِينِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَثِيرًا مَا تَسَلَّطُ عَلَى ذَوِي الْخُلُقِ السَّيِّئِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَبْعَثِهِ، خَافَ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ مِمَّا جَاءَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِنَ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَأَخْبَرَ زَوْجَهُ خَدِيجَةَ بِالَّذِي

أتاه، كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه أن النبي ﷺ: « قَالَ لِحَدِيثَةٍ: أَيُّ حَدِيثٍ مَا لِي؟ وَأَخْبَرَهَا الخبرَ، قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ حَدِيثٌ: كَلَّا أَبْشِرْ! فَوَالله! لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ وَالله! إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ »، وقد نبّه ابنُ تيمية رحمته الله على هذه الفائدة العظيمة وشرحها في « دَقَائِقُ التَّفْسِيرِ » (١١٨/٢-١١٩)، فقال: « فَهَذَا مِمَّا بَيَّنَّ اللهُ بِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالنَّبِيِّ، وَبَيْنَ الشَّاعِرِ وَالنَّبِيِّ، لَمَّا زَعَمَ الْمُفْتَرُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شَاعِرٌ وَكَاهِنٌ... فَاسْتَدَلَّتْ ﷺ بِحُسْنِ عَقْلِهَا عَلَى أَنَّ مَنْ يَكُونُ اللهُ قَدْ خَلَقَهُ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ - الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ الْمَمْدُوحِينَ - أَنَّهُ لَا يُخْزِيهِ فَيُفْسِدُ الشَّيْطَانُ عَقْلَهُ وَدِينَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا قَبْلَ ذَلِكَ وَحْيٌ تَعْلَمُ بِهِ انْتِفَاءَ ذَلِكَ، بَلْ عَلِمْتَهُ بِمُجَرَّدِ عَقْلِهَا الرَّاجِحِ، وَكَذَلِكَ لَمَّا ادَّعَى النُّبُوَّةَ مَنْ ادَّعَاهَا مِنَ الْكَذَّابِينَ مِثْلَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ وَالْعَنَسِيِّ وَغَيْرِهِمَا، مَعَ مَا كَانَ يَشْتَبِهُ مِنْ أَمْرِهِمْ لَمَّا كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَيُوحُونَ إِلَيْهِمْ، حَتَّى يَظُنَّ الْجَاهِلُ أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَيُوحَى إِلَيْهِمْ، فَكَانَ مَا يَبْلُغُ الْعُقَلَاءَ وَمَا يَرَوْنَهُ مِنْ سِيرَتِهِمْ وَالْكَذِبِ الْفَاجِشِ وَالظُّلْمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ؛ إِذْ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكُونُ كَاذِبًا وَلَا فَاجِرًا ».

وقد تَوَسَّعتُ بَعْضَ الشَّيْءِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي « الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ فِي الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ » (ص ٨-٢٥).

سُورَةُ النَّمْلِ

أَنْوَاعُ الْخِطَابِ وَأَنْوَاعُ الْحُقُوقِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّعْمُ آدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل ١٨).

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي «الْبَرْهَانِ» (٢٢٧/٣ - ٢٢٨): «فَجَمَعَ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَحَدَ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْكَلَامِ: نَادَتْ، وَكُنْتُ، وَنَبَّهْتُ، وَسَمَّيْتُ، وَأَمَرْتُ، وَقَصَّصْتُ، وَحَذَّرْتُ، وَخَصَّصْتُ، وَعَمَّمْتُ، وَأَشَارْتُ، وَعَذَّرْتُ.

فَالنِّدَاءُ: ﴿يَا﴾، وَالْكِنَايَةُ: ﴿أَيُّ﴾، وَالتَّنْبِيهُ: ﴿هَا﴾، وَالتَّسْمِيَةُ: ﴿النَّمْلُ﴾، وَالْأَمْرُ: ﴿آدْخُلُوا﴾، وَالْقَصَصُ: ﴿مَسْكِنَكُمْ﴾، وَالتَّحْذِيرُ: ﴿لَا تَحْطِمَنَّكُمْ﴾، وَالتَّخْصِيصُ: ﴿سُلَيْمَنُ﴾، وَالتَّعْمِيمُ: ﴿جُنُودُهُ﴾، وَالْإِشَارَةُ: ﴿وَهُمْ﴾^(١)، وَالْعُذْرُ: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾.

(١) كُنْتُ اسْتَشْكَلْتُ اسْتِدْلَالَ الْمُؤَلِّفِ لِلْإِشَارَةِ بِضَمِيرِ (هُم)، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ تَصْحِيفٌ، وَإِذَا لَمْ يَتَيَسَّرْ لِي الرُّجُوعُ إِلَى الْمَخْطُوطِ رَاجَعْتُ عِدَّةَ نُسَخٍ مَطْبُوعَةٍ فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا اخْتِلَافًا، فَخَرَجْتُ الْإِشْكَالَ فِي نَفْسِي عَلَى الْإِشَارَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَيَكُونُ قَوْلُ النَّمْلَةِ: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) عَلَى مَعْنَى: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ، ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَى فَضِيلَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كُنُونِي حَفَظَهُ اللَّهُ، فَأَكَّدَ لِي ذَلِكَ وَزَادَنِي مِنْ فَضْلِ عِلْمِهِ - جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا - فكَتَبَ إِلَيَّ: «الْمُرَادُ بِالْإِشَارَةِ الدَّلَالَةُ عَلَيْهِمْ بِالضَّمِيرِ (هُم)؛ لِأَنَّهُ - أَعْنِي الضَّمِيرَ - يُعَيِّنُهُمْ تَعْيِينًا بِهِ تُحْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمْ فِي اتِّسَاعِ اللَّغَةِ عَلَى مَعْنَى أَعَمٍّ مِنَ الْإِشَارَةِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ النَّحْوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِالْفَاظِ تَخْصُوصَةً، فَكُلُّ لَفْظٍ أَوْ حَرَكَةٍ أَوْ أَسْلُوبٍ دَلٌّ عَلَى شَيْءٍ تُطْلَقُ الْعَرَبُ الْفُصَحَاءُ عَلَيْهِ إِشَارَةً؛ كَمَا فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

فَأَدَّتْ خَمْسَ حُقُوقٍ: حَقُّ اللَّهِ، وَحَقُّ رَسُولِهِ، وَحَقُّهَا، وَحَقُّ رَعِيَّتِهَا، وَحَقُّ جُنُودِ سُلَيْمَانَ، فَحَقُّ اللَّهِ أَنَّهَا اسْتُرْعِيَتْ عَلَى النَّمْلِ فَقَامَتْ بِحَقِّهِمْ، وَحَقُّ سُلَيْمَانَ أَنَّهَا نَبَّهَتْهُ عَلَى النَّمْلِ، وَحَقُّهَا إِسْقَاطُهَا حَقُّ اللَّهِ عَنِ الْجُنُودِ فِي نُصْحِهِمْ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ ^(١) بِنُصْحِهَا لَهُمْ لِيَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمْ، وَحَقُّ الْجُنُودِ إِعْلَامُهَا إِيَّاهُمْ وَجَمِيعَ الْخَلْقِ أَنَّ مَنْ اسْتَرَعَاهُ رَعِيَّةٌ فَوَاجِبٌ عَلَيْهِ حِفْظُهَا وَالذَّبُّ عَنْهَا، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْخَبَرِ الْمَشْهُورِ: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ «، وَانْظُرْ « الْإِثْقَانِ » لِلشُّيُوطِيِّ (١٤٨/٢).

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا إِشَارَةً مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ
فَقَصَّدَ بِالْكَلَامِ هُنَا مَا يُخَالِفُ هَذِهِ الْإِشَارَةَ الْمَفْهُمَةَ الدَّالَّةَ عَلَى شَيْءٍ، وَقَوْلُ الْآخَرِ:
فَأَوْمَأَتْ بِكَحِيلِ الطَّرْفِ بِاسْمَةٍ نَحْوِي لِكَيْمَا أَرَى أَنَّ الرَّقِيبَ يَرَى
وَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَسَأَلْتُهَا عَنْ حَالِهَا بِإِشَارَةٍ وَعَلَى فِيهَا لِلْوُشَاةِ عُيُونُ
وَإِذَا وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى شَيْءٍ أَخْفَى وَالطَّفُّ مِنَ الْمَعَانِي بِأَسْلُوبٍ كَلَامِيٍّ قِيلَ لَهَا: لِمَحَّةٌ
دَالَّةٌ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ، وَتَأْتِي الْإِشَارَةُ عَنْدهُمْ مُحَسَّنًا بَدِيعِيًّا، فَيُطْلَقُونَهَا
عَلَى الْكَلَامِ الْمَوْجَزِ مَعَ كَثْرَةِ الْمَعْنَى، فَكَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يُشِيرُ إِلَى الْمَعْنَى إِشَارَةً.
(١) فِي الْأَصْلِ هُنَا هَكَذَا: (وَحَقُّ الْجُنُودِ...)، وَهُوَ خَطَأٌ؛ لِأَنَّهُ مُكَرَّرٌ مَا بَعْدَهُ.

سُورَةُ الْقَصَصِ

هَلْ أَبُو الْمُرَائِنِ هُوَ شُعَيْبٌ ﷺ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْكُوتُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص ٢٣).

ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ شُعَيْبٌ ﷺ، لَكِنْ يُشْكِلُ عَلَيْهِ أَمْرَانِ جَاءَا فِي كِتَابِ اللَّهِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ شُعَيْبٍ ﷺ، وَإِنَّمَا كَانَ بَعْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَصَّرَ فِيهَا مَا جَرَى فِيهَا لَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف ١٠٣)، فَدَخَلَ شُعَيْبٌ ﷺ فِيمَنْ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي جَامِعِ الْبَيَانِ فِي تَأْوِيلِ آيِ الْقُرْآنِ: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ مُّوسَى بْنَ عِمْرَانَ، وَهَؤُلَاءِ وَالْمِثْلُ اللَّتَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ هِيَ كُنَايَةٌ ذَكَرَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّتِي ذُكِرَتْ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَالَ أَبُو السَّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٣/ ٢٥٦-٢٥٧): أَيِ أَرْسَلْنَاهُ مِنْ بَعْدِ انْقِضَاءِ وَقَائِعِ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ أَوْ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ الْأُمَمِ الْمَحْكِيَّةِ وَالتَّصْرِيحُ بِذَلِكَ مَعَ دَلَالَةِ ﴿ثُمَّ﴾ عَلَى التَّرَاخِي لِلْإِذْنِ بِأَنْ يَبْعَثَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَرَى عَلَى سَنَنِ السَّنَةِ

الإلهية من إرسال الرُّسُل تَتَرَى، وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ فِي « الْجَوَاهِرِ الْحَسَنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ » (٢ / ٤١): « وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُمْ وَعَلَى أُمَّهِمْ »، وَلِذَلِكَ قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي مَعْلَمِ التَّنْزِيلِ (٣ / ٤٤١): وَكَانَ شُعَيْبٌ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ.

الثَّانِي: ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ دَلِيلًا آخَرَ لِهَذَا الْقَوْلِ، فَقَالَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْبَابِ: « وَقَالَ آخَرُونَ: كَانَ شُعَيْبٌ قَبْلَ زَمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩ هُود)، وَقَدْ كَانَ هَلَاكُ قَوْمِ لُوطٍ فِي زَمَنِ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ (١)، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْحَلِيلِ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ تَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ كَمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَمَا قِيلَ: إِنَّ شُعَيْبًا عَاشَ مَدَّةً طَوِيلَةً إِنَّمَا هُوَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - احْتِرَازٌ مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ، ثُمَّ مِنَ الْمُقْوِيِّ لَكُونِهِ لَيْسَ بِشُعَيْبٍ أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيَّاهُ لَا وَشَكَ أَنْ يُنْصَرَ عَلَى اسْمِهِ فِي الْقُرْآنِ هَهُنَا، وَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِهِ فِي قِصَّةِ مُوسَى لَمْ يَصَحَّ إِسْنَادُهُ ».

(١) الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي وَقْتِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ (٢٦) عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ فَخَافَ مِنْ لُوطٍ ﴾، وَأَمَّا مُرَادُ ابْنِ كَثِيرٍ هُنَا فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (الْعَنْكَبُوتُ ٣١).

اِقْتِرَانُ اللَّيْلِ بِالسَّمْعِ وَالنَّهَارِ بِالْبَصَرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧٢) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٣) (الْقَصَصُ ٧٢-٧٣).

فِي هَذَا السِّيَاقِ الْكَرِيمِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ، هِيَ:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: مَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ قَرَنَ بَيْنَ الظَّرْفِ اللَّيْلِيِّ وَبَيْنَ السَّمْعِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، كَمَا قَرَنَ بَيْنَ الظَّرْفِ النَّهَارِيِّ وَبَيْنَ الْإِبْصَارِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِحِكْمَةٍ، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي «الْبَرْهَانِ» (١/ ٨٢): «فَاقْتَضَتْ الْبَلَاغَةُ أَنْ يَقُولَ: ﴿أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ لِمُنَاسَبَةِ مَا بَيْنَ السَّمْعِ وَالظَّرْفِ اللَّيْلِيِّ الَّذِي يَصْلَحُ لِلِاسْتِمَاعِ وَلَا يَصْلَحُ لِلِإِبْصَارِ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٣)؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَضَافَ جَعَلَ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَيْهِ صَارَ النَّهَارُ كَأَنَّهُ سَرْمَدٌ، وَهُوَ ظَرْفٌ مُضِيٌّ تَنَوَّرَ فِيهِ الْأَبْصَارُ... فَاقْتَضَتْ الْبَلَاغَةُ أَنْ يَقُولَ: ﴿أَمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ إِذِ الظَّرْفُ مُضِيٌّ صَالِحٌ لِلِإِبْصَارِ، وَهَذَا مِنْ دَقِيقِ الْمُنَاسَبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ»، وَانْظُرْ «فَتْحَ الْقَدِيرِ» لِلشُّوكَانِيِّ (٤/ ٢١٣) وَ«رُوحَ الْمَعَانِي» لِلْأَلُوسِيِّ (٢٠/ ١٠٨).

وَأَمَّا الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ فَقَدْ ذَكَرَهَا الْحَطِيبُ الْإِسْكَافِي فِي « دُرَّةِ التَّنْزِيلِ »، فَقَالَ (ص ٢٣٨): « لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ تَقْدِيمِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ، وَأَنَّهُ لَوْ قُدِّمَ النَّهَارُ، هَلْ كَانَ عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ؟ ... »

الْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ نَسْخَ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ الْأَعْظَمَ أَبْلَغُ فِي الْمَنَافِعِ بِمَا ضُمِّنَ مِنَ الْمَصَالِحِ مِنْ نَسْخِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْجَنَّةَ نَهَارَهَا دَائِمٌ لَا لَيْلَ مَعَهُ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ لِلِاسْتِرَاحَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِالْجِهَامِ وَالرَّاحَةِ عَلَى مَا يَلْزَمُ مِنَ الْكُلْفِ الْمُتْعِبَةِ وَالْمَشَاقِّ الْمُنْصِبَةِ، وَدَارُ النَّعِيمِ يُسْتَغْنَى فِيهَا عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى نَيْلِ الْمُشْتَهَى، وَعَلَى مَا تَلْتَذُّ بِهِ النَّفْسُ وَتَهْوَى، فَتَقْدِيمُ ذِكْرِ اللَّيْلِ لِانْكِشَافِهِ عَنِ النَّهَارِ الَّذِي يُمَكِّنُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمَعَاشِ وَالسَّعْيِ فِي الْمَصَالِحِ إِلَى مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً مِنَ الْمَنَافِعِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّمْسِ أَحَقُّ وَأَوْلَى .

وَالْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ ذَكَرَهَا النَّسْفِيُّ فِي « مَدَارِكِ التَّنْزِيلِ وَحَقَائِقِ التَّأْوِيلِ »، فَقَالَ (٣/ ٢٤٥): « وَلَمْ يَقُلْ: (بِنَهَارٍ تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ)، كَمَا قَالَ: ﴿ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾، بَلْ ذَكَرَ الضِّيَاءَ وَهُوَ ضَوْءُ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ الْمَنَافِعَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهِ مُتَكَاثِرَةٌ، لَيْسَ التَّصَرُّفُ فِي الْمَعَاشِ وَحْدَهُ، وَالظَّلَامُ لَيْسَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ .

وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ مَنَافِعُ ضِيَاءِ النَّهَارِ مُتَكَاثِرَةً، وَحَاجَاتُ النَّاسِ فِيهِ غَيْرَ مُنْخَصَرَّةٍ، فَإِنَّ اللَّهَ تَرَكَ ذِكْرَهَا وَأَطْلَقَهَا، وَأَمَّا اللَّيْلُ فَإِنَّ النَّاسَ يَكَادُونَ يُجْمَعُونَ فِيهِ عَلَى السُّكُونِ وَالرَّاحَةِ، الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَجِدُونَهُ فِي وَقْتٍ أَفْضَلَ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَأَمَّلْ .

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ الْفَرْقُ بَيْنَ السَّنَةِ وَالْعَامِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾
(العنكبوت ١٤).

كَلِمَةُ (سَنَةٍ) وَكَلِمَةُ (عَامٍ) مُتَرَادِفَتَانِ، وَتَأْتِي كُلُّ مِنبَهَا عَلَى مَعْنَى الْأُخْرَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿قَالَ بَلْ لَبِثَ مِائَةً عَامٍ﴾ (البقرة ٢٥٩)، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (الكهف ٢٥).

لَكِنْ قَدْ يَكُونُ لِكُلِّ مِنبَهَا مَعْنَى خَاصَّةٌ، كَمَا عِنْدَ الْاِقْتِرَانِ، كَمَا فِي آيَةِ الْبَابِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ لَبِثَ فِي قَوْمِهِ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾، فَلَمَّا اسْتَشْنَى مِنْهَا بَعْضُهَا أَعْرَضَ عَنْ لَفْظِ (سَنَةٍ) إِلَى لَفْظِ (عَامٍ)، فَقَالَ: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، قَالَ الزَّرْكَشِيُّ فِي «الْبَرْهَانِ» (٣/٣٨٦): «فَذَكَرَ فِي مُدَّةِ اللَّبْثِ (السَّنَةِ)، وَفِي الْاِنْفِصَالِ (الْعَامِ)؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ فِي شِدَائِدَ فِي مُدَّتِهِ كُلِّهَا، إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا قَدْ جَاءَهُ الْفَرْجُ وَالْغَوْثُ، فَإِنَّ (السَّنَةَ) تُسْتَعْمَلُ غَالِبًا فِي مَوْضِعِ الْجَذْبِ، وَلِهَذَا سَمَّوْا شِدَّةَ الْقَحْطِ (سَنَةً)».

وَقَالَ السِّيُوطِيُّ فِي «الْإِتْقَانِ» (١/٥٧٣): «وَمِنْ ذَلِكَ (السَّنَةِ) وَ(الْعَامِ)، قَالَ الرَّاعِبِيُّ: الْغَالِبُ اسْتِعْمَالُ (السَّنَةِ) فِي الْحَوْلِ الَّذِي فِيهِ الشَّدَّةُ وَالْجَذْبُ، وَلِهَذَا يُعَبَّرُ عَنِ الْجَذْبِ بِالسَّنَةِ، وَالْعَامِ مَا فِيهِ الرَّخَاءُ

والخُصْب، وبهذا تَظْهَرُ النُّكْتَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ حَيْثُ عَبَّرَ عَنِ الْمُسْتَنَى بِ (العَام)، وَعَنِ الْمُسْتَنَى مِنْهُ بِ (السَّنَةِ) «.

قُلْتُ: لِأَنَّ الْخَمْسِينَ كَمَّلَهَا ﷺ بِجَوَارِ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى بَعْدَ أَنْ تَوَفَّاهُ رَبُّهُ إِلَيْهِ، وَمِنْ اسْتِعْمَالِ (السَّنَةِ) فِي الْجَذْبِ وَالشَّدَّةِ وَ (العَامِ) فِي الْخُصْبِ وَالرِّخَاءِ قَوْلُهُ ﷺ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (يوسف ٤٧ - ٤٩)، فَسَمَّى سِنِي الْكَدِّ وَالْعَمَلِ الدَّوُوبِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَكَذَا سِنِي الْمَجَاعَةِ وَالشَّدَّةِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِ (السِّنِينَ)، وَأَمَّا فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ فَقَدْ قَالَ: ﴿عَامٌ﴾ بَدَلًا مِنْ (سَنَةٍ)؛ لِأَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِالْغَوْثِ وَالرِّخَاءِ وَعُصَارَةِ الزَّيْتِ وَاللَّبَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَيَرَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

سورة الروم

مناسبة أول السورة لخاتمها: النصر مع الصبر

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الْم ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ (الروم ١-٥).

أُنْبِهُ هُنَا عَلَى ثَلَاثِ فَوَائِدَ:

الأولى: مَطْلَعُ هَذِهِ السُّورَةِ حَدِيثٌ عَنِ النَّصْرِ، وَفِي خَاتَمِهَا أَمْرُ اللهِ بِالصَّبْرِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦﴾﴾ (الروم ٦٠)، وَهَذِهِ مُنَاسِبَةٌ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ تَوَارَدَتْ فِي بَيَانِ أَنَّ النَّصَرَ مَعَ الصَّبْرِ، فَمِنْ الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة ٢٤٩)، وَمِنْ السُّنَنِ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: « وَأَنَّ النَّصَرَ مَعَ الصَّبْرِ » أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٠٧/١) وَهُوَ صَحِيحٌ.

الثانية: فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ فِي آخِرِ السُّورَةِ حَكْمَةٌ بِالْغَةِ، وَهِيَ أَنَّ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ النَّصَرَ وَلَا يَصْبِرُونَ هُمْ أَهْلُ الْخِفَةِ الضُّعْفَاءُ فِي اسْتِيقَانِ أَنَّ الصَّبَرَ يَنْتِجُ عَنْهُ النَّصْرَ، وَهَذِهِ مُنَاسِبَةٌ أُخْرَى بَيْنَ النَّصْرِ وَالصَّبْرِ.

الثالثة: مَعْلُومٌ أَنَّهُ جَاءَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَقْرُنُ بَيْنَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ،

وقد استنبط منها بعض أهل العلم أن الإمامة في الدين وراثته تُنالُ بهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة ٢٤)، وسيأتي توضيحه - إن شاء الله - في سورة السجدة، ومعلوم أيضاً أنه يشترط في الجهاد الذي به عز هذه الأمة أن يكون بإمام للمسلمين؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعُصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُتَّقَى بِهِ » متفق عليه، وبهذا الحديث وآية الباب تُعلم العلاقة التي بين هذين الوصفين: الصبر واليقين وبين موضوع السورة الذي في مطلعها، ولذلك عدّها الفقهاء في شروط ولي الأمر كما نقله عنهم ابن تيمية في حيث قال: « مجموع الفتاوى » (١٠/٦٧٧): « والمحمود هو الذي يصبر ويرحم كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف؛ فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر يُنصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: (إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءَ) ^(١) »، والله أعلم.

(١) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

السَّيِّئَةُ عَاقِبَةُ السَّيِّئَةِ وَالْحَسَنَةُ عَاقِبَةُ الْحَسَنَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُوْا السُّوْأَى﴾ (الرُّومُ ١٠).

يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ عَقَبَ فِعْلِ الطَّاعَاتِ أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا كَانَ أَحْسَنَ مِنْهُ حَالاً مِنْ ذِي قَبْلٍ وَأَكْثَرَ إِقْبَالاً عَلَى الطَّاعَاتِ فَقَدْ دَلَّ ذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - عَلَى انْتِفَاعِهِ بِحَسَنَاتِهِ الَّتِي أَتَى بِهَا، وَأَنَّ الْعَكْسَ بِالْعَكْسِ، فَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ نَفْرَةً مِنْ فِعْلِ الصَّالِحَاتِ وَجُسُوراً عَلَى الْحُرْمَاتِ، فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الطَّاعَةُ كَانَ قَدْ خَالَطَهُ بَاطِنُ الْإِثْمِ وَغَشَّ الْمُعَامَلَةَ مَعَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النِّسَاءُ ٧٩)، فَلْيُرَاقِبِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَا أَحَدَ يُعْطِي وَيَمْنَعُ سِوَاهُ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٤ / ٢٣٩-٢٤٤): «وَالْمَعْصِيَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ تَكُونُ عُقُوبَةُ الْأُولَى، فَتَكُونُ مِنْ سَيِّئَاتِ الْجَزَاءِ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ سَيِّئَاتِ الْعَمَلِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ؛ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا)، وَقَدْ ذَكَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْحَسَنَةَ الثَّانِيَةَ قَدْ تَكُونُ مِنْ ثَوَابِ الْأُولَى، وَكَذَلِكَ السَّيِّئَةُ الثَّانِيَةُ قَدْ تَكُونُ مِنْ عُقُوبَةِ الْأُولَى،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ
 تَنظِيثًا ﴾ (وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَنَّهُمْ صِرَاطًا
 مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ (النساء ٦٦-٦٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
 لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾ (العنكبوت ٦٩)، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ ﴿٧٠﴾ سَيَهْدِيَهُمْ
 وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٧١﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٧٢﴾ (محمد ٤-٦)، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَقِيبَ الَّذِينَ أُسْتُوْا السُّوْأَى ﴾ (الزُّم ١٠)، وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿ وَكِتَبَ مُبِينٌ ﴾ ﴿٧٣﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
 السَّلَامِ ﴿ (المائدة ١٥-١٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ ثَوْرًا تَمْشُونَ
 بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الحديد ٢٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
 لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهِبُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ (الأعراف ١٥٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ
 لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾ (آل عمران ١٣٨)، وَقَالَ تَعَالَى:
 ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي
 ءَادَانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (فُصِّلَتْ ٤٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم
 مُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٧٧﴾
 (الأعراف ٢٠١-٢٠٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
 وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ (يوسف ٢٤)، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ (يوسف ٢٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ
 ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (القصص ١٤)،
 وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
 لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾﴾ (عمد ١-٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
 ذُنُوبَكُمْ﴾ (الأحزاب ٧٠-٧١)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
 الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن
 تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ (النور ٥٤)،
 قَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِي: مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ
 بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمَرَ الْهَوَىٰ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، قُلْتُ: وَقَدْ قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ:
 ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ﴾ (النور ٦٣)، ثُمَّ شَرَعَ فِي بَيَانِ نَتَائِجِ السَّيِّئَاتِ بَعْدَ أَنْ كَانَ
 جُلَّ النُّصُوصِ السَّابِقَةِ فِي بَيَانِ نَتَائِجِ الْحَسَنَاتِ، فَقَالَ ﷺ: «وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَتُفْلَبُ أَعْدَهُمْ
 وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الأنعام ١٠٩-١١٠)، وَقَالَ
 تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمْ

الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿١٥٥﴾ (آل عمران ١٥٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ (الصَّف ٥)، إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ (الصَّف ٧)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (البقرة ٨٨)، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ (النساء ١٥٥)، وقال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة ٢٥٨)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٢٥﴾﴾ (التوبة ٢٥-٢٦)، وقال تعالى في النُّوعَيْنِ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٢٧﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢٨﴾، وقال تعالى: ﴿سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ (آل عمران ١٥١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن

خَرَجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
تَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى
الْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَبَرُوا يَنْتَهِلُوا الْأَبْصَرَ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ
لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ (الحشر ٢-٤)، وقال
تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنصَرُونَ﴾ ﴿٥﴾ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلُ
مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦﴾ (آل عمران ١١١-١١٢)، وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٧﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ
﴿٨﴾ (المائدة ٨٠-٨١)، وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِيَّيْنَا وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٩﴾ (المائدة ٨٢)، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿١١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَا ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آزَنُوا عَلَى أَذْبَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

أَلْهَدَى الشَّيْطَانُ سَوَلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ
 كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٧﴾
 (حمد ٢٢-٢٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ
 فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ
 خَلَوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ
 يَلْقَوْتُهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٣٠﴾
 (التوبة ٧٥-٧٧)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ
 فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا
 إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ (التوبة ٨٣)،
 وَقَالَ تَعَالَى فِي ضِدِّ هَذَا: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ
 لَكُمُ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ
 صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿٣٢﴾ (الفتح ٢٠)، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
 مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٣٤﴾ (الفتح ٢٢-٢٣)، وَتَوَلَّيْتُهُم
 الْأَذْبَارَ لَيْسَ مِمَّا نُهُوا عَنْهُ، وَلَكِنْ هُوَ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وَهَذَا بَابُ
 وَاسِعٌ.

وَفِي «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ» لِلْمِزِّي (٢٠ / ٢١) أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ:
 «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ، وَإِذَا
 رَأَيْتَهُ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَخَوَاتٍ؛ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ تَدُلُّ عَلَى
 أُخْتِهَا، وَإِنَّ السَّيِّئَةَ تَدُلُّ عَلَى أُخْتِهَا».

سُورَةُ لُقْمَانَ بَلَاغَةُ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَحُكْمُ الْغِنَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ (لقمان ٦-٧).

هُوَ الْحَدِيثُ الَّذِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَسَّرَهُ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ - مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ - بِالْغِنَاءِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: « نَزَلَتْ فِي الْغِنَاءِ وَأَشْبَاهِهِ » رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي « الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ » (١٢٦٥) وَغَيْرُهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: « هُوَ الْغِنَاءُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ! يُرَدِّدُهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ » رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٣١٠ / ٦) وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ وَابْنُ الْقَيِّمِ وَكَذَا الْأَلْبَانِيُّ، انْظُرْ كِتَابَهُ « تَحْرِيمُ آلَاتِ الطَّرَبِ » (ص ١٤٣).

وَلَيْسَ هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْ فَوَائِدِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ - بَعْدَ التَّمْهِيدِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ - أَنْ أَذْكَرَ ثَلَاثَ فَوَائِدَ، هِيَ:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ سَمَّى الْغِنَاءَ (هُوَ الْحَدِيثُ)، مَعَ أَنَّ لِلْغِنَاءِ أَسْمَاءَ أُخْرَى، فَيَكُونُ فِي اخْتِيَارِ هَذِهِ التَّسْمِيَةِ حِكْمَةً وَلَا شَكَّ، وَلَعَلَّهَا تَكْمُنُ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى أَهْلِ التَّأْوِيلِ بِالْبَاطِلِ إِخْرَاجَهُمُ الْغِنَاءَ عَنْ مَعَانِي (هُوَ الْحَدِيثُ)؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يُقَالُ لَهُ: أَلَيْسَ الْمُغْنَى إِذَا غَنَى يَلْهُو بِالْحَدِيثِ؟ يَقُولُ: بَلَى! وَهَذَا جَوَابُ كُلِّ عَاقِلٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ سَالِمًا مِنْ

هَوَايَةِ الْغِنَاءِ؛ فَالْغِنَاءُ يَدْخُلُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا فِي مَعْنَى ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾؛ لِأَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي يَلْهُو بِهِ النَّاسُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَجْتَمِعُونَ فِي عِيدٍ أَوْ فَرَحٍ إِلَّا عَلَيْهِ؟! بَلْ لَوْ حَضَرُوا عِيدًا أَوْ وَلِيمَةً عُرْسَ بِلَا غِنَاءٍ لَشَبَّهَوْهُ بِيَوْمِ الْحِدَادِ؛ لِأَنَّ يَوْمَ الْحِدَادِ يَوْمٌ جِدٌّ لَا هَزْلَ فِيهِ، فَهَذِهِ شَهَادَةٌ عَمَلِيَّةٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ الصَّحَابَةَ الَّذِينَ فَسَّرُوا الْآيَةَ بِمَا سَبَقَ كَانُوا أَفْهَمَ الْخَلْقِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِمُرَادِ اللَّهِ بِكَلَامِهِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الثَّانِيَةِ: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَعَاطَى لَهُوَ الْحَدِيثِ أَوْ يَلْهُو بِالْحَدِيثِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿يَشْتَرِي﴾؛ وَهَذَا اللَّفْظُ مِنَ الْأَضْدَادِ، فَهُوَ يُسْتَعْمَلُ فِي الشِّرَاءِ، أَيْ أَخَذَ الشَّيْءَ بِعَوَضٍ، كَمَا يُسْتَعْمَلُ فِي مُقَابِلِهِ أَيْ الْبَيْعِ، كَمَا فِي «الْأَضْدَادِ» لابن السَّكِّيتِ (ص ٢٣٤)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة ٢٠٧)، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي «الْأَضْدَادِ» لَهُ (ص ٥٩): «أَيَّ يَبِيعُهَا»، وَكَذَا قَالَ أَبُو حَاتِمٍ السَّجِسْتَانِيُّ فِي «الْأَضْدَادِ» لَهُ (ص ١٨٥)، وَقَدْ اجْتَمَعَ الْمَعْنَيَانِ بِلَفْظِ (الاشْتِرَاءِ) فِي سُورَةِ وَاحِدَةٍ، أَلَا وَهِيَ سُورَةُ يُوسُفَ ﷻ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرَاتِمَ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ، فَكَلِمَةُ ﴿شَرَوْهُ﴾ مَعْنَاهَا: بَاعُوهُ، وَكَلِمَةُ ﴿اشْتَرَاهُ﴾ مَعْنَاهَا: أَخَذَهُ بِعَوَضٍ، أَيْ بَاعَهُ الَّذِينَ وَجَدُوهُ لِلْمَلِكِ الَّذِي هُوَ الْمُشْتَرِي، قَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي «التَّفْسِيرِ الْوَسِيطِ» (٣/ ٤٤١):

« أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِـ ﴿لَهُوَ الْحَدِيثُ﴾ الْغِنَاءُ، قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: وَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَنْ اخْتَارَ اللَّهُوَ وَالْغِنَاءَ وَالْمَزَامِيرَ وَالْمَعَارِفَ عَلَى الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ وَرَدَ بِـ (الاشْتِرَاءِ)؛ لِأَنَّ هَذَا اللَّفْظَ يُذَكِّرُ فِي الْاسْتِبْدَالِ وَالِاخْتِيَارِ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ لَفْظَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ يَدُلُّانِ عَلَى الْمُعَاوَضَةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَشْتَرِي إِلَّا أَخَذَ شَيْئًا وَأَعْطَى مُقَابِلَهُ آخَرَ، كَالْبَيْعِ تَمَامًا، أَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ الثَّمَنِ وَالْمُثْمَنِ فَمُسْتَحِيلٌ كَاسْتِحَالَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْغِنَاءِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَفِي هَذَا حِكْمَةٌ بِالْغَةِ مِنْ حَيْثُ بَلَاغَةُ اللَّفْظِ الْمُنَاسِبِ لِلْمَعْنَى؛ فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ يَأْخُذُ بِالْغِنَاءِ إِلَّا ضَيَّعَ الْقُرْآنَ مِنْ قَلْبِهِ، وَثَقُلَتْ تِلَاوَتُهُ عَلَى لِسَانِهِ، وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ أَرْبَابِ الْغِنَاءِ، وَقَدْ عَرَفْنَا هَذَا عَنْ كَثَبٍ مِنَ الَّذِينَ ابْتُلُوا بِالْأَنَاشِيدِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «اِقْتِضَاءِ الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ» (١/٥٤٣): «فَالْعَبْدُ إِذَا أَخَذَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ بَعْضَ حَاجَتِهِ قَلَّتْ رَغْبَتُهُ فِي الْمَشْرُوعِ وَانْتِفَاعُهُ بِهِ بِقَدَرِ مَا اعْتَاَصَ مِنْ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ صَرَفَ نَهْمَتَهُ وَهَمَّتَهُ إِلَى الْمَشْرُوعِ، فَإِنَّهُ تَعْظُمُ مَحَبَّتُهُ لَهُ وَمَنْفَعَتُهُ بِهِ، وَيَنْمُو دِينُهُ، وَيَكْمُلُ إِسْلَامُهُ، وَلِهَذَا تَجِدُ مَنْ أَكْثَرَ مِنْ سَمَاعِ الْقَصَائِدِ لَطَلَبِ صَلَاحِ قَلْبِهِ تَنْقِصُ رَغْبَتُهُ فِي سَمَاعِ الْقُرْآنِ حَتَّى رُبَّمَا كَرِهَهُ».

وَبِهَذَا تَعْلَمُ الْحِكْمَةُ فِي اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿يَشْتَرِي﴾ عَلَى غَيْرِهِ.

الثَّالِثَةُ: رَتَّبَ اللَّهُ حَدِيثَهُ عَنِ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ آيَاتِهِ عَلَى حَدِيثِهِ عَنِ الْمُؤَثِّرِينَ لِلْغِنَاءِ كَمَا رَأَيْتَ فِي آيَتِي الْبَابِ، وَبَلَاغَةُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ حَيْثُ تَرْتِيبُهَا؛ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْغِنَاءِ عَلَى التَّنَافُرِ، فَإِنَّهُ

إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمَا ذَهَبَ الْآخَرُ، وَلِذَلِكَ أَتْبَعَهُ اللَّهُ بِالْحَدِيثِ عَمَّنْ
يَسْتَكْبِرُ عَنْ آيَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ اشْتَرَى هُوَ الْحَدِيثَ، وَلِذَلِكَ لَا يَكَادُ يُذَكَّرُ
الْغِنَاءُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا قُرْنًا بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ، فَهُمَا يَقْتَرِنَانِ اقْتِرَانِ
الشَّيْءِ بِضَدِّهِ، وَيَتَطَارَدَانِ تَطَارَدَ الْعَدُوِّ لِعَدُوِّهِ وَلَنْضَرْبِ هَذَا أَمْثَلَهُ
مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى:

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ ﴿٢٨﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿٢٩﴾ وَأَنْتُمْ سَمِعِدُونَ ﴿٣٠﴾﴾، وَكَلِمَةُ
(الْحَدِيثِ) هُنَا تَعْنِي الْقُرْآنَ، وَالسُّمُودُ هُوَ الْغِنَاءُ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ قَرْنَ بَيْنَ
الْقُرْآنِ وَالْغِنَاءِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الاسْتِقَامَةِ» (١/٢٢٩):
« قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: هُوَ الْغِنَاءُ، فَقَالَ: اسْمُدْ لَنَا أَيُّ غَنٍّ لَنَا،
فَذَمَّ الْمُعْرَضَ عَمَّا يَجِبُ مِنْ اسْتِمَاعِ الْمُشْتَغَلِ عَنْهُ بِاسْتِمَاعِ الْغِنَاءِ، كَمَا هُوَ
فِعْلٌ كَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ وَحَالَ كَثِيرٌ مِنَ
الْمُنْسَكَةِ فِي اعْتِيَاظِهِمْ بِسَمَاعِ الْمَكَاةِ وَالتَّصَدِيقَةِ عَنْ سَمَاعِ قَوْلِ اللَّهِ
تَعَالَى «، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِآيَةِ لُقْمَانَ هَذِهِ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ أَدْخَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي
الْأَفْتِتَانِ بِالْغِنَاءِ صِنْفَ الْمَاجِنِينَ، وَصِنْفَ الْمُتَعَبِّدِينَ بِسَمَاعِ الْقَصَائِدِ
الَّتِي تُسَمَّى (الْقَصَائِدِ الدِّينِيَّةِ)، وَتَأَمَّلْ قَوْلَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: « تَرَكْتُ
بِالْعِرَاقِ شَيْئًا يُقَالُ لَهُ (التَّغْيِيرُ)، أَحَدَثُهُ الزَّنَادِقَةُ يَصْدُودُونَ النَّاسَ عَنِ
الْقُرْآنِ «، قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «تَحْرِيمِ آلَاتِ الطَّرَبِ» (ص ١٦٣):
« رَوَاهُ الْخَلَّالُ فِي (الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ) (ص ٣٦) وَأَبُو نَعِيمٍ فِي (الْحِلْيَةِ)
(٩/١٤٦) وَعَنْهُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ (ص ٢٤٤ - ٢٤٩)، وَإِسْنَادُهُ

كَلَامُ الشَّافِعِيِّ فِي التَّغْيِيرِ الَّذِي هُوَ غِنَاءٌ يُنْشَدُ بِغَيْرِ آلَةٍ عَادَةً لِلتَّذْكِيرِ
بِالْغَابَةِ وَهِيَ الْآخِرَةُ، فَمَاذَا يَقُولُ فِي غِنَاءٍ لَا يُذَكَّرُ إِلَّا بِالدُّنْيَا وَالنِّسَاءِ
وَالْحُمْرِ؟!

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ نَوَّهَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ بِشَأْنِ الَّذِينَ لَا يَحْضُرُونَ
مَجَالِسَ الزُّورِ الَّتِي مِنْهَا الْغِنَاءُ، كَمَا فَسَّرَ بِهِ بَعْضُ السَّلَفِ قَوْلَهُ تَعَالَى:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان ٧٢)، ثُمَّ نَوَّهَ بَعْدَهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ مَجَالِسِ الْقُرْآنِ،
فَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ تَحْجُرُوا عَلَيْهَا صُمًّا
وَعُمْيَانًا﴾ (٧٣)، فَرتَّبَ وَصَفَ الَّذِينَ يَتَتَفَعُونَ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ عَلَى
وَصَفِهِمْ بِهِمْ مَجَالِسَ الزُّورِ وَاللَّغْوِ، فَدَلَّ هَذَا - بِطَرِيقِ الْمُقَابَلَةِ - عَلَى
أَنَّ أَرْبَابَ الْغِنَاءِ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا دَامُوا عَلَى الْغِنَاءِ عَاكِفِينَ،
وَإِنْ كَانُوا مُتَفَاوِتِينَ مَا بَيْنَ مُسْتَقْلٍّ وَمُسْتَكْثَرٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ
الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
يُؤْمِنُونَ) (٧٤) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ
قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٧٥) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٧٦) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ (القصص ٥١-٥٥)، فَتَأَمَّلْ أَوَّلَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَآخِرَهَا؛ فَقَدْ
أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الَّذِينَ آتَاهُمْ كِتَابَهُ وَانْتَفَعُوا بِهِ أَنَّهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ
اللَّغْوِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّغْوَ هُوَ أَدْنَى مَا يُطْلَقُ عَلَى الْغِنَاءِ؛ قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ

الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ ﷺ فِي « الْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ »
 (ص ٧٠) متحدثاً عَنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي فِي مَطْلَعِ سُورَةِ
 الْمُؤْمِنُونَ: « وَلِهَذَا نَبَّهَ بِالْأَدْنَى الَّذِي - هُوَ اللَّغْوُ - عَلَى مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ،
 فَاخْبَارُ اللَّهِ أَنَّهُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ - الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا مَنَفْعَةَ
 فِيهِ - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ تَرَكَوا الْكَلَامَ الْمَحْرَمَ ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِ « الرُّوحِ » (ص ٧٨): « وَالَّذِي يُقْرَأُ عَلَيْهِ
 الْقُرْآنُ فَلَا يُؤْثَرُ فِيهِ، وَرَبِّمَا اسْتَثْقَلَ بِهِ، فَإِذَا سَمِعَ قُرْآنَ الشَّيْطَانِ وَرُقِيَّةَ
 الزُّنَا وَمَادَّةَ النِّفَاقِ طَابَ سِرُّهُ وَتَوَاجَدَ وَهَاجَ مِنْ قَلْبِهِ دَوَاعِي الطَّرَبِ،
 وَوَدَّ أَنْ الْمَغْنَى لَا يَسْكُتُ »، وَقَالَ فِي « أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ »
 (٣/ ١٢٣٩): « وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالْأَذَانِ نَاقُوسَ النَّصَارَى
 وَبُوقَ الْيَهُودِ؛ فَإِنَّهُ دَعَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَوْحِيدَهُ وَعُبودِيَّتَهُ وَرَفَعَ
 الصَّوْتِ بِهِ إِعْلَاءً لِكَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَإِظْهَاراً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ وَإِحْمَاداً لِدَعْوَةِ
 الْكُفْرِ، فَعَوَّضَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَذَانِ عَنِ النَّاقُوسِ وَالطُّنْبُورِ، كَمَا
 عَوَّضَهُمْ دُعَاءَ الاسْتِخَارَةِ عَنِ الاسْتِسْقَامِ بِالْأَزْلَامِ، وَعَوَّضَهُمْ
 بِالْقُرْآنِ وَسَمَاعِهِ عَنِ قُرْآنِ الشَّيْطَانِ وَسَمَاعِهِ، وَهُوَ الْغِنَاءُ وَالْمَعَازِفُ،
 وَعَوَّضَهُمْ بِالْمُغَالَبَةِ بِالْحَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْبَهَائِمِ عَنِ الْغِلَابَاتِ الْبَاطِلَةِ
 كَالنَّزْدِ وَالشُّطْرَنْجِ وَالْقِمَارِ، وَعَوَّضَهُمْ بِيَوْمِ الْجُمُعَةِ عَنِ السَّبْتِ
 وَالْأَحَدِ، وَعَوَّضَهُمُ الْجِهَادَ عَنِ السِّيَاحَةِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ، وَعَوَّضَهُمُ
 بِالنِّكَاحِ عَنِ السَّفَاحِ »، وَقَالَ فِي « إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ » (١/ ٢٢٤): « وَمِنْ
 مَكَائِدِ عَدُوِّ اللَّهِ وَمَصَايِدِهِ الَّتِي كَادَ بِهَا مَنْ قَلَّ نَصِيْبُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ

والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا، وبه ينالك العاشق الفاسق من معشوقه غاية المني، كاذبه الشيطان النفوس المبطله وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا، فلو رأيتهم عند ذيك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصببت انصبابة واحدة إليه، فتأملوا له ولا كتأمل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنشوان؟! ويحق لهم ذلك وقد خالط خاره النفوس، ففعل فيها أعظم ما يفعله حميًا الكؤوس، فليغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تُنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيه، وأجلب عليهم بخيله ورجله، وخز في صدورهم وخزًا، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا، فطوراً يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذبابة ترقص وسيط الديار، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام! ويا سؤأتا من أشباه الحمير والأنعام! ويا شامة أعداء الإسلام بالدين! يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم هواً ولعباً، مزامير

الشَّيْطَانِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ اسْتِمَاعِ سُورِ الْقُرْآنِ، لَوْ سَمِعَ أَحَدُهُم الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ لَمَا حَرَّكَ لَهُ سَاكِنًا، وَلَا أَرْعَجَ لَهُ قَاطِنًا، وَلَا أَثَارَ فِيهِ وَجَدًا، وَلَا قَدَحَ فِيهِ مِنْ لَوَاعِجِ الشَّوْقِ إِلَى النَّارِ زَنْدًا، حَتَّى إِذَا ثَلِيَ عَلَيْهِ قُرْآنُ الشَّيْطَانِ، وَوَلَجَ مَزْمُورُهُ سَمْعَهُ، تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْوَجْدِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى عَيْنَيْهِ فَجَرَّتْ، وَعَلَى أَقْدَامِهِ فَرَقَصَتْ، وَعَلَى يَدَيْهِ فَصَفَقَتْ، وَعَلَى سَائِرِ أَعْضَائِهِ فَاهْتَزَّتْ وَطَرِبَتْ، وَعَلَى أَنْفَاسِهِ فَتَصَاعَدَتْ، وَعَلَى زَفَرَاتِهِ فَتَزَايَدَتْ، وَعَلَى نِيرَانِ أَشْوَاقِهِ فَاشْتَعَلَتْ، فَيَا أَيُّهَا الْفَاتِنُ الْمَفْتُونُ! وَالْبَائِعُ حَظَّهُ مِنَ اللَّهِ بِنَصِيْبِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ صَفْقَةً خَاسِرٍ مَغْبُونٍ! هَلَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْجَانُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ الْأَذْوَاقُ وَالْمَوَاجِدُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ السَّنِيَّاتُ عِنْدَ تِلَاوَةِ السُّورِ وَالْآيَاتِ، وَلَكِنْ كُلُّ امْرِئٍ يَصْبُو إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ، وَيَمِيلُ إِلَى مَا يُشَاكِلُهُ؛ وَالْجَنَسِيَّةُ عِلَّةُ الضَّمِّ قَدْرًا وَشَرْعًا، وَالْمُشَاكِلَةُ سَبَبُ الْمِيلِ عَقْلًا وَطَبْعًا، فَمَنْ أَيْنَ هَذَا الْإِخَاءُ وَالنَّسَبُ لَوْلَا التَّعَلُّقُ مِنَ الشَّيْطَانِ بِأَقْوَى سَبَبٍ؟! وَمِنْ أَيْنَ هَذِهِ الْمُصَالِحَةُ الَّتِي أَوْقَعَتْ فِي عَقْدِ الْإِيمَانِ وَعَهْدِ الرَّحْمَنِ خِلَلًا؟! أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا! وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

ثَلِيَ الْكِتَابُ فَأَطْرَقُوا لَا خِيْفَةَ	لَكِنَّهُ إِطْرَاقُ سَاهٍ لَا هِيَ
وَأَتَى الْغِنَاءُ فَكَالْحَمِيرِ تَنَاهَقُوا	وَاللَّهُ! مَا رَقَصُوا لِأَجْلِ اللَّهِ
دُفٌّ وَمِزْمَارٌ وَنَعْمَةٌ شَادِنٍ	فَمَتَى رَأَيْتَ عِبَادَةَ بِمَلَاهِي
ثَقُلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ لَمَّا رَأَوْا	تَقْيِيدَهُ بِأَوَامِرٍ وَنَوَاهِي

سَمِعُوا لَهُ رَعْدًا وَبَرْقًا إِذْ حَوَى
وَرَأَوْهُ أَعْظَمَ قَاطِعٍ لِلنَّفْسِ عَنْ
وَأَتَى السَّمَاعُ مُوَافِقًا أَغْرَاضَهَا
أَيْنَ الْمُسَاعِدُ لِلْهَوَى مِنْ قَاطِعٍ
إِنَّ لَمْ يَكُنْ خَمَرُ الْجُسُومِ فَإِنَّهُ
فَانْظُرْ إِلَى النَّسْوَانِ عِنْدَ شَرَابِهِ
وَانْظُرْ إِلَى تَمْزِيقِ ذَا أَثْوَابِهِ
وَاحْكُمْ فَأَيُّ الْحَمْرَتَيْنِ أَحَقُّ
وَقَالَ آخِرُ:

بَرِّئْنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعْشَرٍ
وَكَمْ قُلْتُ يَا قَوْمَ أَنْتُمْ عَلَى
شَفَا جُرْفٍ نَحْتَهُ هُوَّةٌ
وَتَكَرَّرُ ذَا النُّصْحِ مِنَّا هُمْ
فَلَمَّا اسْتَهَانُوا بِتَنْبِيهِنَا
فَعِشْنَا عَلَى سُنَّةِ الْمُضْطَفَى

زَجْرًا وَتَخْوِيفًا بِفِعْلِ مَنَاهِي
شَهَوَاتِهَا يَا ذَبْحَهَا الْمُتَنَاهِي
فَلَأَجَلَ ذَاكَ غَدَا عَظِيمَ الْجَاهِ
أَسْبَابَهُ عِنْدَ الْجُهُولِ السَّاهِي
خَمَرُ الْعُقُولِ مُمَاتِلٌ وَمُضَاهِي
وَانْظُرْ إِلَى النَّسْوَانِ عِنْدَ مَلَاهِي
مِنْ بَعْدِ تَمْزِيقِ الْفُؤَادِ اللَّاهِي
بِالتَّخْرِيمِ وَالتَّائِيْمِ عِنْدَ اللَّهِ

بِهِمْ مَرَضٌ مِنْ سَمَاعِ الْغِنَا
شَفَا جُرْفٍ مَا بِهِ مِنْ بِنَا
إِلَى دَرْكِ كَمْ بِهِ مِنْ عَنَا
لِنَعْدَرَ فِيهِمْ إِلَى رَبَّنَا
رَجَعْنَا إِلَى اللَّهِ فِي أَمْرِنَا
وَمَاتُوا عَلَى تَتْنَانَا تَتْنَانَا

انتهى ما أردت نقله من كلام ابن القيم، ثم أقول: معلوم أن الغناء الذي كان يتخذه بعض الفرق قربةً يتوبون به الفساق ويجلبونهم به إلى الدين هي التي تسمى اليوم قصائد وأناشيد دينية، وقد كانت تسمى قديماً (السماع)، وفي «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/٥٨٧-٥٩٦): «سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن السماع؟

فَأَجَابَ: السَّمَاعُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ
وَمَشَائِخُ الطَّرِيقِ هُوَ سَمَاعُ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ سَمَاعُ النَّبِيِّنَ وَسَمَاعُ الْعَالَمِينَ
وَسَمَاعُ الْعَارِفِينَ وَسَمَاعُ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَاخَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ
خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾ (مريم ٥٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝﴾ وَيَقُولُونَ
سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ
وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ (الإسراء ١٠٧-١٠٩)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا
مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝﴾ (المائدة ٨٣)،
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝﴾ (الأنفال ٢-٤)، وَقَالَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُذَكَّرُونَ ۝﴾ (الأعراف ٢٠٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ
الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝﴾ (الأحقاف ٢٩)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ
نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

مَخْشَوَاتِ رَبِّهِمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿ (الزمر ٢٣)، وقال
 سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ﴿ (الزمر
 ١٨)، وهذا كثير في القرآن، وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع،
 فَقَدْ ذَمَّ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا
 الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴾ ﴿ (فصلت ٢٦)، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ
 إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ﴿ (الفرقان
 ٧٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ ﴾ ﴿ (كأنهم
 حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) ﴾ ﴿ (المدثر ٤٩-٥٠)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ﴿ (الكهف ٥٧)،
 وقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَاتِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ (٢٢)
 وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ
 ﴾ ﴿ (الأنفال ٢٢-٢٣)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا
 وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّطَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿
 (لقمان ٧)، وهذا كثير في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع
 المسلمين يمدحون مَنْ يُقْبَلُ عَلَى هَذَا السَّمَاعِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْغُبُ فِيهِ
 وَيَذْمُونَ مَنْ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُبْغِضُهُ، ولهذا شرع الله للمسلمين في
 صلاتهم ولطسهم (هكذا) شرع سماع المغرب والعشاء الآخر،
 وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه: ﴿ وَقُرْآنَ
 الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ﴿ (الإسراء ٧٨) ... وكان
 أصحاب رسول الله ﷺ إِذَا اجْتَمَعُوا أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ وَالْباقُونَ

يَسْتَمِعُونَ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: يَا أَبَا مُوسَى! ذَكَّرْنَا رَبَّنَا، فَيَقْرَأُ وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ، وَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَبِي مُوسَى وَهُوَ يَقْرَأُ فَجَعَلَ يَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِهِ، وَقَالَ: (لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ) ^(١)، وَقَالَ: (يَا أَبَا مُوسَى! لَقَدْ مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَجَعَلْتُ أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِي لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيراً) ^(٢)، أَيِ حَسَنَتُهُ لَكَ تَحْسِيناً، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ) ^(٣)، (زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ) ^(٤)، وَقَالَ: (لِلَّهِ أَشَدُّ أَذْناً لِلرَّجُلِ حَسَنَ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ) ^(٥)، وَقَوْلُهُ: (مَا أَذِنَ اللَّهُ إِذْناً) ^(٦) أَيِ سَمِعَ سَمِعاً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَذِنْتُ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ^(٧) أَيِ سَمِعَتْ، وَالْآثَارُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ، وَهَذَا سَمَاعٌ لَهُ آثَارٌ إِيْمَانِيَّةٌ مِنَ الْمَعَارِفِ الْقُدْسِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الزَّكِيَّةِ يَطُولُ شَرْحُهَا وَوَصْفُهَا، وَلَهُ فِي الْجَسَدِ آثَارٌ مَحْمُودَةٌ مِنْ خُشُوعِ الْقَلْبِ وَدُمُوعِ الْعَيْنِ وَاقْشَعْرَارِ الْجِلْدِ... فَأَمَّا سَمَاعُ الْقَاصِدِينَ لِصَلَاحِ الْقُلُوبِ فِي الْاجْتِمَاعِ عَلَى ذَلِكَ: إِمَّا نَشِيدٌ مَجْرَدٌ نَظِيرُ الْغَبَارِ ^(٨)، وَإِمَّا بِالتَّصْفِيقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٤٨) وَمُسْلِمٌ (٧٩٣).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَّانٍ (٧١٩٧) بِإِسْنَادٍ حَسَنِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٢٧).

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤٦٨) وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٣٤٠)، وَضَعَفَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ» (٢٩٥١).

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠٢٤) وَمُسْلِمٌ (٧٩٢).

(٧) قَدْ مَرَّ مَعْنَى التَّغْيِيرِ فِي كَلَامِ الشَّافِعِيِّ أَوَّلَ هَذَا الْمَبْحَثِ.

فَهُوَ السَّمَاعُ الْمُحَدَّثُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّهُ أُحْدِثَ بَعْدَ ذَهَابِ الْقُرُونِ
الْثَلَاثَةِ الَّذِينَ أَتَنَى عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: (خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ
الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) ^(١)، وَقَدْ كَرِهَهُ
أَعْيَانُ الْأُمَّةِ وَلَمْ يَحْضُرْهُ أَكَابِرُ الْمَشَايخِ، وَقَالَ الشَّلْفَعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَلَفْتُ
بِبَعْدَادَ شَيْئاً أَحَدَثْتُهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّونَهُ التَّغْبِيرَ، يَصُدُّونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ
الْقُرْآنِ)، وَسُئِلَ عَنْهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؟ فَقَالَ: (هُوَ مُحَدَّثٌ أَكْرَهُهُ،
قِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يَرِقُّ عَلَيْهِ الْقَلْبُ، فَقَالَ: لَا تَجْلِسُوا مَعَهُمْ، قِيلَ لَهُ:
أَيُهْجَرُونَ؟ فَقَالَ: لَا يَبْلُغُ بِهِمْ هَذَا كُلُّهُ)، فَبَيَّنَ أَنَّهُ بِدْعَةٌ لَمْ يَفْعَلْهَا
الْقُرُونُ الْفَاضِلَةُ: لَا فِي الْحِجَازِ، وَلَا فِي الشَّامِ، وَلَا فِي الْيَمَنِ، وَلَا فِي
مِصْرَ، وَلَا فِي الْعِرَاقِ، وَلَا خُرَاسَانَ، وَلَوْ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ بِهِ مَنَفْعَةٌ فِي
دِينِهِمْ لَفَعَلَهُ السَّلَفُ، وَلَمْ يَحْضُرْهُ مِثْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَلَا الْفُضَيْلِ
ابْنِ عِيَاضَ وَلَا مَعْرُوفَ الْكَرْخِيِّ وَلَا السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ وَلَا أَبُو سُلَيْمَانَ
الدَّارَانِيَّ وَلَا مِثْلَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخِ عَدِيِّ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَّانِ
وَلَا الشَّيْخَ حَيَاةَ وَغَيْرِهِمْ، بَلْ فِي كَلَامِ طَائِفَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ كَالشَّيْخِ عَبْدِ
الْقَادِرِ وَغَيْرِهِ النَّهْيُ عَنْهُ، وَكَذَلِكَ أَعْيَانُ الْمَشَايخِ، وَقَدْ حَضَرَ مِنْ
الْمَشَايخِ طَائِفَةٌ وَشَرَطُوا لَهُ الْمَكَانَ وَالْإِمْكَانَ وَالْحِلَّالَانَ وَالشَّيْخَ الَّذِي
يَحْرُسُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَكْثَرُ الَّذِينَ حَضَرُوهُ مِنَ الْمَشَايخِ الْمُوثِقُ بِهِمْ
رَجَعُوا عَنْهُ فِي آخِرِ عُمْرِهِمْ كَالْجُنَيْدِ، فَإِنَّهُ حَضَرَ وَهُوَ شَابٌّ وَتَرَكَهُمْ
فِي آخِرِ عُمْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: (مَنْ تَكَلَّفَ السَّمَاعَ فُتِنَ بِهِ، وَمَنْ صَادَفَهُ

(١) الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِلَفْظِ « خَيْرُ النَّاسِ ... ».

السَّمْعُ اسْتِرَاحَ بِهِ، فَقَدْ ذَمَّ مَنْ يَجْتَمِعُ لَهُ، وَرَخَّصَ فِيمَنْ يُصَادِفُهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا اعْتِمَادٍ لِلْجُلُوسِ لَهُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ مُجْمَلٌ لَيْسَ فِيهِ تَفْصِيلٌ؛ فَإِنَّ الْأَبْيَاتَ الْمُتَضَمِّنَةَ لِذِكْرِ الْحُبِّ وَالْوَصْلِ وَالْهَجْرِ وَالْقَطِيعَةِ وَالشُّوقِ وَالتَّيِّمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْعَذْلِ وَاللُّومِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ قَوْلٌ مُجْمَلٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ مُحِبُّ الرَّحْمَنِ وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ وَمُحِبُّ الْإِخْوَانِ وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ وَمُحِبُّ الْمُرْدَانِ، فَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مَنَفْعَةٌ إِذَا هَيَّجَ الْقَاطِنَ وَأَثَارَ السَّاكِنِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكِنْ فِيهِ مَضَرَّةٌ رَاجِحَةٌ عَلَى مَنَفْعَتِهِ، كَمَا فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، فَإِنَّ ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَثِيرٌ وَمَنَفْعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (بقرة ٢١٩)، فَلِهَذَا لَمْ تَأْتِ بِهِ الشَّرِيعَةُ، لَمْ تَأْتِ إِلَّا بِالْمَصْلَحَةِ الْخَالِصَةِ أَوْ الرَّاجِحَةِ، وَأَمَّا مَا تَكُونُ مَفْسُدَتُهُ غَالِبَةً عَلَى مَصْلَحَتِهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَأْخُذُ دِرْهَمًا بِدِينَارٍ أَوْ يَسْرِقُ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَيَتَصَدَّقُ مِنْهَا بِدِرْهَمَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُهَيِّجُ الْوَجْدَ الْمُشْتَرَكَ، فَيُثِيرُ مِنَ النَّفْسِ كَوَامِنَ تَضَرُّهِ آثَارُهَا وَيُعْذِّي النَّفْسَ وَيَفْتِنُهَا، فَتَعْتَاضُ بِهِ عَنِ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا مَحَبَّةٌ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَلَا التَّذَاذُّ بِهِ وَلَا اسْتِطَابَةُ لَهُ، بَلْ يَبْقَى فِي النَّفْسِ بُغْضٌ لَذَلِكَ وَاسْتِغَالٌ عَنْهُ، كَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِتَعَلُّمِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَعُلُومِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالصَّابِئِينَ، وَاسْتِفَادَتِهِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مِنْهَا، فَأَعْرَضَ بِذَلِكَ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ إِلَى أَشْيَاءٍ أُخْرَى تَطُولُ.

فَلَمَّا كَانَ هَذَا السَّمْعُ لَا يُعْطِي بِنَفْسِهِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْمَعَارِفِ، بَلْ قَدْ يَصُدُّ عَنْ ذَلِكَ وَيُعْطِي مَا لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَوْ مَا يُغْضِبُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ وَلَا سَلَفُ الْأُمَّةِ وَلَا أَعْيَانُ مَشَائِخِهَا، وَمِنْ نَكْتِهِ أَنَّ الصَّوْتِ يُؤْثِرُ فِي النَّفْسِ بِحُسْنِهِ، فَتَارَةٌ يُفْرِحُ وَتَارَةٌ يُحْزَنُ وَتَارَةٌ يُغْضِبُ وَتَارَةٌ يُرْضِي، وَإِذَا قَوِيَ أَسْكِرَ الرُّوحَ، فَتَصِيرُ فِي لَذَّةٍ مُطْرِبَةٍ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ، كَمَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ إِذَا سَكِرَتْ بِالرَّقْصِ، وَلِلْجَسَدِ أَيْضاً إِذَا سَكِرَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ السُّكْرَ هُوَ الطَّرْبُ الَّذِي يُؤْثِرُ لَذَّةً بِلَا عَقْلِ، فَلَا تَقُومُ مَنَفَعَتُهُ بِتِلْكَ اللَّذَّةِ بِمَا يَحْصُلُ مِنْ غَيْبَةِ الْعَقْلِ الَّتِي صَدَّتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ وَأَوْقَعَتْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَبِالْجُمْلَةِ فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَتْرَكْ شَيْئاً يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثَ بِهِ، وَلَا شَيْئاً يُبْعِدُ عَنِ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ حَدَّثَ بِهِ، وَأَنَّ هَذَا السَّمَاعُ لَوْ كَانَ مَصْلَحَةً لَشَرَعَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة ٣)، وَإِذَا وَجَدَ فِيهِ مَنَفَعَةً لِقَلْبِهِ وَلَمْ يَجِدْ شَاهِدَ ذَلِكَ، لَا مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ الشُّنَّةِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ... وَأَيْضاً فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْكِتَابِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ (الأنفال ٣٥)، قَالَ السَّلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: الْمُكَاءُ كَالصَّفِيرِ وَنَحْوِهِ مِنَ التَّصْوِيتِ مِثْلَ الْغِنَاءِ، وَالتَّصَدِيَةُ التَّصْفِيقُ بِالْيَدِ....

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ فَصَلَاتُهُمْ وَعِبَادَتُهُمُ الْقُرْآنُ وَاسْتِمَاعُهُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَذِكْرُ اللَّهِ وَدُعَاؤُهُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَمَنْ اتَّخَذَ الْغِنَاءَ وَالتَّصْفِيقَ

عِبَادَةٌ وَقُرْبَةٌ فَقَدْ ضَاهَى الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ وَشَابَهُهُمْ فِيهَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ^(١)، فَإِنْ كَانَ يَفْعَلُهُ فِي بُيُوتِ اللَّهِ فَقَدْ زَادَ فِي مُشَابَهَتِهِ أَكْبَرَ وَأَكْبَرَ، وَاشْتَغَلَ بِهِ عَنِ الصَّلَاةِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ، فَقَدْ عَظُمَتْ مُشَابَهَتُهُ لَهُمْ وَصَارَ لَهُ كِفْلٌ عَظِيمٌ مِنَ النَّعْمِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾، لَكِنْ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ ذَلِكَ لِاجْتِهَادِهِ أَوْ لِحَسَنَاتِ مَا حِثَّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فِيمَا يُفَرِّقُ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ، لَكِنَّ مُفَارَقَتَهُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ هَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مَذْمُومًا خَارِجًا عَنِ الشَّرِيعَةِ دَاخِلًا فِي الْبِدْعَةِ الَّتِي ضَاهَى بِهَا الْمُشْرِكِينَ، فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَفَتَّنَ لِهَذَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَ سَمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرُسُولُهُ وَسَمَاعِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرُسُولُهُ.

ونقل القرطبي في « تفسيره » (٢٦٣/١٠) عن أبي الوفاء بن عقيل أنه قال: « فما أقبح من ذي لحية - وكيف إذا كان شبيبة؟! - يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان! وخصوصاً إن كانت أصوات لنسوان ومردان!! وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين، يشمس بالرقص »

(١) في هذا المعنى اتخاذه وسيلة من وسائل الدعوة كما هو مشهور اليوم عن بعضهم، ومع أن الأناشيد كانت معروفة من الجاهلية، فإن النبي ﷺ لم يستعملها لا في العبادة ولا توسل بها في الدعوة، « وخير الهدى هدى محمد ﷺ ».

شمس البهائم^(١)، ويُصَفَّقُ تَصْفِيقَ النِّسْوَانِ؟! وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَسَايَخَ فِي
عُمُرِي مَا بَانَ لَهُمْ سِنٌّ مِنَ التَّبَسُّمِ، فَضُلًّا عَنِ الضَّحْكِ مَعَ إِذْمَانِ
مُحَالِّطَتِي لَهُمْ.

(١) فِي « تَاجِ الْعُرُوسِ »: « وَشَمَسَ الْفَرَسُ يَشْمُسُ شُمُوسًا بِالضَّمِّ، وَشِمَاسًا بِالْكَسْرِ:
شَرَدَ وَجَمَحَ وَمَنَعَ ظَهْرَهُ عَنِ الرُّكُوبِ لَشِدَّةِ شَغْبِهِ وَحِدَّتِهِ، فَهُوَ لَا يَسْتَقِرُّ، فَهُوَ شَامِسٌ
وَشُمُوسٌ كَصَبُورٍ، مِنْ خَيْلِ شُمُسٍ بِالضَّمِّ، وَشُمُسٍ بِضَمَّتَيْنِ ».

سُورَةُ السَّجْدَةِ

نَيْلُ الْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة ٢٤).

وَصَفَّ اللَّهُ أُمَّةَ الْهُدَى بِوَصْفَيْنِ هُمَا: الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ بِآيَاتِهِ، فَمَا وَجْهُ اخْتِيَارِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ دُونَ غَيْرِهِمَا؟

وَجَّهَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ» بِقَوْلِهِ (٢/١٦٧): «وَأَصْلُ كُلِّ فِتْنَةٍ إِنَّمَا هُوَ مِنْ تَقْدِيمِ الرَّأْيِ عَلَى الشَّرْعِ وَالْهَوَى عَلَى الْعَقْلِ، فَالْأَوَّلُ أَصْلُ فِتْنَةِ الشُّبْهَةِ، وَالثَّانِي أَصْلُ فِتْنَةِ الشَّهْوَةِ، فَفِتْنَةُ الشُّبْهَاتِ تُدْفَعُ بِالْيَقِينِ، وَفِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ تُدْفَعُ بِالصَّبْرِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ سُبْحَانَهُ إِمَامَةَ الدِّينِ مَنُوطَةً بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ، وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر ٣)، فَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ الَّذِي يَدْفَعُ الشُّبْهَاتِ، وَبِالصَّبْرِ الَّذِي يَكْفِي عَنْ الشَّهَوَاتِ، وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ (ص ٤٥)، فَالْأَيْدِي الْقُوَى وَالْعَرَائِمُ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَالْأَبْصَارُ الْبَصَائِرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَعِبَارَاتُ السَّلَفِ تَدُورُ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أُولَى الْقُوَّةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أُولَى الْقُوَّةِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْبَصَرِ فِيهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿الْأَيْدِي﴾: الْقُوَّةُ فِي

طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصِرِ﴾: البَصْرُ في الحق، وقال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ:
﴿الْأَيْدَى﴾: القوَّةُ في العمل، ﴿وَالْأَبْصِرِ﴾: بَصَرُهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
دِينِهِمْ... فبِكَمالِ الْعَقْلِ وَالصَّبْرِ تُدْفَعُ فِتْنَةُ الشَّهْوَةِ، وَبِكَمالِ الْبَصِيرَةِ
وَالْيَقِينِ تُدْفَعُ فِتْنَةُ الشُّبْهَةِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ».

ومن الآياتِ الجامعةِ بين الصَّبْرِ والْيَقِينِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم ٦٠).

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَجْهُ الْإِعْجَازِ فِي قِصَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب ٣٧).

هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ الصَّحَابِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهِ مَعَ أَنَّهُ فِي أَصْلِهِ عَبْدٌ مِنَ الْعَبِيدِ، وَقَدْ كَانَ اللَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْهُدَايَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِأَنْ اشْتَرَاهُ وَأَعْتَقَهُ، وَكَانَ النَّاسُ يَعْتَبِرُونَهُ مُتَّبِنِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَصَّته أَنَّهُ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ زَوْجِهِ زَيْنَب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَفَرَةٌ حَتَّى فَكَّرَا فِي الطَّلَاقِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفَكِّرُ فِي التَّزْوُجِ بِهَا إِنْ طَلَّقَهَا زَيْدٌ، مَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَرْضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُ بِمُفَارَقَتِهَا، وَقَالَ لَهُ كَمَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ نَبِيَّهَ ﷺ بِأَنَّ زَيْنَبَ سَتَكُونُ زَوْجَتَهُ، فَأَخْفَى هَذَا ﷺ فِي نَفْسِهِ؛ خَشْيَةً أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُرِيدُ التَّزْوُجَ بِامْرَأَةِ ابْنِهِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْمُتَّبِنِي كَالْأَبْنَاءِ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبْطِلَ هَذِهِ الْعَادَةَ، فَجَعَلَ لَهَا هَذَا السَّبَبَ الْعَمَلِيَّ زِيَادَةً عَلَى السَّبَبِ الْعِلْمِيِّ، الَّذِي هُوَ النَّهْيُ عَنِ التَّبْنِي كَمَا فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٥﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿٦﴾ (الأحزاب ٤-٥) وقيل: إنَّ اللهَ جَعَلَ لِتَحْرِيمِ التَّبْنِيِّ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ؛ لِأَنَّ لِلْعَادَاتِ سُلْطَانًا قَوِيًّا عَلَى النَّفُوسِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لِإِبْطَالِهَا سَبَبًا عِلْمِيًّا كَمَا مَرَّ، وَآخَرَ عَمَلِيًّا مِنْ أَقْوَى مَا يَكُونُ، أَلَا وَهُوَ هَذِهِ الْقِصَّةُ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ عِتَابٍ، فَإِذَا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ دَعِيَّةٍ أَيْقَنَ النَّاسُ بِيُطْلَانِ التَّبْنِيِّ، وَهُوَ التَّعْلِيلُ الَّذِي جَاءَ فِي الْآيَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ قَالَ اللَّهُ: ﴿لَيْكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَاءِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، وَهُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ الْبَغَوِيُّ فِي «مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ» (٣/ ٥٣٢)، فَقَدْ نَقَلَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ قَوْلَهُ: «كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ وَأَنَّ زَيْدًا سَيُطْلَقُهَا، فَلَمَّا جَاءَ زَيْدٌ وَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَطْلُقَهَا، قَالَ لَهُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ، وَقَالَ: لَمْ قُلْتُ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَقَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِكَ؟!»، ثُمَّ قَالَ: «وَهَذَا هُوَ الْأَوَّلِيُّ وَالْأَلْيَقُ بِحَالِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِلتَّلَاوَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُ يُبْدِي وَيُظْهِرُ مَا أَخْفَاهُ، وَلَمْ يُظْهِرْ غَيْرَ تَزْوِيجِهَا مِنْهُ».

يُرِيدُ بِمُطَابَقَةِ التَّلَاوَةِ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي اللَّهُ مُبْدِي زَوَاجِكَ بِزَيْنَبَ ؓ؛ لِأَنَّ خَبْرَهُ لَا يَتَخَلَفُ.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ قَوْلًا ثَانِيًا لِتَفْسِيرِ مَا أَخْفَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَفْسِهِ، فَقَالُوا: هُوَ مَوَدَّتُهُ لِزَيْنَبَ، قَالَ الْبَغَوِيُّ: «وَإِنْ كَانَ الْقَوْلُ الْآخَرُ

- وهو أَنَّهُ أَخْفَىٰ مُحَبَّتَهَا وَنِكَاحَهَا لَوْ طَلَّقَهَا - لَا يَقْدَحُ فِي حَالِ الْأَنْبِيَاءِ؛
لَأَنَّ الْعَبْدَ غَيْرُ مَلُومٍ عَلَىٰ مَا يَقَعُ فِي قَلْبِهِ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا لَمْ يَقْصِدْ
فِيهِ الْمَأْتَمَ؛ لِأَنَّ الْوُدَّ وَمِيلَ النَّفْسِ مِنْ طَبْعِ الْبَشَرِ «، وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي « تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ
الْمَنَانِ » (١٣٨٨/٣): « الْمَحَبَّةُ الَّتِي فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لَغَيْرِ زَوْجَتِهِ
وَمَمْلُوكَتِهِ وَمَحَارِمِهِ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا مَحْذُورٌ لَا يَأْتُمُّ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، وَلَوْ
اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أُمْنِيَّتُهُ أَنْ لَوْ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا لَتَزَوَّجَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْعَىٰ فِي
فُرْقَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ يَتَسَبَّبَ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ
أَخْفَىٰ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ».

بَعْدَ هَذِهِ التَّوْطِئَةِ التَّفْسِيرِيَّةِ لِلآيَةِ، فَلْيُعْلَمَ أَنَّ هَذَا الْعِتَابَ مِنْ اللَّهِ
لِنَبِيِّهِ ﷺ لَا يُعَدُّ مَنْقُصَةً فِي حَقِّهِ ﷺ، وَلَا دَاعِي لَضِيْقِ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ
بِهِ، وَلَا أَنْ يَوَدَّ الْمُؤْمِنُ أَنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ؛ لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ حِفْظِ
اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ، فَلَا يُقَرُّهُ عَلَىٰ شَيْءٍ لَا يَرْضَاهُ، بَلْ يَرَعَاهُ حَتَّىٰ لَا يُبْلَغَ
النَّاسَ إِلَّا الْحَقُّ، وَفِي كَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ يَقَعُ تَحْتَ عِتَابِ رَبِّهِ لَهُ وَيَأْتِيهِ
الْوَحْيُ بِهَذَا الْعِتَابِ، فَيَتْلُوهُ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا كَمَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ، لَدَلِيلٍ عَظِيمٍ عَلَىٰ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ حَقًّا؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ
يَكُنْ كَذَلِكَ لَأَخْفَىٰ هَذَا الْعِتَابَ؛ إِذِ الْكَذَابُ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ يَتَحَاشَىٰ
جَهْدَهُ أَنْ يَطَّلَعَ النَّاسُ لَهُ عَلَىٰ عَوْرَةٍ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، أَمَّا الصَّادِقُ الْأَمِينُ
فَإِنَّهُ يُبْلَغُ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِّيَ
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَسِرُ الْقَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّايَ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا
 مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ (يونس
 ١٥)، فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ مِنْ مِثْلِ هَذَا دَلِيلًا عَلَىٰ صِدْقِ نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ!
 وَقَدْ اسْتَنْبَطَتْ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ فِي الْعَهْدِ الْأَوَّلِ، وَمَعْنَى بَلَّغْنَا مِنْهُ هَذَا الْفَقْهُ
 فِي كِتَابِ اللَّهِ خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه وَأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ
 عَائِشَةُ رضي الله عنها، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ
 يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ! وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ، قَالَ
 أَنَسُ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ
 تَفْخَرُ عَلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللَّهُ
 تَعَالَىٰ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَعَنْ ثَابِتٍ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ
 مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ.»

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: «كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ:
 يَا أَبَا عَائِشَةَ! ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ،
 قُلْتُ: مَا هُنَّ؟»، فَذَكَرَتْهَا، وَمِنْهَا قَوْلُهَا: «وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ؛ وَاللَّهُ يَقُولُ:
 ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِبَلَاغٍ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ
 رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة ٦٧)، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَتْ: «وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا
 شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ
 مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.»

فَكَانَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ مَفْخَرَةً مِنْ مَفَاخِرِ هَذَا الدِّينِ، وَدَلِيلًا مِنْ أَدَلَّتِهِ
الْكَثِيرَةِ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَعَلَى حِفْظِ هَذَا الْكِتَابِ
الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حُفِظَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى عِتَابُ اللَّهِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

سُورَةُ سَبَا

سَدُّ طُرُقِ الشُّرْكِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّنَزُّلِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبا ٢٢-٢٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ » (٢ / ٤٦١): « فَنَأْمُلُ كَيْفَ أَخَذَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِمَجَامِعِ الطُّرُقِ الَّتِي دَخَلُوا مِنْهَا إِلَى الشُّرْكِ، وَسَدَّتْهَا عَلَيْهِمْ أَحْكَمَ سَدٍّ وَأَبْلَغَهُ؛ فَإِنَّ الْعَابِدَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْبُودِ لِمَا يَرْجُو مِنْ نَفْعِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ لَمْ يَرْجُ مِنْهُ مَنَفْعَةٌ لَمْ يَتَعَلَّقْ قَلْبُهُ بِهِ، وَحِينَئِذٍ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْبُودُ مَالِكًا لِلْأَسْبَابِ الَّتِي يَنْفَعُ بِهَا عَابِدَهُ، أَوْ شَرِيكًا لِلْمَالِكِهَا، أَوْ ظَهِيرًا أَوْ وَزِيرًا وَمُعَاوِنًا لَهُ، أَوْ وَجِيهًا ذَا حُرْمَةٍ وَقَدَرٍ يَشْفَعُ عِنْدَهُ، فَإِذَا انْتَفَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ وَبَطَلَتْ انْتَفَتْ أَسْبَابُ الشُّرْكِ وَانْقَطَعَتْ مَوَادُّهُ، فَنَفَى سُبْحَانَهُ عَنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ تَمْلِكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَدْ يَقُولُ الْمُشْرِكُ: هِيَ شَرِيكَةٌ لِلْمَالِكِ الْحَقِّ، فَنَفَى شَرِكَتَهَا لَهُ، فَيَقُولُ الْمُشْرِكُ: قَدْ تَكُونُ ظَهِيرًا وَوَزِيرًا وَمُعَاوِنًا، فَقَالَ: ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَنَفَاها عَنْ آلِهَتِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَأْذِنُ لِلشَّافِعِ، فَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِالشَّفَاعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، كَمَا يَكُونُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَإِنَّ الْمَشْفُوعَ عِنْدَهُ يَحْتَاجُ إِلَى الشَّافِعِ

وَمُعَاوَنَتِهِ لَهُ، فَيَقْبَلُ شَفَاعَتَهُ وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ فِيهَا، وَأَمَّا مَنْ كُلُّ مَا سِوَاهُ
فَقَرِيرٌ إِلَيْهِ بِذَاتِهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَكَيْفَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ
أَحَدٌ بَدُونِ إِذْنِ؟! ».

وَقَالَ فِي « مَدَارِجِ السَّالِكِينَ » (١/٣٤٣) : « فَاَلْمُشْرِكُ إِنَّمَا يَتَّخِذُ
مَعْبُودَهُ لِمَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ، وَالنَّفْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَنْ فِيهِ
خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ :

- إِمَّا مَالِكٌ لِمَا يُرِيدُ عَابِدُهُ مِنْهُ.

- فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ.

- فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرِيكًا لَهُ كَانَ لَهُ مُعِينًا وَظَهِيرًا.

- فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِنْدَهُ.

فَنَفَى سُبْحَانَهُ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ نَفْيًا مَرْتَبًا، مُتَّعِلًا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى مَا
دُونَهُ؛ فَنَفَى الْمَلِكَ، وَالشَّرَكَةَ، وَالْمُظَاهَرَةَ، وَالشَّفَاعَةَ الَّتِي يَظُنُّهَا
الْمُشْرِكُ، وَأَثْبَتَ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُشْرِكٍ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ.

فَكَفَى بِهِذِهِ الْآيَةُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْحِيدِ، وَقَطْعًا
لَأُصُولِ الشَّرِكِ وَمَوَادِّهِ لِمَنْ عَقَلَهَا ».

وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ
لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ
مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء ١١١)، نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي
« مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى » (٨/٥١٩ - ٥٢٠)، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ

بِحَمْدِهِ كَمَا أَمَرَ فِي آخِرِهَا بِتَكْبِيرِهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ بِالْكَمَالِ، وَمِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا يَمْلِكُ كَمَا يَمْلِكُ سُبْحَانَهُ أَوْ يَشْفَعُ مِنْ دُونِهِ كَمَا يَشْفَعُ الْأَبْنَاءُ فِي سُلْطَانِ آبَائِهِمْ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ غَيْرِهِمْ وَلَوْ مِنْ غَيْرِ عِلْمِ آبَائِهِمْ بِذَلِكَ، كَمَا أَمَرَ بِحَمْدِهِ وَتَكْبِيرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ، كَمَا أَمَرَ بِحَمْدِهِ وَتَكْبِيرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ يُعِينُهُ، وَكُلُّ مَنْ اتَّخَذَتْهُ وَلِيًّا لَكَ يُعِينُكَ ذَلَّتْ لَهُ نَفْسُكَ لِحَاجَتِكَ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمَصْدَرِ الْمَذْكُورِ آتِفًا: « فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ يُوَالِي الْمَخْلُوقَ لِذَلِكَ؛ فَإِذَا كَانَ لَهُ مَنْ يُوَالِيهِ عَزَّ بَوْلِيَّهِ، وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يُوَالِي أَحَدًا لِذِلَّتِهِ تَعَالَى، بَلْ هُوَ الْعَزِيزُ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » (فاطر ١٠)، وَإِنَّمَا يُوَالِي عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لِرَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَجُودِهِ وَفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ ».

وَنَقُولُ نَحْنُ الْبَشَرُ وَقَدْ أَيقَنَّا أَنَّ قَاصِرُونَ مُقْصِرُونَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذِنَ لَنَا فِي وَلَايَتِهِ مَعَ عَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَيْنَا، وَلَكِنْ حَاجَتُنَا إِلَيْهِ فَوْقَ كُلِّ حَاجَةٍ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْ أَهْلِ وَلَايَتِهِ حَقِيقَةً، وَنَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.

سُورَةُ فَاطِرِ (الملائكة)

حِكْمَةُ تَقْدِيمِ السَّمَوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْعَكْسِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (فاطر ٣٨).

قَدَّمَ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ السَّمَوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدَّمَ فِي آيَةٍ تَلِيهَا بَعْدَ آيَةِ الْأَرْضِ عَلَى السَّمَوَاتِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (فاطر ٤٠)، ثُمَّ عَادَ بَعْدَهَا فَقَدَّمَ السَّمَوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر ٤١).

قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رحمته الله فِي «الْبَرْهَانِ» (٣/ ٢٨٥-٢٨٦): «وَمِنْهَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فَقَدَّمَ ذِكْرَ السَّمَوَاتِ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَاتِهَا أَكْثَرُ، فَكَانَ تَقْدِيمُهَا أَدَلَّ عَلَى صِفَةِ الْعَالَمِيَّةِ^(١)، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، فَبَدَأَ بِذِكْرِ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ فِي سِيَاقِ تَعْجِيزِ الشُّرَكَاءِ عَنِ الْخَلْقِ

(١) ذِكْرُ (المَعْلُومَاتِ) وَ(العَالَمِيَّةِ) هُنَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ بَيَانُ عِلَاقَةِ الْعِلْمِ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

والمشاركة، وأمر الأرض في ذلك أيسر من السماء بكثير، فبدأ بالأرض مُبالغةً في بيان عجزهم؛ لأنَّ مَنْ عَجَزَ عن أيسر الأمرين كان عن أعظمهما أعجز، ثمَّ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، فقدَّم السَّمَوَاتِ تنبيهاً على عِظَمِ قُدْرَتِهِ سبحانه؛ لأنَّه خلقها أكبرَ من خلق الأرض كما صرَّح به في سُورَةِ الْمُؤْمِنِ^(١)، وَمَنْ قَدَرَ على إمساكِ الأعظم كان على إمساكِ الأصغر أقدر؛ فإن قلت: فهلاً اكتفى من ذكر الأرض بهذا التنبية البيِّن الذي لا يشكُّ فيه أحدٌ؟ قلتُ: أرادَ ذِكْرَها مُطابَقَةً؛ لأنَّه على كُلِّ حالٍ أَظْهَرُ وَأَبْيَنُ، فانظُرْ - أيها العاقلُ! - حِكْمَةَ الْقُرْآنِ وما أودعه من البَيانِ والتَّبيانِ تَحْمِداً عَاقِبَةَ النَّظَرِ، وَتَنْتَظِرَ خَيْرَ مُنْتَظَرٍ.

(١) يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر ٥٧).

سُورَةُ يَسْ حِكْمَةُ تَقْدِيمِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَكَلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾

(يس ٣٧).

فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ سَاقَهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ، كَمَا هُوَ مَنْطُوقُهَا.

الثَّانِيَّةُ: أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ نِعْمَتَانِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْعَذْبِ النَّمِيرِ» (٣/١٢٥٠):
«فَالْإِثْنَانُ بِاللَّيْلِ بَدَلُ النَّهَارِ، وَالْإِثْنَانُ بِالنَّهَارِ بَدَلُ اللَّيْلِ مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ الرَّبُّ وَحْدَهُ، وَمَعَ كَوْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَتَيْنِ فَهُمَا أَيْضاً نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، فَهُمَا جَامِعَانِ بَيْنَ كَوْنِهِمَا آيَتَيْنِ وَكَوْنِهِمَا نِعْمَتَيْنِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمَا آيَتَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ (فُصِّلَتْ ٣٧)، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمَا نِعْمَتَانِ وَآيَتَانِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، مِنْ أَصَرَحِهَا سُورَةُ الْقَصَصِ؛ حَيْثُ قَالَ فِيهَا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (الْقَصَصُ ٧١-٧٢)، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمَا نِعْمَتَانِ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُمَا آيَتَانِ، قَالَ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿٧٣﴾، يَعْنِي اللَّيْلَ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (الْقَصَص ٧٣)، يَعْنِي النَّهَارَ، فَجَعَلَ اللَّيْلَ مُظْلِمًا مُنَاسِبًا لِلشُّكُونِ وَالْهُدُوءِ وَعَدَمَ الْحَرَكَةَ لِیَسْتَرِیحَ النَّاسُ مِنْ كَدِّ الْأَعْمَالِ وَالتَّعَبِ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ یَجْعَلُ النَّهَارَ مُضِیًّا مُنِیرًا مُنَاسِبًا لِبَثِّ النَّاسِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَاکْتِسَابِ مَعَايِشِهِمْ فِي نُورٍ سَاطِعٍ مِنْ غَیْرِ قَتِيلَةٍ وَلَا زَیْتٍ وَلَا حَاجَةٍ إِلَى مُؤْنَةٍ، بَلْ هُوَ ضَوْءُ السَّرَاجِ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ، وَجَعَلَ نُورَهُ سَبِيلًا لِلْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ بِلَا ثَمَنِ، یَسْعَوْنَ فِيهِ إِلَى مَعَايِشِهِمْ، وَهَذَا مِنْ عَظَائِمِ قُدْرَتِهِ، وَمِنْ عَجَائِبِ مَنَنِهِ وَإِنْعَامِهِ جَلَّ وَعَلََا عَلَى خَلْقِهِ «.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّهَ بَدَأَ فِي آيَةِ الْبَابِ بِاللَّيْلِ وَذَكَرَ أَنَّهُ یَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ یَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ یَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ یَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٦/٢) وَالْحَاكِمُ (٣٠/١)، وَصَحَّحَهُ هُوَ وَالذَّهَبِيُّ، وَانْظُرْ «السَّلْسَلَةَ الصَّحِيحَةَ» لِلْأَلْبَانِيِّ (١٠٧٦)، وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٣/٢) وَمِنْ طَرِيقِهِ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٥٨/١٦) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ؛ ثُمَّ قرَأَ: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الْأَنْبِيَاء ٣٠)».

فَائِدَةُ هَذَا الْمَبْحَثِ تَظْهَرُ فِي تَحْقِيقِ وَقْتِ أَدَاءِ بَعْضِ الْعِبَادَاتِ، كِمِثْلِ قِيَامِ رَمَضَانَ، فَإِنَّ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ لِنَهَارِهِ هِيَ مُحَلُّ أَدَاءِ الصَّلَاةِ،

لكن استثنى بعض العلماء الوقوف بعرفة، فإنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَتَّبِعُ يَوْمَ عَرَفَةَ تَابِعَةٌ لِنَهَارٍ عَرَفَةَ، وذكر ابن القيم في « بدائع الفوائد » (٣/ ١١٥٠) هُنا أثرٌ عن ابن عباس أَنَّهُ قَالَ: « مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَلَيْلَتُهُ قَبْلَهُ إِلَّا يَوْمَ عَرَفَةَ، فَإِنَّ لَيْلَتَهُ بَعْدَهُ »؛ لِأَنَّ مَنْ وَقَفَ بِهَا كَانَ فِي الْإِجْزَاءِ كَمَنْ وَقَفَ بِنَهَارِهَا؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الْفَجْرَ بِالْمُزْدَلِفَةِ: « مَنْ أَدْرَكَ مَعَنَا هَذِهِ الصَّلَاةَ وَأَتَى عَرَفَاتٍ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ وَقَضَى تَفَثَهُ » أخرجه أبو داود (١٩٥٠) والترمذي (٨٩١) والنسائي (٣٠٣٩) وابن ماجه (٣٠١٦)، وصحَّحه الألباني فيها، قَالَ ابن القيم في الْمَصْدَرِ السَّابِقِ: « هَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ، فَحُكِيَ عَنْ طَائِفَةٍ أَنَّ لَيْلَةَ الْيَوْمِ بَعْدَهُ، وَالْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ أَنَّ لَيْلَةَ الْيَوْمِ قَبْلَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَّلَ بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى الْيَوْمِ كَلِيلَةِ الْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ وَالْأَحَدِ وَسَائِرِ الْأَيَّامِ، وَاللَّيْلَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى مَكَانٍ أَوْ حَالٍ أَوْ فِعْلٍ كَلِيلَةَ عَرَفَةَ وَلَيْلَةَ النَّفَرِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالْمُضَافَةُ إِلَى الْيَوْمِ قَبْلَهُ، وَالْمُضَافَةُ إِلَى غَيْرِهِ بَعْدَهُ، وَاحْتَجُّوا بِهَذَا الْأَثَرِ الْمَرْوِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَنُقِضَ عَلَيْهِمْ بِلِيلَةِ الْعِيدِ، وَالَّذِي فَهِمَهُ النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: (لَا تَخْضُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، وَلَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي) ^(١) إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي تُسَفِّرُ صَبِيحَتُهَا عَنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُسَارِعُونَ إِلَى تَعْظِيمِهَا وَكَثْرَةِ التَّعَبُّدِ فِيهَا عَنْ سَائِرِ اللَّيَالِي، فَنَهَاهُمْ ﷺ عَنْ تَخْصِيصِهَا بِالْقِيَامِ، كَمَا نَهَاهُمْ عَنْ تَخْصِيصِ يَوْمِهَا بِالصَّيَامِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ».

(١) أخرجه مسلم (١١٤٤).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ إِذْعَانُ الْآبِ وَالابْنِ لِأَمْرِ اللَّهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا
وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٣﴾ وَنَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْهُمَا ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنُ ﴿١٦﴾ وَفَدَيْتُهُ
بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ (الصَّافَّاتِ ١٠٣-١٠٧).

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانُ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى خَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ الْكَبْشَ فِدَاءً لِابْنِهِ
إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ صَدَّقَ الرُّيَا بِالْعَزْمِ الصَّادِقِ وَالْعَمَلِ الَّذِي لَا
تَرَدَّدَ فِيهِ عَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، فَقَدْ اسْتَسْلَمَ لِأَمْرِ اللَّهِ الْوَالِدُ
وَالْوَلَدُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مَعْنَى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: «أَكْبَهُ عَلَى
وَجْهِهِ» كَمَا فِي «تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ»، قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ
فِي «الْمَوَاهِبِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ» (ص ٩٦): «لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ:
﴿أَسْلَمَا﴾ تَوَطُّبًا لِنَفْسِهِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، وَعَزْمًا مَقْرُونًا بِالْإِخْلَاصِ
وَالْإِمْتِثَالِ، وَالْعَزْمُ رُبَّمَا تَخَلَّفَ عَنْهُ الْفِعْلُ، ذَكَرَ الْفِعْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَلَّهُ
لِلْجَبِينِ﴾»، فَاجْتَمَعَ الْعَزْمُ وَالْفِعْلُ، وَلَكِنْ تَخَلَّفَ أَثَرُ الْفِعْلِ وَهُوَ
وُقُوعُ الذَّبْحِ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَبَدَلَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ فِدَاءً لَهُ «.

سُورَةُ ص مَعْنَى يَدَيِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدَیْ
اَسْتَکْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ اِلٰهَیْنَ ۝۷۵﴾ (ص ۷۵).

مَعْلُومٌ اَنَّ اَهْلَ الْکَلَامِ یَتَأَوَّلُوْنَ الْیَدَیْنِ هُنَا بِالْقُدْرَةِ اَوْ النِّعْمَةِ؛
فِرَارًا مِنْ شُبْهَةِ التَّشْبِیْهِ زَعَمُوا، وَهُوَ تَفْسِیْرٌ مُّخَالَفٌ لِمَا عَلَیْهِ سَلَفُ هَذِهِ
الْاُمَّةِ، وَقَدْ اُتُوا فِي هَذَا التَّأْوِيلِ مِنْ جِهَتَیْنِ:

الْأُولَى: قُصُورٌ لُّغَوِیٌّ، وَهُوَ اَنَّهُمْ حَصَرُوا مَعْنَى الْیَدِ فِي صُورَةِ
جَارِحَةِ الْمَخْلُوقِ، مَعَ اَنَّهُ لَا یَزَالُ النَّاسُ یَعْرِفُونَ لکَثِیْرٍ مِنَ الْاَشْیَاءِ
اَیْدِیَهَا الْخَاصَّةَ بِهَا، وَکُلُّ یَدٍ قَدْ لَا تُشَابِهُ الْاُخْرٰی، حَتٰی اِنَّهُمْ یَنْسُبُوْنَ
لِلْجَمَادِ یَدًا، فِیَقُولُوْنَ: یَدُ الْبَابِ، وَیَدُ الزَّبِیْلِ الْخ، هَذَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ،
فَکَیْفَ بِاللَّهِ ۚ الَّذِیْ قَالَ: ﴿وَلَا تُحِیْطُوْنَ بِهٖ عِلْمًا ۝۱۱۰﴾ (طه ۱۱۰).

الثَّانِیَةُ: جُرَاةٌ فِي التَّخِیْلِ؛ لِاَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا هَذَا التَّأْوِیْلَ الْمُخَالَفَ فِرَارًا
مِنَ التَّشْبِیْهِ، اِذَا فَهْمُ تَخِیْلُوا اَوَّلًا فِي رَبِّهِمْ ذَلِکَ الْمَعْنٰی الْمَمْنُوعَ، ثُمَّ
تَأَوَّلُوا ذَاکَ التَّأْوِیْلَ الْمَدْفُوعَ، وَلَوْ خَلَّتْ اَذْهَانُهُمْ مِنَ التَّشْبِیْهِ لَسَلِمَتْ
عُلُومُهُمْ مِنَ التَّفْسِیْرِ الْفَاسِدِ، فَهْمٌ وَقَعُوا فِي مُصِیْبَتَیْنِ: الْأُولٰی التَّشْبِیْهِ
مَعَ اَنَّهُ غَیْرُ وَارِدٍ فِي الْاٰیَةِ، وَالثَّانِیَةُ: التَّفْسِیْرُ الْفَاسِدُ الَّذِیْ اَدَّاهُمْ اِلٰی
تَعْطِیْلِ اللَّهِ عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ غَیْرِ اَنْ یَاذَنَ اللَّهُ لَهُمْ فِیْهِ، فَعَالَجُوا
بَاطِلَ التَّخِیْلِ بِفَاسِدِ التَّأْوِیْلِ، فَکَمَا اَنَّ اللَّهَ لَا یَتَخِیَّلُهُ اَحَدٌ اِلَّا کَانَ الْحَقُّ

خِلَافَ مَا تَخَيَّلَهُ الْمُتَخَيِّلُ، فَكَذَلِكَ يَدُهُ سُبْحَانَهُ، لَا يَتَخَيَّلُهَا مُتَخَيِّلٌ إِلَّا كَانَتْ خِلَافَ مَا تَخَيَّلَهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشُّورَى ١١).

وعلى كُلِّ، ففي الآية نَفْسَهَا رَدُّ صَرِيحٌ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ، ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ أَنَّ فِي تَفْسِيرِ الْيَدِ بِالْقُدْرَةِ أَوْ النِّعْمَةِ إِبْطَالاً لِحَاجَتِ اللَّهِ عَلَى إِبْلِيسَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ هَكَذَا: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِقُدْرَتِي أَوْ بِنِعْمَتِي؟) لَسَارَعَ إِبْلِيسُ إِلَى الْقَوْلِ: وَأَنَا كَذَلِكَ خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ وَبِنِعْمَتِكَ!! قَالَ ابْنُ فُورَكٍ فِي «مُشْكِلِ الْحَدِيثِ وَبَيَانِهِ» (ص ١٠٦): «وَلَا يَجِبُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ عَلَى مِثْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ لِوُجُوهٍ تَأَكَّدُ بِهَا ذَلِكَ وَفَارَقَ بِهَا الْمَذْكُورَ مِنَ الْيَدِ هَهُنَا، وَأَحَدُهَا أَنَّهُ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى الْقُدْرَةِ كَانَ فِيهِ إِبْطَالُ تَفْضِيلِ آدَمَ عَلَى إِبْلِيسَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَلَامٌ جَرَى عَلَى طَرِيقِ الْإِحْتِجَاجِ عَلَى إِبْلِيسَ فِي امْتِنَاعِهِ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَفِي حَمْلِهِ عَلَى الْمَقْدَرَةِ مَا يُوجِبُ الْمُسَاوَاةَ وَإِسْقَاطَ مَوَاضِعِ الْإِحْتِجَاجِ بِهِ عَلَى إِبْلِيسَ فِي تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ»، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْ مُتَكَلِّمٍ!

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ آخَرٌ يُرَدُّ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ ذِكْرُ الْيَدِ بِالتَّشْيِيعِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ أَصْرَحُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَدَيْنِ، وَفِيهِ إِبْطَالُ لَتَأْوِيلِ الْيَدِ بِالنِّعْمَةِ أَوْ الْقُدْرَةِ؛ إِذْ لَوْ كَانَتْ الْيَدُ عَلَى مَعْنَى النِّعْمَةِ أَوْ الْقُدْرَةِ لَمَا كَانَ لِلتَّشْيِيعِ وَجْهٌ؛ لِأَنَّ نِعَمَ اللَّهِ لَا تُعَدُّ، وَقُدْرَتُهُ لَا تُحَدُّ، قَالَ اللَّهُ فِي الْأُولَى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

(إبراهيم ٣٤)، وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك ١).

وقد جاء لفظُ اليَدِ في كِتَابِ اللَّهِ على ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

النَّوعُ الْأَوَّلُ: جَاءَ بِالْإِفْرَادِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ
الْمُلْكُ﴾ (الملك ١).

النَّوعُ الثَّانِي: جَاءَ بِالتَّشْيِيعِ، كَمَا فِي آيَةِ الْبَابِ، وَمِنْهُ أَيْضاً قَوْلُهُ: ﴿بَلْ
يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة ٦٤).

النَّوعُ الثَّلَاثُ: جَاءَ بِالْجَمْعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا
لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس ٧١).

وقد ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ» (١/٢٦٨) أَنَّ آيَةَ
الْبَابِ هِيَ أَصْرَحُ آيَةٍ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ تَأَوَّلَ هَذِهِ الصِّفَةَ عَلَى غَيْرِ
ظَاهِرِهَا الْمُتَبَادِرِ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى ثَلَاثِ
خُصُوصِيَّاتٍ لَا تُوجَدُ مَجْمُوعَةً فِي غَيْرِهَا، أَلَا وَهِيَ: إِضَافَةُ الْفِعْلِ إِلَيْهِ
سُبْحَانَهُ، وَتَعْدِيَةُ الْفِعْلِ بِالْبَاءِ، وَذِكْرُ الصِّفَةِ بِالتَّشْيِيعِ، وَهِيَ مِنْ أَقْوَى
الْأَدِلَّةِ عَلَى مَنْعِ ادِّعَاءِ الْمَجَازِ فِيهَا، بَلْ هِيَ دَلِيلٌ عَلَى مُبَاشَرَةِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ لَخَلْقِ آدَمَ بِيَدِهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الْمُوَحِّدُونَ يَوْمَ الْمَوْقِفِ إِذْ
جَاؤُوا يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَ
عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ: خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ
فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا
تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟»، فَذَكَرُوا أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ كُلُّهَا خَصَائِصُ، وَالْقُدْرَةُ
وَالنِّعْمَةُ لَيْسَتْ مِمَّا خُصَّتْ بِهِ خَلْقَةُ آدَمَ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَلَوْ كَانَ عَلَى

معنى القدرة والنعمة فأبي اختصاصي لأدم في ذلك؟!
وعلى كل حال فإن الجري على سنن السلف هو الهدى المستقيم
والدين القويم، ومن تبع غيرهم لم يسلم من الفهم العقيم، والله
وَحْدَهُ الموفق للصواب.

سُورَةُ الزُّمَرِ الْخُشُوعُ الْمَشْرُوعُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزمر ٣١).

فِي هَذَا السِّيَاقِ الْكَرِيمِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ، هِيَ:

الفائدة الأولى: الحديث المذكور في الآية هو القرآن؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء ٨٧)، والقرآن هو سَمَاعُ أَهْلِ التَّقَى وَالْإِيمَانِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: «سَمَاعٌ هُوَ لَا هُوَ تِلَاوَةُ الْآيَاتِ، وَسَمَاعٌ أُولَٰئِكَ نَغَمَاتُ الْآيَاتِ مِنْ أَصْوَاتِ الْقَيْنَاتِ».

فَالْقُرْآنُ هُوَ حَدِيثُ أَلْسِنَتِهِمْ وَغِذَاءُ قُلُوبِهِمْ وَحَيَاةُ أَرْوَاحِهِمْ وَسَكِينَةُ أَجْسَامِهِمْ، فَمَنْ وَجَدَ فِيهِ لَذَّةً وَرَاحَةً نَفْسِهِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ عَلَى خُطَى الْقَوْمِ دَارِجٌ، وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ نَفْرَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَبَهْجَةً عِنْدَ سَمَاعِ الْآيَاتِ فَلْيُداوِمْ عَلَى الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مُحَلِّصَهُ مِنَ التَّعَلُّقِ بغيرِهِ وَمُعْطِيهِ بِهِ لَذَّةً فَوْقَ كُلِّ لَذَّةٍ، وَلَا يَسْتَسْلِمُ لِمَا تَمِيلُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ، وَإِذَا مَالَتْ إِلَى غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَلَيْسَ الْعَيْبُ فِي الدَّوَاءِ الْقُرْآنِيِّ؛ لِأَنَّ الدَّوَاءَ هُوَ الدَّوَاءُ، وَإِنَّمَا الْمَرَضُ فِي الْمَحَلِّ، أَيْ نَفْسُهُ هِيَ الَّتِي تَحَرَّفَتْ فِطْرَتُهَا، فَأَصْبَحَتْ تَطْمَنُّ لِلْبَاطِلِ وَلَا تَتَحَمَّلُ الْحَقَّ، فَلَا يُنَجِّينَ الدَّوَاءَ، وَلَكِنْ لِيَتَنَحَّ عَنْ مَحَلِّ الْفِتْنَةِ وَأَسْبَابِ

الشُّرُور، وَلِيُبَشِّرَ بِالْمُعَافَاةِ وَالسُّرُور، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء ٨٢).

الفائدة الثانية: أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي آيَةِ الْبَابِ لِيَنَ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وَذَكَرُ الْجُلُودِ وَعَطَفُ الْقُلُوبِ عَلَيْهَا خَرَجَ مَخْرَجَ ذِكْرِ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ، وَهُوَ هُنَا دَلِيلٌ عَلَى اسْتِوَاءِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي الْخُشُوعِ، وَهَذَا هُوَ الْخُشُوعُ الصَّادِقُ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يُجَاوِزِ السُّنَّةَ فِيهِ كَانَ هُوَ الْخُشُوعُ الصَّادِقُ الْكَامِلُ، ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ: «هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، نَعْتَهُمُ اللَّهُ ﷻ أَنْ تَقْشَعِرَّ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَتَبْكِيَ أَعْيُنُهُمْ وَتَطْمِئُنَّ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يَنْعَتَهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالْغَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ».

الفائدة الثالثة: اقْشَعِرَّاءُ الْجُلُودِ وَلِينُهَا وَكَذَا لِيَنَ الْقُلُوبِ هِيَ ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ وَصَفَ اللَّهُ ﷻ بِهَا الْخَاشِعِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ جَاءَ وَصَفُهُمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَوْصَافٍ أُخْرَى، مِنْهَا:

- الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: دَمَعَةُ الْعَيْنِ الَّتِي تَفِيضُ بِدُونِ تَكْلُفٍ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة ٨٣)، وَأَمَّا حَدِيثُ «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا» فَلَا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ

لتكَلِّفُ البُكَاءِ؛ لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ، أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (١٣٣٧)، وَضَعَفَهُ الشَّيْخُ الأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

- الوَصْفُ الثَّانِي: خَنِينُ الأنْفِ: وَهُوَ كَمَا قَالَ النَّوَوِي فِي « شَرْح مُسْلِم » (١١٣/١٥): « نَوْعٌ مِنَ البُكَاءِ دُونَ الإِنْتِحَابِ، قَالُوا: وَأَصْلُ الحَنِينِ خُرُوجُ الصَّوْتِ مِنَ الأنْفِ... », وَالدَّلِيلُ مَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٤٦٢١) وَمُسْلِمٌ (٢٣٥٩) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: « بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ، فَخَطَبَ فَقَالَ: عُرِضْتُ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَ: غَطُّوا رُؤُوسَهُمْ وَهُمْ خَنِينٌ، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا ».

فَانْظُرْ إِلَى خُشُوعِ هَؤُلَاءِ وَقَدْ غَلَبَهُمُ البُكَاءُ، فَغَطُّوا رُؤُوسَهُمْ رَجَاءَ خَفْضِ الصَّوْتِ صَوْنًا لِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْمُرَاءَاةِ وَالتَّصَنُّعِ، وَالْغَالِبُ عَلَى أَحْوَالِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ صَرْخٌ أَوْ صَعَقٌ أَوْ زُعَقَاتٌ كَزُعَقَاتِ بَعْضِ الوُعَاظِ الْيَوْمَ، إِنَّمَا كَانَ خُشُوعُهُمْ رَحْمَةً وَوَقَارًا وَفِيضَانِ دِمَعَاتٍ خَفِيَّاتٍ.

- الوَصْفُ الثَّلَاثُ: السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، فَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ (٢٨٧/٤) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٧٥٣) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: « خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ

كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا « الْحَدِيثُ.

فَلْتَعْلَمَ صِفَةُ خُشُوعٍ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَتَّى يَكُونَ طَالِبُ الْخُشُوعِ تَابِعًا لِأَسْوَةِ صَادِقَةٍ وَصَحِيحَةٍ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْغُلُوِّ أَوْ التَّقْصِيرِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١١/ ٨ - ٩): «الْأَحْوَالُ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ وَجَلُّ الْقُلُوبِ وَدُمُوعُ الْعَيْنِ وَاقْشِعْرَارُ الْجُلُودِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال ٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الزمر ٢٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم ٥٨)، وَقَالَ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ (المائدة ٨٣)، وَقَالَ: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء ١٠٩)».

قُلْتُ: قَالَ اللَّهُ فِي آيَةِ الْأَنْفَالِ السَّابِقَةِ: ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: تَمَائِلَتْ أَجْسَامُهُمْ أَوْ أَرَعَدَتْ أَعْضَاؤُهُمْ.

وَإِذَا قِيلَ: قَدْ كَانَ الصَّعَقُ فِي بَعْضِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ عليهم السلام، قِيلَ: هَدَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْمَلُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (التوبة ١٠٠)، وَمَا كَانَ

مِنْهُ فَيَمَنُ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ فَإِنَّهُ مِمَّا لَمْ تَطْلُبْهُ نُفُوسُهُمْ، لَكِنَّهُ
 وَقَعَ لَهُمْ فَوْقَ إِرَادَتِهِمْ؛ لَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ تَحْمُلِ الْكَلَامِ الْوَارِدِ
 عَلَيْهَا، هَذَا الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: قُوَّةُ الْوَارِدِ وَضَعْفُ الْمَحَلِّ، فَالْوَارِدُ هُوَ
 الْقُرْآنُ مَثَلًا الَّذِي يُتْلَى عَلَيْهِمْ أَوْ يَتْلُونَهُ، وَالْمَحَلُّ هُوَ قُلُوبُهُمْ، وَأَحْيَانًا
 قَدْ يُصَادَفُ الْقَلْبَ الْعَاصِيَّ آيَةٌ تُؤَبِّخُ صَاحِبَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، فَيَبْكِي
 صَاحِبُهُ بُكَاءً تَقِيًّا، وَرَبِّمَا لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا
 بِالْمَعَاصِي وَالْقَسْوَةِ، وَإِنَّمَا الَّذِي أَبْكَاهُ هُوَ قُرْبُ عَهْدِهِ بِالْمَعْصِيَةِ الَّتِي
 جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْآيَةِ، فَيَخْشَعُ وَيَنْكَسِرُ قَلْبُهُ وَيَلِينُ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ
 قَرِيبَ عَهْدٍ بِظُلْمِ ظُلْمِهِ، فَيَخْشَعُ لِسَمَاعِ آيَاتِ تَعَالَجُ مِحْنَتِهِ يَجِدُ فِيهَا
 سَلَوَاهُ، فَهُوَ يَخْشَعُ لَتَقْصِيرِ النَّاسِ فِي حَقِّهِ، وَغَيْرِهِ مِنْ ذَوِي الْهِمَمِ
 الْعَالِيَةِ يَخْشَعُ لَتَقْصِيرِهِ فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَقَدْ يَخْشَعُ الْمَرْءُ تَقْلِيدًا لِمَنْ حَوْلَهُ،
 فَيَبْكِي كَمَا يَبْكُونَ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنْ عَادَتِهِ لَوْ كَانَ خَالِيًا، فَهَذَا
 سَارِقٌ، وَمَنْ قَبْلَهُ ضَعِيفٌ صَادِقٌ، وَآخِرُ مُتَكَلِّفٍ لِيُقَالَ (!!) فَذَاكَ
 رِيَاءٌ مُنَافِقٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْحَالَاتِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ،
 وَانْظُرْ « الْفَوَائِد » لِابْنِ الْقَيِّمِ (ص ١٩٨)، وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
 وَجْهَ مَا كَانَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ جَاءَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ فِي « مَجْمُوعِ
 الْفَتَاوَى » (١١/ ٧-٨): « غَالِبُ مَا يُحْكَى مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي هَذَا الْبَابِ
 إِنَّمَا هُوَ عَنْ عُبَادِ أَهْلِ الْبَصَرَةِ، مِثْلَ حِكَايَةِ مَنْ مَاتَ أَوْ غُشِيَ عَلَيْهِ فِي
 سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَنَحْوِهِ، كَقِصَّةِ زُرَّارَةَ بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصَرَةِ؛ فَإِنَّهُ قَرَأَ فِي

صلاة الفجر: ﴿ فَإِذَا تُلِيتِ فِي النَّاقُورِ ﴾ (المدثر ٨)، فخرٌ مَيِّتاً^(١)، وكقصّة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات، وكذلك غيره ممّن روي أنّهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصّحابة من هذا حاله، فلمّا ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصّحابة والتّابعين كأسماء بنت أبي بكر وعبد الله بن الزّبير ومحمّد بن سيرين ونحوهم، والمنكرون لهم مأخذان: منهم من ظنّ ذلك تكلفاً وتصنعاً، يُذكر عن محمّد بن سيرين أنّه قال: (ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلاّ أن يُقرأ على أحدهم وهو على حائط، فإنّ خرّ فهو صادق)^(٢)، ومنهم من أنكر ذلك؛ لأنّه رآه بدعة مخالفاً لما عُرف من هدي

(١) رواه الترمذي (٤٤٥)، وحسنه الألباني فيه.

(٢) رواه الضّرّاب في « ذمّ الرّياء » (١٤٦ و ١٥٥) أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٦٥) وابن الجوزي في « تلبس إبليس » (ص ٢٥٤ و ٢٥٥)، وهو صحيح، وروى الضّرّاب أيضاً (١٥٤) بسند صحيح قصّة شبيهة بهذه عن ابن عمر « أنّ نجدة - وهو من رؤوس الخوارج - أقبل يريد المدينة، وأنّ الناس استعدّوا لقتاله، وأنّه أقبل حتّى نزل بنخل على الميّلين من المدينة، فسأل: ما صنع الناس؟ فقبل له: قد استعدّوا لقتالك، قال: فقال: ما فعل ابن عمر؟ قالوا: قد لبس السّلاح، فقال: إذا لا يتخلف عنه أحد، فرجع من النخل ولم يأت المدينة، فذكر نافع أنّ ناساً من أصحاب نجدة انتهوا إلى سفينة مولى رسول الله ﷺ وهو في بئر له، فقالوا: إنّ منّا من إذا سمع القرآن صعق؟ فقال: أنا أدركت أصحاب محمّد وهم متوافرون، فما رأيت أحداً كما تذكرون! فادعوا بهذا الذي تذكرون أنّه إذا سمع القرآن صعق، فأقعدوه على بئري هذه، ثمّ اتلوا القرآن عليه، فإذا صعق فهو كما تقولون من خشية الله، فقالوا: فعل الله بك وفعل!! لولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلناك! ».

الصَّحَابَةِ، كَمَا نُقِلَ عَنْ أَسْمَاءَ^(١) وَابْنِهَا عَبْدِ اللَّهِ^(٢)، وَالَّذِي عَلَيْهِ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا كَانَ مَغْلُوباً عَلَيْهِ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَالُ الثَّابِتِ أَكْمَلَ مِنْهُ، وَهَذَا لَمَّا سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: قُرِئَ الْقُرْآنُ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ فُغِشِيَ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَ هَذَا عَنْ نَفْسِهِ لَدَفَعَهُ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، فَمَا رَأَيْتُ أَعْقَلَ مِنْهُ، وَنَحْوَ هَذَا، وَقَدْ نُقِلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ أَصَابَهُ ذَلِكَ، وَعَلَى بْنِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَّاضٍ قَصَّتُهُ مَشْهُورَةٌ، وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا كَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يُسْتَرَابُ فِي صِدْقِهِ، لَكِنَّ الْأَحْوََالَ الَّتِي كَانَتْ فِي الصَّحَابَةِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ:

وَانْظُرْ كَلَامَ ابْنِ الْقَيْمِ عَنِ الْبُكَاءِ الْمَحْمُودِ وَالْبُكَاءِ الْمَذْمُومِ فِي «الضَّوْءِ الْمُنِيرِ عَلَى التَّفْسِيرِ» جَمْعُ الشَّيْخِ عَلِيِّ الصَّالِحِيِّ (٢١٦/٢).

(١) رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي «سُنَنِهِ» (٩٥) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «قُلْتُ لَجَدَّتِي أَسْمَاءَ: كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ؟ قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعْتَهُمُ اللَّهُ ﷻ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ وَتَقْشَعُرُ جُلُودُهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ أَنَا سَأَلْتُ هَهُنَا إِذَا سَمِعُوا ذَلِكَ تَأْخُذُهُمْ عَلَيْهِ غَشِيَّةٌ؟ قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ!».

(٢) ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (٩٢/٢٠) عَنْ بَعْضِ مَنْ سَمَّى مِنَ الرُّوَاةِ أَنَّهُ قَالَ: «وَبَلَغَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ ابْنَهُ عَامِراً يَصْحَبُ أَقْرَاناً يَصْعَقُونَ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ بَلَغَنِي بَعْدَ أُنْكَاحِ لِسْمِهِمْ أَوْ جَعَلْتُكَ ضَرْباً!»، وَعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «جِئْتُ أَبِي، فَقَالَ لِي: أَيْنَ كُنْتَ؟ فَقُلْتُ: وَجَدْتُ أَقْرَاماً مَا رَأَيْتُ خَيْراً مِنْهُمْ: يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَيَرْعُدُ أَحَدُهُمْ حَتَّى يُغَشِيَ عَلَيْهِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَقَعَدْتُ مَعَهُمْ، قَالَ: لَا تَقْعُدْ مَعَهُمْ بَعْدَهَا، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ ذَلِكَ فِيَّ، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ فَلَا يُصِيبُهُمْ هَذَا، أَقْرَاهُمْ أَخْشَعَ لَه مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟! فَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَتَرَكْتُهُمْ» ذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «تَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٢٢٠/١٠) وَنَسَبَهُ لِلطَّبْرَانِيِّ.

سُورَةُ غَافِرٍ

حَالَاتُ الْإِنْسَانِ الثَّلَاثُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (غافر ٥٥).

اجْتَمَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَوَامِرٍ: الصَّبْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ وَالتَّسْبِيحُ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ ثَلَاثُ عُبُودِيَّاتٍ تَابِعَةٌ لثَلَاثِ حَالَاتٍ لَا يَنْفَكُ عَنْهَا مَخْلُوقٌ قَطُّ، فَلِذَلِكَ اجْتَمَعَتْ هُنَا، وَقَدْ جَلَّى ذَلِكَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «الْفَوَائِدِ» (ص ٢٦٢)، فَقَالَ: «لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عَبْدِهِ: - أَمْرٌ أَمَرَهُ بِهِ.

- وَقَضَاءٌ يَقْضِيهِ عَلَيْهِ.

- وَنِعْمَةٌ يُنْعِمُ بِهَا عَلَيْهِ.

فَلَا يَنْفَكُ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، وَالْقَضَاءُ نَوْعَانِ: إِمَّا مَصَائِبُ، وَإِمَّا مَعَايِبُ، وَلَهُ عَلَيْهِ عُبُودِيَّةٌ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ كُلِّهَا، فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مَنْ عَرَفَ عُبُودِيَّتَهُ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَوَفَّاهَا حَقَّهَا، فَهَذَا أَقْرَبُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ مَنْ جَهِلَ عُبُودِيَّتَهُ فِي هَذِهِ الْمَرَاتِبِ فَعَطَّلَهَا عِلْماً وَعَمَلًا، فَعُوبِدِيَّتُهُ فِي الْأَمْرِ امْتِثَالُهُ إِخْلَاصاً وَاقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي النَّهْيِ اجْتِنَابُهُ خَوْفاً مِنْهُ وَإِجْلَالاً وَمَحَبَّةً، وَعُبُودِيَّتُهُ فِي قَضَاءِ الْمَصَائِبِ الصَّبْرُ عَلَيْهَا، ثُمَّ الرِّضَا بِهَا وَهُوَ أَعْلَى مِنْهُ، ثُمَّ الشُّكْرُ عَلَيْهَا وَهُوَ أَعْلَى مِنَ الرِّضَا، وَهَذَا إِنَّمَا يَأْتِي مِنْهُ إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهِ وَعَلِمَ حُسْنَ اخْتِيَارِهِ

له وبرّه به ولطفه به وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة، وعبوديته
 في قضاء المعاييب المبادرة إلى التوبة منها والتنصل، والوقوف في مقام
 الاعتذار والانكسار، عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرّها
 سواه، وأنها إن استمرت أبعدته من قربه وطرّدته من بابه، فإراها من
 الضرّ الذي لا يكشفه غيره، حتّى إنه ليرأها أعظم من ضرّ البدن، فهو
 عائد برضاه من سخطه، وبغفوه من عقوبته، وبه منه مستجير
 ومُلتجى منه إليه، يعلم أنّه إن تخلى عنه وحلّى بينه وبين نفسه فعنده
 أمثالها وشرّ منها، وأنّه لا سبيل له إلى الإقلاع والتّوبة إلا بتوفيقه
 وإعانتته، وأنّ ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد، فهو أعجز وأضعف
 وأقلّ من أن يوفق نفسه أو يأتي بمرضاة سيّده بدون إذنه ومشيئته
 وإعانتته، فهو مُلتجى إليه مُتضرّع ذليل مسكين، ملقّ نفسه بين يديه،
 وطريح بابه مُستخِذ له، أذلّ شيء وأكسرّه له وأفقره وأخوّه إليه
 وأرغبه فيه وأحبه فيه، بدنه مُتصرّف في أشغاله، وقلبه ساجد بين
 يديه، يعلم يقيناً أنّه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه، وأنّ الخير كلّّه لله
 وفي يديه وبه ومنه، فهو وليّ نعمته ومُبتدئها من غير استحقاق،
 ومُجريها عليه مع تمقّته إليه بإعراضه وغفلته ومعصيته، فحظّه سبحانه
 الحمد والشكر والثناء وحظّ العبد الذمّ والنقص والعيب، قد استأثر
 بالمحامد والمدح والثناء، وولى العبد الملامة والنقائص والعيوب،
 فالحمد كلّّه له، والخير كلّّه في يديه، والفضل كلّّه له، والثناء كلّّه له،
 والمِنَّة كلّها له، فمنه الإحسان ومن العبد الإساءة، ومنه التّودّد إلى

العَبْدُ بِنِعْمِهِ، وَمِنَ الْعَبْدِ التَّبَعُّضُ إِلَيْهِ بِمَعَاصِيهِ، وَمِنَهُ النَّصْحُ لِعَبْدِهِ،
وَمِنَ الْعَبْدِ الْغِشُّ لَهُ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَأَمَّا عُبودِيَّةُ النِّعَمِ فَمَعْرِفَتُهَا
وَالاعْتِرَافُ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ الْعِيَاذُ بِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ نِسْبَتُهَا وَإِضَافَتُهَا إِلَى
سِوَاهُ، وَإِنْ كَانَ سَبَبًا مِنَ الْأَسْبَابِ فَهُوَ مُسَبِّهُ حَوْثِمْهُ، فَالنِّعْمَةُ مِنْهُ
وَحَدَهُ بِكُلِّ وَجْهِ وَاعْتِبَارٍ، ثُمَّ الثَّنَاءُ بِهَا عَلَيْهِ، وَحُبُّهُ عَلَيْهَا، وَشُكْرُهُ
بأن يَسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَتِهِ، وَمِنَ لَطَائِفِ التَّعَبُّدِ بِالنِّعَمِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ قَلِيلَهَا
عَلَيْهِ، وَيَسْتَقِلَّ كَثِيرَ شُكْرِهِ عَلَيْهَا، وَيَعْلَمَ أَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنْ سَيِّدِهِ
مِنْ غَيْرِ ثَمَنِ بِذَلِكَ فِيهَا، وَلَا وَسِيلَةَ مِنْهُ تَوَسَّلَ بِهَا إِلَيْهِ، وَلَا اسْتِحْقَاقَ
مِنْهُ لَهَا، وَإِنَّهَا لِلَّهِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا لِلْعَبْدِ فَلَا تَزِيدُهُ النِّعَمُ إِلَّا انْكِسَارًا وَذُلًّا
وَتَوَاضَعًا وَحُبَّةً لِلْمُنْعِمِ، وَكَلَّمَا جَدَّدَ لَهُ نِعْمَةً أَحْدَثَ لَهَا عُبودِيَّةً وَحُبَّةً
وُخُضُوعًا وَذُلًّا، وَكَلَّمَا أَحْدَثَ لَهُ قَبْضًا أَحْدَثَ لَهُ رِضًى، وَكَلَّمَا أَحْدَثَ
ذَنْبًا أَحْدَثَ لَهُ تَوْبَةً وَانْكِسَارًا وَاعْتِدَارًا، فَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الْكَيِّسُ،
وَالْعَاجِزُ بِمَعَزِلٍ عَنْ ذَلِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ ».

وَانْظُرْ « مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى » لَابْنِ تَيْمِيَّةٍ (٢/١٠٩).

سُورَةُ فَصَّلَتْ (السَّجْدَةُ)

اقْتِرَانُ اسْمِ السَّمِيعِ بِالْعَلِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت ٣٦).

في هَذَا السِّيَاقِ الْكَرِيمِ فَائِدَتَانِ، هُمَا:

الْفَائِدَةُ الْأُولَى: الْكَلَامُ هُنَا عَنِ الْإِثْنَانِ بِاسْمَي (السَّمِيعِ) وَ(الْعَلِيمِ) الدَّالِّينِ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ بِدُعَاءِ عَبْدِهِ إِذَا اسْتَعَاذَ بِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَاسْتِجَابَتِهِ لَهُ، وَعَلَى تَمَامِ عِلْمِهِ بِعَدُوِّهِ إِبْلِيسَ وَكِفَايَةِ عَبْدِهِ شَرَّهُ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ طَرِيقٍ إِلَى الْإِنْتِصَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ بَعْدَ تَحْقِيقِ التَّقْوَى هُوَ الْعِلْمُ بِهِمْ وَبِقُدْرَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النِّسَاءُ ٤٥).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَّةُ: يَبْقَى الْبَحْثُ مُتَعَلِّقًا بِسَبَبِ الْإِثْنَانِ بِكَلِمَةِ (السَّمِيعِ) (الْعَلِيمِ) بَدَلًا مِنْ (السَّمِيعِ الْبَصِيرِ)، مَعَ أَنَّ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ كَثِيرًا مَا يَقْتَرِنَانِ؟

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (٢/٤٦٣-٤٦٤): «وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لَا اسْتِعَاذَتَهُ، عَلِيمٌ بِمَا يَسْتَعِيدُ مِنْهُ، وَالسَّمْعُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ سَمْعُ الْإِجَابَةِ لَا السَّمْعَ الْعَامَّ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَقَوْلِ الْحَلِيلِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (إِبْرَاهِيمُ ٣٩)، وَمَرَّةً يَقْرُنُهُ بِالْعِلْمِ، وَمَرَّةً بِالْبَصَرِ لِاقْتِضَاءِ حَالِ الْمُسْتَعِيدِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَسْتَعِيدُ بِهِ مِنْ عَدُوٍّ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ، وَيَعْلَمُ كَيْدَهُ وَشَرَّهُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا

المُسْتَعِيدَ أَنَّهُ سَمِيعٌ لاسْتِعَاذَتِهِ، أَي مُجِيبٌ عَلِيمٌ بِكَيْدِ عَدُوِّهِ، يَرَاهُ وَيُبَصِّرُهُ لِيَنْبَسِطَ أَمْلُ الْمُسْتَعِيدِ وَيُقْبَلَ بِقَلْبِهِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: كَيْفَ جَاءَ فِي الْإِسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ - الَّذِي نَعْلَمُ وُجُودَهُ وَلَا نَرَاهُ - بِلَفْظِ (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فِي الْأَعْرَافِ وَالسَّجْدَةِ^(١)، وَجَاءَتِ الْإِسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْإِنْسِ الَّذِينَ يُؤَنِّسُونَ وَيُرَوْنَ بِالْأَبْصَارِ بِلَفْظِ (السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فِي سُورَةِ حَمِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿٥٦﴾ (غافر ٥٦)؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ هَؤُلَاءِ أَفْعَالُ مُعَايَنَةٍ تُرَى بِالْبَصَرِ، وَأَمَّا نَزْعُ الشَّيْطَانِ فَوْسَاوِسٌ وَخَطَرَاتٌ يُلْقِيهَا فِي الْقَلْبِ يَتَعَلَّقُ بِهَا الْعِلْمُ، فَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ فِيهَا، وَأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ فِي بَابِ مَا يُرَى بِالْبَصَرِ وَيُدْرَكَ بِالرُّؤْيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.»

(١) الْآيَةُ الَّتِي فِي السَّجْدَةِ هِيَ آيَةُ الْبَابِ، وَالَّتِي فِي الْأَعْرَافِ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا يَنْزِعُ عَنْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٦﴾ (الأعراف ٢٠٠)، وَدَلِيلُ عَدَمِ إِبْصَارِنَا شَيْطَانَ الْجِنِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ يَرْنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْتَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ (الأعراف ٢٧).

سُورَةُ الشُّورَى مَعْنَى الْمَوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾
(الشُّورَى ٢٣).

غَلَطَ قَوْمٌ فِي فَهْمِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَوَدَّةِ أَهْلِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ أَوْ أَنَّهَا جَاءَتْ فِي الْوَصِيَّةِ بِالْخُلَافَةِ لَهُمْ، وَلَيْسَ الْغَلَطُ فِي مَوَدَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَإِنَّ شَرِيعَتَنَا جَاءَتْ أَمْرًا بِوُجُوبِ مَوَدَّةِهِمْ، لَكِنِ الْغَلَطُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ تَنْزِلْ فِي مَوَدَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ؛ بَدَلِيلُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ تُخَاطِبُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ بِأَنْ يَقْصُرُوا مِنْ أَذْيَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ مُتَحْتَجًّا عَلَيْهِمْ بِالْقُرْبِ وَالرَّحِمِ الَّتِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ﷺ لَا ذِكْرَ لِأَهْلِ بَيْتِهِ، وَقَدْ كَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَعْرِفُونَ مَا لِلرَّحِمِ مِنْ حُقُوقٍ، فَلَمَّا بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ جَفَوْهُ وَلَمْ يُرَاعُوا لَهُ تِلْكَ الْحُقُوقَ، رَوَى الْبُخَارِيُّ (٤٨١٨) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: «(قُرْبَى): أَلُّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجَلْتَ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ»، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «أَيُّ قُلْ - يَا مُحَمَّدًا! - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْبَلَاغِ وَالنُّصْحِ لَكُمْ مَا لَا تُعْطُونِيهِ، وَإِنَّمَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَكْفُوا شَرَّكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أَبْلُغَ رِسَالَاتِ رَبِّي، إِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فَلَا تُؤْذُونِي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ

القرابة»، قال ابن حجر في «الفتح» (٥٦٤/٨): «والخطاب لقريش خاصة... فكأنه قال: احفظوني للقرابة، إن لم تتبعوني للنُّبوة»، وقال ابن القيم في «بدائع الفوائد» (١٠٥٦/٣): «فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم لأوصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة؛ لأنَّ الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يُوص بهم».

سُورَةُ الزُّخْرَفِ

الحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٢﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الزُّخْرَف ١٢-١٤).

كثيراً ما يقرنُ الشَّارِعُ الحَكِيمُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ أَوْ الْمُسَاوَاةِ أَوْ الِاسْتِدْلَالِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، أَوْ بِالْمُهْمِّ عَلَى الْأَهْمِّ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَغْرَاضِ، كَمَا جَاءَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَبَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَبَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَبَيْنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَبَيْنَ الثَّمَارِ الْكَبِيرَةِ وَالثَّمَارِ الصَّغِيرَةِ، وَبَيْنَ الْمَعْنَوِيِّ وَالْحِسِّيِّ، وَبَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَبَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقَّعِينَ» (١/ ١٧٤-١٧٥): «وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٢﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ (الزُّخْرَف ١٢-١٤)، كَيْفَ نَبَّهَهُمْ بِالسَّفَرِ الْحِسِّيِّ عَلَى السَّفَرِ إِلَيْهِ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ السَّفَرَيْنِ كَمَا جَمَعَ لَهُمُ الزَّادَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة ١٩٧)، فَجَمَعَ لَهُمُ بَيْنَ زَادِ سَفَرِهِمْ وَزَادِ مَعَادِهِمْ، وَكَمَا جَمَعَ بَيْنَ اللَّبَاسَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي

سَوَاءٌ تَكُونُمْ وَرِيشًا - وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَةِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ (الأعراف ٢٦)، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ زِينَةً ظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ،
وَنَبَّهَهُمْ بِالْحَسَنِيِّ عَلَى الْمَغْنَوِيِّ «.

وزاد في « التبيان في أقسام القرآن » (١/ ٥٢) قَوْلَهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ
العَادِيَّاتِ (٩- ١٠): ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي
الصُّدُورِ ﴿٢﴾، فَقَالَ: وَجَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْقُبُورِ وَالصُّدُورِ، كَمَا جَمَعَ
بَيْنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: (مَلَأَ اللَّهُ أَجْوَاهَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا) ^(١)، فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ يُوَارِي صَدْرَهُ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيُوَارِي قَبْرَهُ جِسْمَهُ،
فِيُخْرِجُ الرَّبُّ جِسْمَهُ مِنْ قَبْرِهِ وَسِرَّهُ مِنْ صَدْرِهِ، فَيَصِيرُ جِسْمُهُ بَارِزًا
عَلَى الْأَرْضِ وَسِرُّهُ بَادِيًا عَلَى وَجْهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ
بِسَيِّئِهِمْ ﴾ (الرحمن ٤١) «.

وزاد في « بدائع الفوائد » الحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ،
فَقَالَ (٣/ ١١١٩- ١١٢٠): « تَأَمَّلْ سِرَّ ﴿ التَّم ﴾ كَيْفَ اشْتَمَلَتْ عَلَى
هَذِهِ الْحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ، فَالْأَلِفُ إِذَا بُدِئَ بِهَا أَوَّلًا كَانَتْ هَمْزَةً، وَهِيَ أَوَّلُ
الْمَخَارِجِ مِنْ أَقْصَى الصَّدْرِ، وَاللَّامُ مِنْ وَسْطِ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ، وَهِيَ
أَشَدُّ الْحُرُوفِ اعْتِمَادًا عَلَى اللِّسَانِ، وَالْمِيمُ آخِرُ وَمَخْرَجُهَا مِنَ الْفَمِ،
وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَصُولُ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ، أَعْنِي: الْحَلْقُ وَاللِّسَانُ
وَالشَّفَتَيْنِ، وَتَرْتَّبَتْ فِي التَّنْزِيلِ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْوَسْطِ إِلَى النِّهَايَةِ، فَهَذِهِ
الْحُرُوفُ تَعْتَمِدُ الْمَخَارِجَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يَتَفَرَّعُ مِنْهَا سِتَّةٌ عَشَرَ مَخْرَجًا،

(١) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

فَيَصِيرُ مِنْهَا تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا عَلَيْهَا مَدَارُ كَلَامِ الْأُمَمِ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ مَعَ تَضَمُّنِهَا سِرًّا عَجَبِيًّا، وَهُوَ أَنَّ الْأَلْفَ الْبَدَايَةَ وَاللَّامَ
التَّوَسُّطَ وَالْمِيمَ النِّهَايَةَ، فَاشْتَمَلَتِ الْأَحْرَفُ الثَّلَاثَةُ عَلَى الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ
وَالْوَاسِطَةِ بَيْنَهُمَا، وَكُلُّ سُورَةٍ اسْتُفْتِحَتْ بِهَذِهِ الْأَحْرَفِ الثَّلَاثَةِ فَهِيَ
مُشْتَمِلَةٌ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ وَنِهَايَتِهِ وَتَوَسُّطِهِ، فَمُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَخْلِيقِ الْعَالَمِ
وِغَايَتِهِ، وَعَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ مِنَ التَّشْرِيعِ وَالْأَوَامِرِ،
فَتَأْمَلْ ذَلِكَ فِي الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَتَنْزِيلِ السَّجْدَةِ وَسُورَةِ الرُّومِ.

وَمِنْ نَظَائِرِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ (٢٣): ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فَذَكَرَ
خُشُوعَ الْجُلُودِ وَالْقُلُوبِ، أَيِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، فَهَذَا عَلَى مَعْنَى
الْخُشُوعِ الْكَامِلِ.

وَفِي مَعْنَاهُ زَادَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٣/ ٥٥٠) قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (الْإِنْسَانُ ١١)،
أَيِ النَّضْرَةِ لَوُجُوهِهِمْ، وَالسُّرُورِ لِقُلُوبِهِمْ، رَوَاهُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهَذَا لِبَيَانِ كَمَالِ جَمَاهِمِ الْحَسِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي
«تَفْسِيرِهِ»: «وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ ضَاحِكَةٌ
مُسْتَبْشِرَةٌ» (عَبَسَ ٣٨-٣٩)؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ
الْوَجْهَ.

وَزَادَ أَيْضًا مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ
وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ﴾ (الْمَائِدَةُ ٩٦)، وَقَدْ مَرَّ بَيَانُهُ عِنْدَ الْكَلَامِ

على فوائد سورة المائدة.

وزاد ابن كثير أيضاً من سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ (النحل ٥-٩)، فقال في «تفسيره»: «لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السُّبُل الحسنة نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسنة إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة ١٩٧)، وقال تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف ٢٦)، ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صُدُورِهِمْ وَتَحْمِيلِ أَثْقَالِهِمْ إِلَى الْبِلَادِ وَالْأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ وَالْأَسْفَارِ الشَّاقَّةِ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا النَّاسُ إِلَيْهِ، فَيَبَيِّنُ أَنَّ الْحَقَّ مِنْهَا مَا هِيَ مُوصِلَةٌ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام ١٥٣)، وقال: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ (الحجر ٤١)، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قَالَ: طَرِيقُ

الحَقُّ عَلَى اللَّهِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾: الْإِسْلَامُ،
 وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾
 يَقُولُ: وَعَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ، أَيْ يُبَيِّنُ الْهَدْيَ وَالضَّلَالَةَ، وَكَذَا رَوَى عَلِيُّ بْنُ
 أَبِي طَلْحَةَ عَنْهُ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ، وَقَوْلُ مُجَاهِدٍ هَهُنَا أَقْوَى
 مِنْ حَيْثُ السِّيَاقُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ ثَمَّ طَرِيقًا تُسَلِّكُ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ
 يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا طَرِيقُ الْحَقِّ، وَهِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي شَرَعَهَا وَرَضِيَهَا،
 وَمَا عَدَاهَا مَسْدُودَةٌ وَالْأَعْمَالُ فِيهَا مَرْدُودَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهَا
 جَائِزٌ﴾ أَيْ حَائِذٌ مَائِلٌ زَائِعٌ عَنِ الْحَقِّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: هِيَ
 الطَّرِيقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْأَرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ كَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ
 وَالْمَجُوسِيَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: ﴿وَمِنْكُمْ جَائِزٌ﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ
 ذَلِكَ كُلَّهُ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ
 كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ (يونس ٩٩)، وَقَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١٥﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ
 وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾﴾ (هود ١١٨-١١٩) .

وزَادَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١/ ١٥) آيَةَ الْمَحِيضِ؛ فَإِنَّ
 اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ تَطْهِيرِ الْجَسَمِ بِالْمَاءِ وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ بِالتَّوْبَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ (البقرة ٢٢٢)، ففِيهَا إِذَا تَطَهَّرَ
 الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ.

وزاد المباركفوري في « ثُحفة الأحوذى » (١٣٣ / ٦) قوله تعالى: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة ١٣)، فبين أن العفو للباطن، والصفح للظاهر، أي اعف عنهم بقلبك، واصفح عنهم بوجهك، وهذا هو كمال المسامحة، ولذلك يُقال للجنب: الصّفْح؛ وذلك لأن من صفح عن غيره أعطاه جنبه، وفي « تهذيب اللغة » للأزهري: صَفَحَتَا العنق: ناحيتاه، وصفحة الرجل: عَرْض وجهه، ويُقال: صفح فلان عني: أي أعرض بوجهه وولاني وجهه قفاه، ويُقال لمن نظر في أحوال قوم: تصفح القوم.

زاد الفخر الرازي من سورة الواقعة قوله **عَجَّلَ**: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ **وَطَلَحٍ مَّنْضُودٍ** (الواقعة ٢٨-٢٩)، فقال (١٤٢ / ٢٩): « المسألة الثانية: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ ﴾؟ وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، والسدر من أشجار البوادي لا بمر ولا بحلو ولا بطيب، نقول: فيه حكمة بالغة غفلت عنها الأوائل والأواخر (!)، واقتصروا في الجواب والتقريب: أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً محموداً، وهو صواب، ولكنه غير فائق، والفائق الرائق الذي هو بتفسير كلام الله لا ثَقُّ هو أن نقول: إِنَّا قَدْ بَيَّنَّا مِرَاراً أَنَّ الْبَلِيغَ يَذْكُرُ طَرَفَيَّ أَمْرَيْنِ؛ يَتَضَمَّنُ ذِكْرُهُمَا الْإِشَارَةَ إِلَى جَمِيعِ مَا بَيْنَهُمَا، كَمَا يُقَالُ: فَلَانٌ مَلِكُ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ مَلِكُهُمَا وَمَلِكُ مَا بَيْنَهُمَا، وَيُقَالُ: فَلَانٌ أَرْضَى الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ أَرْضَى كُلَّ أَحَدٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَنَقُولُ: لَا خَفَاءَ فِي أَنْ تُزَيِّنَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يُتَفَرَّجُ فِيهَا

بالأشجار، وتلك الأشجار تارة يُطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستيظلال به، وتارة يُقصد إلى ثمارها، وتارة يُجمع بينهما، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، ويجمعها نوعان: أوراق صغار، وأوراق كبار، والسدر في غاية الصغر، والطلح - وهو شجر الموز - في غاية الكبر، فقوله تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۖ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ۖ ﴾ إشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار؛ نظراً إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر، ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصيد إلى ذكر الثمار؛ لأن بينهما غاية الخلاف^(١)، كما بيّناه في موضعه، فوقعت الإشارة إليهما جامعة لجميع الأشجار؛ نظراً إلى ثمارها، وكذلك قلنا في النخيل والأعناب؛ فإن النخل من أعظم^(٢) الأشجار المثمرة، والكرم من أصغر الأشجار

(١) لعلّه يُريد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمانٌ ۖ ﴾ (الرحمن ٦٨)، فقد قال (١١٧/٢٩ - ١١٨): « وفيهما أيضاً الفواكه الشجرية، وذكر منها نوعين، وهما الرمان والرطب؛ لأنهما متقابلان، فأحدهما حلو والآخر غير حلو، وكذلك أحدهما حار والآخر بارد، وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره في غاية الطول والآخر أشجاره بالضد، وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لا يؤكل كامن والآخر بالعكس، فهما كالضدين، والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى ما بينهما، كما قال: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۖ ﴾ (الرحمن ١٧)، وقد قدمنا ذلك ».

(٢) يُريد ضخامة جذعها.

المُثْمِرَة، وَبَيْنَهُمَا أَشْجَارُ^(١)، فَوَقَعَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمَا جَامِعَةً لِسَائِرِ الْأَشْجَارِ، وَهَذَا جَوَابٌ فَائِقٌ وَفَّقَنَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ .

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٨٢٧) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: « الْعَجُّ وَالشَّجُّ »، وَالْعَجُّ هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ، وَالشَّجُّ هُوَ إِرَاقَةُ الدَّمِ بِنَحْرِ الْهَدْيِ، لَكِنْ فِي تَخْصِيصِ هَاتَيْنِ الشَّعِيرَتَيْنِ بِالذِّكْرِ قَالَ عَلِيُّ الْقَارِي فِي « مِرْقَاةِ الْمِفَاتِيحِ » (٤٣٨ / ٥): « وَقِيلَ عَلَى هَذَا يُرَادُ بِهِمَا الْاسْتِيعَابُ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ أَوَّلَهُ الَّذِي هُوَ الْإِحْرَامُ، وَآخِرَهُ الَّذِي هُوَ التَّحْلِيلُ بِإِرَاقَةِ الدَّمِ اقْتِصَاراً بِالْمَبْدَأِ أَوْ الْمُنْتَهَى عَنْ سَائِرِ الْأَفْعَالِ، أَيِ الَّذِي اسْتَوْعَبَ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ مِنَ الْأَرْكَانِ وَالْمُنْدُوبَاتِ »، وَانْظُرْ « فَيْضُ الْقَدِيرِ » لِلْمُنَاوِيِّ (٣١ / ٢) وَ « تَحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ » لِلْمُبَارَكْفُورِيِّ (٤٧٦ / ٣) وَ (٢٧٨ / ٨)، وَذَكَرَ هُنَا الْمَبْدَأَ أَيْ الْبِدَايَةَ؛ لِأَنَّ الْعَجَّ أَوَّلُ فِعْلٍ بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةِ، وَذَكَرَ الْمُنْتَهَى لِأَنَّ التَّحْلِيلَ يَكُونُ يَوْمَ النَّحْرِ، وَقَدْ تَحَلَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ رَمِي جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ بِنَحْرِ هَدْيِهِ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: « إِنْ نَأْخُذَ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ حَتَّى نَحَرَ الْهَدْيِ ».

وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ نَبَّهْتُ عَلَى بَعْضِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أَيِ بَيْنَ الْأَحْجَامِ الضُّخَامِ كَالنَّخْلِ، وَالصُّغَارِ كَأَشْجَارِ الْعِنَبِ أَحْجَامٌ أُخْرَى هِيَ دُونَ الضُّخَامِ وَفَوْقَ الصُّغَارِ، اكْتَفَى بِذِكْرِ أَضْخَمِهَا وَأَصْغَرِهَا عَنْ ذِكْرِهَا؛ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَهَا.

سُورَةُ الدُّخَانِ

الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان ٩).

بَعَثَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهٖ ﷺ بِكِتَابِهِ الَّذِي فِيهِ بَرْدُ الْيَقِينِ وَالْهُدَى الْمُسْتَقِيمَ، فَبَرْدُ الْيَقِينِ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ رَيْبٌ، وَالْهُدَى الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَكَمَالُ الْمَرْءِ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٢)، وَهَذَا الْكِتَابُ الْعِلْمُ بِهِ هُوَ الْقَوْلُ الْفَصْلُ، وَالْعَمَلُ بِهِ جِدُّ لَا لَعِبَ فِيهِ وَلَا هَزْلٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ (٣) ﴿وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ﴾ (الطَّارِق ١٣-١٤)، وَإِذَا دَاخَلَ إِيْمَانُ الْمَرْءِ شَكٌّ اضْمَحَلَّ عِلْمُهُ النَّافِعُ، وَأَوْرَثَهُ مَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ مَرَضَ الشُّبُهَةِ، الَّتِي تَبْعَثُ النَّفْسَ عَلَى التَّرَدُّدِ فِي الْحَقِّ بَلْ رَبِّمَا الْكُفْرَ بِهِ، وَإِذَا دَاخَلَهُ لَعِبٌ مُحَرَّمٌ - إِمَّا فِي جَنْسِهِ أَوْ فِي مِقْدَارِهِ - ضَعَفَ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَوْرَثَهُ مَا يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ مَرَضَ الشَّهْوَةِ، الَّذِي يَبْعَثُ النَّفْسَ عَلَى التَّثَاوُلِ فِي الْعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (مريم ٥٩)، وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي آيَةِ الْبَابِ بِالْأَمْرَيْنِ: الشَّكِّ وَاللَّعِبِ، فَيَكُونُ الشَّكُّ لِلشُّبُهَاتِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ فِي «تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ» عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، وَاللَّعِبُ لِلشَّهَوَاتِ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ عَلَى قَوْلٍ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الشُّوكَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فَتْحِ

القدير» (٤/ ٦٥٢)، ففيه أنه اجتمع لهم المرضان جميعاً، ومن اجتماعهما له فقد تمت خسارته، ومن سلم منها كان إماماً كما سبق بيانه في سورة السجدة، ولذلك فإن الله يُقابل الشك باليقين الذي أسسه الأكبر هو الإيمان بالغيب، ويُقابل اللبّ بالعمل الصالح، الذي كثيراً ما يُعبر عنه بأكبر أفرادِه كالصلاة والزكاة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة ١-٣).

وسياق سورة الدخان يدل على ذلك أيضاً، فقد نوه الله بشأن الكتاب في مطلعها؛ لأنه جاء بالعلم، فقال مُقسماً به: ﴿حَمِّمُوا﴾ (الدخان ١-٢)، ثم نوه بشأن ليلة القدر؛ لأن زمانها محل للعبادة، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (الدخان ٣)، فجمع في بداية هذه السورة بين العلم والعمل، ثم نوه بشأن اليقين؛ لأن أهلَه في أعلى درجات العلم، فقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان ٧)، ثم نوه بشأن توحيد العبادة؛ لأنه أعلى درجات العاملين، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ (الدخان ٨)، ثم ندّد بعدها بحال المشركين الذين خالفوا الأمرين جميعاً، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان ٩)، فتأمل كيف انتظم هذا السياق الكريم في وحدة موضوعية منسجمة، وهو يشبه قول الله تعالى في أواخر السورة التي قبل هذه: ﴿فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾

(الزخرف ٨٣)، وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ (الطور ١٢)،
 فالْحَوْضُ للشُّبُهَاتِ، واللَّعْبُ للشَّهَوَاتِ، وكما في قوله في سورة
 التَّوْبَةِ: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا أَمْوَالًا
 وَأَوْلَدُوا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التَّوْبَةِ ٦٩)،
 قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ» (٢/٥١١): «فَذَكَرَ
 الْاسْتِمْتَاعَ بِالْخَلَاقِ وَهُوَ التَّمَتُّعُ بِالشَّهَوَاتِ، وَهُوَ نَصِيبُهُمُ الَّذِي آثَرُوهُ
 فِي الدُّنْيَا عَلَى حَظِّهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، فَالْحَوْضُ الَّذِي اتَّبَعُوا فِيهِ الشُّبُهَاتِ،
 فَاسْتَمْتَعُوا بِالشَّهَوَاتِ وَخَاضُوا بِالشُّبُهَاتِ»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

بَسْطُ الْكَلَامِ وَاخْتِصَارُهُ بِحَسَبِ الْمَقَامِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ (الجاثية ٧-٨)، وقال في سورة لقمان (٧): ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

قَالَ الإسْكَافِي فِي « دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغُرَّةُ التَّأْوِيلِ » (ص ٣٠٠): « لِلسَّائِلِ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ فَائِدَةِ قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، وَاسْتِغْنَاءُ الْكَلَامِ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، مَعَ أَنَّ الْقَصَّتَيْنِ مُتَشَابِهَتَانِ؟

الْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الْكَافِرَ لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ بِأَنَّهُ يُعْرِضُ عَنِ الْقُرْآنِ إِذَا سَمِعَهُ غَيْرَ مُتَنَفِّعٍ بِهِ، حَتَّى كَانَتْهُ لَمْ يَسْمَعْهُ، وَيَسْتَمِرُّ بِهِ هَذَا الْحَالُ كَمَا يَسْتَمِرُّ بِمَنْ بِهِ صَمَمٌ، وَقَوْلُهُ فِي الْجَاثِيَةِ: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يَدُلُّ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ لِأَنَّ الْإِصْرَارَ عَزْمٌ لَا يَتَّهَمُ مَعَهُ بِإِقْلَاعٍ، فَإِذَا أَصَرَ عَلَى التَّصَامِّ، فَهُوَ كَمَنْ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرٌ، فَصَارَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ يُغْنِي عَنِ الْآخَرِ وَيَقُومُ مَقَامَهُ، وَيُؤَدِّي مِنَ الْمَعْنَى أَدَاءَهُ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ الْمَوْضِعُ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ: ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ أَحَقَّ بِقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْإِصْرَارُ عَلَى تَرْكِ الْاسْتِمَاعِ أَغْنَى عَنْ ذِكْرِ: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ وَاحِدَةٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُنِي وَلَا يَكُمُ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف ٩).

لَمَّا ادَّعَى الْكُفَّارُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَرَى هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِهِ، أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّ رِسَالَتَهُ تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ الرِّسَالَاتُ السَّابِقَةُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُبْتَدِعٍ شَيْئًا جَدِيدًا، وَهَذِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي إِحْدَى الْحُجَجِ الَّتِي تَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، وَهَذَا قَالَهُ اللَّهُ فِي أَوَائِلِ السُّورَةِ، وَيُمْكِنُ طَالِبُ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُقَارَنَ بَيْنَ مَا بِأَيْدِيهِمْ وَمَا بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْوَاقِعِ فِي كُتُبِهِمْ، وَلِذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي أَوَاخِرِهَا بِأَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَهَبَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَلَا عَلَيْهِمْ كِتَابَ رَبِّهِ، قَارَئُوا بَيْنَ رِسَالَةِ مُوسَى ﷺ وَرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَمَنُوا؛ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهَا دَعْوَةً وَاحِدَةً، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف ٣٠)، وَهَذَا مِنْ فَرْطِ ذِكَائِهِمْ وَحُسْنِ اسْتِدْلَالِهِمْ، لَيْتَ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْإِنْسِ يَفْطِنُونَ لِهَذِهِ الْحُجَّةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَيُقَارِنُوا بَيْنَ الرِّسَالَتَيْنِ لِيَجِدُوا التَّشَابَهَ الْوَاضِحَ بَيْنَهُمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْوَاقِعِ فِي كُتُبِهِمْ، كَمَا اهْتَدَى وَاحِدٌ مِنْ سَادَاتِهِمْ بِذَلِكَ، أَلَا

وهو النَّجَاشِي مَلِكُ الْحَبَشَةِ، فَقَدْ تَلَا عَلَيْهِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا ذِكْرُ عِيسَى عليه السلام، فَأَدْرَكَ الْحَقُّ مِنْ سَاعَتِهِ، فَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ (٢٠٢/١) بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارِ النَّجَاشِيِّ؛ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذِي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا اتَّخَمُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يَهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ^(١) مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبَ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ^(٢)، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمُخْزُومِيِّ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمْرُوهُمَا أَمْرُهُمْ، وَقَالُوا لَهَا: اذْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطَرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدَّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلَوْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٍ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَنَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَ لِكُلِّ بِطَرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا^(٣) إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سَفَهَاءُ فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاؤُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعَ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ،

(١) أَي مِمَّا يَنْدَرُ وَجُودُهُ وَيُسْتَحْسَنُ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

(٢) جَمْعُ أَدِيمٍ، وَهُوَ الْجِلْدُ.

(٣) أَي مَالَ.

وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيُرِدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ؛ فَإِنْ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا^(١) وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ! ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدَيْنٍ مُبْتَدَعَ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِيُرِدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ، قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ، فَقَالَتْ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ! قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلَمَهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيُرِدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، قَالَ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا هَا اللَّهُ! أَيْمُ اللَّهِ! إِذَا لَا أَسْلَمَهُمْ إِلَيْهِمَا وَلَا أَكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي^(٢) وَنَزَلُوا بِلَادِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ؛ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي، قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا

(١) أَي أَبْصَرُ بِهِمْ، كَمَا فِي «الرَّوضِ الْأَنْفِ» (٩٢/٢).

(٢) أَي لَا أَخْشَى أَنْ يَلْحَقَنِي فِيهِمْ كَيْدٌ، وَفِي «سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ»: «وَلَا يُكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي».

جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ - وَاللَّهِ! - مَا عَلَّمْنَا وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، كَائِنْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنْ، فَلَمَّا جَاؤُوهُ - وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَافِقَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ - سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ: نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَدَبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جَوَارِكَ

وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ! قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ! فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَأَقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كَهَيَّصَ﴾ (مريم ١)، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ - وَاللَّهُ! - حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا! فَوَاللَّهِ لَا أَسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلَا أَكَادُ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهُ! لَا تُبَشِّرُهُمْ غَدًا عَيْنُهُمْ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضِرَاءَهُمْ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْعَةَ - وَكَانَ أَتَقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، قَالَ: وَاللَّهُ! لَا أَخْبِرَنَّهُ أَتَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ! قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ، قَالَتْ: وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ - وَاللَّهُ! - فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِينَا، كَأَنَّا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالَ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِينَا: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ، قَالَتْ:

فَضْرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا
عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتُ هَذَا الْعُودَ!

فَتَنَاحَرَتْ بِطَارِقَتِهِ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ!! فَقَالَ: وَإِنْ نَحَرْتُمْ
وَالله! اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي، وَالسُّيُومُ الْأَمْنُونَ، مَنْ سَبَّكُمْ غُرْمٌ!
ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرْمٌ! فَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ!
وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ، رُدُّوْا عَلَيْنِهَا هَدَايَاهُمَا؛ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا،
فَوَالله! مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ،
وَمَا أَطَاعَ النَّاسُ فِيَّ فَأَطِيعَهُمْ فِيهِ، قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ
مَرْدُودَاً عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ، قَالَتْ:
فَوَالله! إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ - يَعْنِي - مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، قَالَ:
فَوَالله! مَا عَلِمْنَا حُزْنَ قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِ حَزْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ؛ نَخْوَفَا
أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ
النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ، قَالَتْ: وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ،
قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَخْضَرَ
وَقَعَةَ الْقَوْمِ، ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟ قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا!
قَالَتْ: وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًا، قَالَتْ: فَنفَخُوا لَهُ قَرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي
صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى
الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللهُ لِلنَّجَاشِيِّ
بِالظُّهْرِ عَلَى عَدُوِّهِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوْسَقَ ^(١) عَلَيْهِ أَمْرُ

(١) أي اجتمع.

الْحَبْشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرٍ مَنَزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ .»

سُقْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِرَمَتْهَا لِمَا فِيهَا مِنْ عِظَاتٍ بِالْغَايَةِ، ثُمَّ إِنَّ الشَّاهِدَ مِنْهَا هُوَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَأْتِ بِبِدْعٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَإِنَّمَا أُصُولُ دِينِهِ هِيَ الْأُصُولُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِهِ، وَلِذَلِكَ رَأَيْنَا الْمُنْصِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي هَذَا الزَّمَانِ يُسْرِعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِأَدْنَى أَطْلَاعٍ عَلَى مَا فِيهِ؛ وَذَلِكَ لِقُرْبِ مَا بَيْنَ الْأَذْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ، لَا سِيَّمَا التَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّ الْكَذَّابِينَ الْمُدَّعِينَ النَّبُوَّةَ يَرِبُطُونَ أَتْبَاعَهُمْ بِهِمْ رَبْطَ الْعَابِدِ لِمَعْبُودِهِ؛ لِحَرِصِهِمْ عَلَى التَّسَلُّطِ، وَأَمَّا الرَّسُولُ ﷺ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ هُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَيَقُولُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ ﴾ (الكهف ١١٠)، فَهُوَ بَشَرٌ فَاقَ غَيْرَهُ بِالْوَحْيِ، أَمَّا الْعِبَادَةُ فَلِلَّهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُحَذِّرُ أَصْحَابَهُ عَنِ الْمُبَالِغَةِ فِي مَدْحِهِ إِلَى مُجَاوِزَةِ الْحَدِّ الْمَشْرُوعِ، فَيَقُولُ: « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

هَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الْأُولَى، وَهِيَ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ أَوَّلِ السُّورَةِ وَآخِرِهَا.

ثُمَّ فَائِدَةٌ أُخْرَى مِنْ الْآيَةِ الَّتِي سَقْنَاهَا مِنْ آخِرِهَا فِي قِصَّةِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ الْجَنِّ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى مُحْبِرًا عَنْ اسْتِجَابَتِهِمْ لِلْحَقِّ: ﴿ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ (الأحقاف ٣٠)، والفائدة هنا في كلمة ﴿طَرِيقٍ﴾، فَقَدْ مَضَتْ الْعَادَةُ فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ أَنَّ الْإِسْتِقَامَةَ تُضَافُ إِلَى الصَّرَاطِ وَصِفَاءً لَا الطَّرِيقَ، لَكِنْ فِي تَعْبِيرِ الْجَنِّ بِالطَّرِيقِ بَدَلًا مِنَ الصَّرَاطِ حِكْمَةٌ يَحْسُنُ بَيَانُهَا، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ» (٢/ ٢٥٤-٢٥٥): «وَأَمَّا ذِكْرُهُ لَهُ بَلْفَظِ الطَّرِيقِ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ خَاصَّةً، فَهَذَا حِكَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِكَلَامِ مُؤْمِنِي الْجَنِّ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف ٣٠)، وَتَعْبِيرُهُمْ عَنْهُ هَهُنَا بِالطَّرِيقِ فِيهِ نُكْتَةٌ بَدِيعَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُمْ قَدَّمُوا قَبْلَهُ ذِكْرَ مُوسَى، وَأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي سَمِعُوهُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كِتَابِ مُوسَى وَغَيْرِهِ، فَكَانَ فِيهِ كَالنَّبَأِ^(١) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعًا مِمَّنْ أُرْسِلَ﴾، أَيْ لَمْ أَكُنْ أَوَّلَ رَسُولٍ بُعِثَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، بَلْ قَدْ تَقَدَّمَتْ رُسُلٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى الْأُمَمِ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُصَدِّقًا لَهُمْ بِمِثْلِ مَا بُعِثُوا بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، فَقَالَ مُؤْمِنُو الْجَنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيِ إِلَى سَبِيلٍ مَطْرُوقٍ قَدْ مَرَّتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ قَبْلَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِبِدْعٍ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ نَفْسِهَا، فَاقْتَضَتْ الْبَلَاغَةُ وَالْإِعْجَازُ لَفْظَ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّهُ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَيْ مَطْرُوقٌ مَشَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ قَبْلُ، فَحَقِيقٌ عَلَى مَنْ صَدَّقَ رِسْلَ اللَّهِ وَآمَنَ بِهِمْ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ

(١) فِي طَبْعَةِ مَجْمَعِ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ (٢/ ٤١٨): «كَالنَّبَأَةِ»، وَلَعَلَّهَا أَوْضَحَ.

وَيُصَدِّقَهُ، فِذِكُرِ الطَّرِيقِ هَهْنَا إِذَا أُولَى؛ لِأَنَّهُ أَدْخَلَ فِي بَابِ الدَّعْوَةِ
وَالْتَّنْبِيهِ عَلَى تَعَيُّنِ أَتْبَاعِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ثُمَّ رَأَيْتُ هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ قَدْ
ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ، فَوَافَقَ فِيهِ الْخَاطِرُ الْخَاطِرَ».

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

مَعْنَى نُصْرَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد ٧).

هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ، فِيهَا سَلَوَانُ الْمُؤْمِنِينَ وَشِفَاءُ صُدُورِهِمْ وَالْحُلُّ النَّاجِعُ لَتَضَعُضِهِمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ خَاصَّةً، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ نُصْرَةِ كُلِّ نَصِيرٍ؛ لِأَنَّ الْخَلْقَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَلَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَى أَحَدٍ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥)، فَمَا نَوْعُ النُّصْرَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا فِي آيَةِ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

قَدْ فَهِمَ قَوْمٌ أَنَّ نُصْرَةَ اللَّهِ تَعْنِي بِكُلِّ بَسَاطَةٍ أَنْ يَظَلَّ الْمَرْءُ شَاكِي السَّلَاحِ، يُقَاتِلُ بِلَا هَوَادَةٍ، وَكَلَّمَا اعْتَدِيَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنِ نُصْرَتِهِمْ بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ وَجِدَتْ الْقُدْرَةُ أَوْ عَدِمَتْ. وَفَهُمَ قَوْمٌ أَنَّ نُصْرَةَ اللَّهِ تَعْنِي مُغَالَبَةَ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ بِالطَّرُقِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي الْبَرْلَمَانَاتِ، سَوَاءٌ وَافَقَ ذَلِكَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ أَوْ خَالَفَهَا، حَتَّى وَلَوْ أَدَّى إِلَى سُلُوكِ الْمَنَاجِجِ الْمُخَالَفَةِ لِلْإِسْلَامِ فِي جَوْهَرِهِ كَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ عِنْدَهُمْ تَكْفِي!

هَذِهِ بَعْضُ التَّفَاسِيرِ الْمَعْرُوضَةِ الْيَوْمَ عَلَى السَّاحَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَا أَمَثَلَ فِي رَفْعِ الْخِلَافِ مِنْ تَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِأَوْضَحِ بَيَانٍ، فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى

مِنْهُمْ الْكَفَرُ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ
 ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا
 الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ (آل عمران ٥٢-٥٣)، فذكر الله
 هُنَا أَنَّ الْحَوَارِيِّينَ اسْتَحَقُّوا لِقَابَ الْأَنْصَارِ؛ لِأَنَّهُمْ حَقَّقُوا الْإِخْلَاصَ
 وَالْمُتَابَعَةَ، وَالْإِخْلَاصُ مُسْتَخْلَصٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، وَالْمُتَابَعَةُ
 مُسْتَخْلَصَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ
 نَصَرُوهُ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرْفَعُوا سَيْفًا يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْهُ آنَذَاكَ،
 وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَفْسِيرٌ لِلنُّصْرَةِ الْمَشْرُوطِ بِهَا
 النَّصْرُ فِي آيَةِ الْبَابِ، فَقَدْ دَلَّ هُنَا عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَنْ يَنْصُرُوا اللَّهَ
 بِأَحْسَنَ مِنَ الْإِخْلَاصِ لَهُ ﷻ وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَدَلَّ هَذَا الْوَعْدُ
 الْكَرِيمُ مِنَ اللَّهِ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَتَحَقَّقَ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُحَقِّقُوا هَذَيْنِ
 الشَّرْطَيْنِ، وَهَذَا يُؤَكِّدُ لِأَهْلِ الْيَقِينِ بَوْعِدِ اللَّهِ سَبَبَ تَأَخُّرِ النَّصْرِ عَنْ
 الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، وَأَنَّ أَيَّ سَعْيٍ لَتَحْقِيقِهِ مِنْ غَيْرِ بَابِ الْإِخْلَاصِ الَّذِي
 هُوَ إِصْلَاحُ الْعَقِيدَةِ، وَبَابِ الْمُتَابَعَةِ الَّذِي هُوَ إِصْلَاحُ الْعَمَلِ بِالسُّنَّةِ
 سَعْيٍ ضَائِعٍ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ.

وقد ضَرَبَ اللَّهُ لَنَا مَثَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ فِي تَارِيخِ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، تَجَلَّى
 فِي كُلِّ مِنْهُمَا تَخَلُّفُ النَّصْرِ زَمَنًا مَا عَمَّنْ قَصَرَ فِي أَحَدِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ،
 وَهُمَا:

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: مَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ؛ فَقَدْ رَأَى بَعْضُ
 الْمُجَاهِدِينَ كَثَرَتَهُمْ وَغَفَلُوا غَفْلَةً مَا حَتَّى قَالُوا: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ

قَلَّةٌ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَعْضَ الْهَزِيمَةِ بِأَدْيِ الْأَمْرِ نَتِيجَةً لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي لَوْ اسْتَرْسَلَ فِيهَا الْمَرْءُ رَبِّمَا أَدَّتْ إِلَى نُقْصَانِ الْإِخْلَاصِ، وَفِي هَذَا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة ٢٥).

المِثَالُ الثَّانِي: مَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَدْ أَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْهَزِيمَةَ فِي بَدْءِ الْقِتَالِ؛ بِسَبَبِ ارْتِكَابِ بَعْضِهِمْ مَعْصِيَتَيْنِ فَقَطْ، الْأُولَى فِي مُحَالَفَتِهِمْ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ نَزْوِحِهِمْ مِنَ الْجَبَلِ الَّذِي أُمِرُوا بَلْزُومِهِ، وَالثَّانِيَةُ فِي أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ قَبْلَ تَشْرِيْعِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ اللَّهَ عَاقَبَهُمْ بِذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ (٣٢ / ١ - ٣٣) وَغَيْرُهُ وَهُوَ صَحِيحٌ، وَهَذَا فِي نُقْصَانِ الْمَتَابَعَةِ، وَفِي هَذَا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران ١٦٥).

هَذَا كُلُّهُ حَصَلَ فِي عَهْدِ أَفْضَلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بَلْ فِي عَهْدِ أَفْضَلِ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّمِ الْأَنْبِيَاءِ، الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران ١١٠)، كَانَتْ أَكْمَلَ دِينًا وَأَحْسَنَ إِخْلَاصًا وَمُتَابَعَةً، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ عُوتِبَتْ بِمَا عُوتِبَتْ بِهِ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ بِمُجَرَّدِ وَقُوعِ بَعْضِهَا الْمَرَّةَ وَالْمَرَّتَيْنِ فِيمَا يَقَعُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَرَّاتٍ لَا تُحْصَى فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ، ثُمَّ يَقُومُ الْيَوْمُ الطَّامِعُونَ الْخَيَالِيُّونَ بِتَحْدِيثِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالنَّصْرِ قَبْلَ تَحْدِيثِهَا بِشُرُوطِهِ، بَلْ

رَبِّمَا كَانَ مِنْ مَّنْهَجِ بَعْضِهِمْ وَجُوبُ إِغْفَالِ السَّيِّئَاتِ وَلَوْ كَانَتْ عَقْدِيَّةً؛
حَتَّى لَا يُثَبِّطَ أَحَدٌ عَنِ الْجِهَادِ!!!

وَلَيْسَ الْغَرَضُ هُنَا بَسْطُ الْقَوْلِ، وَلَكِنَّ الْغَرَضُ مِنْهُ التَّذْكِيرُ بِمَا قَلَّ
وَدَلَّ، وَقَدْ نَقَلْتُ النُّصُوصَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ فِي كِتَابِ « السَّبِيلِ إِلَى
الْعِزِّ وَالتَّمَكُّنِ »، وَسَيَأْتِي زِيَادَةٌ بِحِثِّ هُنَا عِنْدَ سُورَةِ الصَّفِّ إِنْ شَاءَ
اللَّهُ.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الْفَرْقُ بَيْنَ (مِنْ) التَّبَعِيضِيَّةِ وَ(مِنْ) الْبَيَانِيَّةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَطَطُهُ فَأَزَّزَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح ٢٩).

نَظَرَ الْحَاقِدُونَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ الْمَادِحَةِ لِلصَّحَابَةِ ﷺ فَقَلَّبُوهَا ذَمًّا لَهُمْ، حَتَّى مِنْهَا مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالِ أَحَدٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي هِيَ آخِرُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ، وَالَّتِي لَوْ ثَلَيْتَ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَيِّ دِينٍ كَانَ لَشَهِدَ بِأَنَّهَا تُشِيدُ بِفَضْلِ الصَّحَابَةِ ﷺ، فَقَدْ زَعَمَ الْمُشَارُّ إِلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَمْدَحْ جَمِيعَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ بِدَلِيلٍ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، قَالُوا: اسْتَعْمَلَ كَلِمَةً ﴿مِنْهُمْ﴾، وَ(مِنْ) تَبَعِيضِيَّةٌ!!

كَذَا قَالُوا قَاتَلَهُمُ اللَّهُ! وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّ (مِنْ) تَأْتِي لِلتَّبَعِيضِ، كَمَا تَأْتِي لغير التَّبَعِيضِ كَالْبَيَانِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي آيَةِ الْبَابِ، لَكِنَّ الرَّوَافِضَ نَقَلُوهَا مِنْ (مِنْ) الْبَيَانِيَّةِ إِلَى (مِنْ) التَّبَعِيضِيَّةِ إِلَى (مِنْ) التَّبَعِيضِيَّةِ!!! وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج ٢٥).

(٣٠)، فَهَلْ يَقُولُ أَحَدٌ: إِنَّ ﴿ مِنْ ﴾ هُنَا تَبْعِيضِيَّةٌ، فَتَكُونُ عِبَادَةُ بَعْضِ الْأَوْثَانِ جَائِزَةً؟! قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي « تَفْسِيرِهِ »: « ﴿ مِنْ ﴾ هَهْنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ، أَيْ اجْتَنَبُوا الرَّجْسَ الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ »، وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي « مُغْنِي اللَّيْبِ عَنْ كُتُبِ الْأَعَارِبِ » (٢/ ١٥): « وَفِي كِتَابِ الْمَصَاحِفِ لابن الأنباري أَنَّ بَعْضَ الزَّنادِقَةِ تَمَسَّكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً ﴾ فِي الطَّعْنِ عَلَى بَعْضِ الصَّحَابَةِ، وَالْحَقُّ أَنَّ (مِنْ) فِيهَا لِلتَّبْيِينِ وَلَا لِلتَّبْعِيضِ، أَيْ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ هَؤُلَاءِ، وَمِثْلُهُ: ﴿ الَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران ١٧٢)، وَكُلُّهُمْ مُحْسِنٌ وَمُتَّقٍ، ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (المائدة ٧٣)، فَالْمَقُولُ فِيهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُمْ كَفَّارٌ، أَيْ هُمْ نَصَارَى، وَقَدْ كَفَرَهُمُ اللَّهُ ﷻ هُنَا بِصِنْفِيهِمْ جَمِيعًا: الَّذِينَ ادَّعَوْا فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ الْأُلُوهِيَّةَ مُبَاشَرَةً، وَالَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ فِي الْأَوَّلِينَ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِإِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة ٧٢)، وَقَالَ بَعْدَهَا فِي الْآخَرِينَ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، فَهَلْ يُقَالُ: إِنَّ لَفْظَ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ هُنَا لِلتَّبْعِيضِ، فَيَكُونُ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ مُعَذَّبًا، وَبَعْضُهُمْ غَيْرَ

مُعَذِّبٌ!!؟

وقال ابنُ تيمية في « مِنْهَاجِ السُّنَّةِ » (٢/ ٣٨-٣٩): « فَإِنْ قِيلَ: لَمْ قَالَ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ ، ولم يَقُلْ: وَعَدَهُمْ كُلَّهُمْ؟ قِيلَ: كَمَا قَالَ: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (سورة النور ٥٥)، ولم يَقُلْ: وَعَدَكُمْ، وَ(مِنْ) تَكُونُ لِبَيَانِ الْجِنْسِ فَلَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ قَدْ بَقِيَ مِنَ الْمَجْرُورِ بِهَا شَيْءٌ خَارِجٌ عَنِ ذَلِكَ الْجِنْسِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۚ ﴾ (سورة الحج ٣٠)، فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوْثَانِ مَا لَيْسَ بِرِجْسٍ، وَإِذَا قُلْتَ: ثَوْبٌ مِنْ حَرِيرٍ، فَهُوَ كَقَوْلِكَ: ثَوْبٌ حَرِيرٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ: بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ، كَقَوْلِكَ: بَابٌ حَدِيدٌ، وَذَلِكَ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ حَرِيرٌ وَحَدِيدٌ غَيْرُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي يَتَصَوَّرُهُ كُلِّيًّا، فَإِنَّ الْجِنْسَ الْكُلِّيَّ هُوَ مَا لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرَهُ مِنْ وَقُوعِ الشَّرَكَةِ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُشْتَرَكًا فِيهِ فِي الْوُجُودِ، فَإِذَا كَانَتْ (مِنْ) لِبَيَانِ الْجِنْسِ كَانَ التَّقْدِيرُ: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ، وَإِنْ كَانَ الْجِنْسُ كُلُّهُمْ مُؤْمِنِينَ مُصْلِحِينَ، وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ وَالصَّنْفِ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ هَذَا الْجِنْسِ مُؤْمِنِينَ صَالِحِينَ، وَلَمَّا قَالَ لِأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَالِحًا تُوْتَاهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۖ ﴾ (سورة الأحزاب ٣١)، لَمْ يَمْنَعْ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنْهُنَّ تَقْنَتْ لِلَّهِ

وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا، وَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا آيَيْنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنعام ٥٤) لم يَمْنَعْ هَذَا أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنْهُمْ مُتَّصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ لَوْ عَمِلُوا سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحُوا لَمْ يُغْفَرَ إِلَّا لِبَعْضِهِمْ».

وَمِنَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٨٩) عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» الْحَدِيثُ، قَالَ الْمُبَارَكْفُورِيُّ فِي «تَحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ» (٦/٣٣٢): «قَالَ الْخَطَّابِيُّ: تَوَهُّمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ (مِنْ) فِي (مِنْهَا) لِلتَّبْعِيضِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا تَوَهُّمَهُ، بَلْ هِيَ لِلتَّفْصِيلِ لِلجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَالتَّفْصِيلُ لَا يُنَاقِضُ الْجُمْلَةَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَرْضَ زُوِيَتْ لِي جُمْلَتُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، ثُمَّ هِيَ تُفْتَحُ لِأُمَّتِي جُزْأً فَجُزْأً حَتَّى يَصِلَ مُلْكُ أُمَّتِي إِلَى كُلِّ أَجْزَائِهَا».

سورة الحجرات حاجة الناس إلى الوحي

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَا يَمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ (الحجرات ٧).

هذه آية عظيمة خاطب الله بها أعظم أمة تبعَت نبيها، وهم الصحابة رضي الله عنهم، وبين لهم فيها أنه سبحانه لو تركهم يشرعون لأنفسهم من عند أنفسهم لجاء في تشريعهم الخلل ولشقوا على أنفسهم، مع أنهم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم: أبعد الناس عن الهوى، وأقربهم إلى الحق تعلماً واستقامة عليه، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، فكيف بمن بعدهم؟! وقد لآخ هذا المعنى لواحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وكان قد استخلصه من آية الباب، رواه عنه ابنُ نصر الخزازي في «الاعتصام بالكتاب والسنة» رقم (١) بإسناد صحيح أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾: «هذا نبيكم وخيار أمتكم، فكيف أنتم؟!»، ولا بأس أن أُنَبِّه هنا على أمرين:

الأول: أن هذه الآية مناسبة لمطلع السورة الذي نهى الله فيه عن التَّقدم بين يديه ويدي رسوله برأي أو غيره؛ وذلك هو قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ (الحجرات ١)، وعلى هذا يكون في آية الباب تعليل لهذا

النَّهْي، أَي لَا تَقُولُوا حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَلَا تَخْتَارُوا حَتَّى يَخْتَارَا لَكُمْ، وَلَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَكُونُوا تَابِعِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ الَّذِي فِيكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ، وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَسَدُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ، وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ التَّنَاسُبِ.

الثَّانِي: لَعَلَّ أَوْضَحَ مِثَالٍ دَالٌّ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الْآيَةُ مَا جَرَى لِلصَّحَابَةِ فِي صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، فَقَدْ رَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُؤْمِنِينَ إِذْ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ مُنَاجَزَةَ الْمُشْرِكِينَ حِينَ صَدُّوهُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَكَانَ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ يَرْغَبُ بِشِدَّةٍ وَحِمَاسَةٍ فِي مُنَاجَزَتِهِمْ، وَبَعْدَ مَضِيِّ الصُّلَحِ حَصَلَ خَيْرٌ عَظِيمٌ، تَبَيَّنَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ ﷺ أَنَّ لَوْ أَطَاعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي اخْتِيَارِهِمْ لَحَصَلَ لَهُمْ عَنَتٌ، وَلِذَلِكَ كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ يَقُولُ: « أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ؛ وَاللَّهِ! لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ وَلَوْ أَنِّي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرَدَدْتُهُ »، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَقَدْ اخْتَرْتُ هَذَا الْمِثَالَ لِآيَةِ الْبَابِ كَمَا فَعَلَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « الصَّارِمِ الْمَسْلُوبِ » (٢/ ٣٧١-٣٧٢)، ثُمَّ كَانَ مِمَّا قَالَ تَعْلِيْقًا عَمَّا جَرَى فِي الصُّلَحِ: « فَهَذِهِ أُمُورٌ صَدَرَتْ عَنْ شَهْوَةٍ وَعَجَلَةٍ لَا عَنْ شَكٍّ فِي الدِّينِ، كَمَا صَدَرَ عَنْ حَاطِطِ التَّجَسُّسِ لِقُرَيْشٍ، مَعَ أَنَّهَا ذُنُوبٌ وَمَعَاصِيٌ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِهَا أَنْ يَتُوبَ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ عِصْيَانِ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ »، وَقَالَ أَيْضًا فِي بَيَانِ أَنْوَاعِ مُوَاجَهَاتِ النَّاسِ لِلرَّسُولِ ﷺ (٢/ ٣٧٥-٣٧٦): « وَبِالْجُمْلَةِ، فَالْكَلِمَاتُ فِي هَذَا الْبَابِ

ثلاثة أقسام:

إحداهنَّ: ما هو كفرٌ، مثلُ قوله: إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله.

الثاني: ما هو ذنبٌ ومَعْصِيَةٌ يُخَافُ على صاحِبِهِ أنْ يَحْبِطَ عَمَلُهُ، مثلُ رَفْعِ الصَّوْتِ فوقَ صَوْتِهِ، ومِثْلُ مُرَاجَعَةٍ مَن رَاجَعَهُ عَامَ الحُدَيْبِيَّةِ بعدَ ثَبَاتِهِ على الصُّلْحِ، ومُجَادَلَةِ مَن جَادَلَهُ يَوْمَ بدرٍ، بعدَ ما تَبَيَّنَ له الحَقُّ، وهذا كُلُّهُ يَدْخُلُ في المُخَالَفَةِ عن أَمْرِهِ.

الثالث: ما ليسَ من ذلك، بل يُحَمَّدُ عَلَيْهِ صاحِبُهُ أو لَا يُحَمَّدُ، كَقَوْلِ عَمْرٍ: ما بَالُنَا نَقْصِرُ الصَّلَاةَ وَقَدْ أَمِنَّا^(١)؟ وكَقَوْلِ عائِشَةَ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿فَأَمَّا مَن أَوْقَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (الحاقة ١٩)^(٢)؟ وكَقَوْلِ حَفْصَةَ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم ٧١)؟^(٣) ... «.

(١) أخرجه مسلم (٦٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

دَلِيلُ اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ (قَوْمٍ) لِلإِنثَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات ١١).

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١/١٤٣): «وَالْقَوْمُ الرِّجَالُ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ النِّسَاءُ تَبَعًا»، وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْعَذْبِ النَّمِيرِ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ» (١/٣٦٢): «قَوْمُ الرَّجُلِ: أَصْلُهُمْ جَمَاعَتُهُ، وَ(الْقَوْمُ) فِي وَضْعِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ يُطْلَقُ عَلَى الذُّكُورِ خَاصَّةً، وَرَبَّمَا دَخَلَ فِيهِمُ الْإِنثَاءُ بِحُكْمِ التَّبَعِ، فَالدَّلِيلُ عَلَى إِطْلَاقِهِ عَلَى الذُّكُورِ خَاصَّةً فِي الْوَضْعِ الْعَرَبِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْخَرُونَ قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ﴾، فَعُطِفَ النِّسَاءُ عَلَيْهِمْ يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ اسْمِ (الْقَوْمِ) بِالذُّكُورِ دُونَ الْإِنثَاءِ، وَنَظِيرُهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ
وَالدَّلِيلُ عَلَى دُخُولِ النِّسَاءِ فِي اسْمِ (الْقَوْمِ) بِحُكْمِ التَّبَعِ قَوْلُهُ
تَعَالَى فِي بَلْقِيسَ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ
قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (النمل ٤٣)، دَخَلَتْ بِالتَّبَعِ، بِدَلِيلِ قَرِينَةِ السِّيَاقِ.

سُورَةُ ق النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق ٣٥).
 فَسَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَلِمَةَ ﴿مَزِيدٌ﴾ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ
 الْكَرِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا فِي «تَفْسِيرِ الْبَغْوِيِّ» (٢٢٦/٤)، وَ«زَادَ
 الْمَسِيرُ» لابْنِ الْجَوَازِيِّ (٢١/٨)، وَ«رُوحُ الْمَعَانِي» لِلْأَلُوسِيِّ
 (١٩٠/٢٦)، وَكَذَلِكَ فَسَّرُوا كَلِمَةَ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ فِي الْآيَةِ (٢٦) مِنْ
 سُورَةِ يُنُوسٍ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَدَيْنَا
 مَزِيدٌ﴾ كَقَوْلِهِ ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يُونُسُ ٢٦)،
 وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي (صَحِيحِ مُسْلِمٍ) عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الرَّومِيِّ أَنَّهَا النَّظَرُ
 إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ رَوَى الْبَزَّازُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ
 شَرِيكِ الْقَاضِي عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عُمَيْرٍ أَبِي الْيَقْظَانِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قَالَ: يَظْهَرُ لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ فِي
 كُلِّ جُمُعَةٍ، وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١٧٣/٢٦)
 وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ».

وَأَمَّا حَدِيثُ صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، فَقَدْ رَوَاهُ عَنْ
 النَّبِيِّ ﷺ بَلْفَظٍ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ
 تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا
 أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ

أَحْسِنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةً ﴿٤﴾ .

فَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ عُلِمَ وَجْهُ تَسْمِيَةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ
(زِيَادَةً)، نَسَأُلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ يَوْمَ نَلْقَاهُ فِي
غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ

أَدَبُ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي رَدِّ السَّلَامِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (الذَّارِيَّاتِ ٢٤ - ٢٥).

لَطَالِبُ الْعِلْمِ أَنْ يَسْأَلَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَدِّ السَّلَامِ بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الْعَدْلُ، كَمَا أَنَّهُ نَدَبَ إِلَى أَنْ يَكُونَ الرَّدُّ بِأَحْسَنَ مِنْهُ وَهُوَ الْفَضْلُ، فَقَالَ: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (النساء ٨٦)، فَهَلْ خَرَجَ رَدُّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ عَلَى الْمَلَائِكَةِ سَلَامَهُمْ مَخْرَجَ الْعَدْلِ أَوْ الْفَضْلِ، مَعَ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ تَفْضُلٍ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ ضُيُوفٌ، وَمِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ زِيَادَةُ الْإِحْسَانِ إِلَى الضَّيْفِ؟

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ » (٢/ ٣٨٥ - ٣٨٧): « وَأَمَّا السُّؤَالُ الْعَاشِرُ: وَهُوَ السَّرُّ فِي نَصْبِ سَلَامِ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَلَائِكَةِ وَرَفَعِ سَلَامِهِ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ قَوْلَ النُّحَاةِ فِيهِ أَنَّ سَلَامَ الْمَلَائِكَةِ تَضَمَّنَ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً؛ لِأَنَّ نَصْبَ السَّلَامِ يَدُلُّ عَلَى: سَلَمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا، وَسَلَامُ إِبْرَاهِيمَ تَضَمَّنَ جُمْلَةً اِسْمِيَّةً؛ لِأَنَّ رَفْعَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، وَالْجُمْلَةُ اِلْاِسْمِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالتَّقَرُّرِ، وَالْفِعْلِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ وَالتَّجَدُّدِ، فَكَانَ سَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَكْمَلَ مِنْ سَلَامِهِمْ عَلَيْهِ، وَكَانَ لَهُ مِنْ مَقَامَاتِ الرَّدِّ مَا يَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ ﷺ، وَهُوَ

مَقَامُ الْفَضْلِ إِذْ حَيَّاهُمْ بِأَحْسَنَ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ، هَذَا تَقْرِيرُ مَا قَالُوهُ،
وَعِنْدِي فِيهِ جَوَابٌ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ حِكَايَةَ سَلَامِ
الْمَلَائِكَةِ، فَنَضَبَ قَوْلَهُ: ﴿سَلَمًا﴾ انْتِصَابَ مَفْعُولِ الْقَوْلِ الْمُفْرَدِ، كَأَنَّهُ
قِيلَ: قَالُوا قَوْلًا سَلَامًا، وَقَالُوا سَدَادًا وَصَوَابًا وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْقَوْلَ
إِنَّمَا تُحْكِي بِهِ الْجُمْلَ، وَأَمَّا الْمُفْرَدُ فَلَا يَكُونُ مُحْكِيًا بِهِ، بَلْ مَنْصُوبٌ بِهِ
انْتِصَابَ الْمَفْعُولِ بِهِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ (الفرقان ٦٣)، لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ قَالُوا هَذَا
الْلَفْظَ الْمُفْرَدَ الْمَنْصُوبَ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: قَالُوا قَوْلًا سَلَامًا مِثْلَ سَدَادًا
وَصَوَابًا، وَسُمِّيَ الْقَوْلُ سَلَامًا؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي مَعْنَى السَّلَامِ وَيَتَضَمَّنُهُ،
مِنْ رَفْعِ الْوَحْشَةِ وَحُصُولِ الْاسْتِثْنَاءِ، وَحَكَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ لَفْظَ
سَلَامِهِ، فَاتَى بِهِ عَلَى لَفْظِهِ مَرْفُوعًا بِالْإِتْدَاءِ مُحْكِيًا بِالْقَوْلِ، وَلَوْلَا قَصْدُ
الْحِكَايَةِ لَقَالَ: سَلَامًا بِالنَّصْبِ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَ الْقَوْلِ إِذَا كَانَ مَرْفُوعًا
فَعَلَى الْحِكَايَةِ لَيْسَ إِلَّا، فَحَصَلَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ فِي حِكَايَةِ
سَلَامِ إِبْرَاهِيمَ وَرَفْعِهِ وَنَضَبِ ذَلِكَ إِنْشَاءً إِلَى مَعْنَى لَطِيفٍ جَدًّا، وَهُوَ
أَنَّ قَوْلَهُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الْمُتَلَقَّى عَنْ إِمَامِ الْخُفَاءِ وَأَبِي
الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا وَبَاتِّبَاعِهَا، فَحَكَى لَنَا
قَوْلَهُ لِيَحْصَلَ الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَالْإِتْبَاعُ لَهُ، وَلَمْ يَحْكُ قَوْلَ أَضْيَافِهِ، وَإِنَّمَا
أَخْبَرَ بِهِ عَلَى الْجُمْلَةِ دُونَ التَّفْصِيلِ وَالْكِفْيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَرِزْنَا هَذَا
الْجَوَابَ وَالَّذِي قَبْلَهُ بِمِيزَانٍ غَيْرِ جَائِرٍ يَظْهَرُ لَكَ أَقْوَاهُمَا، وَبِاللَّهِ
التَّوْفِيقُ.»

ثُمَّ قَالَ: « وَأَمَّا السُّؤَالُ الْحَادِي عَشَرَ: وَهُوَ نَصَبُ (السَّلَامِ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ٦٣، وَرَفَعَهُ فِي قَوْلِهِ حِكَايَةً عَنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الْقَصص ٥٥)، فَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَدَحَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ٦٣، (الْفِرْقَان ٦٣)، فَـ ﴿سَلِّمْ﴾ هُنَا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، هُوَ الْقَوْلُ نَفْسُهُ، أَيِ قَالُوا قَوْلًا سَلَامًا، أَيِ سَدَادًا وَصَوَابًا وَسَلِيمًا مِنَ الْفُحْشِ وَالْحَنَاءِ، لَيْسَ مِثْلُ قَوْلِ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يُخَاطِبُونَهُمْ بِالْجَهْلِ، فَلَوْ رَفَعَ (السَّلَامَ) هُنَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ الْمَدْحُ الْمَذْكُورُ، بَلْ كَانَ يَتَضَمَّنُ أَنََّّهُمْ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ سَلَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ وَلَا مَدْحٌ فِيهِ، وَإِنَّمَا الْمَدْحُ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يُقَابِلُونَ الْجَهْلَ بِجَهْلٍ مِثْلِهِ، بَلْ يُقَابِلُونَهُ بِالْقَوْلِ السَّلَامِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ السَّيِّئَةِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الَّتِي لَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ، وَتَفْسِيرُ السَّلَفِ وَالْفَاطِمُ صَرِيحَةٌ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَمَعْتَ الْآيَةَ وَصَفَهُمْ فِي حَرَكَتِي الْأَرْجُلِ وَالْأَلْسُنِ بِأَحْسَنِهَا وَالطِّفْهِ وَأَحْكَمِهَا وَأَوْقَرِهَا، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَيِ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، وَهُوَ بَفَتْحِ الْهَاءِ مِنْ الشَّيْءِ الْهَيِّنِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ هَانَ هَوْنًا، أَيِ سَهْلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: يَمْشِي عَلَى هَيْئَتِهِ، وَلَا أَحْسَبُهَا إِلَّا مُوَلَّدَةً، وَمَعَ هَذَا فَهِيَ قِيَاسُ اللَّفْظَةِ؛ فَإِنَّهَا عَلَى بِنَاءِ الْحَالَةِ وَالْهَيْئَةِ، فَهِيَ فَعْلَةٌ مِنَ الْهَوْنِ، وَأَصْلُهَا هَوْنَتُهُ فَقُلِبَتْ

واؤها ياء لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادّة والتّصريف، وأمّا
 الهون بالضمّ فهو الهوان، فأعطوا حركة الضّمّ القويّة للمعنى الشّدِيد
 وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السّهلة للمعنى السّهل وهو الهون،
 فوصف مشيهم بأنّه مشي حليم ووقارٍ وسكينة، لا مشي جهلٍ وعُنفٍ
 وتبخترٍ، ووصف نطقهم بأنّه سلامٌ، فهو نطقٌ حليم وسكينة ووقارٍ،
 لا نطقٌ جهلٍ وفُحشٍ وخنا وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنّطق في
 الآية، فلا يليق بهذا المعنى الشّريف العظيم الخطير أن يكون المرادُ منه
 سلامٌ عليكم، فتأمّله، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا
 عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾
 (القصص ٥٥)، فإنّها وصفٌ لطائفةٍ من مؤمني أهل الكتاب قدّموا على
 رسول الله ﷺ مكّة المكرّمة فآمنوا به، فعيرهم المشركون وقالوا:
 قُبْحُكُمْ مِنْ وَفْدِ بَعْثِكُمْ قَوْمُكُمْ لَتَعْلَمُوا خَبَرَ الرَّجُلِ، ففارقتم دينكم
 وتبعتموه ورغبتهم عن دين قومكم!! فأخبر عنهم سبحانه بأنّهم
 خاطبوهم خطاب متاركة وإعراضٍ وهجرٍ جميلٍ، فقالوا: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا
 وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، وكان رفعُ
 (السّلام) مُتَعَيِّنًا؛ لأنّه حكاية ما قد وقع، ونصبُ (السّلام) في آية
 الفرقانِ مُتَعَيِّنًا؛ لأنّه تعلیم وإرشادٌ لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن
 يعتمدّه إذا خاطبه الجاهلُ، فتأمّل هذه الأسرار التي أدناها يساوي
 رحلته، والله تعالى المحمود وحده على ما منّ به وأنعم، وهي المواهبُ
 من ربّ العباد، فما يقال: لولا؟ ولا: هلا؟ ولا: فلم؟ .

سورة الطور الإعجاز بالسَّهْلِ الْمُتَنَبِّعِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾
 ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِمْ رَبِّبِ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَلِيَّ
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ
 طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلَهُ
 إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾
 أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ
 أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ
 مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
 فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿(الطور ٢٩-٤٣)﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ أَسْئَلُهُ طُرَحَتْ عَلَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ، كُلُّهَا مِنَ الْمُسْلِمِ
 جَوَابُهُ عِنْدَهُمْ، لَا يَسْتَنْكِرُونَ وَاحِدًا مِنْهَا؛ لِيُوصَلَ فِي الْأَخِيرِ إِلَى
 الزَّامِهِمْ بِمَا اسْتَنْكَرُوهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَلَا وَهُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ،
 وَالْمُلَاحَظَةُ فِيهَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْهَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهُ، مَعَ أَنَّهَا خَمْسَةُ عَشَرَ
 الزَّامًا، قَالَ الْإِسْكَافِيُّ فِي «دُرَّةِ التَّنْزِيلِ» (ص ٣١٠-٣١٢): «إِنَّ
 عَبْدَةَ الْأَوْثَانِ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْحِجَى وَأُولُوا النَّهْيِ
 أُلْزِمُوا فِي سُورَةِ الطُّورِ الْإِزَامَاتِ يَسْتَنْكِرُونَهَا وَلَا يَقُولُونَ بِهَا إِذَا

صدقوا عقولهم عنها، وهي خمسة عشر إلزاماً:

أولها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ ﴿٢٨٧٦﴾ بعد قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿٢٨٧٧﴾، والقوم عَرَفُوا الشُّعَرَ وطريقه، وهذا الكلام وأسلوبه، ولو تدبروه علموا أنه لَيْسَ بِشُعْرٍ، وأن النَّبِيَّ ﷺ لَيْسَ بِشَاعِرٍ.

والثاني: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا﴾، أي تَدْعُوهُمْ عُقُولُهُمْ إِلَى عِبَادَةِ مَنْ هُمْ فَوْقَهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَحْيَاءُ وَتِلْكَ أَمْوَاتٌ، وَهَمْ يَعْقِلُونَ وَتِلْكَ لَا تَعْقِلُ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ، وَمَا بَعْدَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَابِ، وَهُوَ: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ ﴿٢٨٧٨﴾، أي طَالِبُونَ اعْتِلَاءً بِالْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ، وَهَذَا ثَالِثٌ.

والرَّابِعُ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾، أي اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ كَمَا زَعَمُوا فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي عَجَزُوا عَنْهُ، فَلَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ فِيهِ، وَهَذَا رَابِعٌ.

والخَامِسُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، أي: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا يَقُولُونَ بِهِ.

والسَّادِسُ ^(١): ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٢٨٧٩﴾، فَلَا أَمْرَ عَلَيْهِمْ وَلَا نَهْيَ، وَهَذَا أَيْضاً سَادِسٌ لَا يَقُولُونَهُ.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٨٨٠﴾، وَهَذَا أَيْضاً

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٠٣) وَمُسْلِمٌ (٢٨٧٦).

سَابِعٌ لَا يَدْعُونَهُ، وَهُوَ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيْسَ لَهَا خَالِقٌ قَدِيمٌ لَا يُشَبِّهُهُ الْمَخْلُوقِينَ، وَهُمْ خَلَقُوهَا!! بَلْ لَا يَسْلُكُونَ طَرِيقَ الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ لِيُؤَدِّبَهُمْ إِلَى بَرْدِ الْيَقِينِ^(١).

وَالثَّامِنُ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ﴾، أَي: أَمْ يَعْلَمُونَ مَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَمَا فِي عِلْمِهِ أَنْ يُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا عَلِمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ عَجْزَهُمْ عَنْهُ وَجَبَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ لَجَمِيعِ ذَلِكَ فَيُفَرِّدُوهُ بِالْعِبَادَةِ.

وَالتَّاسِعُ: ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾^(٢)، أَي الْمُسْلَطُونَ عَلَى النَّاسِ وَالْمَقْمُومُونَ لَهُمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَالْعَاشِرُ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ﴾^(٣) فَلَيَّاتٍ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ^(٤)، أَي أَمْ لَهُمْ مَا يَتَسَبَّبُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَسَمَاعِ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ وَمَا يَتَذَكَّرُونَهُ مِنْ أَخْبَارِ مَا يُجْرِيهِ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَعْلَمُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الدِّينِ عَلَى الْبَاطِلِ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَلَيَّاتٍ مُسْتَمِعُهُمْ بِحُجَّةٍ قَاهِرَةٍ، وَهِيَ أَخْبَارٌ عَنْ غُيُوبٍ تَصَحُّحُ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَالْحَادِي عَشَرَ: ^(٢)تَعْجَبَ الْخَلْقُ^(٣) مِمَّا أَدَّعَوْهُ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتٌ

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٦٠٣/٨): «أَي إِنْ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَدْعُوا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ، فَلْيَدْعُوا خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُهُمْ، فَقَامَتِ الْحُجَّةُ».

(٢) هَكَذَا فِي الْمَطْبُوعِ، وَلَعَلَّهُ سَقَطَتِ الْآيَةُ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾^(٤).

(٣) هَكَذَا، وَلَعَلَّهُ: الْخَالِقُ.

الله تعالى، فقال: يَرْزُقُكُمْ الْبَنِينَ وَيَجْعَلُ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ، وصاحبُ البنين
أعلى كلمة من صاحب البنات.

والثاني عشر: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾، أي أم
ثقل عليهم تصديقك لأنك ألزمتهم ما لا يغرّمونه لك أجرًا على ما
هديتهم له، ولا عذر لهم في ذلك؛ لأنك لم تفعله.

والثالث عشر: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، أي أم
يدعون علم الغيب وما يكون في مستقبل الدهر، فيتصوّر لهم أن
أمرك لا يثبت، وأنه يضمحل عن قريب، خلاف ما وعد الله تعالى في
قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الفتح ٢٨)، وقيل: أم يعلمون الغيب بوحى من السماء
فيكتبونه ويلقونه إلى الناس كما تفعله الأنبياء ﷺ.

والرابع عشر: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾،
أي أم يريدون بالممانعة والمدافعة والانقياد للمتابعة احتيالاً عليك
لإبادة أصحابك وقتلك، وتدبير ذلك سرًا منك، والكفار هم الذين
ينقلب عليهم ما يدبرونه على المؤمنين، فيكونون هم المقهورون
المغلوبون^(١)، والهاككون المقتولون، فانقطعت الآية الثالثة عشر عن
الاحتجاجات إلى المطالبات بالمأكرات لاستيعاب أكثر ما في الباب،
وختمت هذه.

(١) هكذا بالأصل.

الخامس عشر: ﴿ أَمْ هُمْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ ﴾، أي خالقٌ يحقُّ عليكم عبادته غير الله الذي خلق السموات والأرض، وذلك يجب أن يكون على صفة الله تعالى من القدرة والعلم والإنعام بما يحقُّ له العبادَةُ، سبحانه الله عن ذلك .

إنَّ إعجازَ هذه الآيات يتمثل في قوَّة الاحتِجاجِ بها لا قبلَ للخصم برَدِّ شيءٍ مِنْه، وقوتُها تتمثل في وضوحها وسهولتها مع تسليم كلِّ عاقلٍ بمضمونها، ولذلك فإنَّ من وجوه الإعجاز أن تحتجَّ بحجَّةٍ مُسلمةٍ يفهمها كلُّ النَّاسِ على اختلافِ مُستوياتهم، فلو تلوَّتها على أُمِّيٍّ فهمها وسلَّم بها، ولو تلوَّتها على مُتعلِّمٍ فهمها وسلَّم بها مَهْمَا ارتقى في سلَّم المعرفة، وهذا الذي امتازَ به كلامُ ربِّ العالمين، مثاله أيضاً ما جاء في أواخر سورة يس، فقد استدَلَّ اللهُ على البعثِ بها لا يرُدُّه أحدٌ، لا من جهة الفهم، ولا من جهة الاحتِجاج، فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٨١)

(يس ٧٧-٨١)، فتأمل ما في هذا الاستفهام الأخير من قوَّة احتِجاج لا يقدرُ على رده أحدٌ، كما لا يتخلَّفُ عن فهمه أحدٌ، فاحتجَّ اللهُ على المعادِ ببَدءِ الخلق؛ لأنَّ الذي يخلق شيئاً أوَّلَ مرَّةٍ يقدرُ على إعادته

أُخْرَى، بَلْ هُوَ أَسْهَلُ، وَهَذَا فِي الْمِثْلِيِّ، كَمَا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِالْأَكْبَرِ؛ لِأَنَّ
الَّذِي يَخْلُقُ الْأَكْبَرَ يَخْلُقُ الْأَصْغَرَ، بَلْ هُوَ أَسْهَلُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر ٥٧)، وَلِذَلِكَ كَانَتْ سُورَةُ الطُّورِ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ
جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رضي الله عنه؛ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ حُجَّةِ الْإِسْتِفْهَامَاتِ الَّتِي وَرَدَتْ
فِيهَا كَمَا مَرَّ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ (٤٨٥٤) عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: « سَمِعْتُ
النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلِيقُونَ﴾ (٢١) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا
يُوقِنُونَ (٢٢) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُونَ ﴾ (٢٣) كَادَ قَلْبِي
أَنْ يَطِيرَ ».

هَذَا النَّوعُ مِنَ الْإِعْجَازِ يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ
أَنَّ الْإِعْجَازَ لَا يَكُونُ بِمَا يَسْتَسْهَلُهُ النَّاسُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْإِعْجَازَ لَيْسَ
قَاصِرًا عَلَى الْإِثْبَانِ بِالْحَدِيدِ، أَوْ عَلَى الْإِثْبَانِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ الْبَشَرُ حَتَّى
يُفْهَمُوا؛ وَإِنَّا الْإِعْجَازُ يَتِمُّلُ فِي الْإِثْبَانِ بِمَا يَعْجُزُ عَنْ مِثْلِهِ الْبَشَرُ،
وَالْبَشَرُ عَاجِزُونَ عَنِ الْإِثْبَانِ بِالْحُجَّةِ السَّهْلَةِ الَّتِي فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ
يَتَعَذَّرُ عَلَى خَصْمِهِمْ رَدُّهَا، فَالْإِعْجَازُ هُنَا مِنْ جِهَتَيْنِ هُمَا: قُوَّةُ الْحُجَّةِ
الَّتِي لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِرَدِّهَا، وَسُهولةُ فَهْمِهَا عَلَى جَمِيعِ طَبَقَاتِ النَّاسِ،
فَقَدْ يَسَّرَهَا اللَّهُ لَهُمْ؛ لِأَنَّ فِيهَا هِدَايَتَهُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ فَهْمَهَا حَكْرًا عَلَى
طَبَقَةٍ مِنْهُمْ، وَهَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ: (السَّهْلُ الْمُمْتَنِعُ).

كَمَا أَنَّ الْحُجَّةَ تَقْوَى إِذَا كَانَتْ جَامِعَةً مَانِعَةً؛ بِحَيْثُ لَا تُغَادِرُ حَالَةَ

إِلَّا أَتَتْ عَلَيْهَا، قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ فِي « الرَّحْلَةِ إِلَى
إِفْرِيْقِيَا » (ص ٧٦-٧٧): « فَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُؤَلَاءِ الْمُنْكَرِينَ تَوْحِيدَهُ فِي
عِبَادَتِهِ: لَا يَخْلُو الْأَمْرُ بِالتَّقْسِيمِ الصَّحِيحِ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْ ثَلَاثِ
حَالَاتٍ:

الأولى: أَنْ يَكُونُوا خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهُمْ أَصْلًا!

الثَّانِيَّةُ: أَنْ يَكُونُوا خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ!

الثَّالِثَةُ: أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَالِقٌ غَيْرُ أَنْفُسِهِمْ هُوَ رَبُّهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ
الوَاحِدُ جَلَّ وَعَلَا.

وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ - الَّتِي انْحَصَرَتْ فِيهَا
الْأَوْصَافُ بِالسَّبَرِ - وَجَدْنَا الْأَوَّلِينَ مِنْهَا بَاطِلِينَ بُطْلَانًا ضَرُورِيًّا لَا
يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، فَتَعَيَّنَ صَحَّةُ الْقِسْمِ الثَّالِثِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَلَقَهُمْ خَالِقٌ
هُوَ رَبُّهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ، فَدَلَالَةُ هَذَا السَّبَرِ وَالتَّقْسِيمِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ
قَطْعِيَّةٌ، وَقَدْ عُرِفَ فِي الْآيَةِ الْقِسْمُ الصَّحِيحُ مِنَ الْأَقْسَامِ لظُهُورِهِ،
وَلأنَّهُ ذُكِرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى، (وَحَذَفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ) .

سُورَةُ النُّجْمِ سِرُّ اقْتِرَانِ الضَّلَالِ بِالْغَوَايَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝۱﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ

﴿النجم (٢)﴾.

أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَى أَنْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بَرِيءٌ مِنْ شَيْئَيْنِ، هُمَا الضَّلَالُ وَالْغَوَايَةُ، وَصَفُ تَابِعٍ لَمْ يَلَمْ لَهُ بِالْحَقِّ، وَالْغَوَايَةُ وَصَفُ تَابِعٍ لَمْ لَا اتِّبَاعَ لَهُ لِلْحَقِّ، وَفِي نَفْيِهِمَا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ إِثْبَاتٌ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّهُ فِي قِمَّةِ كُلِّ مِنْهُمَا؛ لِأَنَّ كُلَّ عَارِفٍ بِالْحَقِّ نَاجٍ مِنَ الضَّلَالِ، وَكُلَّ عَامِلٍ بِالْحَقِّ نَاجٍ مِنَ الْغَيِّ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الضَّلَالَ يُقَابِلُهُ الْهُدَى، وَالْغَوَايَةُ يُقَابِلُهَا الرُّشْدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝۱۶﴾ (الأعراف ١٤٦)، وَالْمَرْءُ يَضِلُّ عَنِ الْحَقِّ بِقَدْرِ اسْتِحْكَامِ الشُّبُهَاتِ فِي قَلْبِهِ، وَلَا يَنْقَادُ لَهُ بِقَدْرِ اسْتِحْكَامِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ، وَمَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ صَفَى عِلْمُهُ وَكَمُلَ عَمَلُهُ، وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ الَّذِي وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ كَمَا مَرَّ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٤٢/١٥): «وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَصْلًا حُبْنِي آدَمَ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا: الْجَهْلُ الْمُضَادُّ لِلْعِلْمِ، فَيَكُونُونَ ضَلَالًا.

والثاني: اتِّباعُ الهوى والشَّهوة اللَّذِين في النَّفس، فيكونونَ غُواةً مَغضوباً عَلَيْهِم.

ولهذا قَالَ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وَقَالَ: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)^(١)، فوصفهم بالرُّشد الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْغِيِّ، وبإلهدَى الَّذِي هُوَ خِلَافُ الضَّلَالِ، وبِهَا يَصْلُحُ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ جَمِيعاً، وَيَصِيرُ الْإِنْسَانُ عَالِماً عَادِلاً لَا جَاهِلاً وَلَا ظَالِماً، وَقَالَ فِي (٥٤٥/١٠) مُبَيَّنّاً أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ حَازَ الْكَمَالَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ: «وَالْكَمَالُ فِي عَدَمِ الْهَوَىٰ وَفِي الْعِلْمِ هُوَ لَخَاتَمِ الرُّسُلِ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ فَنفَى عَنْهُ الضَّلَالُ وَالْغِيَّ، وَوصَفَهُ بِأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فَنفَى الْهَوَىٰ وَأَثَبَتِ الْعِلْمَ الْكَامِلَ وَهُوَ الْوَحْيُ، فَهَذَا كَمَالُ الْعِلْمِ، وَذَاكَ كَمَالُ الْقَصْدِ، وَوصَفَ أَعْدَاءَهُ بِضِدِّ هَذَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ (النَّجْم ٢٣)، فَالْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ لِلْإِنْسَانِ هُوَ تَكْمِيلُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عِلْماً وَقَصْداً، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذَّارِيَات ٥٦)، وَقَالَ فِي (٣٨٤/٣): «وَأَضَلَّ الضَّلَالُ اتِّبَاعُ الظَّنِّ وَالْهَوَىٰ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مَنْ ذَمَّهُمْ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٦٠٧) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٧٦) وَابْنُ مَاجَةَ (٤٢)، وَهُوَ صَحِيحٌ.

الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ آهْدَى ﴿٢٣﴾ (النجم ٢٣)، وقال في حقِّ نبيه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، فنزَّهه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم، فالضالُّ هو الذي لَا يَعْلَمُ الْحَقَّ، والغاوي الذي يَتَّبِعْ هَوَاهُ، وأخبر أنَّه مَا يَنْطِقُ عَنْ هَوَى النَّفْسِ، بَلْ هُوَ وَحْيٌ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، فوصَّفه بِالْعِلْمِ ونَزَّهَهُ عَنِ الْهَوَى.

وبهذا تَعْلَمُ أَنَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهِ ﷺ فِي آيَةِ الْبَابِ وَصَفٌ جَامِعٌ، وَتَعْلَمُ أَنَّ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْدَرَ إِلَّا مِنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ.

سُورَةُ الْقَمَرِ

تَفْصِيلُ قَصَصِهَا لِجَمَلِ مَا فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ﴾ (القمر ٩)، وَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَالِي وَنُذِرَ﴾ (القمر ١٨)، وَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۖ﴾ (القمر ٢٣)، وَقَالَ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۖ﴾ (القمر ٣٣).

ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْقِصَصَ بِهَذَا التَّرْتِيبِ، وَهُوَ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ مِنَ الْقِصَصِ نَفْسِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، أَلَا وَهِيَ سُورَةُ النَّجْمِ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِيهَا قِصَّةَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَلُوطٍ، قَالَ السِّيُوطِيُّ فِي «أَسْرَارِ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ» (ص ١٣٥): «لَا يَخْفَى مَا فِي تَوَالِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنْ حُسْنِ التَّنَاسُقِ وَالتَّنَاسُبِ فِي التَّسْمِيَةِ؛ لِمَا بَيْنَ النَّجْمِ وَالْقَمَرِ مِنَ الْمَلَابَسَةِ، وَنَظِيرُهُ تَوَالِي الشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى، وَقَبْلَهَا سُورَةُ الْفَجْرِ، وَوَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ بَعْدَ النَّجْمِ، كَالْأَعْرَافِ بَعْدَ الْأَنْعَامِ، وَكَالشُّعْرَاءِ بَعْدَ الْفُرْقَانِ، وَكَالْصَّافَّاتِ بَعْدَ يَسَ، فِي أَنَّهَا تَفْصِيلٌ لِأَحْوَالِ الْأُمَمِ الْمُشَارِ إِلَى إِهْلَاكِهِمْ فِي قَوْلِهِ هُنَاكَ: ﴿وَأَنَّهُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۖ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ۖ﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى ۖ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۖ﴾ (النجم ٥٠-٥٣)».

تَأَمَّلْ قَوْلَهُ هُنَا: ﴿وَقَوْمُ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، فَإِنَّهُ لِمَا آخَرَ التَّرْتِيبَ الذِّكْرِيَّ لِقِصَّةِ نُوحٍ بَيْنَ تَرْتِيبِهَا التَّارِيخِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ لِيُوَاطِئَ مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَأَمَّا الْمُؤْتَفِكَةُ فَإِنَّهَا مَدَائِنُ لُوطٍ كَمَا فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ المَشْرِقُ والمَشْرِقَانِ والمَشَارِقُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرَّحْمَنُ ١٧).

ذَكَرَ اللهُ هُنَا أَنَّهُ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ بِالتَّثْنِيَةِ، وَذَكَرَ فِي سُورَةِ أُخْرَى أَنَّهُ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ بِالْإِفْرَادِ، كَمَا فِي الْآيَةِ (٩) مِنْ سُورَةِ الْمَزْمَلِ، فَقَدْ قَالَ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وَذَكَرَهَا فِي سُورَةٍ أُخْرَى بِالْجَمْعِ، فَقَالَ فِي الْآيَةِ (٤٠) مِنْ سُورَةِ الْمَعَارِجِ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (٤)، وَقَدْ أَجَابَ عَنْ هَذَا ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّبْيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» فَقَالَ (ص ١٢١-١٢٢): «أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَهِيَ إِمَّا مَشَارِقُ النُّجُومِ وَمَغَارِبُهَا، أَوْ مَشَارِقُ الشَّمْسِ وَمَغَارِبُهَا، وَأَنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَهَةِ مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ، فَكَذَلِكَ جَمَعَ فِي مَوْضِعٍ، وَأَفْرَدَ فِي مَوْضِعٍ، وَثْنِي فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَقَالَ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٤)، فَقِيلَ: هُمَا مَشْرِقَا الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ^(١)، وَجَاءَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَا يُنَاسِبُهُ، فَجَاءَ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٤)؛ لِأَنَّهَا سُورَةٌ ذُكِرَتْ فِيهَا الْمَزْدَوِجَاتُ، فَذَكَرَ فِيهَا الْخَلْقَ وَالتَّعْلِيمَ، وَالشَّمْسَ

(١) قَالَه تَجَاهِدٌ، كَمَا حَكَاهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٨/ ٦٢٠ - الفَتْح).

والقمر، والنجوم^(١) والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين، والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين^(٢)، وأما سورة سأل سائل فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكما لها وصحة تعلّقها بإعادتهم بعد العدم، فذكر المشرق والمغرب بلفظ الجمع، إذ هو أدل على المقسم عليه سواء أريد مشارك النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذّبين ويُنشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع، ويذهب بها في مغرب، وأما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الأفراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وكما أنه تفرّد برُبوبيّة المشرق والمغرب وحده، فكذلك يحب أن يتفرّد بالربوبيّة والتّوكل عليه وحده، فليس للمشرق والمغرب ربّ سواه، فكذلك ينبغي أن لا

(١) لعله على قول من فسّر النّجم في سورة الرحمن بما انبسط على الأرض من النبات ممّا ليس له ساق، وفسّر الشجر بما له ساق، ورجّحه ابن جرير في « تفسيره » (٢٢/ ١٧٥ - هجر).

(٢) والآية التي هي أظهر في هذه المناسبة هي الآية التي تكرّرت في السّورة واحداً وثلاثين مرّة، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن ١٣)؛ فإن التّثنية فيها واضحة.

يَتَّخِذُ إِلَهًا وَلَا وَكَيْلٌ سِوَاهُ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ حِينَ سَأَلَهُ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء ٢٣)؟ فَقَالَ: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء ٢٨) ^(١)، وَفِي رُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ لِلْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ تَنْبِيءٌ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ السَّمَوَاتِ وَمَا حَوْتَهُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَرُبُوبِيَّتِهِ مَا بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا تَضَمَّنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (٤٠-٤١)، أَيُّ لِقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج ٤٠-٤١)، أَيُّ لِقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَذْهَبَ بِهِمْ وَنَأْتِيَ بِأَطْوَعَ لَنَا مِنْهُمْ وَخَيْرًا مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿(النساء ١٣٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أَيُّ لَا يَفُوتُنِي ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنِّي، وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْمَغْلُوبَ يَسْبِقُهُ الْغَالِبُ إِلَى مَا يُرِيدُهُ فَيَفُوتُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا عُذِيَ بـ (علي) دُونَ (إلى)، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ (الواقعة ٦٠-٦١)؛ فَإِنَّهُ لَمَّا ضَمَّنَهُ مَعْنَى مَغْلُوبِينَ وَمَقْهُورِينَ عَدَاهُ بـ (علي) بِخِلَافِ سَبْقِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ: سَبْقَتِهِ إِلَيْهِ وَسَبْقَتِهِ عَلَيْهِ، فَالْأَوَّلُ بِمَعْنَى غَلَبَتُهُ وَقَهْرَتُهُ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي بِمَعْنَى وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَبْلَهُ.

(١) يُرِيدُ أَنَّ إِفْرَادَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ هُنَا جَاءَ مُنَاسِبًا لِلْكَلَامِ عَنْ أَضَلِّ الْمَوْضُوعِ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، لَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُرْتَبَةٌ عَلَى ذَاكَ السُّؤَالِ؛ لِأَنَّ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ آيَاتٌ أُخْرَى.

وقد شرح ذلك الزركشي في « البرهان في علوم القرآن » (٤ / ١٥ - ١٨) بأوسع مما هنا، وزاد عليه فوائد كثيرة، فقال: « فحيثُ جُمعَ كان المرادُ نَفْيَ المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِيَ كان المرادُ مَشْرِقِي صُعودِها وارتفاعِها؛ فإنَّها تَبْدِئُ صاعدةً حَتَّى تَنْتَهِيَ - إلى غَايَةِ أَوْجِها وارتفاعِها، فهذا مَشْرِقُ صُعودِها وارتفاعِها، وينشأُ مِنْهُ فَصْلُ الخَريفِ والشتاءِ، فجعلَ مَشْرِقُ صُعودِها بِجُمْلَتِهِ مَشْرِقاً واحِداً، ومَشْرِقُ هُبُوطِها بِجُمْلَتِهِ مَشْرِقاً واحِداً، ومُقابِلُها مَغْرِباً، وقيلَ: هو إخبارٌ عن الحَرَكَاتِ الفَلَكِيَّةِ مُتَحَرِّكةً بِحَرَكَاتٍ مُتَدَارِكَةٍ لَا تَنْضَبِطُ لِحِطَّةٍ، وَلَا تَدْخُلُ تَحْتَ قِيَاسٍ؛ لأنَّ معنى الحَرَكَةِ انْتِقَالُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَفْلاكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ (يس ٤٠) الآية، فَهَذَا وَجْهُ اخْتِلَافِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ بِالْإِفْرَادِ وَالتَّنْثِيَةِ وَالْجُمْعِ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ أَنَّ الْقَمَرَ يَطْلُعُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ مَطْلَعٍ غَيْرِ الَّذِي طَلَعَ فِيهِ بِالْأَمْسِ، وَكَذَلِكَ الْغُرُوبُ، فَهِيَ مِنْ أَوَّلِ فَصْلِ الصَّيْفِ فِي تِلْكَ الْمَطَالِعِ وَالْمَغَارِبِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْإِعْتِدَالِ وَمَغْرِبِهِ عِنْدَ أَوَّلِ فَصْلِ الْخَرِيفِ، ثُمَّ تَأْخُذُ جَنُوباً فِي كُلِّ يَوْمٍ فِي مَطْلَعٍ وَمَغْرِبٍ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى آخَرِ مِثْلِهَا الَّذِي يُقَدَّرُ اللَّهُ لَهَا عِنْدَ أَوَّلِ فَصْلِ الشِّتَاءِ، ثُمَّ تَرْجِعُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْإِعْتِدَالِ الرَّبِيعِيِّ وَمَغْرِبِهِ، وَهَكَذَا أَبَدًا، فَحَيْثُ أَفْرَدَ اللَّهُ لَهُ لَفْظَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَرَادَ بِهِ الْجِهَةَ نَفْسَهَا الَّتِي تَشْتَمِلُ الْوَاحِدَةَ عَلَى تِلْكَ الْمَطَالِعِ جَمِيعِها، وَالْآخَرَى عَلَى تِلْكَ الْمَغَارِبِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى تَعَدُّدِها،

وحيثُ جيءَ بلفظِ الجَمْعِ المرادُ به كلُّ فردٍ منها بالنسبةِ إلى تعدّد تلك المطالع والمغارب، وهي في كلِّ جهةٍ مائةٌ وثمانونَ يوماً، وحيثُ كان بلفظِ التثنيةِ فالمرادُ بأحدهما الجهةُ التي تأخذُ منها الشَّمْسُ من مَطَلَع الاعتدالِ إلى آخرِ المطالعِ والمغاربِ الجنوبيّةِ، وبهذا الاعتبارِ مشرقانِ ومغربان^(١)، وأمّا وَجْهُ اخْتِصاصِ كلِّ مَوْضِعٍ بما وَقَعَ مِنْهُ فأبداً فيه بعضُ المتأخّرينَ معانيَ لطيفةً، فقال: أمّا ما وَرَدَ مُثْنًى في سورةِ الرَّحْمَنِ؛ فلأنَّ سياقَ السُّورةِ سياقُ المزدوجين، الثَّاني: فإنَّه سُبْحانَه أَوَّلًا ذَكَرَ نَوْعِي الإِيجادِ، وهما الخَلْقُ والتَّعْلِيمُ، ثُمَّ ذَكَرَ سِرَاجِيَّ العالَمِ ومَظْهَرَ نورِه، وهما الشَّمْسُ والقَمَرُ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعِي النِّباتِ؛ فإنَّ مِنْهُ ما هُوَ على ساقٍ، وَمِنْهُ ما انبَسَطَ على وَجْهِ الأَرْضِ، وهما النُّجُومُ والشَّجَرُ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعِي السَّمااءِ المرفوعةِ والأَرْضِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ رَفَعَ هَذِهِ وَوَضَعَ هَذِهِ، وَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا ذَكَرَ المِيزانِ، ثُمَّ ذَكَرَ العَدْلَ والظُّلْمَ في المِيزانِ، فَأَمَرَ بِالْعَدْلِ ونَهَى عَنِ الظُّلْمِ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعِي الخَارِجِ مِنَ الأَرْضِ، وهما الحُبُوبُ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعِي المُكَلِّفِينَ، وهما نَوْعُ الإنسانِ والجائِ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعِي المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ البَحَرَ مِنَ المِلْحِ والعَذْبِ، فَلِهَذَا حُسِّنَ تَثْنِيَةُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ في هَذِهِ السُّورةِ^(٢)، وإِنَّمَا أُفْرِدَا في سورةِ المَزْمَلِ لِما تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحانَه أَمَرَ نَبِيَّهَ بِقيامِ اللَّيْلِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ لَهُ في النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلاً،

(١) هَذِهِ فَائِدَةُ الأَوَّلَى في كَلَامِ الزَّرْكَشِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) هَذِهِ فَائِدَةُ الثَّانِيَةِ.

فلَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَمَمَهُ بِذِكْرِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّذَيْنِ هُمَا مَظْهَرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَكَانَ وَرُودُهُمَا مُتَفَرِّدَيْنِ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَحْسَنَ مِنَ التَّنْثِيَةِ وَالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ ظُهُورَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِيهِمَا وَاحِدٌ^(١)، وَإِنَّمَا جُمِعَا فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾^(٢) عَلَى أَنْ يُبَدَّلَ خَيْرًا مَتْنُهُ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ^(٣) (المعارج ٤٠-٤١)؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ هَذَا الْقِسْمُ فِي سَعَةِ مَشَارِقِ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِحَاطَةِ قُدْرَتِهِ، وَالْمُقَسَمَ عَلَيْهِ إِذْهَابُ هَؤُلَاءِ وَالْإِتْيَانُ بِخَيْرٍ مِنْهُمْ ذَكَرَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ؛ لِتَضَمُّنِهَا انْتِقَالَ الشَّمْسِ الَّتِي فِي أَحَدِ آيَاتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَنَقْلَهُ سُبْحَانَهُ لَهَا وَتَصْرِيفُهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي مَشْرِقٍ وَمَغْرِبٍ، فَمَنْ فَعَلَ هَذَا كَيْفَ يُعْجِزُهُ أَنْ يُبَدَّلَ هَؤُلَاءِ وَيُنْقَلَ إِلَى أَمَكَّتِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ^(٢)، وَأَيْضًا فَإِنَّ تَأْثِيرَ مَشَارِقِ الشَّمْسِ وَمَغَارِبِهَا فِي اخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّبَاتِ وَالْحَيَوَانِ أَمْرٌ مَشْهُودٌ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ سَبَبًا لِتَبَدُّلِ أَجْسَامِ النَّبَاتِ وَأَحْوَالِ الْحَيَوَانَاتِ وَانْتِقَالِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمِنْ بَرْدٍ إِلَى حَرٍّ وَصَيْفٍ وَشِتَاءٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، فَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ مَعَ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى تَبْدِيلِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ؟! وَأكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، فَلَا يَلِيقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ سِوَى لَفْظِ الْجَمْعِ^(٣)، وَأَمَّا جَمْعُهُمَا فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ فِي قَوْلِهِ:

(١) هَذِهِ الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ.

(٢) هَذِهِ الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ.

(٣) هَذِهِ الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ.

﴿ وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ (الصفّات ٥) لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السموات والأرض وما بينهما، وكان الأحسن مجيئها مجموعة لتتنظم مع ما تقدّم من الجمع والتعدد^(١)، ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال ذلك؛ فإنّ المشارق مظهر الأنوار وأسباب لانتشار الحيوان وحياته وتصرّفه في معاشه وانبساطه، فهو إنشاء شهود، فقدّمه بين يدي (هنا كلمة غير واضحة) على مبدأ البعث، فكان الاختصار على ذكر المشارق ههنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب^(٢)، فتأمل هذه المعاني الكاملة والآيات الفاضلة التي ترقص القلوب لها طرباً وتسيل الأفهام منها رهباً!.

(١) هذه هي الفائدة السادسة.

(٢) هذه هي الفائدة السابعة.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ اخْتِيَارُ الْفَاكِهَةِ وَتَشْهِي اللَّحْمِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفَنَكِهَتِ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ﴿الوَاقِعَةُ ٢٠-٢١﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٠﴾

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي «التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ» (٢٩/ ١٣٤): «هَلْ فِي تَخْصِيصِ التَّخْيِيرِ بِالْفَاكِهَةِ وَالِاشْتِهَاءِ بِاللَّحْمِ بِلَاغَةٌ؟ قُلْتُ: وَكَيْفَ لَا وَفِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ الْقُرْآنِ بِلَاغَةٌ وَفَصَاحَةٌ، وَإِنْ كَانَ لَا يُحِيطُ بِهَا ذِهْنِي الْكَلِيلُ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا عَلَى الْقَلِيلِ، وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي فِيهِ أَنَّ اللَّحْمَ وَالْفَاكِهَةَ إِذَا حَضَرََا عِنْدَ الْجَائِعِ تَمِيلُ نَفْسُهُ إِلَى اللَّحْمِ، وَإِذَا حَضَرََا عِنْدَ الشَّبْعَانِ تَمِيلُ إِلَى الْفَاكِهَةِ، وَالْجَائِعُ مَشْتَهِي، وَالشَّبْعَانُ غَيْرُ مُشْتَهِي، وَإِنَّمَا هُوَ مُحْتَارٌ: إِنْ أَرَادَ أَكْلَ، وَإِنْ لَمْ يَرُدْ لَا يَأْكُلُ، وَلَا يُقَالُ فِي الْجَائِعِ: إِنْ أَرَادَ أَكْلَ؛ لِأَنَّ (إِنْ) لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الْمَشْكُوكِ، إِذَا عَلِمَ هَذَا، ثَبَتَ أَنَّ فِي الدُّنْيَا اللَّحْمَ عِنْدَ الْمُشْتَهِي مُحْتَارٌ، وَالْفَاكِهَةُ عِنْدَ غَيْرِ الْمُشْتَهِي مُحْتَارَةٌ، وَحِكَايَةُ الْجَنَّةِ عَلَى مَا يُفْهَمُ فِي الدُّنْيَا، فَخُصَّ اللَّحْمُ بِالِاشْتِهَاءِ وَالْفَاكِهَةُ بِالِاخْتِيَارِ».

سُورَةُ الْحَدِيدِ تَرْكُ الْخُشُوعِ، فَقَسْوَةُ، فَفُسُوقٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُخِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ (الحديد ١٦-١٧).

جَعَلَ اللَّهُ خُشُوعَ الْقَلْبِ نَتِيجَةً لِدِكْرِهِ سُبْحَانَهُ وَلِتَعْلَمَ الْعِلْمُ الَّذِي أَنْزَلَهُ، كَمَا جَعَلَ قَسْوَةَ الْقَلْبِ نَتِيجَةً لِبُعْدِ الْعَهْدِ بِذِكْرِهِ وَبَطْلِبِ الْعِلْمِ، وَجَعَلَ الْفُسُوقَ نَتِيجَةً لِلْقَسْوَةِ، فَتَأَمَّلْ مَا أَبَدَعَ هَذَا التَّرْتِيبَ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ وَمَا أَصْدَقَهُ! فَإِنَّ النَّاسَ يَفْسُقُونَ عِنْدَ قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، وَقَسْوَةُ قُلُوبِهِمْ تَحْصُلُ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الذِّكْرِ، الْمِثْمَلُ فِي الْعِلْمِ وَالْوَعْظِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ عِنْدَهُمَا، قَالَ الْأَلُوسِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوحِ الْمَعَانِي» (٢٧/ ١٨١): «وَالْقَسْوَةُ مَبْدَأُ الشُّرُورِ، وَتَنْشَأُ مِنْ طُولِ الْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى»، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَانَتْ سَبَبَ تَوْبَةِ الْعَالِمِ الزَّاهِدِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى النَّاسِ، فَفِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» لِلْبَيْهَقِيِّ (٧٣١٦) وَ«التَّدْوِينِ فِي أَخْبَارِ قَرْوِينَ» (٤/ ٣٢) عَنْ الْفَضْلِ بْنِ مُوسَى قَالَ: «كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ شَاطِئاً^(١) يَقْطَعُ الطَّرِيقَ بَيْنَ

(١) قَالَ الْأَزْهَرِيُّ فِي «تَهْذِيبِ اللَّغَةِ» تَحْتَ مَادَّةِ (شَطَر): «رَجُلٌ شَاطِئِرٌ، وَقَدْ شَطَرَ شَطُوراً وَشَطَارَةً، وَهُوَ الَّذِي أَغْيَا أَهْلَهُ وَمُؤَدِّبَهُ خُبْنًا».

أَبْيُورَدَ وَسَرَخَسَ، وَكَانَ سَبَبُ تَوْبَتِهِ أَنَّهُ عَشَقَ جَارِيَةً، فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْتَقِي
الْجُدْرَانَ إِلَيْهَا، إِذْ سَمِعَ تَالِيًا يَتْلُو: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَهَا، قَالَ: بَلَى - يَا رَبِّ! - قَدْ آنَ،
فَرَجَعَ فَأَوَاهَ اللَّيْلُ إِلَى خَرِبَةٍ، وَإِذَا فِيهَا سَابِلَةٌ^(١)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ:
نَرْتَحِلُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: حَتَّى نُصْبِحَ؛ فَإِنَّ فَضِيلًا عَلَى الطَّرِيقِ يَقْطَعُ
عَلَيْنَا، قَالَ: فَفَكَّرْتُ وَقُلْتُ: أَنَا أَسْعَى بِاللَّيْلِ فِي الْمَعَاصِي وَقَوْمٌ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ هَهُنَا يَخَافُونَنِي، وَمَا أَرَى اللَّهَ سَاقِنِي إِلَيْهِمْ إِلَّا لِأَرْتَدِعَ، اللَّهُمَّ
إِنِّي قَدْ ثَبْتُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْتُ تَوْبَتِي مُجَاوِرَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، قُلْتُ: وَقَدْ
تَوَفَّيَ فِي مَكَّةَ ﷺ.

وَأَمَّا مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ لِلأُولَى فَتَكْمُنُ فِي تَذَكُّرِ مَا سَبَقَ، وَهُوَ أَنَّ
حَيَاةَ الْقَلْبِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَبِتَعَلُّمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَمِثْلُ لَهُ رَبُّنَا بِحَيَاةِ الْأَرْضِ
بَعْدَ نُزُولِ الْمَطَرِ، وَهَذِهِ مُنَاسِبَةٌ بَدِيعَةٌ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي مُقَدِّمَةِ
« تَفْسِيرِهِ » (١ / ٤): « فِي ذِكْرِهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلُهَا تَنْبِيهُ
عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ يُلِينُ الْقُلُوبَ
بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَى بَعْدَ قَسَوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمِّلُ
الْمَسْئُولُ أَنْ يَفْعَلَ بِنَا هَذَا؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ »، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَدْ قَالَهُ

(١) فِي « تَاجِ الْعُرُوسِ » مَادَّةُ (سَبَل): « وَالسَّابِلَةُ مِنَ الطَّرِيقِ: الْمَسْلُوكَةُ، يُقَالُ: سَبَلْتُ
سَابِلَةً: أَيِ مَسْبُوكَةً، وَالسَّابِلَةُ أَيْضًا: الْقَوْمُ الْمُخْتَلِفَةُ عَلَيْهِمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، جَمْعُ سَابِلٍ،
وَهُوَ السَّالِكُ عَلَى السَّبِيلِ، وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى السَّوَابِلِ، وَأَسْبَلَتِ الطَّرِيقُ: كَثُرَتْ
سَابِلَتُهَا، أَيِ أَبْنَائُهَا الْمُخْتَلِفُونَ إِلَيْهَا » وَالثَّانِي هُوَ الْمَقْصُودُ هُنَا، أَيِ هُمُ الْقَوْمُ
السَّالِكُونَ لَذَلِكَ الْمَكَانِ.

من قبله صالح المري، رواه عنه ابن المبارك في « الزهد » (٢٦١)، وقد نسبته الشوكاني في « فتح القدير » (١٧٤ / ٥) لابن عباس أيضاً، وقال الألوسي في المصدر السابق: « ومن أحسن بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه يرجع إليه حاله، كما أشار إليه قوله **وَجَلَّ** : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾؛ فهو تمثيلٌ ذكر استطراداً لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة «، وفي السنة ما يشهد لهذا، وهو قول النبي ﷺ: « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ » الحديث، أخرجه البخاري ومسلم، قال الكرماني في « الكواكب الدراري شرح البخاري » (٥٧ / ٢): « وإنما ضرب المثل بالغيث للمُشابهة التي بينه وبين العلم؛ فإن الغيث يُحيي البلدَ الميتَ ».

سُورَةُ الْمَجَادَلَةِ

صِدْقُ الْإِخْبَارِ عَمَّا فِي نَفْسِ الْغَيْرِ دَلِيلُ صِدْقِ النَّبُوَّةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا يَهَوُا عَنْهُ وَيَتَنَسَجُونَ بِالْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ (المجادلة ٨).

قد أَخْبَرَ اللَّهُ بِمَا فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ، فَقَالَ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، وَلَا أَحَدٌ يَجْرُؤُ عَلَى الْإِخْبَارِ بِمَا فِي الْقُلُوبِ إِلَّا عَلَامُ الْغُيُوبِ الَّذِي قَالَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (التوبة ٧٨)، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ عَمَّا فِي قُلُوبِ الْكُفَّارِ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِتَكْذِيبِهِ، بَلْ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ بِالْخَبَرِ الْمُخْتَرِقِ لِحُجُبِ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يُحْطِيءُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقًّا لَكَذَبَ فِي إِخْبَارِهِ عَمَّا فِي الْقُلُوبِ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ، وَلِسَارِعِ الْمُخْبِرِ عَنْهُمْ إِلَى تَكْذِيبِهِ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ، بَلْ إِنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ اعْتِرَافٌ ضَمِنِيٌّ بِأَنَّهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُمْ مِنَ الْوَحْيِ وَقَعَ مُطَابَقًا لَوَاقِعِهِمْ، وَقَدْ كَانَ مِنْ غِبَاوَتِهِمْ أَنْ اشْتَغَلُوا بِمَا لَا يَنْبَغِي عَمَّا يَنْبَغِي؛ لِأَنَّهُمْ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ مَا قُلْنَا الَّذِي تَدَّعِيهِ عَلَيْنَا، جَعَلُوا يَسْتَخْفُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَوْ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا

فَلِمَ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِهَذَا الْاسْتِخْفَافِ؟! وَهَذِهِ غَايَةٌ فِي الْغَبَاوَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ
عَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ لَمَا كَانَ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلتَّوْبَةِ، بَلْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِ نُظَرَائِهِمْ
مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ،
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَحَذِّرُوا الْمُنَافِقِينَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا
فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنِّي أَخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (التَّوْبَةُ ٦٤)،
وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمْ بَعْدَ التَّوْفِيقِ لَمَا خَافُوا مِنْ أَنْ يُنَبِّئَهُمُ اللَّهُ بِمَا فِي
قُلُوبِهِمْ، بَلْ لَا اسْتَدَلُّوا بِصِدْقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا بَعَثَ بِهِ
رَسُولُهُ ﷺ، وَلَكِنَّ التَّوْفِيقَ مِنَ اللَّهِ.

سُورَةُ الْحَشْرِ

تَرْتِيبُ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَسَبَ تَفَاضُلِهِمْ فِي سُورَةِ وَاحِدَةٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٧﴾ (الحشر ٨-١٠).

ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَتَّبَهُمْ حَسَبَ الْفَضْلِ، فَبَدَأَ بِأَعْلَاهُمْ طَبَقَةً بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ ثَنَّى بِالْأَنْصَارِ، ثُمَّ ثَلَّثَ بَمَن بَعْدَهُمْ، وَهُمْ الذَّاكِرُونَ لَهُمْ بِخَيْرٍ وَالْعَارِفُونَ لِقَدْرِهِمْ وَالْمَتَّبِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٤﴾ (التوبة: ١٠٠)، وَلِذَلِكَ لَمَّا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْحَشْرِ هَذِهِ الْآيَةَ الشَّاهِدَةَ لَهَا مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، قَالَ: «فَالَّتَابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ هُمُ الْمَتَّبِعُونَ لِأَثَارِهِمُ الْحَسَنَةِ وَأَوْصَافِهِمُ الْجَمِيلَةِ الدَّاعُونَ لَهُمْ فِي السِّرِّ

والعلانية، ومن لم يكن كذلك فقد خرج عن سبيل المؤمنين، كما روى مسلم عن عروة قال: قالت لي عائشة: يا ابن أخي! أمرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّهُمْ.

وروى الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٤٨٤) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٣٥٤) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ، فَمَضَتْ مِنْهُمْ اثْنَتَانِ وَبَقِيَتْ وَاحِدَةٌ، فَأَحْسَنُ مَا أَنْتُمْ كَائِنُونَ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونُوا بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ وَقَدْ مَضَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ وَقَدْ مَضَتْ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الْآيَةَ، قَالَ: فَقَدْ مَضَتْ هَاتَانِ الْمَنْزِلَتَانِ، وَبَقِيَتْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ، فَأَحْسَنُ مَا أَنْتُمْ كَائِنُونَ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونُوا بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَقِيَتْ.»

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

بَذَلُ الْخَلْقِ الْحَسَنَ لِلْكَفَّارِ لَا يَقْدَحُ فِي الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾
 ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة ٨-٩).

جَمَعَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بَيْنَ مُوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشُّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَبَيْنَ الْإِحْسَانِ إِلَى أَهْلِ الشُّرْكِ غَيْرِ الْمُحَارِبِينَ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ بِهِمُ وَالْإِقْسَاطِ إِلَيْهِمْ، قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ » (ص ٥٣٨ - ٥٤٠): « وَقَرَأْتُ فِي كِتَابِ السُّنَنِ رِوَايَةً حَرَمَلَةَ بْنِ يَحْيَى عَنِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الْآيَتَيْنِ، قَالَ: يُقَالُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -: إِنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ تَأْتَمُّ مِنْ صِلَةِ الْمُشْرِكِينَ، أَحْسَبُ ذَلِكَ لَمَّا نَزَلَ فَرَضَ جِهَادِهِمْ وَقَطَعَ الْوَلَايَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَنَزَلَ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة ٢٢) الْآيَةَ، فَلَمَّا خَافُوا أَنْ تَكُونَ الْمَوَدَّةُ الصِّلَةُ بِالْمَالِ أَنْزَلَ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾
 ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ

تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾.

قال الشافعي رحمه الله: وكانت الصلة بالمال والبر والإقساط ولين الكلام والمراسلة - بحكم الله - غير ما نهوا عنه من الولاية لمن نهوا عن ولايته مع المظاهرة على المسلمين، وذلك أنه أباح بر من لم يظهر عليهم من المشركين والإقساط إليهم، ولم يحرم ذلك إلى من أظهر عليهم، بل ذكر الذين ظاهروا عليهم فنهاهم عن ولايتهم، وكان الولاية غير البر والإقساط، وكان النبي ﷺ فادى بعض أسارى بدر، وقد كان أبو عزة الجمحي ممن من عليه، وقد كان معروفاً بعداوته والتأليب عليه بنفسه ولسانه، ومن بعد بدر على ثمامة بن أثال وكان معروفاً بعداوته، وأمر بقتله، ثم من عليه بعد إسناده، وأسلم ثمامة وحبس الميرة عن أهل مكة، فسألوا رسول الله ﷺ أن يأذن له أن يُميرهم، فأذن له فمأرهم، وقال الله ﷻ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان ٨)، والأسرى يكونون ممن حاد الله ورسوله.

يريد الشافعي رحمه الله بالجملة الأخيرة أن الأسرى قد يكونون كفاراً مع ذلك مدح الله المؤمنين الذين يطعمونهم، بل وجه الاستدلال أنه لم يكن في عهد النبوة أسرى إلا من الكفار، وكانوا من أهل المحادة؛ لأنهم أسروا بعد أن حملوا السيف على المسلمين وصاروا بعد الأسر مملوكين.

وقد أهدى عمر رضي الله عنه حلة من حرير لأخ له من أمه مشرك، ولم

يَنْهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَبَوَّبَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٣٢/٥) مَعَ الْفَتْحِ: «بَابُ الْهَدْيَةِ لِلْمُشْرِكِينَ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾».

ثُمَّ رَوَى تَحْتَهُ حَدِيثَيْنِ، أَحَدُهُمَا هَذَا وَهُوَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «رَأَى عُمَرُ حُلَّةً عَلَى رَجُلٍ تُبَاعُ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ابْتَغِ هَذِهِ الْحُلَّةَ تَلْبَسُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَإِذَا جَاءَكَ الْوَفْدُ، فَقَالَ: إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خِلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا بِحُلٍّ، فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ مِنْهَا بِحُلَّةٍ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ أَلْبَسُهَا وَقَدْ قُلْتَ فِيهَا مَا قُلْتَ؟ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسُهَا، تَبِيعُهَا أَوْ تَكْسُوهَا، فَأَرْسَلَ بِهَا عُمَرُ إِلَى أَخٍ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ»، وَالثَّانِي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: نَعَمْ! صِلِي أُمَّكِ».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٢٣٣/٥): «وَمِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ الْآيَةُ (لقمان ١٥)، ثُمَّ الْبِرُّ وَالصَّلَاةُ وَالْإِحْسَانُ لَا يَسْتَلْزِمُ التَّحَابُّ وَالتَّوَادُّدُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الْآيَةُ، فَإِنَّهَا عَامَّةٌ فِي حَقِّ مَنْ قَاتَلَ وَمَنْ لَمْ يُقَاتِلْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

تنبیه: لیس فی الحدیث جواز إهداء الشيء المحرم للمشرکین؛ لأنَّ المشرکین مخاطبون أيضاً بفروع الشريعة على الأصح، ولأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أهدى تلك الحلة من حریر لعمر كي يهديها لأخيه المشرک فيلبسها من أهل بيته من يجوز له لبسه، وهم النساء، ولذلك بَوَّبَ البخاري في موضع آخر (٢٩٦/١٠) للحدیث نفسه بقوله: « باب الحریر للنساء »، ويؤيده ما رواه الحميدي (٦٧٩) بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: « أَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُلَّةَ سَيِّرَاءَ^(١) عَلَى عَطَّارِدَ^(٢)، وَكَرِهَهَا لَهُ وَنَهَا عَنْهَا، ثُمَّ إِنَّهُ كَسَا عُمَرَ مِثْلَهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قُلْتَ فِي حُلَّةِ عَطَّارِدَ مَا قُلْتَ وَتَكْسُونِي هَذِهِ؟ قَالَ: إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، إِنَّمَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَكْسُوهَا النَّسَاءُ »، بل في « صحيح مسلم » (٢٠٦٨) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَسَمَ مِنْهَا عَلَى عَلِيٍّ وَأُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَيْضاً، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: « وَأَمَّا أُسَامَةُ فَرَأَى فِي حِلَّتِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَظْرًا عَرَفَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَنْكَرَ مَا صَنَعَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا تَنْظُرُ إِلَيَّ؟ فَأَنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِهَا؟! فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا، وَلَكِنِّي بَعَثْتُ بِهَا إِلَيْكَ لِتَشَقَّهَا خُمْرًا بَيْنَ نِسَائِكَ »، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) أي من حریر.

(٢) هو عطارِد التميمي بائع تلك الخلل، وقد كان إذا باعها لبسها كي يراها الناس عليه، فنهاه النَّبِيُّ ﷺ؛ لأنَّ الحرير لا يجوز للرجال، وفي صحيح مسلم (٢٠٦٨) عن ابن عمر قال: « رَأَى عُمَرُ عَطَّارِدَا التَّمِيمِيِّ يُقِيمُ بِالسُّوقِ حُلَّةَ سَيِّرَاءَ، وَكَانَ رَجُلًا يَغْشَى الْمُلُوكَ وَيُصِيبُ مِنْهُمْ » الحديث.

سُورَةُ الصَّفِّ

هَلْ نُصْرَةُ الْمُؤْمِنِ رَبِّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالسَّيْفِ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَنَامَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ (الصَّفِّ ١٤).

قَدْ ظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ اللَّهَ لَا يُنْصَرُ إِلَّا بِالسَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ هَذَا النَّوعِ مِنَ النُّصْرَةِ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَأَنَّ طَالِبَ الظُّهُورِ وَالتَّمَكُّينِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ السَّبِيلِ كطَالِبِ سَرَابٍ!

وَهَذَا الظَّنُّ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ غَلْطٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَظْهَرَ حَوَارِيِّي عِيسَى ﷺ عَلَى عَدُوِّهِمْ أَيَّ نَصْرِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْصُرُوا عِيسَى ﷺ بِسَيْفٍ قَطُّ، وَكَيْفَ يَنْصُرُونَهُ بِسَيْفٍ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ ضُعَفَاءُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ عَدُوَّهُ الَّذِي كَانَ يُطَارِدُهُ لِقَتْلِهِ حَتَّى كَانَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي رَفَعَهُ إِلَيْهِ وَلَمْ يُمَكِّنْهُ مِنْهُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ (النِّسَاءُ ١٥٨)، مَعَ هَذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ حَوَارِيَّيْنِ، وَلَقَّبَهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ مُتَنَصِّرِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: بِأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحَقُّوا وَصْفَ الْإِيمَانِ؟ وَبَأَيِّ شَيْءٍ اسْتَحَقُّوا النَّصْرَ؟

قِيلَ: لِأَنَّهُمْ نَصَرُوهُ بِشَيْئَيْنِ، هُمَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ وَالْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِهِ عِيسَى ﷺ، بَيْنَهُمَا اللَّهُ بِجَلَاءٍ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، فَقَالَ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ

عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ
 أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ
 وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ (آل عمران ٥٢-٥٣)،
 وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَخْبَرَ اللَّهُ هُنَا أَنَّهُ نَصَرَهُمْ
 عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُعْمِلُوا السَّيْفَ فِي عَدُوِّهِمْ قَطُّ، فَهَلْ مِنْ
 مُذَكِّرٍ؟!

وهذا الحكمُ باقٍ في هذه الأمة أيضاً كلما وُجدَ ظَرفُهُ، ألا وهو
 العَجْزُ عن الانتِصَارِ بالسَّيْفِ على الأعداءِ المُتَعَدِّينَ، والدَّلِيلُ الواضِحُ
 الَّذِي لَا يُقْبَلُ فِيهِ الْخِلَافُ أَنَّ عِيسَى ﷺ الَّذِي يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ
 حَاكِماً بِشَرِيعَةِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُقَاتِلُ بَعْضَ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى
 ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّهُ - مِنْ كَمَالِ قُوَّتِهِ - لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ، بَلْ لَا يَقْبَلُ
 مِنْهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَلَكِنَّهُ يَتْرُكُ قِتَالَ كُفَّارٍ آخَرِينَ بِالسَّيْفِ لِعَجْزِهِ عَنْ
 ذَلِكَ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
 « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ
 الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ
 أَحَدٌ »، كَمَا أَنَّهُ يَقْتُلُ الدَّجَالَ، فَفِي « صَحِيحِ مُسْلِمٍ » أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 ﷺ ذَكَرَ أَنَّ عِيسَى ﷺ يَقْتُلُ الدَّجَالَ كَمَا يَقْتُلُ كُلَّ كَافِرٍ، لَكِنْ إِذَا خَرَجَ
 يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لَمْ يَزِدْ عَلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ وَخُبَيْثِهِمْ، وَهُوَ
 حَدِيثٌ طَوِيلٌ رَوَاهُ النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جَاءَ فِيهِ: « ثُمَّ يَأْتِي

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ^(١)، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُجَدِّدُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَسْتَأْذِنُ هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ^(٢)، فَحَرَّزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ^(٣)، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ طَبْرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ مَرَّةٌ مَاءً!! وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابَهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ^(٤)، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغْفَ فِي رِقَابِهِمْ^(٥)، فَيُضْبِحُونَ فَرَسِي^(٦) كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...».

الخلاصةُ أَنَّ قِتَالَ عِيسَى ﷺ لَمَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ هُوَ النُّصْرَةُ الْمَطْلُوبَةُ؛ لِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ تَرْكَهُ مَعَ الْاِكْتِفَاءِ بِالْإِدْعَاءِ عَلَى الظَّالِمِ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ هُوَ النُّصْرَةُ الْمَطْلُوبَةُ عِنْدَ الضَّعْفِ وَهُوَ الَّذِي فَعَلَهُ ﷻ مَعَ يَأْجُوجَ

(١) أَيِ مِنَ الدَّجَالِ.

(٢) قَالَ النَّوَوِي فِي «شرح مُسلم» (٦٨/١٨): «قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ لَا قُدْرَةَ وَلَا طَاقَةَ، يُقَالُ: مَا لِي بِهَذَا الْأَمْرِ يَدٌ، وَمَا لِي بِهِ يَدَانِ؛ لِأَنَّ الْمُبَاشَرَةَ وَالْإِدْعَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْيَدِ، وَكَأَنَّ يَدَيْهِ مَعْدُومَتَانِ؛ لَعَجْزِهِ عَنْ دَفْعِهِ».

(٣) فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ: «أَيِ ضَمَّهُمْ وَاجْعَلَهُ لَهُمْ حِزْرًا».

(٤) أَيِ بِالْإِدْعَاءِ.

(٥) فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ: «النَّغْفُ هُوَ دَوْدٌ يَكُونُ فِي أَنْوْفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ»، أَيِ يُرْسِلُهَا اللَّهُ فِي رِقَابِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

(٦) فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ: «وَالْفَرَسَى: أَيِ قَتَلَى، وَاحِدُهُمْ فَرَسٍ».

وَمَا جُوجَ، فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ نَسْأَلُ أَنْ يَنْصَرَ
الْمُسْلِمِينَ وَيُعْلِيَ كَلِمَتَهُ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يُنْصِرَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ لِيَقْبَلُوا الْحَقَّ الَّذِي فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَوْ كَانَ ظَاهِرُهُ يُوْهِمُ
أَنَّهُمْ يُعْطُونَ الدِّينَةَ فِي دِينِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مُعِزُّ مَنْ أَمَرَ مِنْ أَنْشَرَحَ صَدْرُهُ لِكِتَابِهِ
وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَسَلَّمْ لَهَا تَسْلِيمًا.

سورة الجمعة الأمرُ بعدَ الحظرِ يعودُ إلى أصلِهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة ١٠).

ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ أَصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ الْأَمْرَ يُفِيدُ الْوُجُوبَ، وَمِنْ أَصْرَحِ أدْلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَةِ طه: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه ٩٣)، فَسَمَّى مُخَالَفَةَ الْأَمْرِ مَعْصِيَةً، وَمِنْ السُّنَنِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرِهِمْ بِالسَّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ».

لَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ مُلَاحَظَةٍ أَنَّهُ جَاءَتْ أَوَامِرُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ لَمْ تُحْمَلْ عَلَى الْوُجُوبِ، مِنْهَا الْأَمْرُ الَّذِي جَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ، أَلَا وَهُوَ الْأَمْرُ بِالِانْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ لَطَلَبِ الرِّزْقِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ: الْأَمْرُ بَعْدَ الْحَظَرِ، وَالْحَظَرُ هُوَ حَظَرُ الْبَيْعِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة ٩)، وَقَالُوا: إِنَّ حُكْمَ هَذَا الْأَمْرِ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي الْأَصْلِ وَاجِبًا عَادَ إِلَى الْوُجُوبِ، وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا عَادَ إِلَى الْإِبَاحَةِ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَحَبًّا عَادَ إِلَى الْإِسْتِحْبَابِ، فَمِنْ الْوَاجِبِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (التوبة ٥)، وَمِنْ الْمُبَاحِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ (المائدة ٢)، أَيِ إِذَا حَلَلْتُمْ بَعْدَمَا كُنْتُمْ مُحْرَمِينَ أُبِيحَ لَكُمْ الصَّيْدُ وَلَمْ يَجِبْ،

وَمِنَ الْمُسْتَحَبِّ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩٧٧) عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا »، وَعِنْدَهُ (٩٦٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ زَادَ: « فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ ».

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ فِي آيَةِ الْجُمُعَةِ لِلِإِبَاحَةِ، كَمَا فِي « تَأْوِيلِ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ » لابنِ قَتِيبَةَ (ص ٢٨٠)، وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » (ص ١٠٢ - ١٠٥) عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: « وَكَمَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة ١٩٨)، يُرِيدُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ تَتَجَرَّوا فِي الْحَجِّ، لَا أَنْ حَتَمًا أَنْ تَتَجَرَّوا، وَكَمَا كَانَ قَوْلُهُ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّنْ بِيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ (النور ٦١)، لَا أَنْ حَتَمًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّنْ بِيُوتِهِمْ وَلَا بُيُوتِ غَيْرِهِمْ، وَكَمَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ (النور ٦٠)، فَلَوْ لَبَسْنَ ثِيَابَهُنَّ وَلَمْ يَضَعْنَهَا مَا أَثْمَنَ، وَقَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (النور ٦١)، يُقَالُ: نَزَلَتْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ بتركِ الغزو، وَلَوْ غَزَوْا مَا حَرَجُوا ».

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ مِنْ طُرُقِ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُمْسَدَةٌ﴾ (الْمُنَافِقُونَ ٤).

قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي « شَرْحِ السُّنَّةِ » (١٢ / ٢٢٠ - ٢٢١): « وَاعْلَمْ أَنَّ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا يَنْقَسِمُ أَقْسَامًا، فَقَدْ يَكُونُ بَدَلَالَةً مِنْ جِهَةِ الْكِتَابِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ، أَوْ مِنَ الْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَقَدْ يَقَعُ التَّأْوِيلُ عَلَى الْأَسْمَاءِ وَالْمَعَانِي، وَقَدْ يَقَعُ عَلَى الضُّدِّ وَالْقَلْبِ، فَالتَّأْوِيلُ بَدَلَالَةٌ الْقُرْآنَ كَالْحَبْلِ يُعْبَرُ بِالْعَهْدِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ (آلِ عِمْرَانَ ١٠٣)، وَالسَّفِينَةُ تُعْبَرُ بِالنَّجَاةِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ (الْعَنْكَبُوتُ ١٥)، وَالخُشْبُ يُعْبَرُ بِالنِّفَاقِ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُمْسَدَةٌ﴾، وَالْحِجَارَةُ تُعْبَرُ بِالقَسْوَةِ؛ لِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البَقَرَةُ ٧٤)، وَالْمَرِيضُ بِالنِّفَاقِ؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ (البَقَرَةُ ١٠)، وَالْبَيْضُ يُعْبَرُ بِالنِّسَاءِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَأَنْهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (الصَّافَّاتُ ٤٩)، وَكَذَلِكَ اللَّبَاسُ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ (البَقَرَةُ ١٨٧)، وَاسْتِفْتَا حِ الْبَابِ يُعْبَرُ بِالدُّعَاءِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ (الْأَنْفَالُ ١٩)، أَيْ تَدْعُوا، وَالْمَاءُ يُعْبَرُ بِالفِتْنَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (النَّحْلُ ١٦-١٧)، وَأَكْلُ اللَّحْمِ النَّيِّ يُعْبَرُ بِالْغِيْبَةِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (الحجرات ١٢)، ودُخُولُ الْمَلِكِ مَحَلَّةً أَوْ بَلَدَةً أَوْ دَاراً تَصْغُرُ عَنْ قَدْرِهِ وَيُنْكَرُ دُخُولَ مِثْلِهِ مِثْلَهَا يُعْبَرُ بِالْمُصِيبَةِ وَالذُّلَّ يَنَالُ أَهْلَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ (النمل ٣٤).

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ بِدَلَالَةِ الْحَدِيثِ، كَالْغُرَابِ يُعْبَرُ بِالرَّجُلِ الْفَاسِقِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ سَمَاءً فَاسِقًا^(١)؛ وَالْفَارَةُ يُعْبَرُ بِالْمَرَأَةِ الْفَاسِقَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمَاءًهَا فُؤَيْسِقَةً^(٢)، وَالضَّلْعُ يُعْبَرُ بِالْمَرَأَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (إِنَّ الْمَرَأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ)^(٣)، وَالْقَوَارِيرُ تُعْبَرُ بِالنِّسَاءِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: (يَا أَنْجَشَهُ! رُوَيْدَكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ)^(٤).

وَالتَّأْوِيلُ بِالْأَمْثَالِ، كَالصَّائِغِ يُعْبَرُ بِالْكَذَّابِ؛ لِقَوْلِهِمْ: أَكْذَبُ النَّاسِ الصَّوَاغُونَ، وَحَفَرَ الْحُفْرَةَ يُعْبَرُ بِالْمَكْرِ لِقَوْلِهِمْ: مَنْ حَفَرَ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْقِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر ٤٣)، وَالْحَاطِبُ يُعْبَرُ بِالنِّمَامِ؛ لِقَوْلِهِمْ لَمَنْ وَشَى: إِنَّهُ يَحْطِبُ عَلَيْهِ، وَفَسَّرُوا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد ٤) بِالنَّمِيمَةِ، وَيُعْبَرُ طَوْلُ الْيَدِ بِصَنَائِعِ الْمَعْرُوفِ؛ لِقَوْلِهِمْ: فَلَانٌ أَطْوَلَ يَدًا مِنْ فَلَانٍ، وَيُعْبَرُ الرَّمْيُ بِالْحِجَارَةِ وَبِالسَّهْمِ بِالْقَذْفِ؛ لِقَوْلِهِمْ: رَمَى

(١) انظر صحيح البخاري (١٨٢٩) وصحيح مسلم (١١٩٨).

(٢) انظر صحيح البخاري (٣٣١٦) ومسلم (٢٠١٢).

(٣) رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٦١٤٩) ومسلم (٢٣٢٣) عن أنس رضي الله عنه.

فُلَانًا بِفَاحِشَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ (النُّور ٤)،
وَيُعَبِّرُ غَسْلُ الْيَدِ بِالْيَاسِ عَمَّا يَأْمَلُ؛ وَلَهُمْ: غَسَلْتُ يَدَيَّ عَنْكَ.
وَالتَّأْوِيلُ بِالْأَسَامِيِّ: كَمَنْ رَأَى رَجُلًا يُسَمَّى رَاشِدًا يُعَبِّرُ بِالرُّشْدِ،
وَإِنْ كَانَ يُسَمَّى سَالِمًا يُعَبِّرُ بِالسَّلَامَةِ «.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

اتِّقَاءُ شُحِّ النَّفْسِ هُوَ الْفَلَاحُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَالِحُونَ ﴿١٦﴾﴾
(التَّغَابُنِ ١٦).

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٢/ ٥٣٠- هجر) عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: «كُنْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي إِذَا وُقِيتُ شُحَّ نَفْسِي لَمْ أَسْرِقْ وَلَمْ أَزْنِ وَلَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا، وَإِذَا الرَّجُلُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ! «.

هَذَا مِنْ فِقْهِهِ عليه السلام؛ فَإِنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ الْبُخْلَ أَدْوَى الْأَدْوَاءِ الْخُلُقِيَّةِ، فَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟ قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبْخُلُهُ، قَالَ: وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟! بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجُمُوحِ، وَكَانَ عَمَرُو عَلَى أَصْنَامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يُؤْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا تَزَوَّجَ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٢٩٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْأَدَبِ» (٢٢٧).

وَهَذَا مِنْ كَرَمِ عَمْرٍو عليه السلام فِي الْإِسْلَامِ؛ فَقَدْ بَذَلَ أَمْوَالَهُ فِي وَلَائِهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَبْذُلُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِلْأَصْنَامِ.

سُورَةُ الطَّلَاقِ إِطْلَاقَاتُ كَلِمَةِ (الْأَمْرِ)

ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ كَلِمَةَ (الْأَمْرِ) فِي سُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَاخْتَلَفَتْ مَعَانِيهَا بِحَسَبِ مَوَاضِعِهَا، وَقَدْ اجْتَمَعَ لَدَيَّْ مِنْهَا اثْنَانِ وَعِشْرُونَ مَعْنًى، وَلَمَّا كَانَ لِسُورَةِ الطَّلَاقِ مِنْهَا النَّصِيبُ الْأَكْبَرُ؛ حَيْثُ وَرَدَتْ فِيهَا ثَمَانِي مَرَّاتٍ، فَإِنِّي أَبْدَأُ بِهَا، ثُمَّ أَتْبِعُهَا بِغَيْرِهَا:

١- أَمَّا الْمَوْضِعُ الْأَوَّلُ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَطْلَعِهَا: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطَّلَاق ١)، ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ ﷻ فِي «تَفْسِيرِهِ» عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ؓ أَنَّهَا قَالَتْ فِي تَفْسِيرِ كَلِمَةِ (الْأَمْرِ): «هِيَ الرَّجْعَةُ»، أَيِ لَعَلَّ الرَّجُلَ أَنْ يَنْدَمَ وَيَخْلُقَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ إِرْجَاعَ زَوْجَتِهِ.

٢- وَأَمَّا الْمَوْضِعُ الثَّانِي فَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنْ اللَّهُ بَلَّغَ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطَّلَاق ٣)، وَهُوَ عَلَى مَعْنَى الْقَضَاءِ الْقَدَرِ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «تَأْوِيلِ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٥١٤): «الْأَمْرُ الْقَضَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (السَّجْدَةُ ٥)، أَيِ يَعْنِي الْقَضَاءَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف ٥٤)، أَيِ الْقَضَاءِ».

٣- وأما الموضع الثالث فهو قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝﴾ (الطلاق ٤)، قَالَ الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٤٧٠): «يُسَهِّلُ عَلَيْهِ الصَّعَبَ مِنْ أَمْرِهِ»، وتكلم ابن القيم في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» عن بعض آثار التقوى، فكان مما قَالَ (ص ٣٦-٣٧): «وهذا مِنْ أَعْظَمِ أسباب التيسير، وَضِدُّهُ مِنْ أسباب التعسير، فالمتقي مُيسَّرٌ عَلَيْهِ أُمُورُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَتَارِكُ التَّقْوَى - وَإِنْ يُسِّرَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ أُمُورِ دُنْيَاهُ - تَعَسَّرَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ آخِرَتِهِ بِحَسَبِ مَا تَرَكَهُ مِنَ التَّقْوَى، وَأَمَّا تَيْسِيرُ مَا تَيْسَّرَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَلَوْ اتَّقَى اللَّهَ لَكَانَ تَيْسِيرُهَا عَلَيْهِ أَيْمًا، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهَا لَمْ تَيْسَّرْ لَهُ فَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ مِمَّا نَالَهُ بِغَيْرِ التَّقَى؛ فَإِنْ طِيبَ الْعَيْشُ وَنَعِمَ الْقَلْبُ وَلَذَّةَ الرُّوحِ وَفَرَحَهَا وَابْتِهَاجَهَا مِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ الدُّنْيَا، وَهُوَ أَجَلٌ مِنْ نَعِيمِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا بِالشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝﴾، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُيسَّرُ عَلَى الْمُتَّقِي مَا لَا يُيسَّرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝، وَهَذَا أَيْضًا يُيسَّرُ عَلَيْهِ بِتَقْوَاهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝﴾ (الطلاق ٥)، وَهَذَا يَتيسَّرُ عَلَيْهِ بِإِزَالَةِ مَا يَخْشَاهُ وَإِعْطَائِهِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (الأنفال ٢٩)، وَهَذَا يَتيسَّرُ بِالْفُرْقَانِ الْمُتَضَمِّنِ النِّجَاةَ وَالنَّصَرَ

والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة ١٨٩)، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (الحديد ٢٨)، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة، فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر.

٤- وأما الموضع الرابع فهو قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ (الطلاق ٥)، أي حكمه وشرعه كما في «تفسير ابن كثير»، وهو المعنى نفسه في قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾ (الطلاق ٨)، وهذا هو الموضع الخامس.

٥- وأما الموضع السادس فجاء بمعنى الذنب، وهو قوله سبحانه: ﴿فَذَاقَتْ وَتَالَ أَمْرَهَا﴾ (الطلاق ٩)، أي جزاء ذنبها كما في «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة رحمته الله (ص ٥١٥)، وكذلك هو في الموضع السابع، وهو قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ عِقَابُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ (الطلاق ٩).

٦- وَأَمَّا الْمَوْضِعُ الثَّامِنُ فَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ (الطَّلَاق ١٢)، وَمَعْنَاهُ الْوَحْيُ كَمَا فِي «تَأْوِيلِ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ» لابن قُتَيْبَةَ (ص ٥١٥).

وهذه المعاني الستة للأمر تدور حول: الشَّرع، والوَحْي، والقَدَر، والذَّنْب، والرَّجْعَة، والصَّعْب، ويُمكنُ أن يُقال: هي دائرة بين الشَّرع والقَدَر والتَّيسير أو التَّعسير، والتَّيسيرُ والتَّعسيرُ يَرْجِعُ إلى القَدَر؛ لأنَّه من تَقْدِيرِهِ سُبْحَانَهُ، فَرَجَعَ الْأَمْرُ كُلَّهُ إِلَى شَرْعِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَقَدْ صَرَّحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (آل عمران ١٥٤)، وَهُنَاكَ كَلِمَةٌ أُخْرَى كَثُرَ اسْتِعْمَالُهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ، أَلَا وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى؛ فَقَدْ ذُكِرَتْ فِيهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ شَرْعَ اللَّهِ وَقَدَرَهُ مُرْتَبِطَانِ بِتَقْوَاهُ، فَيُقَالُ: اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّكُمْ وَاجِدُونَ فِي شَرْعِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ مَا يُيسِّرُ لَكُمْ الْخَيْرَ وَيُبَاعِدُ عَنْكُمُ الشَّرَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وذكر ابن قُتَيْبَةَ أَيْضاً أَنَّ الْأَمْرَ يَأْتِي لِمَعَانٍ أُخْرَى، ذَكَرَ مِنْهَا:

٧- الْعَذَابُ: وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (إبراهيم ٢٢)، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ (هود ٤٤).

٨- الْقِيَامَةُ: وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل ١)، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرِضْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (الحديد ١٤)، وَقَالَ: «أَيُّ الْقِيَامَةِ أَوْ الْمَوْتِ».

٩- الْقَوْلُ: وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ (الكهف ٢١)، قَالَ: «يَعْنِي قَوْلَهُمْ»، ثُمَّ خَتَمَ بَحْثَهُ بِقَوْلِهِ: «وَهَذَا كُلُّهُ

وإن اختلفَ فأصله واحدٌ، ويُكنى عن كلِّ شيءٍ بالأمر؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يكونُ فإنَّما يكونُ بأمر الله، فسُمِّيت الأشياءُ أمورا؛ لأنَّ الأمرَ سببُها، يقولُ الله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى ٥٣) .

وزاد ابن الجوزي رحمه الله في « مُنتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر » (٦٢- ٦٥) معاني أخرى جاء بها لفظُ (الأمر) في كتاب الله، أذكرها وإن كان في بعضها خلافٌ عند المفسرين، وهي:

١٠- الدين: ومنه قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ﴾ (التوبة ٤٨).

١١- قتل كفار مكة: ومنه قوله ﷻ: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ (الأنفال ٤٤).

١٢- فتح مكة: ومثَّل له بقوله ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ (التوبة ٢٤).

١٣- قتل قريظة وجلاء النصير: ومنه قوله ﷻ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ (البقرة ١٠٩).

١٤- النصر: ومنه قوله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَمَرَ كُلُّهُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ١٥٤).

١٥- الشأن: ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هود ٩٧).

١٦- الموت: ومنه قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰ وَلَئِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

وَتَرَبَّصُّمَ وَأَرْبَبْتُمْ وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴿ (الحديد ١٤).

١٧- المَسُورَةُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ^ط فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﷻ﴾ (الأعراف ١١٠).

١٨- الْحَذَرُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ (التوبة ٥٠).

١٩- الْغَرَقُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ (هود ٤٣).

٢٠- الْخِصْبُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ ﷻ﴾ (المائدة ٥٢)، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٠٤/٦): «وَقِيلَ: الْخِصْبُ وَالسَّعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدِيمِينَ﴾، أَي فَيُصْبِحُوا نَادِمِينَ عَلَى تَوَلِّيهِمُ الْكَافِرَ إِذَا رَأَوْا نَصَرَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا عَايَنُوا عِنْدَ الْمَوْتِ فُبُشْرًا بِالْعَذَابِ».

٢١- اسْتِدْعَاءُ الْفِعْلِ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ (النحل ٩٠).

٢٢- الْكَثْرَةُ: وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ (الإسراء ١٦).

سُورَةُ التَّحْرِيمِ الْفَرْقُ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْمَرْأَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴿١١﴾ (التَّحْرِيم ١٠-١١).

المُلاحَظَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ نِسَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ بِلَفْظِ الْأَزْوَاجِ، فَقَالَ: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ زَوْجًا خَيْرًا مِمَّنْكَ مُسَاهِمَتِ مُؤْمِنَتٍ قَنِتَتْ تَتَّبِعَتْ عَبْدَاتٍ سَتِيحَتْ تَبَيَّتْ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ (التَّحْرِيم ٥)، بَيْنَمَا ذَكَرَ فِي آخِرِهَا بَعْضَ النِّسَاءِ الْمُتَزَوِّجَاتِ، لَكِنْ سَمَّى كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ امْرَأَةً، وَاسْتَعْمَلَ ذَلِكَ فِي نِسَاءِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ: ﴿ امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ ﴾، وَكَذَلِكَ فِي زَوْجَةِ عَدُوِّ الْأَنْبِيَاءِ كِفْرَعُونَ، فَقَدْ قَالَ: ﴿ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « جَلَاءِ الْأَفْهَامِ » (ص ٢٣٠-٢٣٣): « وَقَدْ وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ الْإِخْبَارُ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِلَفْظِ الزَّوْجِ مُفْرَدًا وَجَمْعًا كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (الْأَحْزَاب ٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ ﴾ (الْأَحْزَاب ٥٩)، وَالْإِخْبَارُ عَنْ أَهْلِ الشَّرِكِ بِلَفْظِ الْمَرْأَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (الْمَسَد ١)، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (الْمَسَد ٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ (التَّحْرِيم ١٠)، فَلَمَّا كَانَتَا

مُشْرَكَتَيْنِ أَوْ قَعَ عَلَيْهَا اسْمُ الْمَرْأَةِ، وَقَالَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (التَّحْرِيم ١١)، لَمَّا كَانَ هُوَ الْمُشْرِكُ وَهِيَ مُؤْمِنَةٌ
 لَمْ يُسَمَّهَا زَوْجًا لَهُ، وَقَالَ فِي حَقِّ آدَمَ: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾
 (البقرة ٣٥)، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ (الأحزاب ٥٠)،
 وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ (البقرة ٢٥)، فَقَالَتْ
 طَائِفَةٌ مِنْهُمْ السُّهَيْلِيُّ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ: الْأَزْوَاجُ ^(١)؛
 لِأَنَّهُنَّ لَسْنَ بِأَزْوَاجٍ لِرِجَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَأَنَّ التَّزْوِيجَ حِلْيَةٌ شَرْعِيَّةٌ،
 وَهُوَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَجَرَّدَ الْكَافِرَةَ مِنْهُ كَمَا جَرَّدَ مِنْهَا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ
 لُوطٍ، ثُمَّ أَوْرَدَ السُّهَيْلِيُّ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلَ زَكَرِيَّا ﷺ: ﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي
 عَاقِرًا﴾ (مريم ٥)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ﴾
 (الذَّارِيَات ٢٩)، وَأَجَابَ بِأَنَّ ذِكْرَ الْمَرْأَةِ أَلِيقٌ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ؛ لِأَنَّهُ فِي
 سِيَاقِ ذِكْرِ الْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ، فِذِكْرِ الْمَرْأَةِ أَوْلَى بِهِ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ الَّتِي هِيَ
 الْأُنُوثةُ هِيَ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْحَمْلِ وَالْوَضْعِ، لَا مِنْ حَيْثُ كَانَتْ زَوْجًا،
 قُلْتُ: وَلَوْ قِيلَ: إِنَّ السَّرَّ فِي ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنِسَائِهِمْ بِلَفْظِ الْأَزْوَاجِ أَنَّ
 هَذَا اللَّفْظَ مُشْعِرٌ بِالمُشَاكَلَةِ وَالمُجَانَسَةِ وَالاقتِرَانِ كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ
 لَفْظِهِ؛ فَإِنَّ الزَّوْجَيْنِ هُمَا الشَّيْئَانِ الْمُتَشَابِهَانِ الْمُتَشَاكِلَانِ أَوْ الْمُتَسَاوِيَانِ،
 وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصَّافَات ٢٢)، قَالَ
 عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: أَزْوَاجُهُمْ: أَشْبَاهُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ، وَقَالَه الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ أَيْضًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التَّكْوِير ٧)،

(١) يُرِيدُ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ.

أي قرنَ بَيْنَ كُلِّ شَكْلٍ وَشَكْلِهِ فِي النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ
 الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْفَاجِرُ مَعَ
 الْفَاجِرِ فِي النَّارِ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقْتَادَةُ وَالْأَكْثَرُونَ، وَقِيلَ: زُوجَتْ
 أَنْفُسُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخُورِ الْعَيْنِ، وَأَنْفُسُ الْكَافِرِينَ بِالشَّيَاطِينِ، وَهُوَ رَاجِعٌ
 إِلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَبَيَّةٌ أَزْوَاجَ﴾ (الأنعام ١٤٣) ثُمَّ فَسَّرَهَا:
 ﴿مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام ١٤٣)، ﴿وَمِنْ الْإِبِلِ
 اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام ١٤٤)، فَجَعَلَ الزَّوْجَيْنِ هُمَا الْفَرْدَانِ
 مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: زَوْجًا خُفًّا، وَزَوْجًا حَمَامٍ وَنَحْوَهُ، وَلَا
 رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَطَعَ الْمُشَابَهَةَ وَالْمُشَاكَلَةَ بَيْنَ الْكَافِرِ
 وَالْمُؤْمِنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ (الحشر
 ٢٠)، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَكَافِرِهِمْ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً
 مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران ١١٣)، وَقَطَعَ الْمَقَارَنَةَ سُبْحَانَهُ بَيْنَهُمَا فِي
 أَحْكَامِ الدُّنْيَا: فَلَا يَتَوَارَثَانِ وَلَا يَتَنَاكَحَانِ وَلَا يَتَوَلَّى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ،
 فَكَمَا انْقَطَعَتِ الْوَصْلَةُ بَيْنَهُمَا فِي الْمَعْنَى انْقَطَعَتْ فِي الْأَسْمِ، فَأُضَافَ
 فِيهَا الْمَرَأَةُ بَلْفَظِ الْأُنُوثةِ الْمُجَرَّدِ دُونَ لَفْظِ الْمُشَاكَلَةِ وَالْمُشَابَهَةِ، وَتَأَمَّلْ
 هَذَا الْمَعْنَى تَجِدْهُ أَشَدَّ مُطَابَقَةً لِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَعَانِيهِ، وَهَذَا وَقَعَ عَلَى
 الْمُسْلِمَةِ امْرَأَةَ الْكَافِرِ وَعَلَى الْكَافِرَةِ امْرَأَةَ الْمُؤْمِنِ لَفْظُ (الْمَرَأَةِ) دُونَ
 (الزَّوْجَةِ)؛ تَحْقِيقًا لِهَذَا الْمَعْنَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا أَوَّلَى مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ:
 إِنَّمَا سَمِيَ صَاحِبَةً أَبِي لَهَبٍ امْرَأَتَهُ، وَلَمْ يَقُلْ لَهَا: زَوْجَتَهُ؛ لِأَنَّ أَنْكِحَةَ
 الْكُفَّارِ لَا يَثْبُتُ لَهَا حُكْمُ الصَّحَّةِ، بِخِلَافِ أَنْكِحَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ

هَذَا بَاطِلٌ بِإِطْلَاقِهِ اسْمَ (الْمَرْأَةِ) عَلَى امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ مَعَ صِحَّةِ ذَلِكَ النِّكَاحِ، وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَةِ الْمَوَارِيثِ وَتَعْلِيلِهِ سُبْحَانَهُ التَّوَارِثَ بِلَفْظِ (الزَّوْجَةِ) دُونَ (الْمَرْأَةِ)، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ (النِّسَاءُ ١٢)؛ إِذَا نَاجَبْنَا هَذَا التَّوَارِثَ إِنَّمَا وَقَعَ بِالزَّوْجِيَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّشَاكُلِ وَالتَّنَاسُبِ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لَا تَشَاكُلُ بَيْنَهُمَا وَلَا تَنَاسَبُ، فَلَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا التَّوَارِثُ، وَأَسْرَارُ مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ وَمُرَكَّبَاتِهِ فَوْقَ عُقُولِ الْعَالَمِينَ «.

سورة الملك

سِرُّ اقْتِرَانِ النَّصْرِ بِالرِّزْقِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (الملك ٢٠-٢١).

يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ النَّصْرِ وَالرِّزْقِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا هَاتَانِ الْآيَتَانِ؛ لِأَنَّهُمَا مَطْلَبَانِ ضَرُورِيَّانِ مِنْ مَطَالِبِ بَنِي آدَمَ، فَبِالنَّصْرِ يَأْمَنُونَ شَرَّ عَدُوِّهِمْ، وَبِالرِّزْقِ يُكْفَوْنَ شَرَّ جَوْعَتِهِمْ، وَيَبَيِّنُ اللَّهُ فِي آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْعُبُودِيَّةِ خَاصَّةً أَنَّ تَحْصِيلَهُمَا مِنْهُ وَاحِدٌ لِيُخْلِصَ الْعِبَادُ تَوَجُّهُهُمْ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١/٣١-٣٢): «الْحَلَقُ لَوْ اجْتَهِدُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِأَمْرِ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَهِدُوا أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِأَمْرِ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ فَهُمْ لَا يَنْفَعُونَكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا يَضُرُّونَكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَلَا تُعَلِّقْ بِهِمْ رَجَاءَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (الملك ٢٠-٢١)، وَالنَّصْرُ يَتَضَمَّنُ دَفْعَ الضَّرَرِ، وَالرِّزْقُ يَتَضَمَّنُ حُصُولَ الْمَنْفَعَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش ٣-٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ (القصص ٥٧)، وَقَالَ

الْحَلِيلُ ﷺ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾
(البقرة ١٢٦)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضُعْفَائِكُمْ:
بِدُعَائِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ؟) ^(١).

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ (٢٨٩٦) وَأَبُو دَاوُدَ (٢٥٩٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٧٠٢) شَطْرَهُ الْأَوَّلَ،
وَرَوَاهُ بِتَمَامِهِ النَّسَائِيُّ (٣١٧٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ»
(٧٧٩).

سورة القلم هل اختلف الصحابة في العقيدة؟

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم ٤٢).

جاء تفسير هذه الآية من قبل رسول الله ﷺ نفسه، فقد روى البخاري (٤٦٣٥) ومسلم (١٨٣) عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «يُكْشَفُ رَبَّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا».

في هذا الحديث دليل على أن الله تعالى صفة الساق، وأنها كبقية الصفات يؤمن بها كما جاءت من غير كيف، لكن قيل: إن عبد الله بن عباس اجتهد في تفسير الآية، وحملها على بعض الاستعمالات العربية فقال رضي الله عنه: «إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فابْتَغُوهُ فِي الشَّعْرِ؛ فَإِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقٍ؟

قال ابن عباس: هذا يوم كرب شديد «أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في «الأسماء والصفات»، كما في «فتح القدير» للشوكاني (٣١٩/٥).

وقد استدلل به بعض خصوم أهل السنة على أن تأويل صفات الله

على غير ظاهرها كانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ السَّلَفِ! وَرُدَّ هَذَا بَعْدَ صَحَّةِ
السَّنَدِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ بَحَثَهُ الْأَخُ الْفَاضِلُ الشَّيْخُ سَلِيمُ بْنُ عِيدِ
الْهَلَالِيِّ بَحْثاً حَدِيثِيّاً وَاسِعاً فِي كِتَابِ قَوِيِّ الْحُجَّةِ أَسْمَاءِ « الْمَنْهَلِ
الرَّقْرَاقِ فِي تَخْرِيجِ مَا رُوِيَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّبَعِينَ فِي تَفْسِيرِ ﴿ يَوْمَ
يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ وَإِبْطَالِ دَعْوَى اخْتِلَافِهِمْ فِيهَا »، وَخَلَصَ فِيهِ إِلَى
تَضْعِيفِ كُلِّ مَا نُسِبَ إِلَى السَّلَفِ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَرَأَيْتُ أَيْضاً فِي هَذَا
كِتَاباً حَسَناً لِلْأَخِ الْفَاضِلِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى نَصْرٍ لَا يَحْضُرُنِي اسْمُهُ
الْآنَ، لَكِنْ رَكَّزَ فِيهِ مُؤَلَّفُهُ عَلَى أَثَرِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ جِهَةِ الدَّرَايَةِ، جَزَاهُمَا
اللَّهُ خَيْرًا.

وَعَلَى فَرَضِ صَحَّةِ هَذَا الْأَثَرِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ، فَإِنَّ عُذَرَ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي
ذَلِكَ وَاضِحٌ مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (سَاقٍ) نَكْرَةٌ لَمْ تُضَفْ إِلَى اللَّهِ
كَمَا تَرَى، فَلَا يُقَالُ: إِنَّهُ أَوَّلُ صِفَةِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ ظَاهِرِهَا، وَعُذْرُهُ وَاضِحٌ
أَيْضاً مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ كَانَ بَلَغَهُ الْحَدِيثُ، فَمَنْ كَانَتْ حَالُهُ
كَذَلِكَ، ثُمَّ فَسَّرَ كَلَامَ اللَّهِ بِبَعْضِ الِاسْتِعْمَالَاتِ الْعَرَبِيَّةِ خَرَجَ عَنْ
مَبْحَثِ الصِّفَاتِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِهِ لِلْكَلِمَةِ لَا لِلصِّفَةِ، فَإِذَا
وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ جِهَةٍ خَارِجِيَّةٍ أَنَّ الْكَلِمَةَ جَاءَتْ فِي
الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ خُطِئَ مَنْ خَرَجَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَطُّ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَيْهِ
قَاعِدَةٌ فِي تَأْوِيلِ الصِّفَاتِ لَا يَقُولُ بِهَا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى
الدَّلِيلِ الْخَارِجِيِّ الْمُفَسِّرِ لِلآيَةِ، قَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي « فَتْحِ الْقَدِيرِ »
(٣٢٠ / ٥): « وَقَدْ أَغْنَانَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا صَحَّ عَنْ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا عَرَفْتَ، وَذَلِكَ لَا يَسْتَلْزِمُ تَجْسِيماً وَلَا تَشْبِيهاً، فَلَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ

دَعُوا كُلَّ قَوْلٍ عِنْدَ قَوْلِ مُحَمَّدٍ فَمَا آمَنُ فِي دِينِهِ كَمُخَاطِرٍ .

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٣٩٤/٦ - ٣٩٥): «وَأَمَّا
الَّذِي أَقُولُهُ الْآنَ وَأَكْتُبُهُ - وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْتُبْهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَجْوَبَتِي،
وَأِنَّمَا أَقُولُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجَالِسِ -: إِنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ
الْصِّفَاتِ فَلَيْسَ عَنِ الصَّحَابَةِ اخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهَا، وَقَدْ طَالَعْتُ
التَّفَاسِيرَ الْمَنْقُولَةَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَمَا رَوَاهُ مِنَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفْتُ مِنْ
ذَلِكَ عَلَى مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْكُتُبِ الْكِبَارِ وَالصُّغَارِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ
تَفْسِيرٍ، فَلَمْ أَجِدْ - إِلَى سَاعَتِي هَذِهِ - عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ تَأَوَّلَ
شَيْئاً مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ أَوْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ بِخِلَافٍ مُقْتَضَاها
الْمَفْهُومِ الْمَعْرُوفِ، بَلْ عَنْهُمْ مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ وَتَشْبِيهِهِ وَبَيَانِ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ
صِفَاتِ اللَّهِ مَا يُخَالِفُ كَلَامَ الْمُتَأَوِّلِينَ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ، وَكَذَلِكَ فِيمَا
يَذْكُرُونَهُ أَثَرَيْنِ وَذَاكِرَيْنِ عَنْهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَتَمَامُ هَذَا أَنِّي لَمْ أَجِدْهُمْ
تَنَازَعُوا إِلَّا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، فَرُويَ عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشُّدَّةُ، أَنَّ اللَّهَ يَكْشِفُ عَنِ الشُّدَّةِ فِي
الْآخِرَةِ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَطَائِفَةٍ أَنَّهُمْ عَدُّوها فِي الصِّفَاتِ؛ لِلْحَدِيثِ
الَّذِي رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ لَا
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ مِنَ الصِّفَاتِ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾
نَكْرَةً فِي الْإِثْبَاتِ لَمْ يُضِفْها إِلَى اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ: عَنْ سَاقِهِ، فَمَعَ عَدَمَ

التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف، ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلاً! وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة».

تنبيه: فإن قيل: لم جاء لفظ (ساق) في الآية نكرة؟ قيل في جوابه: قال ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (١/٢٥٣): «وتنكيره للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلّت عظمتها وتعالى شأنها أن يكون لها نظير أو مثيل أو شبيه».

وهذه الآية الكريمة تُشبه قوله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات ٤٧)، فإن من فسر من السلف الأيدي هنا بالقوة لم يرد تفسير صفة اليد بعد نفي حقيقتها عن الله كما يفعل المتكلمون وأهل البدع، ولا أراد تفسيرها بلازمها، وإنما فسر الأيدي ببعض الاستعمالات العربية، والأيدي في ظاهر الآية لم تُضف إلى الله، فمن فسرها بالقوة لم يرد تفسير الصفة الإلهية، فلا يُقال: إن للمتكلمين في تأويل صفات الله سلفاً؛ لأنه لا أحد من السلف قال بمثل تأويلات المتكلمين فيما أُضيف إلى الله من صفات، وأما ما لم يُضف إلى الله فالأمر فيه واسع ما اتسع له اللسان العربي، وما لم يرد من جهة الوحي ما يدل على تضييقه على واحد من تلك الاستعمالات، خلافاً لمن يتخذ من تأويل الحلف قاعدةً يخالف بها

فَهُمُ السَّلَفُ وَقَاعَدَتَهُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَيَنْحَرِفُ بِذَلِكَ عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ بَزْعُمِ التَّنْزِيهِ لِلرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، فَمَا عَلَى الْأَرْضِ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِمَا شَرَحَ لَهُ صُدُورَ سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَاللَّهُ الْهَادِي.

قَالَ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ فِي « أَضْوَاءِ الْبَيَانِ » (٧/٤٤٢): « قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ لَيْسَ مِنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَذَا الْأِسْمِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِأَيْدٍ﴾ لَيْسَ جَمْعُ يَدٍ، وَإِنَّمَا الْأَيْدُ: الْقُوَّةُ، فَوَزَنُ قَوْلِهِ هُنَا بِأَيْدٍ (فَعْلٌ)، وَوزنُ الْأَيْدِي (أَفْعِلْ)، فَالْهَمْزَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَيْدٍ﴾ فِي مَكَانِ الْفَاءِ، وَالْيَاءُ فِي مَكَانِ الْعَيْنِ، وَالذَّالُّ فِي مَكَانِ اللَّامِ، وَلَوْ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِأَيْدٍ﴾ جَمْعُ يَدٍ لَكَانَ وَزْنُهُ (أَفْعِلَاءً)، فَتَكُونُ الْهَمْزَةُ زَائِدَةً، وَالْيَاءُ فِي مَكَانِ الْفَاءِ، وَالذَّالُّ فِي مَكَانِ الْعَيْنِ، وَالْيَاءُ الْمَحذُوفَةُ - لَكُونُهُ مَنقُوصًا - هِيَ اللَّامُ، وَالْأَيْدُ وَالْآدُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ، وَرَجُلٌ أَيْدٍ قَوِيٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة ٨٧)، أَيِ قَوَّيْنَاهُ بِهِ، فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهَا جَمْعُ يَدٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ غَلِطَ غَلْطًا فَاخْشَاءً، وَالْمَعْنَى: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِقُوَّةٍ ».

وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَلَا يُقَالُ أَيْضًا: إِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ فِي الْعَقِيدَةِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « مِنْهَاجِ السَّنَةِ » (٦/٣٣٦ - ٣٣٨): « وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْتَتِلُوا قَطُّ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ أَصْلًا، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي شَيْءٍ مِنْ قَوَاعِدِ

الإسلام: لَا فِي الصِّفَاتِ، وَلَا فِي الْقَدَرِ، وَلَا مَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ
وَالْأَحْكَامِ، وَلَا مَسَائِلِ الْإِمَامَةِ، لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي ذَلِكَ بِالِاخْتِصَامِ
بِالْأَقْوَالِ، فَضْلاً عَنِ الْاِقْتِتَالِ بِالسَّيْفِ، بَلْ كَانُوا مُثْبِتِينَ لِصِفَاتِ اللَّهِ
الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ، نَافِينَ عَنْهَا تَمَثِيلَهَا بِصِنَافَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، مُثْبِتِينَ
لِلْقَدَرِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرُسُلُهُ، مُثْبِتِينَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ
وَالْوَعِيدِ، مُثْبِتِينَ لِحِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، مُثْبِتِينَ لِقُدْرَةِ الْعَبْدِ
وَاسْتِطَاعَتِهِ، وَلِفِعْلِهِ مَعَ إِبْطَاتِهِمُ لِلْقَدَرِ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِهِمْ مَنْ يَحْتِجُّ
لِلْمَعَاصِي بِالْقَدَرِ، وَيَجْعَلُ الْقَدَرَ حُجَّةً لِمَنْ عَصَى أَوْ كَفَرَ، وَلَا مَنْ
يُكَذِّبُ بَعْلَمَ اللَّهِ وَمَشِيتِهِ الشَّامِلَةِ وَقُدْرَتِهِ الْعَامَّةِ وَخَلْقِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ،
وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَخَصَّصَهُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ،
دُونَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَلَا مَنْ يُنْكِرُ افْتِقَارَ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ
طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ فِي كُلِّ دِقِّ وَجِلٍّ، وَلَا مَنْ
يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَجُوزُ أَنْ يَأْمَرَ بِالْكَفْرِ وَالشُّرْكِ، وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ،
وَيَجُوزُ أَنْ يُدْخِلَ إِبْلِيسَ وَفِرْعَوْنَ الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلَ الْأَنْبِيَاءَ النَّارَ، وَأَمْثَالَ
ذَلِكَ.

فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ النَّافِيَةِ، وَلَا الْقَدَرِيَّةِ الْجَبَرِيَّةِ
الْجَهْمِيَّةِ، وَلَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ بِتَخْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فِي النَّارِ،
وَلَا مَنْ يُكَذِّبُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْكِبَايِرِ، وَلَا مَنْ يَقُولُ: إِيْمَانُ
الْفَسَاقِ كِإِيْمَانِ الْإِنْبِيَاءِ.

بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُمْ بِالنُّقُولِ الصَّحِيحَةِ الْقَوْلُ بِخُرُوجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ إِيْمَانَ النَّاسِ يَتَفَاضَلُ، وَأَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

وَمَنْ نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ بِتَخْلِيدِ قَاتِلِ النَّفْسِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، وَأَمَّا الْمَنْقُولُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَفِي تَوْبَةِ الْقَاتِلِ، لَا الْقَوْلُ بِتَخْلِيدِهِ وَتَوْبَتِهِ^(١) فِيهَا، رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَدَ، كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟!

وَلَا كَانَ فِي الصَّحَابَةِ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ أبا بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ لَمْ يَكُونُوا أَئِمَّةً، وَلَا كَانَتْ خِلَافَتُهُمْ صَحِيحَةً، وَلَا مَنْ يَقُولُ: إِنَّ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ كَانَ غَيْرُ عَلِيٍّ أَفْضَلَ مِنْهُ، وَلَا أَحَقُّ مِنْهُ بِالْإِمَامَةِ.

فَهَذِهِ الْقَوَاعِدُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي اخْتَلَفَ فِيهَا مِنْ بَعْدِ الصَّحَابَةِ، لَمْ يَخْتَلَفُوا فِيهَا بِالْقَوْلِ وَلَا بِالْخُصُومَاتِ، فَضَلًّا عَنِ السَّيْفِ، وَلَا قَاتِلِ أَحَدٍ مِنْهُمْ عَلَى قَاعِدَةٍ فِي الْإِمَامَةِ.

وَأَمَّا مَا قَدْ يَرِدُ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم اخْتَلَفُوا فِي رُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ رَبِّهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ مَسَائِلِ الْأَصُولِ أَوَّلًا، وَثَانِيًا: قَدْ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي جَوَابِهِ: « وَقَدْ حَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ فِي كِتَابِ الرَّدِّ لَهُ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَرِ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَشْنَى ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ ذَلِكَ، وَشَيْخُنَا يَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكَ بِخِلَافٍ فِي الْحَقِيقَةِ؛ فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يَقُلْ رَأَاهُ بَعَيْنِي رَأْسَهُ،

(١) هَكَذَا فِي الْمَطْبُوعِ، وَلَعَلَّهُ: وَتَوْبَتِهِ فِيهَا.

وعليه اعتمد أحد في إحدى الروايتين... «، كذا في « مجموع الفتاوى » لابن تيمية (٥٠٧/٦ - ٥٠٨)، وهو يريد أن ابن عباس أثبت الرؤية القلبية لا البصرية، فقد جاء في «صحيح مسلم» (٢٥٧) عنه أنه قال: « رآه بقلبه »، فيكون كلامه مطابقاً لكلام غيره ممن نفى أن يكون رآه بعيني رأسه، كقول عائشة رضي الله عنها لمسروق: « يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدةٍ منهنَّ فقد أعظم على الله الفرية! قلت: ما هنَّ؟ قالت: من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » الحديث، بل النبي صلى الله عليه وسلم نفى ذلك عن نفسه، ففي « صحيح مسلم » (٢٦١) عن أبي ذر قال: « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنى أراه ».

تنبيه: سمعت من استدلل على اختلاف الصحابة في العقيدة باختلافهم في بعض القراءات للقرآن الخاصة بآيات الصفات، ومثل بقوله تعالى في سورة الصافات (١٢): ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾؛ لأنه قرأها حمزة والكسائي بضم التاء: ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾، والفتح هو قراءة الجمهور والضمير فيها عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأما على الضم فهو عائد إلى الله، فيكون على هذه القراءة من آيات الصفات، لكن لا يقال في مثل هذه الآية: إنه اختلاف في العقيدة؛ لأن الاختلاف هنا في التفسير، وأما في الصفة الإلهية فمن لم يثبتها من هذه الآية أثبتتها من نصوص أخرى كما هو معلوم.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

سُرُّ إِمْنِهَالِ اللَّهِ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ وَعَدَمُ إِمْنِهَالِ الْمُبْتَدِعَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحاقة ٤٤-٤٦).

اللَّهُ ﷻ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، لَكِنَّهُ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ قَدْ يُمَكِّنُ لِأَرْبَابِ الشَّهَوَاتِ مَا لَا يُمَكِّنُ لغيرِهِمْ مِنْ أَرْبَابِ الشُّبُهَاتِ، بَلْ قَضَتْ سُنَّتُهُ الْغَالِبَةُ أَنَّهُ لَا يُمَهِّلُ أَهْلَ الْبَدْعِ إِلَّا أَرَى أَهْلَ السُّنَّةِ فِيهِمْ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ، فِي هَذَا يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٤/٢٦٨-٢٧٠): «وَلَيْسَ إِذَا وَقَعَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ شَرٌّ جُزْئِيٍّ بِالْإِضَافَةِ يَكُونُ شَرًّا كَلِّيًا عَامًّا، بَلِ الْأُمُورُ الْعَامَّةُ الْكُلِّيَّةُ لَا تَكُونُ إِلَّا خَيْرًا وَمَصْلَحَةً لِلْعِبَادِ، كَالْمَطَرِ الْعَامِّ وَكَإِزْسَالِ رَسُولٍ عَامٍّ، وَهَذَا مِمَّا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤَيَّدَ اللَّهُ كَذَابًا عَلَيْهِ بِالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَيْدِهَا أَنْبِيََاءُ الصَّادِقِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا شَرٌّ عَامٌّ لِلنَّاسِ، يُضِلُّهُمْ وَيُفْسِدُ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ وَآخِرَتَهُمْ، وَلَيْسَ هَذَا كَالْمَلِكِ الظَّالِمِ وَالْعَدُوِّ؛ فَإِنَّ الْمَلِكَ الظَّالِمَ لَا بَدَّ أَنْ يَدْفَعَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِ، وَقَدْ قِيلَ: سَتُونَ سَنَةً بِإِمَامِ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِإِمَامٍ، وَإِذَا قُدِّرَ كَثْرَةُ ظُلْمِهِ فَذَاكَ ضَرَرٌّ فِي الدِّينِ كَالْمَصَائِبِ تَكُونُ كَفَّارَةً لِدُنُوبِهِمْ وَيُثَابُونَ عَلَيْهَا وَيَرْجِعُونَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَيَتُوبُونَ إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ، وَأَمَّا مَنْ يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ وَيَقُولُ أَيُّ يَدَّعِي أَنَّهُ نَبِيٌّ فَلَوْ آيَدَهُ اللَّهُ تَأْيِيدَ الصَّادِقِ لِلزَّمِ أَنْ يُسَوَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّادِقِ،

فَيَسْتَوِي الْهَدَى وَالضَّلَالُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ، وَطَرِيقُ الْجَنَّةِ وَطَرِيقُ النَّارِ،
وَيَرْتَفَعُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، وَهَذَا مِمَّا يُوجِبُ الْفَسَادَ الْعَامَّ لِلنَّاسِ فِي
دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَهَذَا أَمْرُ النَّبِيِّ ﷺ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى
الدِّينِ الْفَاسِدِ مِنْ أَهْلِ الْبَدْعِ كَالْخَوَارِجِ، وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَوْرِ
الْأَثَمَةِ، وَنَهَى عَنْ قِتَالِهِمْ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا قَدْ يُمَكِّنُ اللَّهُ كَثِيرًا
مِنَ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ مَدَّةً، وَأَمَّا الْمُتَنَبِّئُونَ الْكَذَّابُونَ فَلَا يُطِيلُ تَمَكُّنُهُمْ،
بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يُهْلِكَهُمْ؛ لِأَنَّ فَسَادَهُمْ عَامٌّ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾﴾
ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ (الشورى ٢٤)، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ بِتَقْدِيرِ الْإِفْتِرَاءِ لَا
بَدَأَ أَنْ يُعَاقِبَ مَنْ افْتَرَى عَلَيْهِ.

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيَرِ» (١١/٢٣٦): «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَدِينُهُمْ قَائِمًا فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ...

وَفِي آخِرِ زَمَنِ الصَّحَابَةِ ظَهَرَتِ الْقَدَرِيَّةُ، ثُمَّ ظَهَرَتِ الْمُعْتَزَلَةُ
بِالْبَصْرَةِ، وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُجَسِّمَةُ بِخُرَاسَانَ فِي أَثْنَاءِ عَصْرِ التَّابِعِينَ مَعَ
ظُهُورِ السُّنَّةِ وَأَهْلِهَا إِلَى مَا بَعْدَ الْمِثَّتَيْنِ، فَظَهَرَ الْمَأْمُونُ الْخَلِيفَةُ، وَكَانَ
ذَكِيًّا مُتَكَلِّمًا، لَهُ نَظَرٌ فِي الْمَعْقُولِ، فَاسْتَجَلَبَ كُتُبَ الْأَوَائِلِ، وَعَرَّبَ
حِكْمَةَ الْيُونَانِ، وَقَامَ فِي ذَلِكَ وَقَعْدًا، وَخَبَّ وَوَضَعَ، وَرَفَعَتِ الْجَهْمِيَّةُ
وَالْمُعْتَزَلَةُ رُؤُوسَهَا، بَلْ وَالشَّيْعَةُ، فَإِنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ، وَآلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ
حَمَلَ الْأُمَّةَ عَلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَامْتَحَنَ الْعُلَمَاءَ، فَلَمْ يُمَهِّلْ

وهلك لِعَامِهِ، وَخَلَى بَعْدَهُ شَرًّا وَبِلَاءً فِي الدِّينِ «.

هَذَا مِنَ الْفِقْهِ الْقُرْآنِيِّ، وَمِنَ التَّقْدِيرِ الْقَدَرِيِّ وَالشَّرْعِيِّ الَّذِي يَخْفَى
عَلَى الْحَرَكَاتِ الَّذِينَ يَنْشَطُونَ لِحَرْبِ الْمُلُوكِ وَيَبْرَدُونَ فِي حَرْبِ
الْمُبْتَدِعَةِ، وَانْظُرْ لَهُ أَيْضاً مُنَاطَرَةً جَرَتْ بَيْنَ ابْنِ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَجُلٍ مِنَ
الْيَهُودِ فِي كِتَابِ «التَّبْيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» (ص ١١١).

سُورَةُ الْمَعَارِجِ أَقْسَامُ النَّاسِ مَعَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ (المعارج ١٩-٢١).

هَذَا النَّوعُ الْإِنْسَانِيُّ فِي الْآيَةِ هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ بَنِي آدَمَ؛ الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا لَمْ يَشْكُرُوا، وَإِنْ مُنِعُوا لَمْ يَصْبِرُوا، وَفِي «بَاهِرِ الْبُرْهَانِ فِي مَعَانِي مُشْكَلَاتِ الْقُرْآنِ» لِبَيَانِ الْحَقِّ الْغَزْنَوي (١٥٥١/٣): «سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ثَعْلَبًا عَنْ الْهُلُوعِ؟

فَقَالَ: مَا فَسَّرَهُ اللَّهُ، وَلَا يَكُونُ تَفْسِيرًا أَحْسَنَ مِنْهُ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾».

وَهُمَا حَالَانِ تُصَاحِبَانِ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ، حَالُ وُرُودِ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ، وَحَالُ وُرُودِ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلِلَّهِ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ عُبودِيَّةٌ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ؛ لِأَنَّ أَوَامِرَ اللَّهِ وَعِظَائِهِ إِمَّا شَرْعٌ مُتَّبَعٌ، أَوْ قَدَرٌ مُسْتَسَلِمٌ لَهُ بِالرِّضَا وَالْإِيمَانِ، وَقَدَرُ اللَّهِ قِسْمَانِ: إِمَّا نِعْمَةٌ تَسْتَلْزِمُ الشُّكْرَ، وَإِمَّا مُصِيبَةٌ تَسْتَلْزِمُ الصَّبْرَ، وَقَدْ قَسَّمَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ النَّاسَ فِي هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ، فَقَالَ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٠/٦٧٣-٦٧٦): «فَهُمْ فِي التَّقْوَى - وَهِيَ طَاعَةُ الْأَمْرِ الدِّينِيِّ وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ - أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: أَهْلُ التَّقْوَى وَالصَّبْرِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

والثاني: الَّذِينَ لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ التَّقْوَى بِلَا صَبْرٍ، مِثْلَ الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَنَحْوِهَا وَيَتْرَكُونَ الْمُحَرَّمَاتِ، لَكِنْ إِذَا أُصِيبَ أَحَدُهُمْ فِي بَدَنِهِ بِمَرَضٍ وَنَحْوِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي عَرَضِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بَعْدُو يُخَيِّفُهُ عَظْمُ جَزَعِهِ وَظَهَرَ هَلَعُهُ.

وَالثَّالِثُ: قَوْمٌ لَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الصَّبْرِ بِلَا تَقْوَى، مِثْلَ الْفَجَّارِ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ فِي مِثْلِ أَهْوَائِهِمْ، كَاللُّصُوصِ وَالْقُطَاعِ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى الْآلَامِ فِي مِثْلِ مَا يَطْلُبُونَهُ مِنَ الْغَضَبِ وَأَخْذِ الْحَرَامِ، وَالْكِتَابِ وَأَهْلِ الدِّيَّانِ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ فِي طَلَبِ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالْخِيَانَةِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَلِكَ طُلَّابُ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ عَلَى غَيْرِهِمْ يَصْبِرُونَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْأَذَى الَّتِي لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْمَحَبَّةِ لِلصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِشْقِ وَغَيْرِهِمْ يَصْبِرُونَ فِي مِثْلِ مَا يَهْوَوْنَهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْأَذَى وَالْآلَامِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ أَوْ قُسَادًا مِنْ طُلَّابِ الرِّئَاسَةِ وَالْعُلُوِّ عَلَى الْخَلْقِ، وَمِنْ طُلَّابِ الْأَمْوَالِ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِالصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ نَظَرًا أَوْ مُبَاشَرَةً وَغَيْرِ ذَلِكَ، يَصْبِرُونَ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَقْوَى فِيمَا تَرَكَوهُ مِنَ الْمَأْمُورِ، وَفَعَلُوهُ مِنَ الْمَحْظُورِ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَصْبِرُ الرَّجُلُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَصَائِبِ كَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ تَقْوَى إِذَا قَدَرَ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الرَّابِعُ: فَهُوَ شَرُّ الْأَقْسَامِ، لَا يَتَّقُونَ إِذَا قَدَرُوا، وَلَا

يَصْبِرُونَ إِذَا ابْتَلَوْا، بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعًا ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٣﴾﴾، فَهَؤُلَاءِ تَجِدُهُمْ مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ وَأَجْبَرَهُمْ إِذَا قَدَرُوا، وَمِنْ أَدْلِ النَّاسِ وَأَجْزَعِهِمْ إِذَا قُهِرُوا، إِنْ قَهَرْتَهُمْ ذَلُّوا لَكَ وَنَافَقُوكَ وَحَابُوكَ وَاسْتَرْحَمُوكَ وَدَخَلُوا فِيمَا يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُذِبِ وَالذُّلِّ وَتَعْظِيمِ الْمَسْئُولِ، وَإِنْ قَهَرُوكَ كَانُوا مِنْ أَظْلَمِ النَّاسِ وَأَقْسَاهُمْ قَلْبًا وَأَقْلَهُمْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا وَعَفْوًا، كَمَا قَدْ جَرَّبَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي كُلِّ مَنْ كَانَ عَنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ أَبْعَدَ، مِثْلَ التَّارِ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَمَنْ يُشَبِّهِهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مُتَظَاهِرًا بِلِبَاسِ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَائِهِمْ وَزُهَّادِهِمْ وَتُجَّارِهِمْ وَصُنَّاعِهِمْ، فَالاعتِبَارُ بِالْحَقَائِقِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ وَعَمَلُهُ مِنْ جِنْسِ قُلُوبِ التَّارِ وَأَعْمَالِهِمْ كَانَ شَبِيهَا لَهُمْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَكَانَ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ أَوْ مَا يُظْهَرُهُ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَمَا يُظْهَرُونَهُ مِنْهُ، بَلْ يَوْجَدُ فِي غَيْرِ التَّارِ الْمُقَاتِلِينَ مِنَ الْمُظْهَرِينَ لِلْإِسْلَامِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ رِدَّةً وَأَوَّلَى بِالْأَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَبْعَدُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ التَّارِ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: (خَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)، وَإِذَا كَانَ خَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ إِلَى ذَلِكَ أَقْرَبَ وَهُوَ بِهِ أَشْبَهَ كَانَ إِلَى الْكَمَالِ أَقْرَبَ وَهُوَ بِهِ أَحَقُّ، وَمَنْ

كَانَ عَنْ ذَلِكَ أَبَعَدَ وَشَبَّهُهُ بِهِ أَضْعَفَ كَانَ عَنِ الْكَمَالِ أَبَعَدَ وَبِالْبَاطِلِ
 أَحَقَّ، وَالْكَامِلُ هُوَ مَنْ كَانَ اللَّهُ أَطْوَعَ وَعَلَى مَا يُصِيبُهُ أَصْبَرَ، فَكُلَّمَا كَانَ
 أَتْبَعَ لِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَأَعْظَمَ مُوَافَقَةً لِلَّهِ فِيهَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ،
 وَصَبْرًا عَلَى مَا قَدَرَهُ وَقَضَاهُ كَانَ أَكْمَلَ وَأَفْضَلَ، وَكُلُّ مَنْ نَقَصَ عَنِ
 هَذَيْنِ كَانَ فِيهِ مِنَ النِّقْصِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّبْرَ
 وَالتَّقْوَى جَمِيعًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ يَنْتَصِرُ الْعَبْدُ عَلَى
 عَدُوِّهِ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَعَلَى مَنْ ظَلَمَهُ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ، وَلِصَاحِبِهِ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن
 الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عمران ١٢٥)، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَتَبْلُؤَنَّ
 فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن
 قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ
 مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران ١٨٦)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
 الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
 إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ تُحِبُّوهُمْ وَلَا تُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ
 بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
 مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨٧﴾ إِنْ
 تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا
 وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٨﴾ (آل

عمران ١١٨-١٢٠)، وقال إخوة يوسف له: ﴿أَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (يوسف ٩٠).

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْأَهْرَيْنِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٦٦٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنْ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا الْإِسْتِدْلَالِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٣٢٠/٨)، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ سَأَلَ مَوْضِعَ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ: «فَأَمَرَهُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ وَهُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَيْسَ لِلْعِبَادِ أَنْفَعُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَمْرُهُ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ مُّقَدَّرَةٌ أَنْ لَا^(١) يَنْظُرَ إِلَى الْقَدَرِ وَلَا يَتَحَسَّرَ بِتَقْدِيرِ لَا يُفِيدُ، وَيَقُولُ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وَلَا يَقُولُ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَ كَذَا، فَيُقَدَّرُ مَا لَمْ يَقَعْ، يَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَ وَقَعَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُورِثُ حَسْرَةً وَحُزْنَ لَا يُفِيدُ، وَالتَّسْلِيمُ لِلْقَدَرِ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمْرُ أَمْرَانِ: أَمْرٌ فِيهِ حِيلَةٌ فَلَا تَعْجِزُ عَنْهُ، وَأَمْرٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ فَلَا تَجْزَعُ مِنْهُ، وَمَا زَالَ أَثَمَةُ الْهُدَى مِنَ الشُّيُوخِ وَغَيْرِهِمْ يُوصُونَ الْإِنْسَانَ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ، وَيَتْرَكَ الْمَحْظُورَ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ».

(١) لَعَلَّ (لَا) مُقَحَّمَةٌ، أَوْ يُنَزَّلُ الْكَلَامُ عَلَى مَا إِذَا نَظَرَ إِلَى الْقَدَرِ نَظَرَ عِتَابٍ وَتَلَوُّمٍ.

سُورَةُ نُوحٍ حِكْمَةُ التَّغْيِيرِ بِالْكُلِّ مَعَ إِرَادَةِ الْجُزْءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ رَسُولِهِ نُوحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ عَنْ قَوْمِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَلَّمْنَا دَعْوَتَهُمْ لَتَتَغَيَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح ٧).

ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا أَنَّ قَوْمَ نُوحٍ ﷺ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَنَافِذَ الْهُدَى كُلَّهَا، وَهِيَ وَسَائِلُ الْعِلْمِ الْمَعْرُوفَةِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْقَلْبُ، فَأَمَّا السَّمْعُ فَسَدُّهُ بِأَصَابِعِهِمْ، وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُمْ جَعَلُوا أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ فِي آذَانِهِمْ كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْحَالِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ﴾، وَهَذَا يُسَمَّى التَّغْيِيرَ بِالْكُلِّ عَنِ الْجُزْءِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُدْخِلُوا أَصَابِعَهُمْ كُلَّهَا فِي آذَانِهِمْ وَلَا هُمْ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَمَّا بَلَغُوا مَبْلَغًا شَدِيدًا مِنَ الْحَقِّ وَالْحَقْدِ عَلَى نُوحٍ ﷺ وَدَعْوَتِهِ فَقَدْ شَدُّوا عَلَى آذَانِهِمْ بِقُوَّةٍ حَتَّى إِنْ مِنْ يَرَاهُمْ يَظُنُّ أَنََّّهُمْ أَدْخَلُوهَا كُلَّهَا فِي آذَانِهِمْ، وَلَوْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ وَضَعُوا أَطْرَافَ أَصَابِعِهِمْ فَقَطْ لَاحْتَمَلُ أَنْ وَضَعَهُمْ إِيَّاهَا وَضَعٌ لَطِيفٌ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يُظْهَرُ عَدَمُ الْاسْتِمَاعِ وَنَفْسُهُ رَاغِبَةٌ فِي الْاسْتِمَاعِ، وَكَذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ لِلْوَسِيلَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، أَلَا وَهِيَ الْبَصَرُ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنََّّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بِالْإِعْرَاضِ، بَلِ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَغَطُّوا وُجُوهَهُمْ، عَلَى صِفَةِ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَدْنَى رَغْبَةٍ فِي النَّظَرِ فِي الْحِجَّةِ وَلَا فِي صَاحِبِهَا، وَهَذَا أَبْلَغُ وَصْفٍ فِي الْإِعْرَاضِ، وَأَمَّا الْقُلُوبُ الَّتِي هِيَ مُسْتَوَدَعُ عُلُومِهِمْ وَمُسْتَقَرُّ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَصْلُهَا، فَقَدْ حَجَبُوهَا بِالْإِضْرَارِ وَالْاسْتِكْبَارِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرًا﴾ (٧)، وهذا نهاية في الكُفْر،
كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٣٤)، ومثل آية الباب قولُ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا
قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ (فُصِّلَتْ ٥)، وقوله: ﴿حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة
٧)، على أن كلمة ﴿غِشْوَةً﴾ عائدة على ﴿أَبْصَرِهِمْ﴾ كما نبّه عليه
الشيخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنِقِيطِيُّ في «أضواء البيان» (١/ ١٢)؛ بدليل
قوله تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ آخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ
عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً﴾ (الجاثية ٢٣)، وقد قَالَ
ﷻ: «لَا يَخْفَى أَنَّ الْوَائِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ﴾
مُحْتَمِلَةٌ فِي الْحَرْفَيْنِ: أَنْ تَكُونَ عَاطِفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَأَنْ تَكُونَ
اسْتِثْنَائِيَّةً، وَلَمْ يُبَيَّنْ ذَلِكَ هُنَا، وَلَكِنْ بَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ قَوْلَهُ:
﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، وَأَنَّ قَوْلَهُ:
﴿وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ﴾ اسْتِثْنَاءٌ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ
﴿غِشْوَةً﴾، وَسَوْغَ الْإِبْتِدَاءِ بِالنُّكْرَةِ فِيهِ اعْتِمَادُهَا عَلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ
قَبْلَهَا، وَلِذَلِكَ يَجِبُ تَقْدِيمُ هَذَا الْخَبَرِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَوْغَ الْإِبْتِدَاءِ
بِالْمُبْتَدَأِ، كَمَا عَقَدَهُ فِي (الْخُلَاصَةِ) بِقَوْلِهِ الرَّجَزُ:

وَنَحْوُ عِنْدِي دِرْهَمٌ وَلِي وَطَرٌ مُلْتَزِمٌ فِيهِ تَقَدُّمُ الْخَبَرِ
فَتَحْصَلَ أَنَّ الْحَتَمَ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ، وَأَنَّ الْغِشَاوَةَ عَلَى

الأبصار؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ
 اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ۖ﴾ (الجاثية
 ٢٣)، والختَمُ الاستيثاقُ مِنَ الشَّيْءِ حَتَّى لَا يُخْرَجَ مِنْهُ دَاخِلٌ فِيهِ، وَلَا
 يَدْخُلُ فِيهِ خَارِجٌ عَنْهُ، وَالْغِشَاوَةُ الْغِطَاءُ عَلَى الْعَيْنِ يَمْنَعُهَا مِنَ الرُّؤْيَا،
 وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَارِثِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْعَاصِ الطَّوِيلِ:

هَوَيْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا
 وَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ نَصَبَ ﴿غِشَاوَةٌ﴾، فَهِيَ مَنْصُوبَةٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ،
 أَي: وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً، كَمَا فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ
 الرَّجَزُ:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً أَبَارِدًا حَتَّى شَتَّتَ هَمَالَةً عَيْنَاهَا
 اهـ كَلَامُهُ.

وَتَأَمَّلْ انْتِظَامَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُسْتَشْهَدِ بِهَا آيَفَاءً؛ فَقَدْ جَاءَ فِي كُلِّ مِنْهَا
 ذِكْرُ وَسَائِلِ الْعِلْمِ الثَّلَاثَةِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْقَلْبُ.
 وَتَأَمَّلْ أَيْضاً قُوَّةَ الْأَلْفَاظِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِي بَيَانِ فَسَادِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَ
 أُوْلَيْكَ:

- أَمَّا السَّمْعُ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي آيَةِ الْبَابِ أَنَّ الْكَفَّارَ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي
 آذَانِهِمْ، وَفِي آيَةِ فَصَّلْتَ ذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾، وَفِي آيَةِ
 الْبَقَرَةِ وَالْجَاثِيَةِ ذَكَرَ الْخَتَمَ عَلَى آذَانِهِمْ كَمَا مَرَّ، وَكُلُّهَا أَلْفَاظٌ قَوِيَّةٌ
 وَمُنَاسِبَةٌ فِي الْقُوَّةِ، وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ التَّنَاعُصِ مِنَ الْحَقِّ.

- وَأَمَّا الْبَصَرُ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي آيَةِ الْبَابِ أَنَّهُمْ اسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ، وَفِي آيَةِ الْبَقَرَةِ وَالْجَاثِيَةِ ذَكَرَ الْغِشَاوَةَ كَمَا مَرَّ، وَفِي آيَةِ فَصَّلَتْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾، وَكُلُّهَا أَلْفَاظٌ مُتَنَاسِبَةٌ قَدْ بَلَغَتْ الْغَايَةَ فِي الْقُوَّةِ.

- وَأَمَّا الْقَلْبُ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي آيَةِ الْبَابِ أَنَّهُمْ أَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا كَمَا مَرَّ، وَفِي آيَةِ فَصَّلَتْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾، وَهَذَا كَذَلِكَ غَايَةُ فِي التَّعْنُّتِ وَالْإِعْرَاضِ، وَفِي آيَةِ الْبَقَرَةِ وَالْجَاثِيَةِ ذَكَرَ الْحَتْمَ، وَمَرَّ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ ذِكْرُ مَا فِيهِ.

فَتَلَخَّصَ لَدَيْنَا هُنَا خَمْسُ فَوَائِدَ:

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي التَّعْبِيرِ بِالْكُلِّ عَنِ الْجُزْءِ فِي آيَةِ الْبَابِ.

الثَّانِيَةُ: الْحِكْمَةُ فِي وَصْفِ طَرِيقَةِ قَوْمِ نُوحٍ فِي تَغْطِيَّتِهِمْ وَجُوهَهُمْ بِثِيَابِهِمْ كَمَا لَا يُبْصِرُوا الْحَقَّ.

الثَّالِثَةُ: الْحِكْمَةُ فِي التَّعْبِيرِ بِالْإِضْرَارِ وَالِاسْتِكْبَارِ لِتَبْيِينِ مَبْلَغِ إِعْرَاضِ قُلُوبِهِمْ عَنِ الْحَقِّ.

الرَّابِعَةُ: فِي اخْتِيَارِهِمْ أَقْوَى الْأَلْفَاظِ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ نَفَرَتِهِمْ مِنْ دَعْوَةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَنَّ اللَّهَ مَا ظَلَمَهُمْ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

الخَامِسَةُ: الْحِكْمَةُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ الثَّلَاثَةِ: السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْقَلْبِ أَنَّهَا وَسَائِلُ الْعِلْمِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

سُورَةُ الْجِنِّ

تَبْلِيغُ الرُّسَالَةِ عِصْمَةٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِي ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَنْ لَّهُ نَارٌ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۝﴾ (الجن ٢١-٢٣).

هَاتَانِ الْآيَتَانِ مِنَ أَعْظَمِ الْآيَاتِ الْمَشْجَعَةِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ لَمَنْ فَقَّهَهُ اللَّهُ فِي دِينِهِ وَرَزَقَهُ الْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ فِيهِمَا أَنَّهُ لَا أَحَدَ يُخَيِّرُ الْعَبْدَ وَيَحْفَظُهُ مِمَّا يُدْبِرُ لَهُ مِنَ الْمَكَائِدِ، إِلَّا إِنْ كَانَ مُبْلَغًا عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَالنَّاسُ يَظُنُّونَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى دِينِ اللَّهِ تَزِيدُهُمْ بُغْضًا فِي الْقُلُوبِ وَمُحَارَبَةً مِنْ قِبَلِ الْمُخَالِفِينَ وَتَسْلُطًا بِأَنْوَاعِ الْأَذْيَةِ، فَيُقْضُونَ السَّلَامَةَ عَلَى الدُّخُولِ فِيمَا يَجِبُ لَهُمُ الْمَلَامَةُ، وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّهُ بِقَدْرِ مَا يَدْعُو الْمَرْءُ إِلَى اللَّهِ بِقَدْرِ مَا يُدْفَعُ عَنْهُ مِنَ الْمَكَارِهِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٧/٤٣٢ - ٤٣٣): «يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إِنْ عَصَيْتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ نَارَ عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ (الزمر ١٣)، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: أَيُّ مَلْجَأٍ أَلْجَأُ إِلَيْهِ، ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِي﴾: أَيُّ لَا يُخَيِّرُنِي مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا طَاعَتَهُ أَنْ أُبْلَغَ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَبِذَلِكَ تَحْصُلُ الْإِجَارَةُ وَالْأَمْنُ، وَقِيلَ أَيْضًا: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝﴾ (الجن ٢١): لَا أَمْلِكُ إِلَّا تَبْلِيغَ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنْهُ، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْنَ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ وَحُصُولِ السَّعَادَةِ إِنَّمَا هُوَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى.

ولهذه الآية نظائر في الكتاب والسنة، وأكتفي هنا بآية وحديث وشاهد من السيرة النبوية، أمّا الآية فهي قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٦٧)، فوعده الله نبيه ﷺ بأن يعصمه من الناس إن هو قام بتبليغ رسالته، والناس يتوهمون أن الدعوة هي التي تعرضهم لأذية الخلق، ولا خلاص لهم منهم إلا بالسكوت عنهم ومجاراتهم على ما يكونون عليه من الباطل، وقد مضى تفنيده في الآيات السابقة، وفي أمّا الحديث فهو حديث يحيى مع عيسى عليه السلام، فعن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَأَدَ أَنْ يُنْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فِيمَا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ: يَا أَخِي! إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذِّبَ أَوْ يُخَسِّفَ بِي» الحديث، رواه أحمد وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢)، والشاهد منه أن يحيى عليه السلام خاف أن يخسف الله به إن هو تأخر عن التبليغ.

وأما من السيرة النبوية، فخير شاهد منها على ما نحن فيه ما كان من صلح الحديبية؛ فقد قبل النبي ﷺ الشروط القاسية التي اشترطتها قريش عليه وعلى أصحابه؛ لأن في ذلك حداً من القتال

الَّذِي لَوْ اسْتَمَرَ لِحَالٍ دُونَ كَثِيرٍ مِنْ بَرَكَاتِ الدَّعْوَةِ، وَلَكِنْ إِذَا حُلَّ
السَّلَامُ حَلَّتِ الدَّعْوَةُ الَّتِي بَرَكَتُهَا أَعْظَمُ مِنْ بَرَكَاتِ الْقِتَالِ، كَمَا قَدْ عَلِمَ
مِنْ نَتَائِجِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ إِثَارَةُ الْمَسْأَلَةِ
لِيَنْظَرَ فِيهَا مَنْ يَنْظُرُ، وَيَسْتَفِيدَ مِنْهَا مَنْ يَسْتَفِيدُ.

سورة المزمل نسخ فرض قيام الليل

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ (المزمل ١-٤).

قَالَ الشَّافِعِيُّ كَمَا فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » لِلْبَيْهَقِيِّ (ص ٦٦ - ٦٨):
« وَمِمَّا نَقَلَ بَعْضُ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَنْزَلَ فَرَضاً فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ فَرَضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾، ثُمَّ نَسَخَ هَذَا فِي السُّورَةِ مَعَهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، قَرَأَ إِلَى: ﴿وَأَتُوا الزُّكُوفَ﴾، قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ أَمْرِهِ بِقِيَامِ اللَّيْلِ نِصْفَهُ إِلَّا قَلِيلًا أَوْ الزِّيَادَةَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (المزمل ٢٠)، فَخَفَّفَ فَقَالَ: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضِيقُ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل ٢٠)، كَانَ بَيِّنًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ نَسْخَ قِيَامِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَالتَّقْصَانِ مِنَ النِّصْفِ وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾، ثُمَّ احْتَمَلَ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾ مَعْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ فَرَضًا ثَابِتًا؛ لِأَنَّهُ أَزِيلَ بِهِ فَرَضُ غَيْرِهِ.

وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ فَرَضًا مَنْسُوخًا أَزِيلَ بِهِ غَيْرُهُ كَمَا أَزِيلَ بِهِ غَيْرُهُ،

وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ (الإسراء ٧٩)، واحْتَمَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أَنْ يَتَهَجَّدَ بِغَيْرِ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِ مِمَّا تيسَّرَ مِنْهُ، فَكَانَ الْوَاجِبُ طَلَبَ الْاسْتِدْلَالِ بِالسُّنَّةِ عَلَى أَحَدِ الْمَعْنِيَيْنِ، فَوَجَدْنَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَدُلُّ عَلَى أَنْ لَا وَاجِبَ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَّا الْخُمْسُ، فَصَرَّنَا إِلَى أَنَّ الْوَاجِبَ الْخُمْسُ، وَأَنَّ مَا سِوَاهَا مِنْ وَاجِبٍ مِنْ صَلَاةٍ قَبْلَهَا مَنسُوخٌ بِهَا؛ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمِنْ أَلْيَلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾، فَإِنَّهَا نَاسِخَةٌ لِقِيَامِ اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ وَمَا تيسَّرَ، وَلَسْنَا نُحِبُّ لِأَحَدٍ تَرْكَ أَنْ يَتَهَجَّدَ بِمَا يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِ مُصْلِيًّا بِهِ، وَكَيْفَمَا أَكْثَرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَعُבَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فِي الصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ.

وَقَدْ رَوَى التَّسَنُّعُ الْمَذْكُورَ مُسَلِّمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٤٦) عَنْ حَكِيمِ بْنِ أَفْلَحٍ أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنْبِئْنِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» فَقَالَتْ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟ قُلْتُ: بَلَى! قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ خَاتَمَتَهَا اثْنِي عَشَرَ شَهْرًا فِي السَّمَاءِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّخْفِيفَ، فَصَارَ قِيَامُ اللَّيْلِ تَطَوُّعًا بَعْدَ فَرِيضَةٍ.

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْجَصَّاصُ فِي «أَحْكَامِ الْقُرْآنِ» (٣/ ٧٠١): «لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي نَسْخِ فَرَضِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَأَنَّهُ مَدْنُوبٌ إِلَيْهِ

مُرَغَّبٌ فِيهِ».

وانظرُ « النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ » لِأَبِي عُيَيْدٍ
(ص ٢٥٦).

سورة المدثر

لَا وَقُوفَ فِي حَيَاةِ الْمَرْءِ إِنَّمَا هُوَ تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٢﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣﴾ إِنَّهَا إِلَّا حَدَى الْكُبَرِ ﴿٤﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٥﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٦﴾﴾ (المدثر ٣٢-٣٧).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» (١/٢٦٧-٢٦٨): «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي تَقَدُّمٍ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ وَلَا بَدَّ، فَالْعَبْدُ سَائِرٌ لَا وَاقِفٌ، فإِمَّا إِلَى فَوْقَ، وَإِمَّا إِلَى أَسْفَلَ، إِمَّا إِلَى أَمَامٍ، وَإِمَّا إِلَى وَرَاءَ، وَلَيْسَ فِي الطَّبِيعَةِ وَلَا فِي الشَّرِيعَةِ وَقُوفٌ أَلْبَتَّةَ، مَا هُوَ إِلَّا مَرَّاحِلُ تُطَوَّى أَسْرَعَ طَيًّا إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ إِلَى النَّارِ، فَمُسْرِعٌ وَمُبْطِئٌ، وَمُتَقَدِّمٌ وَمُتَأَخِّرٌ، وَلَيْسَ فِي الطَّرِيقِ وَاقِفٌ أَلْبَتَّةَ، وَإِنَّمَا يَتَخَالَفُونَ فِي جِهَةِ الْمَسِيرِ، وَفِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ؛ ﴿إِنَّهَا لَا حَدَى الْكُبَرِ ﴿٤﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٥﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٦﴾﴾ (المدثر ٣٥-٣٧)، وَلَمْ يَذْكُرْ وَاقِفًا؛ إِذْ لَا مَنَزَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَلَا طَرِيقَ لِسَالِكٍ إِلَى غَيْرِ الدَّارَيْنِ أَلْبَتَّةَ، فَمَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ إِلَى تِلْكَ بِالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، فَإِنْ قُلْتَ: كُلُّ مُجِدِّ فِي طَلَبِ شَيْءٍ لَا بَدَّ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ وَقْفَةٌ وَفُتُورٌ، ثُمَّ يَنْهَضُ إِلَى طَلَبِهِ؟ قُلْتُ: لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ صَاحِبَ الْوَقْفَةِ لَهُ حَالَانِ: إِمَّا أَنْ يَقِفَ لِيُجِمَّ نَفْسَهُ وَيُعَدِّهَا لِلسَّيْرِ، فَهَذَا وَقْفَتُهُ سَيْرٌ، وَلَا تَضُرُّهُ الْوَقْفَةُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ، وَإِمَّا أَنْ يَقِفَ لِدَاعٍ دَعَاهُ مِنْ وَرَائِهِ وَجَازِبٍ جَذَبَهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَإِنْ أَجَابَهُ أَخَّرَهُ وَلَا بَدَّ، فَإِنْ تَدَارَكَهُ اللَّهُ

بِرَحْمَتِهِ وَأُطْلِعَهُ عَلَى سَبْقِ الرِّكْبِ لَهُ وَعَلَى تَأْخُّرِهِ، نَهَضَ نَهْضَةَ الْغَضْبَانِ
الْأَسْفِ عَلَى الْإِنْقِطَاعِ، وَوَثَبَ وَجَمَزَ^(١) وَاشْتَدَّ سَعِيًّا لِيَلْحَقَ الرِّكْبَ،
وَإِنْ اسْتَمَرَّ مَعَ دَاعِيِ التَّأْخُرِ وَأَصْغَى إِلَيْهِ، لَمْ يَرْضَ بَرْدَهُ إِلَى حَالَتِهِ
الْأُولَى مِنَ الْغَفْلَةِ وَإِجَابَةِ دَاعِيِ الْهَوَى حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى أَسْوَأِ مِنْهَا وَأَنْزَلَ
دَرْكًا، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّكْسَةِ الشَّدِيدَةِ عَقِيبَ الْإِبْلَالِ^(٢) مِنَ الْمَرَضِ؛
فَإِنَّهَا أَخْطَرُ مِنْهُ وَأَصْعَبُ، وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنْ تَدَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
هَذَا الْعَبْدَ بِجَذْبَةٍ مِنْهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ وَتَخْلِيصِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي تَأْخُرٍ إِلَى
الْمَمَاتِ، رَاجِعُ الْقَهْقَرَى، نَاكِصٌ عَلَى عَقِيْبِهِ أَوْ مُوَلِّ ظَهْرَهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ.

وَيُمْكِنُ تَفْسِيرُ هَذَا بِأَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ خُلِقَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ
خَلَقَ لَهُ جَوَارِحَ لَذَلِكَ، وَوَضَعَ لَهَا وَظَائِفَ تَعْبُدِيَّةً، وَجَعَلَ لَهَا
مُنَاسِبَاتٍ زَمَنِيَّةً، فَإِنْ هُوَ اسْتَعْمَلَهَا فِيهَا خُلِقَتْ لَهُ مَضَى مَعَ الصَّالِحِينَ
لِسَبِيلِ مَحَبَّةٍ، وَإِنْ هُوَ تَخَلَّفَ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا فِيهَا خُلِقَتْ لَهُ تَعَطُّلٌ
وَظَائِفُهُ وَفَاتَهُ مِنَ الْخَيْرِ بِحَسَبِ تَخَلُّفِهِ، وَبِهَذَا يَكُونُ قُعودُهُ تَخَلُّفًا، بَيْنَ
ذَلِكَ ابْنُ الْقِيَمِ فِي « الْفَوَائِدِ » فَقَالَ (ص ١٩٣-١٩٥): « اللَّهُ عَلَى
الْعَبْدِ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ أَمْرٌ، وَلَهُ عَلَيْهِ فِيهِ نَهْيٌ، وَلَهُ فِيهِ نِعْمَةٌ،
وَلَهُ بِهِ مَنَفْعَةٌ وَلَذَّةٌ، فَإِنْ قَامَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْعَضْوِ بِأَمْرِهِ وَاجْتَنَبَ فِيهِ نَهْيَهُ
فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ فِيهِ، وَسَعَى فِي تَكْمِيلِ انْتِفَاعِهِ وَلَذَّتِهِ بِهِ،

(١) جَمَزَ: مِنَ الْجَمَزِ، وَهُوَ الْعَدُوُّ وَالْإِسْرَافُ.

(٢) الْإِبْلَالُ هُوَ الشُّفَاءُ.

وإن عطل أمر الله ونهيَه فيه عطَّلَه اللهُ من انتِفَاعِه بذلك العضو، وجعلَه من أكبر أسباب ألمِه ومضرَّتِه، وله عليَه في كلِّ وقتٍ من أوقَاتِه عبوديَّةٌ تُقدِّمُه إليِه وتُقرِّبُه مِنه، فإن شغل وقتَه بعبوديَّةِ الوقتِ تقدَّم إلى ربِّه، وإن شغلَه بهوى أرواحِه وبطالَةٍ تأخَّر، فالعبدُ لا يزالُ في تقدُّمٍ أو تأخُّرٍ، ولا وقوفٍ في الطريقِ البتَّة، قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿٦٧﴾، ثمَّ قال: « أقام اللهُ سبحانه هذا الخلقَ بين الأمر والنهي والعطاء والمنع، فافترقوا فرقتين: فرقةٌ قابلت أمرَه بالترك، ونهيَه بالارتكاب، وعطاءَه بالغفلة عن الشكر، ومنعَه بالسُّخط، وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسبِ ما فيهم من ذلك، وقسمٌ قالوا: إننا نحنُ عبيدُك، فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حميدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرَّعنا إليك وذكَّرنَّاك، فليس بين هؤلاء وبين الجنَّةِ إلَّا سترُ الحياةِ الدُّنيا، فإذا مرَّقه عليهم الموتُ صاروا إلى النعيمِ المقيمِ وقرَّةِ الأعين، كما أنَّ أولئك ليسَ بينهم وبين النارِ إلَّا سترُ الحياة، فإذا مرَّقه الموتُ صاروا إلى الحسرةِ والألم، فإذا تصادمَت جيوشُ الدُّنيا والآخرةِ في قلبِك وأردت أن تعلمَ من أيِّ الفريقين أنت، فانظرْ مع مَنْ تميلُ مِنْهُمَا ومع مَنْ تُقاتِلُ؛ إذ لا يُمكنك الوقوفُ بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة، فالفريقُ الأوَّلُ استغشوا الهوى فخالفوه، واستنصحووا العقلَ فشاوروه، وفرَّغوا قلوبَهم للفكرِ فيما خلِقوا له، وجوارحهم للعملِ بما أمروا به، وأوقاتهم لعمارَتها بما

يَعْمُرُ مَنَازِلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَاسْتَظْهَرُوا عَلَى سُرْعَةِ الْأَجَلِ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى
الْأَعْمَالِ، وَسَكَنُوا الدُّنْيَا وَقُلُوبُهُمْ مُسَافِرَةٌ عَنْهَا، وَاسْتَوْطَنُوا الْآخِرَةَ
قَبْلَ انْتِقَالِهِمْ إِلَيْهَا، وَاهْتَمُّوا بِاللَّهِ عَلَى قَدَرِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَزَوَّدُوا
لِلْآخِرَةِ عَلَى قَدَرِ مُقَامِهِمْ فِيهَا، فَعَجَّلَ لَهُمْ سُبْحَانَهُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ
وَرَوْحِهَا أَنْ أَنْسَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِهِمْ إِلَيْهِ وَجَمَعَهَا عَلَى مَحَبَّتِهِ،
وَشَوَّقَهُمْ إِلَى لِقَائِهِ، وَنَعَّمَهُمْ بِقُرْبِهِ، وَفَرَّغَ قُلُوبَهُمْ مِمَّا مَلَأَ قُلُوبَ غَيْرِهِمْ
مِنْ مَحَبَّةِ الدُّنْيَا وَالْهَمِّ وَالْحُزَنِ عَلَى فَوْتِهَا وَالْغَمِّ مِنْ خَوْفِ ذَهَابِهَا،
فَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرْفُونَ، وَأَنْسَوْا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ،
صَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِهِمْ، وَالْمَلَأَ الْأَعْلَى بِأَرْوَاحِهِمْ».

سُورَةُ الْقِيَامَةِ بَصَمَاتُ الْإِنْسَانِ مُعْجَزَةٌ بَارِعَةٌ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ ﴿١﴾ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٢﴾ (القيامة ٣-٤).

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «تَأْوِيلِ مُشْكِالِ الْقُرْآنِ» (ص ٣٤٦): «هَذَا رَدُّ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْشُرُ الْمَوْتَى، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى جَمْعِ الْعِظَامِ الْبَالِيَةِ، فَقَالَ: بَلَىٰ! فَاعْلَمُوا أَنَّا نَقْدِرُ عَلَى رَدِّ السَّلَامِيَّاتِ^(١) عَلَى صِغَرِهَا، وَنَوَلِّفُ بَيْنَهَا حَتَّى يَسْتَوِيَ الْبَنَانُ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى هَذَا فَهُوَ عَلَى جَمْعِ كِبَارِ الْعِظَامِ أَقْدَرُ»، وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «التَّبْيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» (ص ١٢٧- مكتبة أولاد الشيخ للتراث): «تَسْوِيَةُ بَنَانِهِ إِعَادَتُهَا كَمَا كَانَتْ بَعْدَ مَا فَرَّقَهَا الْبَلَى فِي التُّرَابِ».

يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَابْنِ الْقَيِّمِ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ إِعَادَةِ بَنَانِ الْإِنْسَانِ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْاسْتِدْلَالِ بِالْجُزْءِ عَلَى الْكُلِّ؛ لِأَنَّ خَلْقَ الْجُزْءِ لَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى خَلْقِ الْكُلِّ، بَلْ عَكْسُهُ هُوَ الَّذِي جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، كَمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ (غافر ٥٧)، عَلَى مَعْنَى أَنَّ مَنْ خَلَقَ الْأَكْبَرَ أَقْدَرُ عَلَى خَلْقِ الْأَصْغَرِ، وَأَمَّا هُنَا فَهُوَ مِنْ بَابِ أَنَّ مَنْ خَلَقَ الْمَعْقَدَ الدَّقِيقَ أَقْدَرُ عَلَى خَلْقِ مَا دُونَهُ، إِذَا لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ فِي

(١) السَّلَامِيَّاتُ جَمْعُ السَّلَامَى، وَفِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» لابْنِ مَنْظُورٍ: «قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: السَّلَامَى عِظَامٌ صِغَارٌ عَلَى طُولِ الْإِصْبَعِ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهَا».

الْبَنَانِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مُعْجَزٌ، تَكُونُ إِعَادَتُهُ بَعْدَ الْبَلَى دَلِيلًا عَلَى إِعَادَةِ الْكُلِّ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي الْجُزْءِ تَمِيزٌ، وَلِذَلِكَ حَرَصْتُ عَلَى نَقْلِ تَفْسِيرِ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَابْنِ الْقَيْمِ أَنْفَاءً؛ لِأَنَّهَا كَانَا دَقِيقَيْنِ فِي تَعْبِيرَيْهِمَا، وَهَذِهِ هِيَ دَقَّةُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْحَقِّ فَكَيْفَ بَعُلُمَائِهِمْ؟! وَالْقُرْآنَ حَقٌّ، وَقَدْ مَرَّ عَلَى هَذَا الْخَبَرِ الْقُرْآنِيُّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا لِيُقَرَّرَ عُلَمَاءُ الْأَحْيَاءِ وَالْعُلُومِ الْبَيُولُوجِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِ خَاصَّةً أَنَّ النَّاسَ يَتَمَايِزُونَ بِبَصَمَاتِ بَنَانِهِمْ، وَطَبَّقُوا ذَلِكَ بِجِدِّ حَتَّى جَعَلُوهُ الْعَلَامَةَ النَّاجِعَةَ لِلتَّوْقِيعَاتِ وَضَبْطِ الْمُجْرِمِينَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَصَالِحِ، حَتَّى كَانَ اللَّمَسُ بِالْيَدِ أَخَوْفَ شَيْءٍ يَحْتَرِزُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ وَالسُّرَّاقُ، فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إِنَّ الْكُفَّارَ مِنْ بَنِي آدَمَ يَزْعُمُونَ أَنَّنَا لَا نُعِيدُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَأَنَّ مَنْ مَاتَ ضَاعَتْ عَلَيْنَا مَعَالِمُهُ، فَلَا قِيَامَ لِلْأَجْسَادِ، فَيَبَيِّنُ اللَّهُ أَنَّهُ سَيُعِيدُ بَنِي آدَمَ بِالتَّفَاصِيلِ الَّتِي خَلَقَهُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يُعِيدُهُمْ بِالْعَلَامَةِ الَّتِي يَتَمَيِّزُ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ غَيْرِهِ، فَسُبْحَانَ الْخَلَّاقِ الْعَلِيمِ!

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَارِيخَ اكْتِشَافِ الْبَصَمَاتِ لَا يَرْجِعُ إِلَى التَّارِيخِ الْقَدِيمِ، بَلْ هُوَ اكْتِشَافٌ جَدِيدٌ، فَرَحَ بِهِ عُلَمَاءُ التَّشْرِيعِ أَيُّهَا فَرَحٌ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ إِشَارَةً فَهَمَّهَا أَهْلُ كُلِّ عَصْرِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ مُسْتَوِيَاتِهِمُ الَّتِي تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا، وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ زَمَانٌ أَزْدَادَ النَّاسُ يَقِينًا بِالْعَجْزِ عَنِ الْإِثْبَانِ بِمِثْلِهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ «مَوْسُوعَةِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسَّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ» لِمَوْلَانِ يَوْسُفِ الْحَاجِّ أَحْمَدَ (ص ١٦٩ -

(١٧٣) بَيَانُ ذَلِكَ نَقْلًا عَنِ الْمَوْسُوعَةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ، حَيْثُ ذَكَرُوا أَنَّ أَوَّلَ
اكتِشَافٍ لِلْبَصْمَاتِ كَانَ سَنَةَ (١٨٢٣ م) عَلَى يَدِ أَحَدِ عُلَمَاءِ التَّشْرِيعِ
التَّشِيكِيِّينَ، وَبَعْدَهُ فِي سَنَةِ (١٨٥٨ م) أَشَارَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْإِنْكَلِيزِيِّينَ إِلَى
أَنَّ الْبَصْمَاتِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَصْحَابِهَا، وَفِي سَنَةِ (١٨٩٢ م) أُثْبِتَ
آخَرُ أَنَّ صُورَةَ الْبَصْمَةِ تَعِيشُ مَعَ صَاحِبِهَا طَوْلَ حَيَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ
إِثْنَانِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَتَشَابَهُانِ فِي الْبَصْمَاتِ، وَبَعْدَهَا بِسَنَةِ اسْتُخْدِمَ
نِظَامُ تَوْقِيعِ الْبَصْمَاتِ فِي دَوَائِرِ الشُّرْطَةِ بِاسْكُوتْلَنْدِ يَارْدِ، ثُمَّ أَجْمَعَ الْعَالَمُ
عَلَى اسْتِخْدَامِهِ، وَلَا يَزَالُ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا أَمْضَى سِلَاحٍ يَخَافُهُ الْمُجْرِمُونَ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ حِكْمِهِ.

سورة الإنسان

الفرق بين جزاء المقرئين وجزاء أصحاب اليمين

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ ﴾ (الإنسان ٥-٦).

قال ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (١١ / ١٧٧ - ١٨٠): « وعن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من السلف قالوا: (يُمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشرب بها المقرَّبون صرفاً)، وهو كما قالوا؛ فإنه تعالى قال: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ۖ ﴾، ولم يقل: يَشْرَبُ مِنْهَا؛ لأنه ضمَّن ذلك قوله: ﴿ يَشْرَبُ ۖ ﴾ يعني يَرَوِي بها؛ فإنَّ الشَّارب قد يَشْرَبُ ولا يَرَوِي، فإذا قيل: (يشربون منها) لم يدلَّ على الرِّيِّ، فإذا قيل: (يشربون بها) كان المعنى يَرَوُونَ بها، فالمقرَّبون يَرَوُونَ بها، فلا يحتاجون معها إلى ما دونها، فلهذا يشربون منها صرفاً بخلاف أصحاب اليمين، فإنَّها مُزِجَتْ لهم مزجاً، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ ﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ ﴾، فعباد الله هم المقرَّبون المذكورون في تلك السورة؛ وهذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل في الخير والشرِّ، كما قال النبي ﷺ: (مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرْتُ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ

سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَقَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، وَقَالَ ﷺ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)، قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ الصَّحِيحِ الَّذِي فِي السُّنَنِ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنْ أَسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتهُ)، وَقَالَ: (وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ)، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نَوْعَيْنِ: مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ كَمَا تَقَدَّمَ، وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَلَ الْقِسْمَيْنِ فِي حَدِيثِ الْأَوْلِيَاءِ، فَقَالَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَانِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ آذَاءٍ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا)^(١)، فَلَا بُرَارُ أَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمْ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِالْفَرَائِضِ، يَفْعَلُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَتْرَكُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُنْدُوبَاتِ وَلَا الْكَفَّ عَنْ فُضُولِ الْمُبَاهَاتِ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ فَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُوَ هَذَا اللَّفْظُ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ (٣/ ٣٤٦).

الْفَرَائِضُ، فَفَعَلُوا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، وَتَرَكُوا الْمَحْرَمَاتِ
 وَالْمَكْرُوهَاتِ، فَلَمَّا تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَحَبُوبَاتِهِمْ
 أَحَبَّهُمُ الرَّبُّ حُبًّا تَامًّا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ
 بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) يَعْنِي الْحَبَّ الْمُطْلَقَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا
 الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ١٦ ﴿ أَي أَنْعَمَ عَلَيْهِمُ الْإِنْعَامَ الْمُطْلَقَ التَّامَّ الْمَذْكُورَ
 فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ
 رَفِيقًا﴾ ١٧ (النِّسَاءُ ٦٩)، فَهَؤُلَاءِ الْمُقَرَّبُونَ صَارَتْ الْمُبَاحَاتُ فِي حَقِّهِمْ
 طَاعَاتٍ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ، فَكَانَتْ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا عِبَادَاتٍ لِلَّهِ،
 فَشَرَبُوا صِرْفًا كَمَا عَمِلُوا لَهُ صِرْفًا، وَالْمُقْتَصِدُونَ كَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا
 فَعَلُوهُ لِنَفْسِهِمْ، فَلَا يُعَاقِبُونَ عَلَيْهِ وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَشْرَبُوا
 صِرْفًا، بَلْ مُزَجَّ لَهُمْ مِنْ شَرَابِ الْمُقَرَّبِينَ بِحَسَبِ مَا مَرَّجُوهُ فِي الدُّنْيَا .
 أوردتُ هَذَا الْكَلَامَ كُلَّهُ لِبَيَانِ مَعْنَى الْبَاءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:
 ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، وَبِهَذَا تَعَلَّمَ أَنَّ قَوْلَ بَعْضِهِمْ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ غَلَطٌ، كَمَا نَبَّهَ
 عَلَيْهِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٢٠/٤٧٤)، وَكَذَا قَوْلُ
 بَعْضِهِمْ: إِنَّ الْبَاءَ لِلتَّبْعِيضِ، وَرَدَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ (٢١/١٢٣)،
 وَقَالَ: «وَالْبَاءُ لِلْإِلْصَاقِ، وَهِيَ لَا تَدْخُلُ إِلَّا لِفَائِدَةٍ، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى
 فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ أَفَادَتْ قَدْرًا زَائِدًا»، ثُمَّ اسْتَشْهَدَ بِآيَةِ الْبَابِ،
 وَالْمَقْصُودُ بِتَعَدِّي الْفِعْلِ هُنَا بِنَفْسِهِ فِعْلٌ: يَشْرَبُ؛ لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ:

يَشْرِبُهَا، لَكِنْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ حِينَئِذٍ أَنَّ الشَّرْبَ شُرْبُ الصَّاقِ إِلَى حَدِّ الرَّيِّ، فَعُدِّيَّ فِعْلٌ (يَشْرَبُ) بِالْحَرْفِ الَّذِي يَعْدَى بِهِ فِعْلٌ (يَرَوِي) لِيُفِيدَ مَعْنَاهُ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: تَضْمِينُ الْفِعْلِ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ حَتَّى يَتَعَدَّى بَتَعْدِيَّتِهِ، وَغَلَطَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَيْضاً مَنْ قَالَ: إِنَّ حَرْفَ الْبَاءِ جَاءَ عَلَى مَعْنَى حَرْفٍ (مِنْ)، عَلَى قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْحُرُوفَ يَنْوِبُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، فَقَالَ فِي (١٣/٣٤٢): « وَالْعَرَبُ تُضَمِّنُ الْفِعْلَ مَعْنَى الْفِعْلِ وَتُعَدِّيهِ تَعْدِيَّتَهُ، مِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْحُرُوفِ تَقْوُمَ مَقَامَ بَعْضٍ ^(١)، كَمَا يَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى زِعَاجِهِ ﴾ (ص ٢٤)، أَيْ مَعَ زِعَاجِهِ، وَ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (الصَّف ١٤)، أَيْ مَعَ اللَّهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالتَّحْقِيقُ مَا قَالَهُ نُحَاةُ الْبَصْرَةِ مِنَ التَّضْمِينِ، فَسُؤَالُ النَّعْجَةِ يَتَضَمَّنُ جَمْعَهَا وَضَمَّهَا إِلَى زِعَاجِهِ ^(٢)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ ﴾ (الإِسْرَاءُ ٧٣) ضَمَّنَ مَعْنَى يُزِغُونَكَ وَيَصُدُّونَكَ ^(٣)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ ٧٧) ضَمَّنَ مَعْنَى

(١) يُرِيدُ أَنَّهَا لَا تَقْوُمُ مَقَامَهَا مِنْ كُلِّ وَجْهِ، لَا نَفْيَ أَنْ تُؤَدِّيَ بَعْضَ مَعَانِيهَا، فَهَذَا يُثْبِتُهُ بِسْمِ اللَّهِ، كَمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ.

(٢) أَيْ إِنَّ حَرْفَ (إِلَى) الَّذِي فِي الْآيَةِ لَا يَتَعَدَّى بِهِ فِعْلٌ (سَأَلَ)، وَقَدْ جِئَ بِهِ هُنَا عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْجَمْعُ وَالضَّمُّ، وَهَذِهِ تَتَعَدَّى بِـ (إِلَى)، فَفُتِرَ حَرْفُ (إِلَى) بِفِعْلِ

السُّؤَالِ بِهَذَا الْاعْتِبَارِ، وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهَا بِمَعْنَى (مَعَ) لَقِيلَ: فَلِمَ تُرِكَ هَذَا الْحَرْفُ لَذَاكَ؟ (٣) فِعْلٌ فُتِرَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، فَيُقَالُ: فَتَنَهُ فُلَانٌ، لَكِنَّهُ عُدِّيٌّ هُنَا بِـ (عَنِ)؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ بِهِ مَعْنَى الْإِزَاغَةِ وَالصَّدِّ، وَأَفْعَالُهَا تَتَعَدَّى بِـ (عَنِ).

نَجَّيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ^(١)، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ضَمَّنَ يَرَوِي بِهَا، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ فِي (١٣/ ٣٤١ - ٣٤٢): «وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْمَوْجُودَةِ عَنْهُمْ - أَيِ عَنِ السَّلَفِ - وَيَجْعَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ اخْتِلَافًا، أَنْ يُعْبَرُوا عَنِ الْمَعَانِي بِالْفَافِ مُتْقَابِرَةٍ لَا مُتَرَادِفَةٍ؛ فَإِنَّ التَّرَادِفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فِيمَا نَادِرٌ، وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعْبَرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ، بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقَرُّبٌ لِمَعْنَاهُ، وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ».

وَهُوَ يُرِيدُ أَنَّ اللَّفْظَ الْقُرْآنِيَّ الْوَاحِدَ يَحْمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً، وَتَفْسِيرُ السَّلَفِ لَهُ يُعَدُّ تَقْرِيبًا لِمَعْنَاهُ لَا كُلَّ مَعْنَاهُ، وَلِذَلِكَ رَأَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ جَمَعَ أَقْوَالَ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ أَنْفَعُ؛ فَقَالَ (١٣/ ٣٤٣): «وَجَمْعُ عِبَارَاتِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا نَافِعٌ جَدًّا؛ فَإِنَّ مَجْمُوعَ عِبَارَاتِهِمْ أَدُلُّ عَلَى الْمَقْصُودِ

(١) فِعْلٌ (نَصَرَ) لَا يَتَعَدَّى بِ (مِنْ)، وَلَكِنْ بِ (عَلَى)، يُقَالُ: نَصَرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَلَوْتُمُوعًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (التَّوْبَةُ ١٤)، كَمَا يُقَالُ: نَصَرَهُ فَقَطُّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التَّوْبَةُ ٤٠)، وَقَدْ جِئَ بِ (مِنْ) هُنَا؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ تَحْصِيلُ مَعْنَى (نَجَّيْنَاهُ وَخَلَصْنَاهُ)، وَبِ (مِنْ) يَتَعَدَّى هَذَانِ الْفِعْلَانِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ إِنْجَاءَ نُوحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَخْلِيصَهُ مِنْ قَوْمِهِ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِقِصَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ مَعْرَكَةٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، فَإِنَّ نُوحًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلَبَ خَلَاصًا مِنْهُمْ لَا انْتِصَارًا عَلَيْهِمْ بَعْدَ قِتَالٍ، وَبُوضِّحَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ (هُود ٦٣)، فَهُوَ عَلَى مَعْنَى: فَمَنْ يُنَجِّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، وَلَيْسَ عَلَى مَعْنَى: فَمَنْ يَنْصُرُنِي عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ اللَّهَ خَصْمًا لَهُ، نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ.

من عبارة أو عبارتين».

ومثّل له بقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة ٢)، فقال (٣٤٢ / ١٣): «ومن قال: ﴿لَا رَيْبَ﴾: لَا شَكَّ، فهذا تقريبٌ، وإلّا فالرَّيبُ فيه اضطرابٌ وحركةٌ^(١)، كما قال: (دَعُ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ)^(٢)، وفي الحديث أَنَّهُ مرَّ بَطَبِي حَاقِفٍ، فقال: (لَا يَرِيهِ أَحَدٌ)^(٣)، فكما أَنَّ اليَقِينَ ضَمَّنَ السُّكُونَ والطُّمَأْنِينَةَ، فالرَّيبُ ضَدُّهُ ضَمَّنَ الاضطرابَ والحركةَ، ولفظُ (الشَّكُّ) وإن قيل: إِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ هَذَا المعنى، لكنَّ لفظه لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ».

(١) يَعْنِي مَعَ مَعْنَى الشَّكِّ.

(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٨) عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

(٣) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٢٨١٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ، وَمَعْنَى حَاقِفٍ: أَي نَائِمٌ قَدْ انْحَنَى فِي نَوْمِهِ، وَمَعْنَى (لَا يَرِيهِ أَحَدٌ): أَي لَا يَتَعَرَّضُ لَهُ وَلَا يُزَعِّجُهُ، كَذَا فِي «التَّعْلِيقَاتِ السَّلَفِيَّةِ عَلَى سُنَنِ النَّسَائِيِّ» (٣٧٦ / ٣).

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَجِيءُ (أَوْ) بِمَعْنَى (الْوَاوِ)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ (الْمُرْسَلَاتُ ٦).

حَرْفُ (أَوْ) حَرْفُ عَطْفٍ، وَيَأْتِي لِلشَّكِّ، وَالتَّخْيِيرِ، وَالِإِبْهَامِ، وَالتَّقْسِيمِ، وَالتَّقْرِيبِ، وَبِمَعْنَى (إِلَى)، وَلِلإِبَاحَةِ، وَبِمَعْنَى (إِلَّا) فِي الْاسْتِثْنَاءِ، وَبِمَعْنَى (بَلْ)، وَبِمَعْنَى (حَتَّى)، وَبِمَعْنَى (إِذَا)، وَلِطُلُقِ الْجَمْعِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي آيَةِ الْبَابِ، وَانْظُرْ « الْقَامُوسَ الْمُحِيطَ » لِلْفَيْرُوزِآبَادِيِّ عِنْدَ حَرْفِ الْوَاوِ مَسْبُوقاً بِهَمْزٍ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى (الْوَاوِ)؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى مُخْبِراً عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ نَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الْأَعْرَافُ ١٦٤)، وَإِذَا اعْتَبَرْنَا اللَّفْظَيْنِ: (عُذْرًا) وَ(نُذْرًا) مَصْدَرَيْنِ، فَإِنَّ نَصْبَهُمَا عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ، قَالَ بَيَانُ الْحَقِّ الْغَزَنَوِيُّ فِي « بَاهِرِ الْبُرْهَانِ فِي مَعَانِي مُشْكَلَاتِ الْقُرْآنِ » (١٦٠٨/٣): « أَيُّ عُذْرًا مِنْ اللَّهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَنُذْرًا لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ، أَيُّ لَذَلِكَمَا تُلْقَى الْمَلَائِكَةُ الذِّكْرَ »، يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى قَبْلَ آيَةِ الْبَابِ: ﴿فَالْمَلَفِيتِ ذِكْرًا﴾ وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ تُلْقِي الْوَحْيَ.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي « تَأْوِيلِ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ » (ص ٥٤٣ - ٥٤٤): « (أَوْ) تَأْتِي لِلشَّكِّ، تَقُولُ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ أَوْ مُحَمَّدًا، وَتَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ (الْمَائِدَةُ ٨٩)، وَقَوْلِهِ:

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ (البقرة ١٩٦)، أَنْتَ فِي جَمِيعِ هَذَا خَيْرٌ آيَةٌ فَعَلْتَ أَجْزَأَ عَنكَ، وَرَبِّمَا كَانَتْ بِمَعْنَى (وَإِو) النَّسَقِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَالْمَلِكُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يُنْذَرُ﴾ (المُرْسَلَات ٥-٦)، يُرِيدُ: عُنْذَرًا وَنُذْرًا، وَقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾ (طه ٤٤)، وَقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ هُمْ ذِكْرًا﴾ (طه ١١٣)، أَي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَيُحَدِّثُ لَهُمُ الْقُرْآنَ ذِكْرًا، هَذَا كُلُّهُ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ بِمَعْنَى (وَإِو) النَّسَقِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصَّافَّات ١٤٧)، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّهَا بِمَعْنَى: بَلْ يَزِيدُونَ، عَلَى مَذْهَبِ التَّدَارُكِ لِكَلَامِ غَلِطَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النَّحْل ٧٧)، وَقَوْلُهُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النَّجْم ٩)، وَلَيْسَ هَذَا كَمَا تَأَوَّلُوا، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى (الْوَاو) فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ وَهُوَ أَقْرَبُ، وَ(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ وَأَدْنَى) «.

وزاد المازري في «إيضاح المحصول من برهان الأصول» فائدة أخرى، فقال (ص ١٧٧): «وَأَمَّا كَوْنُهَا لِلتَّخْيِيرِ فَكَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ (البقرة ١٩٦)، وَكَقَوْلِهِمْ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِينَ، وَالْقَصْدُ هَهُنَا - بِذِكْرِ التَّخْيِيرِ وَإِبَاحَةِ التَّنْقُلِ مِنْ شَخْصٍ إِلَى شَخْصٍ - الْإِشْعَارُ بِأَمْرِ السَّامِعِ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْحَيْرِ وَالرَّشَادِ، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الْإِنْسَان ٢٤) يَتَضَمَّنُ هَذَا الْإِشْعَارُ النَّهْيَ عَنْ طَاعَةِ الْمُضِلِّ: آثِمًا كَانَ أَوْ

كَفُوراً، فَلِهَذَا تَنَاولَ النَّهْيُ الْآثِمَ وَالْكَفُورَ جَمِيعاً، حَتَّى يَقْدَرَ الْمَعْصِيَةُ
بِطَاعَةِ أَحَدِهِمَا، وَلَا تَحْصُلُ الطَّاعَةُ إِلَّا بِمَعْصِيَتِهِمَا جَمِيعاً، بِخِلَافِ
قَوْلِكَ: جَالِسِ الْحَسَنَ أَوْ ابْنَ سِيرِينَ؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ الْأَمْرُ بِمُجَالَسَةِ أَهْلِ
الْحَيْرِ، فَإِذَا جَلَسَ إِلَى وَاحِدٍ وَتَرَكَ الْآخَرَ لَمْ يَكُنْ عَاصِياً؛ لِأَنَّهُ لَمْ
يُؤْمَرْ^(١) هَهُنَا بِمَا يَتَضَمَّنُ الْجَمْعَ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي نَسْلُكُ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾...

وَقَدْ أُلْحِقَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعَانِي (أَوْ) مَعْنَى آخَرَ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ
بِمَعْنَى (إِلَى)، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ: لَا أَفَارُقُكَ أَوْ تَقْتَضِي حَقِّي، مَعْنَاهُ
لَا لَزِمَنَّاكَ إِلَى أَنْ تَقْتَضِيَنِي حَقِّي.

(١) فِي الْمَطْبُوعِ: لَمْ يَأْمُرْ، وَلَعَلَّ مَا أُثْبِتَهُ هُوَ الصَّوَابُ.

سُورَةُ النَّبَاِ

كَلَامُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَدَمُهُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النَّبَا ٣٨).

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ يَأْذُنُ لَهُ الرَّحْمَنُ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مَنْ يَكُونُ قَوْلُهُ صَوَابًا.

لَكِنْ جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّ النَّاسَ لَا يَنْطِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمِثْلِ

قَوْلِهِ ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿﴾ (الْمُرْسَلَات ٣٥-٣٦)،

كَمَا دَلَّتْ آيَاتٌ أُخْرَى عَلَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِغَيْرِ

الصَّوَابِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ

تَخْتَصِمُونَ﴾ (الزُّمَر ٣١)، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْخُصُومَةَ تَتِمَّخُضُ عَنْ

مُصِيبٍ وَغَيْرِ مُصِيبٍ، وَهُوَ بظَاهِرِهِ يُخَالِفُ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ النَّبَا مِنْ

أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا الْمُصِيبُ، وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ

الْمُخَالَفَةِ، إِخْبَارُ اللَّهِ عَنِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَكْذِبُونَ،

وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ

شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ

رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا

كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿﴾ (الْأَنْعَام ٢٢-٢٤).

وَقَدْ ادَّعى بَعْضُ الزَّنادِقَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ مُتَنَاقِضٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُوفَّقْ لِمَعْرِفَةِ
وَجْهِ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ الصَّادِقَةِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الرَّدِّ
عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّنادِقَةِ» (ص ٨٦-٨٩): «فَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ هَذَا مِنْ
الْكَلَامِ الْمُحْكَمِ: قَالَ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (المرسلات ٣٥)، ثُمَّ
قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾
(الزمر ٣١)؟! فَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَشَكُّوا فِي
الْقُرْآنِ، أَمَّا تَفْسِيرُ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (المرسلات ٣٥)، فَهَذَا
أَوَّلُ مَا تُبْعَثُ الْخَلَائِقُ عَلَى مِقْدَارِ سِتِّينَ سَنَةً لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فِي الْاِعْتِذَارِ فَيَعْتَذِرُونَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ فَيَتَكَلَّمُونَ، فَذَلِكَ
قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (السَّجْدَةُ ١٢)، فَإِذَا
أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ فَتَكَلَّمُوا وَاخْتَصَمُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ (الزمر ٣١) عِنْدَ الْحِسَابِ
وَإِعْطَاءِ الْمَظَالِمِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ (ق ٢٨)
أَيَّ عِنْدِي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (ق ٢٨)، فَإِنَّ الْعَذَابَ
مَعَ هَذَا الْقَوْلِ كَائِنٌ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ
عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء ٩٧)، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَنَادَى
أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ﴾ (الأعراف ٥٠)، فَقَالُوا كَيْفَ يَكُونُ هَذَا
مِنْ الْكَلَامِ الْمُحْكَمِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا
وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، ثُمَّ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟!
فَشَكُّوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، أَمَّا تَفْسِيرُ: ﴿وَنَادَى أَصْحَبُ الْجَنَّةِ

أَصْحَبَ النَّارِ ﴿ (الأعراف ٤٤)، ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ ﴾،
 فَإِنَّهُمْ أَوَّلَ مَا يَدْخُلُونَ النَّارَ يُكَلِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُنَادُونَ: ﴿ يَمْلِكُ
 لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوثٌ ﴾ ﴿ (الزخرف ٧٧)، وَيَقُولُونَ:
 ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ﴿ (إبراهيم ٤٤)، ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
 شِقْوَتُنَا ﴾ ﴿ (المؤمنون ١٠٦)، فَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ حَتَّىٰ يُقَالَ لَهُمْ: ﴿ أَحْسَبُوا فِيهَا
 وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ ﴿ (المؤمنون ١٠٨)، فَصَارُوا فِيهَا عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا،
 وَيَنْقَطِعُ الْكَلَامُ وَيَبْقَى الرَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ، فَهَذَا تَفْسِيرُ مَا شَكَّتْ فِيهِ
 الزَّانِدَةُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
 يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ (المؤمنون ١٠١)، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
 عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ (الصفات ٥٠)، فَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا مِنْ
 الْمُحَكَّمِ؟! فَشَكُّوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، فَأَمَّا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ فَلَا
 أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ (١١)، فَهَذَا عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ
 إِذَا قَامُوا مِنَ الْقُبُورِ لَا يَتَسَاءَلُونَ وَلَا يَنْطِقُونَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، فَإِذَا
 حُوسِبُوا وَدَخَلُوا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ،
 فَهَذَا تَفْسِيرُ مَا شَكَّتْ فِيهِ الزَّانِدَةُ ».

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

إِيجَازُ الْمُخْرَجِ مِنَ الْأَرْضِ فِي كَلِمَتَيْنِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلْنَا﴾ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ (النَّازِعَاتِ ٣٠-٣١).

هَذَا مِنَ الْكَلَامِ الْوَجِيزِ الَّذِي تَحْتَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْجَزَ الْمُخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ فِي كَلِمَتَيْنِ: ﴿مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «تَأْوِيلِ مُشْكِْلِ الْقُرْآنِ» (ص ٥): «كَيْفَ دَلَّ بِشَيْئَيْنِ عَلَى جَمِيعِ مَا أَخْرَجَهُ مِنَ الْأَرْضِ قُوْتًا وَمَتَاعًا لِلْأَنْعَامِ، مِنَ الْعُشْبِ وَالشَّجَرِ وَالْحَبِّ وَالشَّمْرِ وَالْحَطَبِ وَالْعَصْفِ وَاللِّبَاسِ وَالنَّارِ وَالْمِلْحِ؛ لِأَنَّ النَّارَ مِنَ الْعِيدَانِ، وَالْمِلْحَ مِنَ الْمَاءِ؛ يُنَبِّئُكَ أَنَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾» (النَّازِعَاتِ ٣٣).

سورة عَبَسَ

مِنْ أَدْلَةٍ صِدْقِ نُبُوءَةِ الرَّسُولِ ﷺ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۚ أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ آسَتْغْنَى ۚ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَانْتَ عَنْهُ نَلْهَى ۚ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ﴾ (عبس ١-١١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا يُخَاطَبُ بَعْضَ عُظَمَاءِ قُرَيْشٍ وَقَدْ طَمَعَ فِي إِسْلَامِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يُخَاطَبُهُ وَيُنَاجِيهِ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَكَانَ مِمَّنْ أَسْلَمَ قَدِيمًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ وَيُلِحُّ عَلَيْهِ، وَوَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَوْ كَفَّ سَاعَتَهُ تِلْكَ لِيَتِمَكَّنَ مِنْ مُخَاطَبَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ طَمَعًا وَرَغْبَةً فِي هِدَايَتِهِ، وَعَبَسَ فِي وَجْهِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخَرِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ﴾، رَوَى قِصَّتَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٣١)، وَصَحَّحَهَا الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «أُنْزِلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَشِدْنِي، وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: أَتَرَى بِنَا أَقُولُ بِأَسَاءَ، فَيَقُولُ: لَا! فَفِي هَذَا أُنْزِلَ»، وَقَوْلُهُ: «فَفِي هَذَا أُنْزِلَ» مِنْ كَلَامِ عَائِشَةَ لِعُرْوَةَ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي عِتَابِ اللَّهِ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى إِعْرَاضِهِ عَنِ الْأَعْمَى

الضَّعِيفِ اشْتِغَالاً بِدَعْوَةِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمُعْظَمِ فِي قَوْمِهِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِهِ دَعْوَةَ الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ يَمْنَعُهُ كِبَرُهُ مِنَ الْإِنْصَاتِ لَهُ لَوْ جُودَ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَوَجْهُ الْإِعْجَازِ فِيهَا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا حَقًّا لَكَتَمَهَا؛ لِئَلَّا يَقُولَ الْكَفَّارُ: لَقَدْ خَطَأَ اللَّهُ مُحَمَّدًا، فَكَيْفَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ وَالْعِصْمَةَ؟! وَكُلُّ مَدَّعٍ شَيْئًا لِنَفْسِهِ يُجَاهِلُ جِهْدَهُ سِتْرَ عُيُوبِهِ وَكِتْمَانَ أَخْطَائِهِ، لَكِنِ الرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدَّعُو لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ السُّورَةَ وَتَرَكَهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ دُونَ تَصَرُّفٍ أَوْ مُحَاوَلَةٍ كِتْمَانٍ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ، لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ تَبْدِيلِ كَلَامِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِّتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس ١٥)، فَكَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وَهَذَا الَّذِي تَرَاهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ هُنَا نَظِيرُ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ عَائِشَةَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

سورة التَّكْوِيرِ مَعْنَى تَزْوِيجِ النَّفُوسِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التَّكْوِيرِ ٧).

هَذَا مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ تَزَاوُجَ الزَّوْجَيْنِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ، انْظُرْ « أَضْوَاءُ الْبَيَانِ » لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ (٣٠٩/٦)، وَقَدْ تَوَسَّعَ فِي بَيَانِهِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى » (٦٢٢-٦٥) فَقَالَ: « وَأَمَّا لَفْظُ (الظُّلْمِ) الْمَطْلُوقِ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْكُفْرُ وَسَائِرُ الذُّنُوبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (١٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَنَّةِ (١٣) وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (١٤) » (الصَّافَّاتُ ٢٢-٢٤)، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: (وَنُظِرُوا لَهُمْ)، وَهَذَا ثَابِتٌ عَنْ عُمَرَ (١)، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ مَرْفُوعاً، وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وَأَشْبَاهُهُمْ)، وَكَذَلِكَ قَالَ قَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ: (كُلُّ مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ: فَأَهْلُ الْحَمْرِ مَعَ أَهْلِ الْحَمْرِ، وَأَهْلُ الزِّنَا مَعَ أَهْلِ الزِّنَا)، وَعَنِ الضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ: (قُرْنَاؤُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ، كُلُّ كَافِرٍ مَعَهُ شَيْطَانُهُ فِي سِلْسِلَةٍ)، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (التَّكْوِيرِ ٧)، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: (الْفَاجِرُ مَعَ

(١) فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٦٩٣/٨ - مَعَ الْفَتْحِ) تَعْلِيقاً: « وَقَالَ عُمَرُ: ﴿وَإِذَا النَّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٧): يُزَوَّجُ نَظِيرُهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ «، وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّهُ وَصَلَهُ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ: « وَهَذَا إِسْنَادٌ مُتَّصِلٌ صَحِيحٌ ».

الفاجير، والصالح مع الصالح)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (وذلك حين يكون
النَّاسُ أزواجاً ثلاثة)، وقال الحسن وقتادة: (أُلْحِقَ كُلُّ امْرِئٍ بِشِيعَتِهِ:
اليهوديُّ مع اليهود، والنَّصرانيُّ مع النَّصارى)، وقال الرَّبيعُ بنُ خَيْثَمٍ:
(يُحْشَرُ الْمَرْءُ مع صَاحِبِ عَمَلِهِ)، وهذا كما ثَبَتَ في الصَّحِيحِ عن النَّبِيِّ
ﷺ لَمَّا قِيلَ لَهُ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، قَالَ: (الْمَرْءُ مع مَنْ
أَحَبَّ) ^(١)، وَقَالَ: (الْأَزْوَاجُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ؛ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا
تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) ^(٢)، وَقَالَ: (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ
مِنْ يُخَالِلُ) ^(٣)، وَزَوْجُ الشَّيْءِ نَظِيرُهُ، وَسُمِّيَ الصَّنْفُ زَوْجاً لِتَشَابُهِهِ
أَفْرَادَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ^(٤)، وَقَالَ: ﴿وَمِنْ
كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٥) (الذَّارِيَاتُ ٤٩)، قَالَ غَيْرُ
وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: صَنَفَيْنِ وَنَوْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ،
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ، وَالسَّهْلُ وَالْجَبَلُ،
وَالشِّتَاءُ وَالصَّيْفُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ، وَالْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ، وَالسَّعَادَةُ
وَالشَّقَاوَةُ، وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، وَالذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَالنُّورُ وَالظُّلْمَةُ، وَالْخُلُوعُ
وَالْمُتَرُفُّ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ
وَاحِدٌ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَحْشَرُ مَعَهُمْ زَوْجَاتِهِمْ مُطْلَقاً؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ
الصَّالِحَةَ قَدْ يَكُونُ زَوْجُهَا فَاجِراً بَلْ كَافِراً، كَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَكَذَلِكَ

(١) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٣٦) وَمُسْلِمٌ (٢٦٣٨).

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٣٣) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٧٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِمَا.

الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَدْ تَكُونُ امْرَأَتُهُ فَاجِرَةً بَلْ كَافِرَةً كَامِرَةً نُوحٍ وَلُوطٍ،
لَكِنْ إِذَا كَانَتْ الْمَرْأَةُ عَلَى دِينِ زَوْجِهَا دَخَلَتْ فِي عُمُومِ الْأَزْوَاجِ، وَهَذَا
قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ الْمَشْرِكَاتِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ
تَنَاوَلَتْ الْكَفَّارَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ كَلَامُ الْمُفَسِّرِينَ:
إِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا الزُّنَاةُ مَعَ الزُّنَاةِ، وَأَهْلُ الْحُمْرِ مَعَ أَهْلِ الْحُمْرِ، وَكَذَلِكَ
الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قِيلَ: أَيْنَ الظُّلْمَةُ وَأَعْوَانُهَا؟ أَوْ
قَالَ: وَأَشْبَاهُهُمْ؟ فَيُجْمَعُونَ فِي تَوَابِيْتٍ مِنْ نَارٍ، ثُمَّ يُقَذَّفُ بِهِمْ فِي
النَّارِ، وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَعْوَانُ الظُّلْمَةِ مَنَ أَعْوَانِهِمْ وَلَوْ
أَنَّهُ لَأَقَى لَهُمْ دَوَاةً^(١) أَوْ بَرَى لَهُمْ قَلَمًا، وَمِنْهُمْ مَنَ كَانَ يَقُولُ: بَلْ مَنَ
يَغْسِلُ ثِيَابَهُمْ مِنْ أَعْوَانِهِمْ، وَأَعْوَانُهُمْ هُمُ مِنْ أَزْوَاجِهِمُ الْمَذْكُورِينَ فِي
الْآيَةِ؛ فَإِنَّ الْمُعِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ، وَالْمُعِينَ عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُدْ
نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُدْ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ (النساء ٨٥)،
وَالشَّافِعُ الَّذِي يُعِينُ غَيْرَهُ فَيَصِيرُ مَعَهُ شَفْعًا بَعْدَ أَنْ كَانَ وَتَرًا، وَهَذَا
فُسِّرَتْ الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ بِإِعَانَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ، وَالشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ
بِإِعَانَةِ الْكَفَّارِ عَلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو سُلَيْمَانَ،
وَفُسِّرَتْ الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ بِشَفَاعَةِ الْإِنْسَانِ لِلْإِنْسَانِ لِيَجْتَلِبَ لَهُ نَفْعًا أَوْ
يُخَلِّصَهُ مِنْ بَلَاءٍ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ، فَالشَّفَاعَةُ

(١) قَالَ فِي « الْقَامُوسِ الْمُحِيط »: « لَأَقَى الدَّوَاةَ يَلِيقُهَا لَيْقَةٌ وَلَيْقًا، وَالْأَقْهَى: جَعَلَ لَهَا لَيْقَةً أَوْ
أَصْلَحَ مِدَادَهَا ».

الحَسَنَةُ إِعَانَةٌ عَلَى خَيْرٍ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ نَفْعٍ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّفْعَ
وَدَفَعَ الضَّرَّ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّ دَفَعَ الضَّرَّ عَنْهُ، وَالشَّفَاعَةُ السَّيِّئَةُ إِعَانَتُهُ
عَلَى مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، كَالشَّفَاعَةِ الَّتِي فِيهَا ظُلْمُ الْإِنْسَانِ أَوْ مَنَعُ
الْإِحْسَانِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ، وَفُسِّرَتِ الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ بِالْإِحْسَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ،
وَالسَّيِّئَةُ بِالْإِحْسَانِ عَلَيْهِمْ، وَفُسِّرَتِ الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ بِالْإِصْلَاحِ بَيْنَ
اِثْنَيْنِ، وَكُلُّ هَذَا صَحِيحٌ؛ فَالشَّافِعُ زَوْجُ الْمَشْفُوعِ لَهُ؛ إِذِ الْمَشْفُوعُ عِنْدَهُ
مِنَ الْخُلُقِ إِمَّا أَنْ يُعِينَهُ عَلَى بَرٍّ وَتَقْوَى، وَإِمَّا أَنْ يُعِينَهُ عَلَى إِثْمٍ وَعُدْوَانٍ،
وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبٌ حَاجَةً قَالَ لِأَصْحَابِهِ: (اشْفَعُوا
تُوجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ) ^(١) .

(١) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

أَرْبَعُ فَوَائِدٍ فِي تَرْتِيبِ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا عَلَيْهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْاِنْسَنُ مَا عَرَفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١﴾

(الانفطار ٦)، وَقَالَ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ﴿٢﴾ (الانفطار ٩).

الفائدة الأولى: ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ عَبَسَ الْمَشَاهِدَ الْمُرُوعَةَ لِيَوْمِ

الْقِيَامَةِ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ﴾ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٤﴾

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٥﴾ وَصَحْبَتَيْهِ وَبَنِيهِ ﴿٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

يُغْنِيهِ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٩﴾ وَوُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿١٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿١٢﴾ ﴿

(عبس ٣٣-٤٢)، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّأْنُ فِي السُّورَةِ الَّتِي تَلِيهَا سُوْرَةُ

التَّكْوِيْرِ، فَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ

أَنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا

الْأُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ (التكوير ١-١٤)، وَكَذَلِكَ فِي السُّورَةِ الَّتِي

تَلِيهَا سُوْرَةُ الْاِنْفِطَارِ؛ فَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اِنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا

الْكَوَاكِبُ اِنْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ (الانفطار ١-٥)، وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ

الْاِنشِقَاقِ؛ فَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اِنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا

وَحُقِّقَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقِّقَتْ ﴿٥﴾ ﴿ (الانشقاق ١- ٥)، وهذا التفصيل لأهوال يوم القيامة
يَجْعَلُهَا كَأَنَّهُا رَآي عَيْنٍ، وَلِذَلِكَ رَوَى ابْنُ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ
قَالَ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ: ﴿ إِذَا
الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾، وَ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٣٣٣) وَالْحَاكِمُ (٥٧٦/٤)،
وَصَحَّحَهُ هُوَ وَالذَّهَبِيُّ، وَانْظُرْ « السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ » لِلْأَلْبَانِيِّ
(١٠٨١)، وَانْظُرْ « أَسْرَارُ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ » لِلشُّيُوطِيِّ (ص ١٥٣-
١٥٤).

الفائدة الثانية: فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ تَرْتِيبِ سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ عَقِبَ
سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ؟ قِيلَ: لَعَلَّ سَبَبَهُ أَنَّ اللَّهَ أَجْمَلَ فِي الْإِنْفِطَارِ حَالَ مَا
يَكْتُبُهُ الْحَافِظُونَ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَفَصَّلَهُ عَقِبَهَا فِي الْمُطَفِّفِينَ، قَالَ
الشُّيُوطِيُّ فِي الْمَصْدَرِ السَّابِقِ (ص ١٥٥): « وَوَجْهُ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّهُ جَلَّ
جَلَالُهُ لَمَّا قَالَ فِي الْإِنْفِطَارِ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٢﴾ ﴾
(الانْفِطَار ١٠- ١١)... ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (أَيِ الْمُطَفِّفِينَ) حَالَ مَا يَكْتُبُهُ
الْحَافِظَانِ، وَهُوَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ، جُعِلَ فِي عَلَيَّيْنِ أَوْ فِي سَجِّينَ ... ».

الفائدة الثالثة: وَمِنَ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ فِي تَرْتِيبِ السُّورِ الْأَرْبَعَةِ:
عَبَسَ وَالتَّكْوِيرِ وَالْإِنْفِطَارِ وَالْمُطَفِّفِينَ أَنَّ سُورَةَ عَبَسَ لَمْ تَزِدْ عَلَى
عَرَضَ بَعْضِ أَهْوَالِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَمَّا لَمْ تَتَعَرَّضْ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تُنْجِي
النَّاسَ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ، شَرَعَ اللَّهُ فِي تَفْصِيلِهَا فِي السُّورِ الَّتِي بَعْدَهَا:

- ففي سورة التَّكْوِيرِ، أَجْمَلَ اللهُ أَسْبَابَ النَّجَاةِ فِي سَبَبٍ وَاحِدٍ، أَلَا وَهُوَ الاستِقَامَةُ عَلَى الصِّرَاطِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ (التَّكْوِيرِ ٢٧-٢٨).

- وفي سورة الانْفِطَارِ بَيَّنَّ اللهُ أَنَّ أَوَّلَ قَادِحٍ فِي الاستِقَامَةِ هُوَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مَا عَرَّفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؛ لِأَنَّهُ عُدْوَانٌ عَلَى حَقِّ اللَّهِ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ.

- وفي سورة الْمُطَفِّفِينَ ثَنَّى اللهُ بِقَادِحٍ قَسِيمٍ لِلأَوَّلِ، وَهُوَ التَّطْفِيفُ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ؛ لِأَنَّهُ عُدْوَانٌ عَلَى حُقُوقِ الْعِبَادِ الَّتِي هِيَ حُسْنُ الْخَلْقِ، وَلِذَلِكَ بُدِئَتْ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْرَثُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٢﴾ (المُطَفِّفِينَ ١-٣).

وَهُمَا أَصْلَانِ يَتَكَرَّرُ ذِكْرُهُمَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: أَدَاءُ حَقِّ اللَّهِ فِي تَوْحِيدِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَدَاءُ حُقُوقِ الْعِبَادِ بِتَحْسِينِ الْخَلْقِ مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ الاستِقَامَةَ مَشْرُوطَةٌ بِتَحْقِيقِهَا، وَكُلُّ مَنْ فَرَّطَ فِيهَا كَانَ عُرْضَةً لِتِلْكَ الْأَهْوَالِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَ يُؤْخَذُونَ فِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُسَاحَةِ، فَأَمَّا التَّوْحِيدُ؛ فَلَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء ١١٦)، وَأَمَّا حُقُوقُ الْعِبَادِ، فَلِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ».

الفائدة الرابعة: ندّد الله في هذه السّورة بوصفيتين:

الأوّل: الشّرك، وقد مرّ بيان ذلك.

والثّاني: التّكذيب بيوم الدّين، وهو اليوم الآخر، وذلك هو قوله

وَعَلَّاهُ : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾.

وسبب ذلك أنّ الاستقامة ترتكز على أصلي الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن قويّ توحيدّه، وصدق في اليوم الآخر يقينه، صلح عمله، ولذلك جاءت الأحاديث النبويّة الكثيرة تحضّ على العمل الصّالح وتنهى عن العمل الطّالح انطلاقاً من استشارة هذين الأصلين في نفوس أهلها، أقصد مثل قوله ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ » متفق عليه، وقد جمع هذا الحديث بين الحضّ على العمل الصّالح والحضّ على الانتهاء من العمل الطّالح، والله أعلم.

سورة المطففين

رؤية الله ﷻ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿١﴾﴾ (المطففين

(١٥).

أنكرت الجهمية أكثر الصفات الإلهية، وتأولت معانيها حتى خرجت فيها عن حقيقتها بل عن أصلها، وكان مما أنكرته - بزعم التنزيه - رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وكان من السلف من يقول: من أنكر هذا حرمة يوم القيامة، وقد كان من أئمة الجهمية في هذا الشأن الجهم بن صفوان، فناصره أهل العلم مشافهة ومكاتبة فلم يتصيح، حتى قال الإمام أحمد رحمته الله في «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص ١٢٩): «وإننا لَنرجو أن يكون الجهم وشيعته ممن لا ينظرون إلى ربهم ويحجبون عن الله؛ لأن الله قال للكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ﴿١﴾﴾، فإذا كان الكافر يُحجب عن الله، والمؤمن يُحجب عن الله، فما فضل المؤمن على الكافر؟!»

والحمد لله الذي لم يجعلنا مثل جهم وشيعته، وجعلنا ممن اتبع، ولم يجعلنا ممن ابتدع، والحمد لله وحده.

وهذا من حسن استنباطه رحمته الله؛ لأن من يعتقد أن المؤمنين لا يرون ربهم يوم القيامة، والله قد أخبر بأنه يعاقب الكفار بالاحتجاب عنهم، فأى مزية للمؤمنين حينئذ عليهم؟! ومن سلم لهم بهذه الضلالة لزمه عدو الآية لغواً، تعالى الله عن ذلك، وأما أهل الحق فقد

فَهِمُوا مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمَفْهُومُ الصَّادِقُ، قَالَ الشَّافِعِيُّ كَمَا فِي « أَحْكَامِ الْقُرْآنِ » لِلْبَيْهَقِيِّ (ص ٥٠): « فَلَمَّا حَجَبَهُمْ فِي السَّخَطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِي الرِّضَا ».

وقد كَانَ السَّلَفُ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ بُلُوغِهِ الْحُجَّةَ عُوقِبَ بِحِرْمَانِهِ، كَمَا مَضَى هُنَا فِي كَلَامِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ قَبْلَهُ الصَّحَابِيُّ أَبُو بَرَزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ (٤٧٤٩) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ قَالَ لِأَبِي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: « إِنَّمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ عَنِ الْحَوْضِ، سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ فِيهِ شَيْئًا؟ قَالَ أَبُو بَرَزَةَ: نَعَمْ! لَمْ مَرَّةً، وَلَا اثْنَتَيْنِ، وَلَا ثَلَاثًا، وَلَا أَرْبَعًا، وَلَا خَمْسًا، فَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فَلَا سَقَاهُ اللَّهُ مِنْهُ! ».

سُورَةُ الانشِقَاقِ مُنَاسِبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ مُحَاسَبٌ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ (الانشقاق ٧-١٢).

هَذِهِ السُّورَةُ مُنَاسِبَةٌ مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعُهَا لِسُورَةِ التَّكْوِيرِ وَالْإِنْفِطَارِ؛ لِأَنَّهَا حَدِيثٌ عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا مَرَّ، لَكِنْ تَوَسَّطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا سَبَقَهَا مِنْ سُورِ سُورَةِ الْمُطَفِّينَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ ذَكَرَتْ الْكِتَابَيْنِ الْمَرْقُومَيْنِ: سَجِّينَ وَعَلِيِّينَ دُونَ التَّعْرُضِ لِلْحَالِ الَّتِي يَتِمُّ عَلَيْهَا أَخْذُ كُلِّ مِنْهُمَا وَلَا لِأَوْصَافِ أَهْلِهِمَا، فَنَاسَبَ تَأْخِيرُ سُورَةِ الْإِنْشِقَاقِ لِبَيَانِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، انْظُرْ «مَصَاعِدَ النَّظَرِ لِلْإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ» لِلْبِقَاعِيِّ (٣/١٦٨) وَ«أَسْرَارَ تَرْتِيبِ الْقُرْآنِ» لِلشَّيْطَوِيِّ (ص ١٥٥-١٥٦).

سُورَةُ الْبُرُوجِ اِقْتِرَانُ الْمَغْفِرَةِ بِالْوُدِّ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البُروج ١٤).

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَيْسِيرِ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ» عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «وَفِي هَذَا سِرٌّ لَطِيفٌ؛ حَيْثُ قَرَنَ الْوَدُودَ بِالْغَفُورِ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذُّنُوبِ إِذَا تَابُوا إِلَى اللَّهِ وَأَنَابُوا غُفِرَ لَهُمْ ذُنُوبُهُمْ وَأَحْبَبَهُمْ، فَلَا يُقَالُ: تُغْفَرُ ذُنُوبُهُمْ وَلَا يَرْجَعُ إِلَيْهِمُ الْوُدُّ كَمَا قَالَهُ بَعْضُ الْغَالِطِينَ، بَلِ اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ مِنْ رَجُلٍ عَلَى رَاحِلَتِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يُصْلِحُهَا، فَأُضِلَّهَا فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ مُهْلِكَةٍ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، إِذَا رَاحِلَتُهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، فَاللَّهُ أَعْظَمُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ^(١)، وَهَذَا أَعْظَمُ فَرَحٍ يُقَدَّرُ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ وَصَفْوُ الْوِدَادِ؛ مَا أَعْظَمَ بَرَّهُ وَأَكْثَرَ خَيْرِهِ وَأَغْزَرَ إِحْسَانِهِ وَأَوْسَعَ امْتِنَانِهِ! ».

وَسِرُّ هَذَا الْوُدِّ أَنَّ رُجُوعَ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ طَاعَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢)، بَلِ إِنَّ التَّوْبَةَ إِذَا نَصَحَتْ بَلَغَتْ بِصَاحِبِهَا أَكْمَلَ دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ؛ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٩) وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٧) عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

(١) يُشِيرُ إِلَى الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٨) وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٤)، وَسَيَأْتِي هُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا؛ قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ!!».

فأي شيء أكمل فرحاً من هذا الفرح؟! على الرغم من ذلك ففرح الرب بتوبة عبده أكمل وأشد، وهو يدل على أن توبة المذنب إذا كانت نصوحاً رفعت درجته، بل كان بعدها أحب عند الله منه من قبل؛ واستدل أهل العلم على ذلك بقصة داود ﷺ لما حكم بين المختلفين في نعاجهما، فإنه لما بين الله له خطأه تاب، فقال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (سورة ص ٢٥)، فزاده الله على المغفرة أمرين، هما: الأول: الزلْفَى وهي درجة القرب منه، والثاني: حُسْنُ الْمَآبِ، وهو حُسْنُ الْمُنْقَلَبِ وَطِيبُ الْمَأْوَى عِنْدَ اللَّهِ.

وهذا يُبَيِّنُ كَذِبَ الْأَثَرِ الْإِسْرَائِيلِيِّ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِدَاوُدَ ﷺ: «يَا دَاوُدُ! أَمَا الذَّنْبُ فَقَدْ غَفَرْنَاهُ، وَأَمَا الْوُدُّ فَلَا يَعُودُ»، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ» (ص ٢٣٣ ط دار الكتب العلمية): «وهذا كذب قطعاً؛ فَإِنَّ الْوُدَّ يَعُودُ بَعْدَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَلَوْ لَمْ يَعُدِ الْوُدُّ لَمَا حَصَلَتْ لَهُ مَحَبَّتُهُ، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ يَفْرَحُ

بِتَوْبَةِ التَّائِبِ، وَمُحَالٌ أَنْ يَفْرَحَ بِهَا أَعْظَمَ فَرَحٍ وَأَكْمَلَهُ وَهُوَ لَا يُحِبُّهُ،
 وَتَأَمَّلْ سِرَّ اقْتِرَانِ هَذَيْنِ الْأَسْمَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ
 وَيُعِيدُ ﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿ (البروج ٣١-١٤) تَجِدُ فِيهِ مِنَ الرَّدِّ
 وَالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا يَعُودُ الْوُدُّ وَالْمَحَبَّةُ مِنْهُ لِعَبْدِهِ أَبَدًا، مَا هُوَ مِنْ
 كُنُوزِ الْقُرْآنِ وَلَطَائِفِ فَهْمِهِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُهَيِّجُ الْقَلْبَ السَّلِيمَ وَيَأْخُذُ
 بِمَجَامِعِهِ وَيَجْعَلُهُ عَاكِفًا عَلَى رَبِّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ
 عُكُوفَ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ عَلَى مَحَبَّتِهِ الَّذِي لَا غَنَى لَهُ عَنْهُ وَلَا بَدَلُ لَهُ
 مِنْهُ، وَلَا تَنْدَفِعُ ضَرُورَتُهُ بِغَيْرِهِ أَبَدًا، وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّ الْعَبْدَ قَدْ
 يَكُونُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ؛ لِأَنَّ الذَّنْبَ يُحْدِثُ لَهُ مِنَ
 الْخَوْفِ وَالْحَشْيَةِ وَالْانْكِسَارِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالبُكَاءِ
 عَلَى خَطِيئَتِهِ وَالنَّدَمِ عَلَيْهَا وَالْأَسْفِ وَالْإِشْفَاءِ مَا هُوَ مِنْ أَفْضَلِ أَحْوَالِ
 الْعَبْدِ وَأَنْفَعِهَا لَهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُمُورُ لِتَحْصَلَ بِدُونِ
 أَسْبَابِهَا «، كَمَا أَنَّ اعْتِرَافَهُ بِالتَّقْصِيرِ تَجَاهَ رَبِّهِ يَزِيدُهُ مَعْرِفَةً بِرَبِّهِ، فَيَزِدَادُ
 قُرْبًا مِنْهُ، بِخِلَافِ الْمُطِيعِ الَّذِي لَمْ يُتَبَلَّ بِمَعْصِيَةٍ، فَقَدْ تَكُونُ طَاعَتُهُ تِلْكَ
 السَّبَبَ الْأَكْبَرَ فِي إِصَابَتِهِ بِمَرَضِ الْعُجْبِ وَالْغُرُورِ، رَوَى أَبُو الْفَضْلِ
 الزُّهْرِيُّ فِي « حَدِيثِهِ » (٥٤٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: « إِنَّ الْعَبْدَ
 لَيَذْنِبُ الذَّنْبَ لَا يَكُونُ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ خَيْرَ لَهُ مِنْهُ (كَذَا)، مَا يَزَالُ كَلِمًا
 ذَكَرَهُ يَجِدُ وَيَحْزَنُ حَتَّى يُعْتِقَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنَ النَّارِ فَيَكُونُ خَيْرَ أَعْمَالِهِ،
 وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْعَمَلَ الْحَسَنَ فَمَا يَزَالُ يُعْجِبُهُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى
 يَهْلِكَ بِهِ ».

لكن نقل ابن القيم في كتابه السابق (ص ٢٤٥) عن ابن تيمية أنه قال: « الصَّوابُ أنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ يَعُودُ إِلَى مِثْلِ حَالِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَكْمَلِ مِنْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَنْقَصَ مِمَّا كَانَ، فَإِنْ كَانَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَأَشَدَّ حَذَرًا وَأَعْظَمَ تَشْمِيرًا وَأَعْظَمَ خَشْيَةً وَإِنَابَةً عَادَ إِلَى أَرْفَعَ مِمَّا كَانَ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ أَكْمَلًا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَلَمْ يَعُدْ بَعْدَ التَّوْبَةِ إِلَيْهَا عَادَ إِلَى أَنْقَصَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ بَعْدَ التَّوْبَةِ مِثْلَ مَا كَانَ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ رَجَعَ إِلَى مِثْلِ مَنْزِلَتِهِ، هَذَا مَعْنَى كَلَامِهِ ».

ومما يدلُّ على أَنَّ حَجَمَ الذَّنْبِ لَا يُؤَثِّرُ فِي سُقُوطِ جَاهِ صَاحِبِهِ عِنْدَ رَبِّهِ إِذَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ نَصُوحًا، أَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝﴾ (البُورِج ١٠).

في « تفسير ابن كثير » لهذه الآية أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ قَالَ: « انظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ؛ قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ!! ».

سُورَةُ الطَّارِقِ مُنَاسِبَةُ الْقِسْمِ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ

أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَقْسَمَ فِي الْأَوَّلِ
بِاثْنَيْنِ: السَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، فَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ (الطارق ١)،
وَفِي الثَّانِيَةِ بِالسَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝٢﴾ (الطارق ١١)،
وَفِي الثَّالِثَةِ بِالْأَرْضِ، فَقَالَ: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝٣﴾ (الطارق
١٢)، وَفَسَّرَ الطَّارِقُ بِالنَّجْمِ الثَّاقِبِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٤﴾
الْنَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٥﴾ (الطارق ٢-٣)، فَيَكُونُ قَدْ أَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَمَا فِيهَا
مِنْ نَجْمٍ يَثْقُبُ الشَّيَاطِينَ، وَلَمَّا أَقْسَمَ ثَانِيَةً بِالسَّمَاءِ وَصَفَهَا بِالرَّجْعِ، أَيْ
بِالْمَطَرِ الَّذِي تَرْجِعُ بِهِ عَلَى الْخَلْقِ، وَلَمَّا أَقْسَمَ ثَالِثَةً أَقْسَمَ بِالْأَرْضِ الَّتِي
تَتَصَدَّعُ عَنْ نَبَاتِهَا، وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَقْسَامِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ مُنَاسِبَةٌ لَطِيفَةٌ بَيْنَهَا
الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ بْنُ عُثَيْمِينَ فِي «تَفْسِيرِ جُزْءِ عَمٍّ» فَقَالَ
(ص ١٥٠ - ١٥١): «بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِقْسَامَ ﴿وَالسَّمَاءِ
وَالطَّارِقِ ۝١﴾ إِلَى آخِرِهِ، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٢﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ
وَلَا نَاصِرٍ ﴿٣﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝٤﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ
الصَّدْعِ ﴿٥﴾، هَذَا هُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي لِلسَّمَاءِ، وَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ مَا كَانَ فِي
أَوَّلِ السُّورَةِ، فَهُنَاكَ قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ
﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾، هُنَا قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝٤﴾ وَالْأَرْضِ
ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿٥﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿٦﴾ (الطارق ١١-١٣)، وَالْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ
الْقِسْمَيْنِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْأَوَّلَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الطَّارِقِ الَّذِي هُوَ

النَّجْمُ، والنَّجْمُ تُرْمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ^(١)، وفي رَمَى الشَّيَاطِينُ بِذَلِكَ حِفْظٌ لِكِتَابِ اللَّهِ **وَجَلَّ**^(٢)، أَمَّا هُنَا فَأَقْسَمَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ قَوْلٌ فَضْلٌ، فَصَارَ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ مُنَاسِبَةً أَنْ فِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا يُحْفَظُ بِهِ هَذَا الْقُرْآنُ حَالَ إِنْزَالِهِ، وَفِي الْقِسْمِ الثَّانِي الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ حَيَاةٌ، يَعْنِي يُقَالُ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾، الرَّجْعُ هُوَ الْمَطَرُ؛ يُسَمَّى رَجْعاً لِأَنَّهُ يَرْجِعُ وَيَتَكَرَّرُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَطَرَ بِهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾: الصَّدْعُ هُوَ الْانْشِقَاقُ، يَعْنِي التَّشَقُّقُ بِخُرُوجِ النَّبَاتِ مِنْهُ، فَأَقْسَمَ بِالْمَطَرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ خُرُوجِ النَّبَاتِ، وَالتَّشَقُّقُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ النَّبَاتُ، وَكُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى حَيَاةِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَالْقُرْآنُ بِهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشُّورَى ٥٢)، فَسَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ رُوحاً؛ لِأَنَّهُ تَحْيَى بِهِ الْقُلُوبُ.

(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ **وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** (الْأَنْعَامُ ١٦-١٨).

(٢) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (الصَّافَّاتُ ٧-٨)، وَقَالَ أَيْضاً: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ وَمَا يَتَّبِعِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (النَّجْمُ ١٠-١٢).

سُورَةُ الْأَعْلَى

استنباطُ أداءِ زَكَاةِ الْفِطْرِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مِنَ الْقُرْآنِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾

(الأعلى ١٤-١٥).

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٦/ ٢٠٠-٢٠١): «وَلَمَّا قَدَّمَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّحْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخِرْ﴾ (الكوثر ٢)، وَقَدَّمَ التَّزَكِّيَ عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾، كَانَتْ السُّنَّةُ أَنَّ الصَّدَقَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ، وَأَنَّ الذَّبْحَ بَعْدَ الصَّلَاةِ فِي عِيدِ النَّحْرِ، وَيُشَبِّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ الصَّوْمُ مِنَ التَّزَكِّيِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٨٣)، فَمَقْصُودُ الصَّوْمِ التَّقْوَى، وَهُوَ مِنْ مَعْنَى التَّزَكِّيِ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدَقَةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ)^(١)، فَالْصَّدَقَةُ مِنْ تَمَامِ طُهْرَةِ الصَّوْمِ، وَكِلَاهُمَا تَزَكُّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى صَلَاةِ الْعِيدِ، فَجُمِعَتِ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ التَّرْغِيبَ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيَشْهَدُ لَكُونَ أَدَاءِ الزَّكَاةِ مِنَ التَّزَكِّيِ الْمَذْكُورِ فِي آيَةِ الْبَابِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١٦٠٩) وَابْنُ مَاجَهَ (١٨٢٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَحَسَنَتُهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِمَا.

(التوبة ١٠٣)، ويمكنُ مُراجعةُ « تفسیر ابن کثیر » عندَ قولِ الله من
سُورَةِ فُصِّلَت (٧): ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ
﴿٧﴾؛ فقد ذَكَرَ لها شواهدَ من كِتَابِ الله.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

تَفْصِيلُ مَا فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْقَى مِنْ عَذَابٍ آتِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَبَغِيَّةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَلَّلُوا مَبْتُوثَةً ﴿١٦﴾ ﴾ (الغاشية ١-١٦).

سورة الغاشية فصلت ما أجمل في السورة التي قبلها: سورة الأعلى على نحو ما قاله السيوطي في « أسرار ترتيب القرآن » (ص ١٥٧)، قال: « لما أشار سبحانه في سورة الأعلى - بقوله: ﴿ سَيَذَكَّرُ مَنْ خَشِيَ ﴾ ﴿١﴾ وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿٢﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿٣﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿٤﴾ (الأعلى ١٠-١٧) - إلى المؤمن والكافر، والنار والجنة إجمالاً، فصل ذلك في هذه السورة، فبسط صفة النار والجنة مُستندة إلى أهل كل منهما على نمط ما هنالك، ولذا قال هنا: ﴿ غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ ﴿٣﴾ (الغاشية ٣)، في مقابل: ﴿ الْأَشْقَى ﴾ (الأعلى ١١) هناك، وقال هنا: ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ﴿٤﴾ إلى: ﴿ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ ﴿٦﴾ (الغاشية ٤-٧)، في مقابلة: ﴿ يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ (الأعلى ١٢) هناك، ولما قال هناك في الآخرة: ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ﴿٤﴾، بسط هنا صفة الجنة أكثر من صفة النار، لتحقيقاً لمعنى الحيرية «.

سُورَةُ الْفَجْرِ

تَضْيِيعُ الْحَيَاةِ بِتَضْيِيعِ الزَّمَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَطْلَعِهَا: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ
وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝﴾ (الفجر ١-٤)، وَقَالَ فِي أَوَاخِرِهَا:
﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بُهْجَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝
يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝﴾ (الفجر ٢٣-٢٤).

قَالَ الشُّيُوطِيُّ فِي «مَرَايِدِ الْمَطَالِعِ فِي تَنَاسُبِ الْمَقَاطِعِ وَالْمَطَالِعِ»
الْمُلْحَقِ بِكِتَابِهِ «عِلْمُ الْمُنَاسَبَاتِ» (ص ١٨٢): «بَدَأَتْ بِذِكْرِ الْفَجْرِ
وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، وَهِيَ أَجْزَاءُ الزَّمَانِ الَّذِي
يَعِيشُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، أَقْسَمَ بِهَا سُبْحَانَهُ مُعْظَمًا لَهَا أَنْ يُضَيِّعَهَا فِي غَيْرِ
طَاعَةِ اللَّهِ، وَجَوَابَ الْقَسَمِ مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: لَيُبْعَثَنَّ، وَخَتَمَ السُّورَةَ بِذِكْرِ
حَيَاةِ الْإِنْسَانِ إِذَا مَا خَسِرَهَا وَأَضَاعَهَا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ: ﴿يَقُولُ
يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ».

سُورَةُ الْبَلَدِ

أقسامُ النَّاسِ فِي الصَّبْرِ وَالرَّحْمَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۖ﴾ (البلد ١٧).

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٠/٦٧٧): «وَقَرَنَ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالصَّبْرِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۖ﴾، وَفِي الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ بِالزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّ الْقِسْمَةَ أَيْضاً رُبَاعِيَّةٌ:

- إِذْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْبِرُ وَلَا يَرْحَمُ، كَأَهْلُ الْقُوَّةِ وَالْقَسْوَةِ.
- وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْحَمُ وَلَا يَصْبِرُ كَأَهْلُ الضَّعْفِ وَاللَّيْنِ، مِثْلُ كَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ وَمَنْ يُشَبِّهَنَّ.

- وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَصْبِرُ وَلَا يَرْحَمُ، كَأَهْلُ الْقَسْوَةِ وَالْهَلَعِ.
- وَالْمَحْمُودُ هُوَ الَّذِي يَصْبِرُ وَيَرْحَمُ، كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ فِي الْمَتَوَلَّى: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ، لَيِّنًا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ؛ فَيَصْبِرْهُ يَقْوَى، وَبِلَيْنِهِ يَرْحَمُ، وَبِالصَّبْرِ يُنْصَرُ الْعَبْدُ؛ فَإِنَّ النَّصَرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَبِالرَّحْمَةِ يَرْحَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءُ)^(١)، وَقَالَ: (مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)^(٢)، وَقَالَ: (لَا تُنْزَعِ الرَّحْمَةُ

(١) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه.

(٢) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ^(١)، وَقَالَ: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ازْحَمُوا مَنْ فِي
الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ)^(٢)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤٢) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٢٣) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحَسَنَهُ
الْأَلْبَانِيُّ فِيهِمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٩٤١) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٢٤) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه،
وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِمَا.

سُورَةُ الشَّمْسِ

سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذكرِ في هذه السُّورة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١٦﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٧﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسُونَهَا ﴿١٩﴾ وَلَا تَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٢٠﴾﴾ (الشمس ١١-١٥).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «التَّبَيَّنِّ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» (ص ١٧ - ١٨): «وَذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ثَمُودَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، فَقَالَ شَيْخُنَا: هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ أَحَفُّ ذَنْبًا وَعَذَابًا مِنْهُمْ؛ إِذْ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ مَا ذَكَرَ عَنْ عَادٍ وَمَدْيَنَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَهُمْ وَعَادًا قَالَ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِقَائِلَتِنَا تَبَجُّدُونَ ﴿١٦﴾﴾ (فصلت ١٥)، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١٧﴾﴾ (فصلت ١٧)، وَكَذَلِكَ إِذَا ذَكَرَهُمْ مَعَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُمْ مَا ذَكَرَ عَنْ أُولَئِكَ مِنَ التَّجَبُّرِ وَالتَّكَبُّرِ وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، كَاللُّوَاطِ وَبَخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، كَمَا فِي سُورَةِ هُودٍ وَالشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمَا، فَكَانَ فِي قَوْمِ لُوطٍ مَعَ الشَّرِّ إِتْيَانُ الْفَاحِشَةِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقُوا إِلَيْهَا، وَفِي قَوْمِ عَادٍ مَعَ الشَّرِّ التَّجَبُّرُ وَالتَّكَبُّرُ وَالتَّوَسُّعُ فِي الدُّنْيَا وَشِدَّةُ الْبَطْشِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿مَنْ أَشَدُّ

مِنَّا قُوَّةٌ ﴿٤٠﴾ وفي أصحابِ مَدينَ مع الشُّركِ الظُّلُمَ في الأموال، وفي قومِ
 فرعونَ مع الشُّركِ الفَسَادِ في الأرضِ والعلوِّ، وكانَ عَذَابُ كُلِّ أُمَّةٍ
 بحسَبِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، فعَذَّبَ قومَ عادٍ بالريِّحِ الشَّديدةِ العاتيةِ
 الَّتِي لَا يَقُومُ لها شَيْءٌ، وعَذَّبَ قومَ لوطٍ بأنواعٍ مِنَ العَذَابِ لَمْ يُعَذَّبْ
 بها أُمَّةٌ غَيْرُهُمْ، فجمَعَ لهم بَيْنَ الهلاكِ والرَّجمِ بالحجارةِ مِنَ السَّمَاءِ
 وطَمَسَ الأبصارِ وَقَلَّبَ ديارِهِمْ عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا
 وَالحَسْفَ بِهِمْ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وعَذَّبَ قومَ شُعَيْبٍ بالنَّارِ الَّتِي
 أَحْرَقَتْهُمْ وَأَحْرَقَتْ تِلْكَ الْأَمْوَالَ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِالظُّلْمِ والعُدوانِ،
 وَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ فَمَاتُوا فِي الْحَالِ، فَإِذَا كَانَ عَذَابُ هَؤُلَاءِ
 وَذُنُوبُهُمْ مَعَ الشُّركِ عَقْرَ النَّاقَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ آيَةً لَهُمْ، فَمَنْ انْتَهَكَ
 مُحَرَّمَ اللهِ وَاسْتَخَفَّ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَعَقَرَ عِبَادَهُ وَسَفَكَ دِمَاءَهُمْ كَانَ
 أَشَدَّ عَذَابًا، وَمَنْ اعْتَبَرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمَا يُعَاقَبُ بِهِ مَنْ
 سَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَسَفَكَ الدِّمَاءَ بغيرِ حَقٍّ وَأَقَامَ الْفِتْنَ
 وَاسْتَهَانَ بِحُرُمَاتِ اللهِ عَلِمَ أَنَّ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

قلتُ: وقد يَظْهَرُ في تَخْصِيصِ ثَمُودَ هَهُنَا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ مَعْنَى
 آخِرُ، وَهُوَ أَنَّهُمْ رَدُّوا الْهَدْيَ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ بِهِ، قَدْ
 ثَلَجَتْ لَهُ صُدُورُهُمْ، وَاسْتَيْقَظَتْ لَهُ أَنْفُسُهُمْ، فَاخْتَارُوا عَلَيْهِ الْعَمَى
 وَالضَّلَالَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِهِمْ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
 الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، وَقَالَ: ﴿وَعَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ (الإسراء)

(٥٩)، أي مُوجِبَةً لَهُمُ التَّبَصُّرَةَ وَالْيَقِينَ، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ الْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ هَذَا شَأْنُهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُهْلِكْ أُمَّةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا، لَكِنْ خُصِّصَتْ ثُمُودٌ مِنْ ذَلِكَ الْهَدَى وَالْبَصِيرَةِ بِمَزِيدٍ، وَلِهَذَا لَمَّا قَرَنَهُمْ بِقَوْمِ عَادٍ قَالَ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾، وَلِهَذَا أَمَكَّنَ عَادًا الْمُكَابِرَةَ وَأَنْ يَقُولُوا لِنَبِيِّهِمْ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (هود ٥٣)، وَلَمْ يُمَكِّنْ ذَلِكَ ثُمُودَ وَقَدْ رَأَوْا الْبَيِّنَةَ عَيَانًا، وَصَارَتْ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَرَدُّوا الْهَدَى بَعْدَ تَيَقُّنِهِ وَالْبَصِيرَةَ التَّامَّةَ، فَكَانَ فِي تَخْصِيصِهِمْ بِالذِّكْرِ تَحْذِيرٌ لِكُلِّ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ، وَهَذَا دَاءٌ أَكْثَرُ الْهَالِكِينَ، وَهُوَ أَعْمُ الْأَدْوَاءِ وَأَغْلُبُهَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ اللَّيْلِ

التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالرُّحْمَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ (اللَّيْل ٥)، وَقَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ (اللَّيْل ٨).

قَابَلَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الْيُسْرَى وَأَهْلِ الْعُسْرَى، فَقَابَلَ الْإِعْطَاءَ بِالْبُخْلِ، كَمَا قَابَلَ الْإِتْقَاءَ بِالِاسْتِغْنَاءِ، وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ قِمَّةُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، كَمَا أَنَّ الْبُخْلَ هُوَ الْحَضِيضُ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَدْوَى الْأَدْوَاءِ؛ كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟! » الْحَدِيثُ، وَقَدْ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي « صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ » لِلْبُخَارِيِّ (٢٢٧)؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبُخْلَ بِالْخَيْرِ عَلَى الْخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ الْخُلُقِ، وَأَمَّا مُقَابَلَةُ الْإِتْقَاءِ بِالِاسْتِغْنَاءِ فَهُوَ مِنْ مُقَابَلَةِ الْعَابِدِ بِتَارِكِ الْعِبَادَةِ، وَلِذَلِكَ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي « تَفْسِيرِهِ » (٢٤/٤٦٧- هجر) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ بِالْفَضْلِ، وَاسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ »، إِذَا فَأَهْلُ الْيُسْرَى هُمْ أَهْلُ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ، مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اتَّقُوا وَأَحْسِنُوا﴾ (المائدة ٩٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل ١٢٨)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت ٦٩)، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى » (١٤/٢١٤-٢١٥): « وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ هُمَا جَمَاعُ الدِّينِ الْعَامِّ،

كَمَا يُقَالُ: التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالرَّحْمَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ، فَالتَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ يَكُونُ بِالْخُشُوعِ وَالتَّوَاضُّعِ، وَذَلِكَ أَصْلُ التَّقْوَى، وَالرَّحْمَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَهَذَانِ هُمَا حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْخُشُوعِ لِلَّهِ وَالْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَالتَّوَاضُّعِ لَهُ وَالذُّلَّ لَهُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُضَادٌّ لِلْخِيَلَاءِ وَالْفَخْرِ وَالْكِبَرِ، وَالزَّكَاةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِنَفْعِ الْخَلْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مُضَادٌّ لِلْبُخْلِ، وَهَذَا وَغَيْرُهُ كَثُرَ الْقِرَانُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ .

سُورَةُ الضُّحَى

مُنَاسِبَةُ نُورِ الضُّحَى لِنُورِ الْوَحْيِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴿٣﴾ وَمَا قَلَىٰ ﴿٤﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٥﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴿٦﴾ فَتَرْضَىٰ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٨﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٩﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا السَّابِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٢﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٣﴾﴾ (الضحى ١-١١).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « التَّبَيَّن فِي أَقْسَامِ الْقُرْآن » (ص ٤٦-٤٧): « وَمِنْ ذَلِكَ إِقْسَامُهُ سُبْحَانَهُ بـ ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ عَلَى إِنْعَامِهِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَإِكْرَامِهِ لَهُ وَإِعْطَائِهِ مَا يُرْضِيهِ، وَذَلِكَ مَتَّصِمٌ لَتَصْدِيقِهِ لَهُ، فَهُوَ قَسَمٌ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ وَعَلَى جَزَائِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهُوَ قَسَمٌ عَلَى النُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَأَقْسَمَ بِأَيَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ آيَاتِهِ دَالَّتَيْنِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَتَأَمَّلْ مُطَابَقَةَ هَذَا الْقَسَمِ - وَهُوَ نُورُ الضُّحَى الَّذِي يُوَافِي بَعْدَ ظِلَامِ اللَّيْلِ - لِلْمُقَسَمِ عَلَيْهِ، وَهُوَ نُورُ الْوَحْيِ الَّذِي وَافَاهُ بَعْدَ احْتِبَاسِهِ عَنْهُ، حَتَّى قَالَ أَعْدَاؤُهُ: وَدَّعَ مُحَمَّدًا رَبَّهُ!! فَأَقْسَمَ بِضَوْءِ النَّهَارِ بَعْدَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عَلَى ضَوْءِ الْوَحْيِ وَنُورِهِ بَعْدَ ظُلْمَةِ احْتِبَاسِهِ وَاحْتِجَابِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ فَالِقَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ عَنِ ضَوْءِ النَّهَارِ هُوَ الَّذِي فَتَقَ ظُلْمَةَ الْجَهْلِ وَالشُّرْكَ بِنُورِ الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ، فَهَذَا لِلْحِسِّ، وَهَذَا لِلْعَقْلِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي اقْتَضَتْ رَحْمَتُهُ أَنْ لَا يَتْرَكَ عِبَادَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَرْمَدًا، بَلْ هَدَاهُمْ

بَضْوِ النَّهَارِ إِلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَتْرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةِ
الْجَهْلِ وَالْغَيِّ، بَلْ يَهْدِيهِمْ بَنُورِ الْوَحْيِ وَالنُّبُوءَةِ إِلَى مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ
وآخِرَتِهِمْ، فَتَأْمَلْ حُسْنَ ارْتِبَاطِ الْمُقَسَمِ بِهِ بِالْمُقَسَمِ عَلَيْهِ، وَتَأْمَلْ هَذِهِ
الْجِزَالَ وَالرَّوْنَقَ الَّذِي عَلَى هَذِهِ الْأَلْفَافِ، وَالْجَلَالَةَ الَّتِي عَلَى مَعَانِيهَا،
وَنَفَى سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ وَدَّعَ نَبِيَّهِ أَوْ قَلَاهُ، فَالتَّوَدُّيعُ التَّرْكُ، وَالْقَلَى
الْبُغْضُ، فَمَا تَرَكَهُ مُنْذُ اعْتَنَى بِهِ وَأَكْرَمَهُ، وَلَا أَبْغَضَهُ مُنْذُ أَحَبَّهُ، وَأَطْلَقَ
سُبْحَانَهُ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْأُولَى، وَهَذَا يَعْمُ كُلَّ حَالَةٍ يُرْقِيهِ إِلَيْهَا
هِيَ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا قَبْلُهَا، كَمَا أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِمَّا قَبْلُهَا، ثُمَّ وَعَدَهُ
بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ وَتَفْرَحُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَنْشُرُ بِهِ صَدْرُهُ، وَهُوَ أَنْ يُعْطِيَهُ
فَيَرْضَى، وَهَذَا يَعْمُ مَا يُعْطِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْهَدْيِ وَالنَّصْرِ وَكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ
وَرَفَعِ ذِكْرِهِ وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ، وَمَا يُعْطِيهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَمَا يُعْطِيهِ فِي مَوْقِفِ
الْقِيَامَةِ، وَمَا يُعْطِيهِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا مَا يَغْتَرُّ بِهِ الْجَهَّالُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَرْضَى
وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي النَّارِ، أَوْ لَا يَرْضَى أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ النَّارَ،
فَهَذَا مِنْ غُرُورِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ وَلَعِبِهِ بِهِمْ؛ فَإِنَّهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ يَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ النَّارَ
مَنْ يَسْتَحِقُّهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ، ثُمَّ يَحْدُ لِرَسُولِهِ حَدًّا يَشْفَعُ فِيهِمْ،
وَرَسُولُهُ أَعْرَفُ بِهِ وَبِحَقِّهِ مِنْ أَنْ يَقُولَ: لَا أَرْضَى أَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْ
أُمَّتِي النَّارَ، عَلَى أَنْ يَدَّعَاهُ فِيهَا، بَلْ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَأْذُنُ لَهُ فَيَشْفَعُ
فَيَمَنُ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، وَلَا يَشْفَعُ فِي غَيْرِ مَنْ أَذِنَ لَهُ فِيهِ وَرَضِيَهُ،
ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِ مِنْ إِيْوَائِهِ بَعْدَ يُتْمِهِ، وَهِدَايَتِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ،

وَإِغْنَاهُ بَعْدَ الْفَقْرِ، فَكَانَ مُحْتَاجاً إِلَى مَنْ يُؤْوِيهِ وَيَهْدِيهِ وَيُغْنِيهِ، فَأَوَاهُ رَبُّهُ وَهَدَاهُ وَأَغْنَاهُ، فَأَمَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُقَابِلَ هَذِهِ النِّعَمَ الثَّلَاثَ بِمَا يَلِيقُ بِهَا مِنَ الشُّكْرِ، فَتَهَاةً أَنْ يَقْهَرَ الْيَتِيمَ، وَأَنْ يَنْهَرَ السَّائِلَ، وَأَنْ يَكْتُمَ النِّعْمَةَ، بَلْ يُحَدِّثُ بِهَا، فَأَوْصَاهُ سُبْحَانَهُ بِالْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُتَعَلِّمِينَ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: لَا تَحْقِرِ الْيَتِيمَ؛ فَقَدْ كُنْتَ يَتِيماً، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَا تَقْهَرْهُ عَلَى مَالِهِ فَتَذْهَبَ بِحَقِّهِ لَضَعْفِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى تَأْخُذُ أَمْوَالَهُمْ وَتَظْلِمُهُمْ، فَعَلَّظَ الْخِطَابَ فِي أَمْرِ الْيَتِيمِ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ يُغَلَّظُ فِي أَمْرِهِ، وَهُوَ نَهْيُ الْجَمِيعِ الْمَكْلَفِينَ، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ سَائِلُ الْمَعْرُوفِ وَالصَّدَقَةِ: لَا تَنْهَرْهُ إِذَا سَأَلَكَ؛ فَقَدْ كُنْتَ فَقِيراً، فَإِمَّا أَنْ تُطْعِمَهُ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ رَدّاً لَيْناً، قَالَ الْحَسَنُ: أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ بِالسَّائِلِ الَّذِي يَأْتِيكَ، وَلَكِنْ طَالِبُ الْعِلْمِ، وَهَذَا قَوْلُ يَحْيَى بْنِ آدَمَ، قَالَ: إِذَا جَاءَكَ طَالِبُ الْعِلْمِ فَلَا تَنْهَرْهُ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ التَّوَعِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الزُّحْرَى ١١)، قَالَ مُجَاهِدٌ: (بِالْقُرْآنِ)، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: (بِمَعْنَى أَظْهَرُهَا)، وَالْقُرْآنُ أَعْظَمُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُقَرِّئَهُ وَيُعَلِّمَهُ، وَرَوَى أَبُو بَشَرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: حَدَّثَ بِالنُّبُوَّةِ الَّتِي أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: بَلَغَ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَحَدَّثَ بِالنُّبُوَّةِ الَّتِي آتَاكَ، وَهِيَ أَجَلُ النِّعَمِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اشْكُرْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ النِّعَمَ تَعْمُ هَذَا كُلَّهُ، فَأَمَرَ أَنْ لَا يَنْهَرَ سَائِلَ الْمَعْرُوفِ وَالْعِلْمِ، وَأَنْ يُحَدِّثَ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا.

قلتُ: وما أعدّه الله له في الآخرة أعظم من هذا كله؛ فقد روى الطبراني في « المعجم الأوسط » (١ / ٣٤ / ١) والبيهقي في « الدلائل » (٦١ / ٧) وغيرهما عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « عُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ لَأُمْتِي بَعْدِي فَسَرَرَنِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَتَرْضَى ﴾ ﴿٢﴾، أَعْطَاهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ أَلْفَ قَصْرٍ مِنْ لَوْلُؤٍ، تُرَابُهَا الْمِسْكُ، فِي كُلِّ قَصْرِ مَا يَنْبَغِي لَهُ «، وَالْمَقْصُودُ بـ « مَا يَنْبَغِي لَهُ » مَا يَكُونُ فِي الْقُصُورِ عَادَةً كَالْأَزْوَاجِ وَالْخُدَمِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ زِيَادَةُ: « مِنْ الْأَزْوَاجِ وَالْخُدَمِ »، وَصَحَّحَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي « تَفْسِيرِهِ » وَالْأَلْبَانِيُّ فِي « السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٢٧٩٠).

وأعظم من هذا كله كشف ربّه الحجاب له يومها لينظر إلى وجهه الكريم.

سُورَةُ الشَّرْحِ أَنْوَاعُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ (الشَّرْح ١-٤).

رَوَى الْحَاكِمُ (٥٢٦/٢) وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ » (٤٥٥/١١) وَغَيْرُهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ، قُلْتُ: يَا رَبِّ! كَانَتْ قَبْلِي رُسُلٌ، مِنْهُمْ مَنْ سَخَّرَتْ لَهُ الرِّيَّاحَ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُخْبِي الْمَوْتَى، وَكَلَّمْتُ مُوسَى، قَالَ: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ؟! أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالًّا فَهَدَيْتُكَ؟! أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ؟! أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ؟! قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ! فَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ، » وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي « السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٢٥٣٨).

سُورَةُ التِّينِ

مُقَارَنَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سُورَةِ الْعَصْرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ
أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٤﴾ (التين ٤-٧).

قَارَنَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَ سُورَةِ التِّينِ وَسُورَةِ الْعَصْرِ فِي كِتَابِهِ
« التَّبَيَّنَ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ » فَقَالَ (ص ٥٤ - ٥٥): « وَتَأْمَلُ حِكْمَةَ
الْقُرْآنِ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ (العصر ٢)، فَإِنَّهُ ضَيَّقَ
الِاسْتِثْنَاءَ وَخَصَّصَهُ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر ٣)، وَلَمَّا قَالَ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ
أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (التين ٥)، وَسَّعَ الِاسْتِثْنَاءَ وَعَمَّمَهُ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (التين ٦)، وَلَمْ يَقُلْ: وَتَوَاصَوْا؛ فَإِنَّ
التَّوَاصِيَّ هُوَ أَمْرُ الْغَيْرِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ قَدْرُ زَائِدٍ عَلَى
مُجَرَّدِ فِعْلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَقَدْ خَسِرَ هَذَا الرِّبْحَ فَصَارَ فِي خُسْرٍ،
وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقُومُ بِهَا يَجِبُ
عَلَيْهِ وَلَا يَأْمُرُ غَيْرَهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَرْتَبَةٌ
زَائِدَةٌ، وَقَدْ تَكُونُ فَرْضاً عَلَى الْأَعْيَانِ، وَقَدْ تَكُونُ فَرْضاً عَلَى الْكِفَايَةِ،
وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً.

وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَدْخُلُ فِيهِ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ وَالْحَقُّ الَّذِي
يُسْتَحَبُّ.

وَالصَّبْرُ يَدْخُلُ فِيهِ الصَّبْرُ الَّذِي يَجِبُ وَالصَّبْرُ الَّذِي يُسْتَحَبُّ.

فَهَؤُلَاءِ إِذَا تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الرَّبْحِ مَا خَسِرَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَامُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَأْمُرُوا غَيْرَهُمْ بِهِ، وَإِنْ كَانَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ، فَمُطْلَقَ الْخَسَارِ شَيْءٌ، وَالْخَسَارُ الْمُطْلَقُ شَيْءٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَى خُسْرٍ﴾، وَمَنْ رَبِحَ فِي سِلْعَةٍ وَخَسِرَ فِي غَيْرِهَا قَدْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ فِي خُسْرٍ وَأَنَّهُ ذُو خُسْرٍ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: (لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيطَ كَثِيرَةٍ) ^(١)، فَهَذَا نَوْعٌ تَفْرِيطٌ، وَهُوَ نَوْعٌ خُسْرٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ حَصَلَ رِبْحٌ ذَلِكَ.

وَلَمَّا قَالَ فِي سُورَةِ التِّينِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فَقَسَمَ النَّاسُ إِلَى هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ فَقَطْ، وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ لَهُ قُوتَانِ: قُوَّةُ الْعِلْمِ، وَقُوَّةُ الْعَمَلِ، وَلَهُ حَالَتَانِ: حَالَةٌ يَأْتُرُ فِيهَا بِأَمْرٍ غَيْرِهِ، وَحَالَةٌ يَأْمُرُ فِيهَا غَيْرَهُ، اسْتَشْنَى سُبْحَانَهُ مَنْ كَمَلَ قُوَّتَهُ الْعِلْمِيَّةَ بِالْإِيمَانِ، وَقُوَّتَهُ الْعَمَلِيَّةَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَانْقَادَ لِأَمْرٍ غَيْرِهِ لَهُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ غَيْرَهُ بِهِ مِنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي خُسْرٍ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَهُ حَالَتَانِ: حَالَةٌ كَمَالٍ فِي نَفْسِهِ، وَحَالَةٌ تَكْمِيلِ

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْفَاطَ، مِنْهَا مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ، قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ»، وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: «وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي عَلَيْهَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَلَمَّا بَلَغَهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: لَقَدْ ضَيَعْنَا قَرَارِيطَ كَثِيرَةً».

لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه،
فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع
والعمل الصالح والإحسان إلى نفسه بذلك وإلى أخيه به وانقياده
وقبوله لمن يأمره بذلك».

سورة العلق كمال المرء بالعلم والعمل

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿۱﴾ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿۲﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿۳﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿۴﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿۵﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿۶﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْغَىٰ ﴿۷﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغَىٰ ﴿۸﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿۹﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿۱۰﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿۱۱﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿۱۲﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿۱۳﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿۱۴﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿۱۵﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿۱۶﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿۱۷﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿۱۸﴾ سَدَّعُ الزَّيْنَبِيَّةَ ﴿۱۹﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿۲۰﴾.

أذكرُ في هذه السورة فوائدَ ستَّةَ، هي:

الأولى: قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٦/٤٧٧-٤٧٩): «السُّورَةُ الْقَصَارِ فِي أَوَاخِرِ الْمُصْحَفِ مُتَنَاسِبَةٌ؛ فَسُورَةُ (اقْرَأْ) هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا افْتُتِحَتْ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَخُتِمَتْ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ وَوُسِّطَتْ بِالصَّلَاةِ، الَّتِي أَفْضَلُ أَقْوَاهَا وَأَوَّلُهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ هُوَ الْقِرَاءَةُ»^(١)، وَأَفْضَلُ أَفْعَالِهَا وَآخِرُهَا قَبْلَ التَّحْلِيلِ هُوَ السُّجُودُ»^(٢)، وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ بَأَنَ يَقْرَأَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ بَعْدَهَا الْمُدَّثِّرَ لِأَجْلِ

(١) وَدَلِيلُ تَفْضِيلِ الْقِرَاءَةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٥٦) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: طُولُ الْقُنُوتِ».

(٢) وَسَيَأْتِي دَلِيلُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

التَّبْلِيغ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ (المدر ٢)، فَبِالْأَوَّلَى صَارَ نَبِيًّا،
وَبِالثَّانِيَةَ صَارَ رَسُولًا...

فَلَمَّا أُمِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْقِرَاءَةِ، ذَكَرَ فِي الَّتِي تَلِيهَا نُزُولَ الْقُرْآنِ
لَيْلَةَ الْقَدَرِ، وَذَكَرَ فِيهَا تَنْزُلَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، وَفِي الْمَعَاجِرِ عُرُوجَ
الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، وَفِي النَّبَأِ قِيَامَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، فَذَكَرَ الصُّعُودَ
وَالنُّزُولَ وَالْقِيَامَ، ثُمَّ فِي الَّتِي تَلِيهَا تِلَاوَتَهُ عَلَى الْمُنْذِرِينَ، حَيْثُ قَالَ:
﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (البينة ٢-٣)، فَهَذِهِ السُّورَةُ
الثَّلَاثُ مُنْتَظِمَةٌ لِلْقُرْآنِ أَمْرًا بِهِ وَذِكْرًا لِنُزُولِهِ وَلِتِلَاوَةِ الرَّسُولِ لَهُ عَلَى
الْمُنْذِرِينَ، ثُمَّ سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ وَالْعَادِيَّاتِ وَالْقَارِعَةِ وَالتَّكْوِيْنِ مُتَضَمِّنَةٌ
لِذِكْرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ
الْقُرْآنِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قِيلَ: هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ، ثُمَّ سُورَةُ الْعَصْرِ وَالْهُمَزَةُ
وَالْفِيلِ وَلِإِيلَافٍ وَأَرَأَيْتَ وَالْكَوْثَرَ وَالْكَافِرُونَ وَالنَّصْرَ وَتَبَّتْ مُتَضَمِّنَةٌ
لِذِكْرِ الْأَعْمَالِ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ سُورَةٍ خَاصَّةٌ، وَأَمَّا
سُورَةُ الْإِحْلَاصِ وَالْمَعَوَّذَتَانِ: فَفِي الْإِحْلَاصِ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَفِي
الْمَعَوَّذَتَيْنِ دُعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ لِيُعِيذَهُ، وَالثَّنَاءُ مَقْرُونٌ بِالْدُّعَاءِ، كَمَا قُرِنَ
بَيْنَهُمَا فِي أَمِّ الْقُرْآنِ الْمَقْسُومَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ لِلرَّبِّ،
وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ لِلْعَبْدِ، وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ الْإِيمَانِ
بِالرَّسُولِ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ الْإِيمَانُ
بِمَقْصُودِ ذَلِكَ وَغَايَتِهِ، وَهُوَ مَا يَنْتَهِي الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ،
وَهُوَ الْجَزَاءُ، ثُمَّ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ الْمَقْصُودِ وَسَبَبِهِ، وَهُوَ الْأَعْمَالُ: خَيْرُهَا

لِيُفْعَلَ، وَشَرُّهَا لِيُتْرَكَ، ثُمَّ خَتَمَ الْمَصْحَفَ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَهُوَ ذِكْرُ
 اللَّهِ وَدُعَاؤُهُ كَمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ أُمُّ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ هُوَ
 الْمَنْطِقُ، وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَأَفْضَلُ الْخَبَرِ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا
 كَانَ خَبَرًا عَنِ اللَّهِ، كِنِصْفِ الْفَاتِحَةِ وَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَأَفْضَلُ
 الْإِنْشَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا كَانَ طَلَبًا مِنَ اللَّهِ،
 كَالنِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ.

الثَّانِيَّةُ: بَدَأَ اللَّهُ السُّورَةَ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ، وَخَتَمَهَا بِالْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ،
 وَالْمَقْصُودُ بِالْقِرَاءَةِ التَّذْكِيرُ بِالْعِلْمِ، وَالْمَقْصُودُ بِالصَّلَاةِ التَّذْكِيرُ بِالْعَمَلِ
 الَّذِي مِنْهُ الصَّلَاةُ، وَهَذِهِ السُّورَةُ جَاءَتْ تَفْصِيلًا لِلَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ
 سُورَةُ التِّينِ؛ لِأَنَّ سُورَةَ التِّينِ نَوَّهَتْ بِأَصْلِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، كَمَا نَوَّهَتْ بِالْعَمَلِ مُجْمَلًا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وَلَمْ تَصِفِ النَّاجِي مِنْ الشُّفُولِ إِلَّا
 بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، كَمَا مَرَّ فِي كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي التَّنْوِيهِ
 بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي سُورَةِ اقْرَأْ أَنْ يَهْمَا كَمَا لَ الْإِنْسَانِ، وَهَذَا مَطْلَبٌ
 شَرِيفٌ.

الثَّالِثَةُ: ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْعِلْمِ أَحْسَنَهُ وَأَصْلَهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ، فَقَالَ:
 ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾ إِنْخ، وَهَذَا مُطَابِقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ
 سُبْحَانَهُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (مُحَمَّدٌ ١٩).

الرَّابِعَةُ: ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ فِي الْعَمَلِ أَحْسَنَهُ وَأَصْلَهُ، وَهُوَ الصَّلَاةُ،
 وَهَذَا مُطَابِقٌ لِمَا رَوَاهُ ثَوْبَانُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَكِنْ

تَحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (٢٧٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ، وَأَمَّا كَوْنُ الصَّلَاةِ هِيَ أَصْلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَلَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ صَلَاحَ الْأَعْمَالِ بِصَلَاحِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَتَى نَجْحَ وَأَفْلَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ (٤٦٥)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

الخامسة: كَتَبَ اللَّهُ ﷻ عَنْ الصَّلَاةِ بِالسُّجُودِ، فَقَالَ: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وَهُوَ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْجُزْءِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ، وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي ذِكْرِ السُّجُودِ دُونَ غَيْرِهِ أَنَّهُ أَقْرَبُ حَالَةٍ يَكُونُ عَلَيْهَا الْمَرْءُ مِنْ رَبِّهِ، وَهَذَا مُطَابِقٌ لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ».

السادسة: لَعَلَّ فِي ذِكْرِ السُّجُودِ تَنْبِيهًا إِلَى أَنَّ نُبْلَ الْمُتَعَلِّمِ مَرهُونٌ بِعَمَلِهِ بِمَا عَلِمَ، وَأَنَّ ارْتِفَاعَهُ فِي سَلَمِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَابِعٌ لَذَلِكَ، وَهَذَا أَخْصَصَ مِنْ مُجَرَّدِ التَّنْبِيهِ عَلَى قَاعِدَةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَأَعْمَمَ مِنْ مُجَرَّدِ التَّنْبِيهِ عَلَى شَرَفِ السُّجُودِ بِالنِّسْبَةِ لغيرِهِ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «أَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ» (ص ٨٢) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا؛ أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾؟ يَعْنِي: افْعَلْ وَاقْتَرِبْ».

سُورَةُ الْقَدْرِ

الْفَرْقُ بَيْنَ (أُنْزِلَ) وَ(نُزِّلَ)

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١).

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ يُؤَيِّدُهَا مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة ١٨٥)، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ فِي رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا نَزَلَ بِحَسَبِ الْحَوَادِثِ، فِي رَمَضَانَ وَغَيْرِهِ، فَمَا الْمَقْصُودُ بِهَذَا الْإِنْزَالِ إِذَا؟

وَالْجَوَابُ أَنَّ آيَةَ الْبَابِ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَزَلَ كُلُّهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، كَمَا أَنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا فِي لَيَالِي الْقَدْرِ مِنْ كُلِّ الرَّمَضَانَاتِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ هُنَا إِنْزَالُهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً، وَقَرَأَ: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء ١٠٦)» أَخْرَجَهُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٣٦٧ - ٣٦٨) وَالْحَاكِمُ (٢/٢٢٢) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، وَهَذَا لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ مِنْ قَبْلِ الرَّأْيِ، وَلَا يُمَكَّنُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَقَدْ كَثُرَ فِي كِتَابِ اللهِ التَّعْبِيرُ عَنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِلَفْظَيْنِ:
الْأَوَّلُ: لَفْظُ (أُنْزِلَ)، كَمَا فِي آيَةِ الْبَابِ.

الثاني: لَفْظُ (نَزَلَ)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان ٢٣).

فما وَجْهُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ (أَنْزَلَ) بِالتَّخْفِيفِ وَ(نَزَلَ) بِالتَّضْعِيفِ؟
والجوابُ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ ذَكَرُوا أَنَّ التَّضْعِيفَ يُفِيدُ الْكَثْرَةَ وَالتَّكَرُّرَ، وَهُوَ هُنَا يُفِيدُ تَكَرُّرَ نُزُولِهِ؛ وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى نُزُولِ الْقُرْآنِ إِلَى الْأَرْضِ مُفَرَّقًا، فَحَيْثُمَا أَرَادَ اللَّهُ ﷻ تَنْبِيْهَ عِبَادِهِ عَلَى نُزُولِهِ مُفَرَّقًا قَالَ (نَزَلَ)، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء ١٠٦)، وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِجَلَاءٍ، وَحَيْثُ لَمْ يُقْصَدِ ذَلِكَ قَالَ (أَنْزَلَ)، كَقَوْلِهِ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء ١٠٥)، وَالْآيَةُ وَاضِحَةٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهَا بَيَانُ أَحَقِّيَّةِ الْقُرْآنِ دُونَ التَّعَرُّضِ إِلَى كَيْفِيَّةِ تَنْزُلِهِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ نَبَّهُوا عَلَى هَذَا الْفَرْقِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَدْ قَالَ فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ: «الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانُ» (الفُرْقَان ١)، ﴿نَزَلَ﴾ فَعَلَ مِنَ التَّكَرُّرِ وَالتَّكْثُرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (النساء ١٣٦)؛ لِأَنَّ الْكِتَابَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانَتْ تَنْزُلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً وَالْقُرْآنُ نَزَلَ مَنْجَمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا، آيَاتٍ بَعْدَ آيَاتٍ، وَأَحْكَامًا بَعْدَ أَحْكَامٍ، وَسُورًا بَعْدَ سُورٍ، وَهَذَا أَشَدُّ وَأَبْلَغُ وَأَشَدُّ اعْتِنَاءً بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٢٧) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٨﴾

(الفرقان ٣٢-٣٣) .

تنبيه: هذه الآية الأخيرة لا تَحْدُثُ القاعدةَ السابقة؛ لأنَّ كلمة ﴿ نَزَّلَ ﴾ - وإن جاءت بالتَّضْعِيفِ - فقد قِيِّدَتْ بكلمة ﴿ جُمْلَةً ﴾، والكلمة التي تَرَدَّدُ بَيْنَ مَعْنَيْنِ حُكْمُهَا حُكْمُ مَا قِيِّدَتْ بِهِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ قَالُوا بِهَذَا الْفَرْقِ أَيْضاً ابْنُ جَمَاعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ « كَشَفَ الْمَعَانِي فِي الْمُتَشَابِهِ الْمَثَانِي » (ص ١٣١)، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (آل عمران ٣)، وَلَا حِظَّ اخْتِلَافَ اللَّفْظِ عِنْدَ الْاِقْتِرَانِ، فَقَدْ قُرِنَ التَّنْزِيلُ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ مُفَرَّقًا، وَقُرِنَ الْإِنْزَالُ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ لِأَنَّهُمَا أُنْزِلَا جُمْلَةً، وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِآيَةِ النَّسَاءِ الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا ابْنُ كَثِيرٍ.

تَنْبِيْهُ آخَرُ: لَا يَحْدُثُ الْقَاعِدَةُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ بَعْدَ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ هَذِهِ مُتَحَدِّثًا عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران ٤)، فَذَكَرَ أَنَّهُ أُنْزَلَ الْفُرْقَانُ بَدَلْ (نَزَلَ)، وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ هُنَا التَّعَرُّضُ لِكَيْفِيَّةِ تَنْزُلِهِ، وَلَكِنْ الْمَقْصُودُ هُوَ بَيَانُ أَنَّهُ أُنْزِلَ لِلْفَضْلِ وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، انْظُرْ « مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى » لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ (١٣/٧ - ٩)، وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي « بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ » (٢/٢٥٣): « فَذَكَرَ إِنْزَالَ الْكِتَابِ الْهَادِي وَالْفُرْقَانَ وَهُوَ النَّصْرُ الَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ

والباطل^(١)، وسرُّ اقترانِ النَّصْرِ بالهُدَى أَنَّ كلاًّ مِنْهُمَا يَحْصُلُ بِهِ الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ولهذا سَمِيَ تَعَالَى مَا يَنْصُرُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فُرْقَاناً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْأَجْمَعَانِ﴾ (الأنفال ٤١)، فذَكَرَ الْأَصْلَيْنِ: مَا أُنْزِلَهُ عَلَى رَسُولِهِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِنَصْرِ رَسُولِهِ وَدِينِهِ وَإِذْلالِ أَعْدَائِهِ وَخِزْيِهِمْ «، وَقَدْ مَرَّ تَقْيِيدُ قَاعِدَةِ التَّضْعِيفِ بِأَحَدِ قَيْدَيْنِ:

الأوَّل: أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ هُوَ بَيَانُ تَنْزُلِ الْقُرْآنِ مُنْجِماً حَسَبَ الْوَقَائِعِ، أَوْ مَا كَانَ فِي مَعْنَاهُ، فَإِنْ أُريدُ غَرَضُ آخِرٍ جَازٍ اسْتِعْمَالُ أَيِّ اللَّفْظَيْنِ؛ لِأَنَّ كلاًّ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مَعْنَى الْآخِرِ فِي الْجُمْلَةِ عِنْدَ الْانْفِرَادِ.
أو الثَّانِي: وَهُوَ اقْتِرَانُ اللَّفْظَيْنِ مَعاً؛ فَإِنَّهُمَا عِنْدَ الْاقْتِرَانِ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ لَفْظٍ لِمَا اخْتَصَّ بِهِ عَنِ الْآخَرِ، عَلَى قَاعِدَةٍ: إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وَإِذَا افْتَرَقَا اجْتَمَعَا.

وَأخيراً، فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ بَيَانُ أَنَّ لَفْظَ ﴿إِنَّا أُنْزَلْنَاهُ فِي

(١) يُريدُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي السُّورَةِ نَفْسَهَا: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ﴾، فَقَدْ اقْتَرَنَ فِيهَا الْهُدَى بِالْفُرْقَانِ، كَاقْتِرَانِ الْهَادِي بِالنَّصِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ٥؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَادٍ بِالْكِتَابِ، وَنَصِيرٌ بِالسَّيْفِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا لَمْ يُنْصَرْ ضَعُفَ وَانْدَثَرَ، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ حَمْلَ كَلِمَةِ (الْفُرْقَانِ) الَّتِي فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ عَلَى نَصْرِ الْحَقِّ بِحُجَّةِ الْكِتَابِ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ الْكِتَابُ نَفْسُهُ هَادِيًا وَنَصِيرًا، أَوْ عَلَى النَّصْرِ بِالسَّيْفِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ جُمَاعَةَ فِي «كَشَفِ الْمَعَانِي فِي الْمُتَشَابِهِ الْمَثَانِي» (ص ١٣١)، وَعَلَى هَذَيْنِ الْاِخْتِيَارَيْنِ فَلَا إِشْكَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ في آيةِ البابِ اسْتُعْمِلَ على جَادَّتِهِ، أي للدَّلَالَةِ على
نُزُولِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً، وَذَلِكَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا لَا إِلَى الْأَرْضِ، كَمَا مَرَّ فِي
تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَمَنْ نَصَّ عَلَيْهِ فِي آيةِ البابِ الرَّاغِبُ الْأَصْفَهَانِي فِي
« الْمُفْرَدَاتِ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ »، فَقَالَ (ص ٤٨٩): « وَإِنَّمَا خَصَّ لَفْظَ
الْإِنْزَالِ دُونَ التَّنْزِيلِ لِمَا رُوِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ دَفْعَةً وَاحِدَةً إِلَى سَّمَاءِ
الدُّنْيَا، ثُمَّ نَزَلَ نَجْمًا فَنَجْمًا »، وَرَاجِعُ « فَتْحِ الْبَارِي » لابنِ حَجَرٍ
(١٣/٤٦٣)، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ أَسْبَابُ الْاِخْتِلَافِ

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَةُ﴾ (البَيِّنَةُ ٤).

قَدْ مَرَّ ذِكْرُ الْمُنَاسِبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَذَلِكَ عِنْدَ
الْكَلَامِ عَلَى سُورَةِ الْعَلَقِ، وَهِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُمِرَ بِأَنْ يَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ
عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ لِيُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ وَتَقُومَ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةُ،
وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ،
كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإِسْرَاءُ ١٥).

لَكِنْ ثَمَّ إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى بَنِي آدَمَ التَّفَاوُتَ فِي الْعِلْمِ،
فَقَالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يُوسُفُ ٧٦)، وَهَذَا التَّفَاوُتُ
وَاقِعٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، كَمَا أَنَّهُ وَاقِعٌ بَيْنَ غَيْرِ الْعُلَمَاءِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّاسَ
يَخْتَلِفُونَ بِحَسَبِ هَذَا التَّفَاوُتِ، كَمَا أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الصَّحَابَةَ اخْتَلَفُوا فِي
مَسَائِلَ مِنَ الدِّينِ، فَلِمَاذَا لَمْ يَتَفَرَّقُوا إِلَى فِرْقٍ وَأَحْزَابٍ؟ الْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ
قَدْ كَرَّرَ الْخَبَرَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ النَّاسَ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ بِالتَّفَرُّقِ
وَالضَّرْبِ عَلَى قُلُوبِهِمْ إِلَّا بِسَبَبَيْنِ:

الْأَوَّلُ: هُوَ ظُهُورُ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ، ثَمَّ الْانْحِرَافُ عَنْهُ.
الثَّانِي: ظُهُورُ الْبَغْيِ بَيْنَهُمْ، بِحَيْثُ لَا يَنْحَرِفُ عَنْ ذَاكَ الْعِلْمِ
لِشُبْهَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ سَائِعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ الْبَغْيُ وَالْحَسَدُ.

أَمَّا ظُهُورُ الْعِلْمِ، فَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ فِي آيَةِ الْبَابِ (الْبَيِّنَةُ)؛ لِأَنَّهُ بِالْبَيِّنَةِ يَتَبَيَّنُ النَّاسُ مَوَاضِعَ تَقْوَى اللَّهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتُهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ (التَّوْبَةُ ١١٥)، وَأَمَّا ظُهُورُ الْبَغْيِ، فَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ أُخْرَى، مِنْهَا سُورَةُ الْبَقَرَةِ (٢١٣)، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهَا: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وَمِنْهَا سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (١٩)، فَقَدْ قَالَ فِيهَا: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، وَغَيْرُهَا.

وَالصَّحَابَةُ لَمْ يَكُونُوا ذَوِي انْحِرَافٍ عَنِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ لِبَغْيِ فِيهِمْ، وَلِذَلِكَ كَانَ فِيهِمُ الرَّأْيُ الْمُخْتَلِفُ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمُ الدِّينُ الْمُنْحَرَفُ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ أَنَّ اخْتِلَافَهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَصُولِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُ لِلْمُخْتَلِفِينَ وَدَّهَمَ وَلَا يُعَاقِبُهُمُ بِالْمُخَالَفَةِ بَيْنَ أَوْجُوهِهِمْ إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ: الْأَوَّلُ: تَرْكُ الْحَقِّ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ، وَالثَّانِي: تَرْكُهُ بَغْيًا، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ بِأَهْلِ الْجَهْلِ الَّذِينَ قَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي مَا بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَنِيَّتِهِمْ صَالِحَةً، كَمَا أَنَّهُ رَحِمَهُ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، الَّذِينَ قَدْ يَخْتَلِفُونَ لِاجْتِهَادِ سَائِغٍ، لَا بِسَبَبِ التَّعَنُّتِ وَحُبِّ الْمَخَالَفَةِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٤-١٧): «ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿ (الشورى ١٤)، فَأَخْبَرَ أَنَّ تَفَرُّقَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ
حِجْيِ الْعِلْمِ الَّذِي يَبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا كَانَ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ
هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا بَغْيًا، وَالْبَغْيُ
مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ: الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ، وَهَذَا بِخِلَافِ التَّفَرُّقِ
عَنِ اجْتِهَادٍ لَيْسَ فِيهِ عِلْمٌ وَلَا قُصْدٌ بِهِ الْبَغْيُ، كَتَنَازُعِ الْعُلَمَاءِ السَّائِغِ،
وَالْبَغْيُ إِمَّا تَضْيِيعٌ لِلْحَقِّ، وَإِمَّا تَعَدُّ لِلْحَدِّ، فَهُوَ إِمَّا تَرْكُ وَاجِبٍ، وَإِمَّا
فِعْلُ مُحَرَّمٍ، فَعِلْمُ أَنَّ مُوجِبَ التَّفَرُّقِ هُوَ ذَلِكَ، وَهَذَا كَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا
حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ ﴾ (المائدة ١٤)، فَأَخْبَرَ أَنَّ نِسْيَانَهُمْ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - وَهُوَ تَرْكُ
الْعَمَلِ بِبَعْضِ مَا أُمِرُوا بِهِ - كَانَ سَبَبًا لِإِغْرَاءِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ،
وَهَكَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي أَهْلِ مِلَّتِنَا، مِثْلَمَا نَجِدُهُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُتَنَازِعَةِ فِي
أَصُولِ دِينِهَا وَكَثِيرٍ مِنْ فُرُوعِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَمِثْلَمَا
نَجِدُهُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَبَيْنَ الْعِبَادِ مِمَّنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْمُسَوِيَّةُ أَوِ الْعِيسَوِيَّةُ،
حَتَّى يَبْقَى فِيهِمْ شَبَهُ مِنَ الْأُمْتِنِ اللَّتَيْنِ قَالَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ: لَيْسَتْ
الْأُخْرَى عَلَى شَيْءٍ، كَمَا نَجِدُ الْمُتَفَقَّةَ الْمُتَمَسِّكَ مِنَ الدِّينِ بِالْأَعْمَالِ
الظَّاهِرَةِ، وَالْمُتَصَوِّفِ الْمُتَمَسِّكَ مِنْهُ بِأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَنْفِي طَرِيقَةَ
الْآخَرِ وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، أَوْ يُعْرِضُ عَنْهُ إِعْرَاضَ مَنْ لَا
يَعُدُّهُ مِنَ الدِّينِ، فَتَقَعُ بَيْنَهُمَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ
بِطَهَارَةِ الْقَلْبِ وَأَمَرَ بِطَهَارَةِ الْبَدَنِ، وَكِلَا الطَّهَارَتَيْنِ مِنَ الدِّينِ الَّذِي

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَأَوْجَبَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة ٦)، وَقَالَ فِيهِ: ﴿رِجَالٌ مُخْبِتُونَ أَنْ يَتَّظَاهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّطَهِّرِينَ﴾ (التوبة ١٠٨) وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَّطَهِّرِينَ﴾ (البقرة ٢٢٢)، وَقَالَ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة ١٠٣)، وَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ (المائدة ٤١)، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ (التوبة ٢٨)، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب ٣٣)، فَنَجَدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَعَبِّدَةِ إِنَّمَا هِمَّتْ طَهَارَةُ الْبَدَنِ فَقَطْ، وَيَزِيدُ فِيهَا عَلَى الْمَشْرُوعِ اهْتِمَامًا وَعَمَلًا، وَيَتْرَكُ مِنَ طَهَارَةِ الْقَلْبِ مَا أَمَرَ بِهِ إيجاباً أَوْ اسْتِحْبَاباً، وَلَا يَفْهَمُ مِنَ الطَّهَارَةِ إِلَّا ذَلِكَ.

وَنَجَدُ كَثِيرًا مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ إِنَّمَا هِمَّتْ طَهَارَةُ الْقَلْبِ فَقَطْ، حَتَّى يَزِيدَ فِيهَا عَلَى الْمَشْرُوعِ اهْتِمَامًا وَعَمَلًا، وَيَتْرَكُ مِنَ طَهَارَةِ الْبَدَنِ مَا أَمَرَ بِهِ إيجاباً أَوْ اسْتِحْبَاباً.

فَالْأَوَّلُونَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْوَسْوَسةِ الْمَذْمُومَةِ فِي كَثَرَةِ صَبِّ الْمَاءِ وَتَنْجِيسِ مَا لَيْسَ بِنَجَسٍ، وَاجْتِنَابِ مَا لَا يُشْرَعُ اجْتِنَابُهُ، مَعَ اسْتِهْمالِ قُلُوبِهِمْ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْحَسَدِ وَالْكِبَرِ وَالْغِلِّ لِإِخْوَانِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ مُشَابَهَةٌ بَيْنَهُ لِلْيَهُودِ، وَالْآخَرُونَ يَخْرُجُونَ إِلَى الْعَفْلةِ الْمَذْمُومَةِ، فَيُبَالِغُونَ فِي سَلَامَةِ الْبَاطِنِ حَتَّى يَجْعَلُوا الْجَهْلَ بِمَا تَحِبُّ مَعْرِفَتُهُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَحِبُّ اتَّقَاؤُهُ مِنْ سَلَامَةِ الْبَاطِنِ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ سَلَامَةِ الْبَاطِنِ مِنْ

إِرَادَةِ الشَّرِّ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَبَيْنَ سَلَامَةِ الْقَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةِ الشَّرِّ الْمَعْرِفَةِ
الْمَأْمُورَ بِهَا، ثُمَّ مَعَ هَذَا الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ قَدْ لَا يَجْتَنِبُونَ النَّجَاسَاتِ
وَيُقِيمُونَ الطَّهَارَةَ الْوَاجِبَةَ مُضَاهَاةً لِلنَّصَارَى، وَتَقَعُ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ
الطَّائِفَتَيْنِ بِسَبَبِ تَرْكِ حِطِّ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَالْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ:
إِمَّا تَفْرِيطاً وَتَضْيِيعاً لِلْحَقِّ، وَإِمَّا عُدْوَاناً وَفِعْلاً لِلظُّلْمِ وَالْبَغْيِ، تَارَةً
يَكُونُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي حُقُوقِ اللَّهِ، وَهُمَا
مُتَلَاْزِمَانِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، فَإِنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ بَغَتْ عَلَى
الْأُخْرَى فَلَمْ تَعْرِفْ حَقَّهَا الَّذِي بِأَيْدِيهَا، وَلَمْ تَكُفَّ عَنِ الْعُدْوَانِ
عَلَيْهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البَيِّنَةُ ٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً
فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (البَقَرَةُ ٢١٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (الْحَاجِيَةُ ١٦) الْآيَةُ، وَقَالَ
تَعَالَى فِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ ١٠٥)، وَقَالَ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الْأَنْعَامُ ١٥٩)،
وَقَالَ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (مُؤَيَّدِينَ إِلَيْهِ وَآتَقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ
 بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ (الروم ٣٠-٣٢)؛ لَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كُلَّ مِنْهُمْ يَعْبُدُ
 إِلَهًا يَهْوَاهُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
 إِلَيْهِ﴾ (الشورى ١٣)، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
 صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا
 رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) ﴿٣٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
 فَرِحُونَ ﴿٣٤﴾ (المؤمنون ٥١-٥٣)، فَظَهَرَ أَنَّ سَبَبَ الْاجْتِمَاعِ وَالْأَلْفَةِ جَمْعُ
 الدِّينِ وَالْعَمَلِ بِهِ كُلَّهُ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا أَمَرَ بِهِ
 بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَسَبَبُ الْفُرْقَةِ تَرْكُ حَظٍّ مِمَّا أَمَرَ الْعَبْدُ بِهِ وَالْبَغْيُ بَيْنَهُمْ،
 وَنَتِيجَةُ الْجَمَاعَةِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ وَصَلَوَاتُهُ وَسَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 وَبَيَاضُ الْوُجُوهِ، وَنَتِيجَةُ الْفُرْقَةِ عَذَابُ اللَّهِ وَلَعْنَتُهُ وَسَوَادُ الْوُجُوهِ
 وَبَرَاءَةُ الرَّسُولِ مِنْهُمْ، وَهَذَا أَحَدُ الْأَدَلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ؛
 فَإِنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا كَانُوا مُطِيعِينَ لِلَّهِ بِذَلِكَ مَرَحُومِينَ، فَلَا تَكُونُ طَاعَةُ
 اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بِفِعْلٍ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ: مِنْ اعْتِقَادٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فَلَوْ كَانَ
 الْقَوْلُ أَوْ الْعَمَلُ الَّذِي اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ لَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ طَاعَةً
 لِلَّهِ وَلَا سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَقَدْ احْتَجَّ بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ فِي أَوَّلِ
 (التَّنْبِيهِ)، نَبَّةً عَلَى هَذِهِ النُّكْتَةِ.

ذَكَرَ ﷺ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَا نَحْنُ بِصَدِيدِهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ وَجَهَ بَغْيِ أَهْلِ
 الْكِتَابِ، أَلَا وَهُوَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، فَالْيَهُودُ آمَنُوا
 بِمُوسَى وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا

بِعِيسَى وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، وَالْمُسْلِمُونَ آمَنُوا بِجَمِيعِهِمْ فَسَلِمُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَمَا وَقَعَ مِنْ خِلَافٍ بَيْنَ هَذِهِ الْمِلَلِ سَبَبُهُ تَقْصِيرٌ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِالْوَاجِبِ الْمَأْمُورِ بِهِ كُلِّهِ، ثُمَّ بَيَّنَّ شَرَفَ الْإِثْبَانِ بِالْأَمْرِ، وَأَنَّ مَرَدَّ جَمِيعِ الْمُخَالَفَاتِ وَالْاِخْتِلَافَاتِ وَحُصُولِ الْعِدَاوَاتِ إِلَى تَرْكِ الْمَأْمُورِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي حَدِيثِ الْوَلِيِّ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» غَيْرُ الْمَأْمُورَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ فِيهِ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ»، وَهَهُنَا فَائِدَتَانِ:

الأولى: أَنَّهُ لَمْ يُمدَحِ الْوَلِيُّ الصَّالِحُ إِلَّا بِإِثْبَانِ الْمَأْمُورَاتِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِيهِ سِوَاهَا، وَذَلِكَ بِقِسْمَيْهَا: الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ.

والثانية: أَنَّ حِفْظَ اللَّهِ وَلِيَّهِ مِنْ مَعَاصِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ تَابِعٌ لِحِفْظِ الْمَرْءِ رَبَّهُ فِي الْمَأْمُورَاتِ، بَلْ فِيهِ أَنَّ إِثْبَانَ الْمَأْمُورَاتِ حِرْزٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَحْظُورَاتِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ فِيهِ بِحِفْظِ عَبْدِهِ فِي الْجَوَارِحِ الْمَذْكُورَةِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ فِعْلِ الْمَأْمُورِ عَلَى تَرْكِ الْمَحْظُورِ، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ مَأْمُورًا بِهِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَحْتَرِزُونَ مِنْ فِعْلِ الْمَحْظُورِ مَا لَا يَحْتَرِزُونَ فِي تَرْكِ الْمَأْمُورِ، وَهَذَا غَلَطٌ.

فَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَهُمْ مَقْصُودُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ مِنْ ذِكْرِهِ أَنَّ أَصْلَ ضَلَالِ بَنِي

آدم من جهة ترك المأمور، وتفسيره من وجهين:

١- أن عمر الإنسان هو وقته، فإذا لم يستعمل وقته في المأمورات استعمله في المنهيات، وقد قيل: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

٢- أن في فعل المأمور زيادة في الإيمان تبعث على فعل الطاعات واجتناب المنكرات، وتأمل قول الله ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنفَسَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَٰوِينَ﴾ (الأعراف ١٧٥)، فإن الله ذكر أن الشيطان افترس عالم بني إسرائيل عند انسلاخه من العمل بآياته، ولذلك عقبه بحرف الفاء الذي يفيد الترتيب بلا مهلة، وهذا يبين خطأ من يترك بعض المأمورات تورعاً؛ زاعماً أن نفسه لا تطاوعه على مقابلة الله بالطاعات حتى يدع ما هو فيه من السيئات، وهذا من تلعب الشيطان به، وقد أطل ابن تيمية بحث هذه القاعدة في «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٥-١٥٨) واستدل لها من اثني عشر وجهاً، وزاد عليه ابن القيم في «الفوائد» (ص ١٥٤-١٦٦- دار النفائس) واحداً.

بقي الكلام على أول الموضوع الذي تكلم عنه ابن تيمية، فقد ذكر أن أهل الكتاب وقعوا في البغضاء بسبب تخلفهم عن الاستجابة لما أمروا به، ثم لم يمثل إلا بالنصارى، مع أن اليهود شاركهم فيها أيضاً، ومع أن الله ذكرهم مع النصارى في السورة نفسها، بل في السياق نفسه، فقال: ﴿فِيمَا نَقُصِّرُ مِنْهُم مِّمَّنْ شِئْنَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ

قَنِسِيَّةٌ مُخَرَّفُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ
 وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى حَايِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴿ (المائدة ١٣)، ولعلَّه سَقَطَ
 ذِكْرُ الْيَهُودِ هُنَا؛ لِأَنَّ ابْنَ تَيْمِيَّةَ نَفَسَهُ سَمَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَلَّتَيْنِ الْمُسَوِيَّةِ
 وَالْعِيسَوِيَّةِ كَمَا سَمَاهُمَا بِإِجْمَالٍ فِي الْأَوَّلِ، ثُمَّ إِنَّهُ ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ أَيْضًا
 فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنْ « الْمَجْمُوعِ » (١٠٩/٢٠) وَ (٦٤٩/٢٨)، وَهُنَاكَ
 فَصَّلَ مَعَ ذِكْرِ مَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

سُورَةُ الزُّلْزَلَةِ

مَعَانِي الْوَحْيِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ (الزُّلْزَلَةُ ٤-٥).

أَخْبَرَ اللهُ ﷻ بِأَنَّهُ يُوحِي إِلَى الْأَرْضِ، وَهُوَ عَلَى مَعْنَى الْأَمْرِ، وَهَذَا أَحَدُ الْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا لَفْظُ الْوَحْيِ، كَمَا فِي « أَضْوَاءِ الْبَيَانِ » لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ (٢/ ٤٠٩)، وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ فَهُوَ نَبِيٌّ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ فِي النِّسَاءِ أَنْبِيَاءَ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (الْقَصَصُ ٧)، وَبَيَّنَّ خَطَأَ هَذَا الْقَوْلِ صَرِيحُ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ ٧)، فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ لَيْسُوا إِلَّا رِجَالًا، كَمَا أَنَّ فِي آيَةِ الزُّلْزَلَةِ هَذِهِ رَدُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِي عَلَى مَعَانٍ، قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي « تَأْوِيلِ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ » (ص ٤٨٩-٤٩٠): « الْوَحْيُ كُلُّ شَيْءٍ دَلَّلَتْ بِهِ مِنْ كَلَامٍ أَوْ كِتَابٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ رِسَالَةٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ﴾ (النِّسَاءُ ١٦٣)، وَقَالَ: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الْأَنْعَامُ ١٩)، فَهَذَا إِرْسَالُ جِبْرِيلَ بِالْقُرْآنِ، وَقَالَ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مَرْيَمُ ١١)، أَيِ أَشَارَ إِلَيْهِمْ وَأَوْمَأَ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: كَتَبَ إِلَيْهِمْ، قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ (هُوَ ابْنُ قُتَيْبَةَ): وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ أَعْجَبُ إِلَيَّ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةً

أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴿٤١﴾ (آل عمران ٤١)، وَالرَّمْزُ تَحْرِيكُ الشَّفَتَيْنِ أَوِ الْحَاجِبَيْنِ أَوِ
 الْعَيْنَيْنِ، وَلَا يَكُونُ كِتَابًا، وَالْوَحْيُ إِلهَامٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
 الْحَوَارِيِّينَ﴾ (المائدة ١١١)، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل ٦٨)، أَيْ
 أَلْهَمَهَا، وَالْوَحْيُ إِعْلَامٌ فِي الْمَنَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ
 إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ﴾ (الشورى ٥١)،
 وَالْوَحْيُ إِعْلَامٌ بِالْوَسْوَسَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، قَالَ: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ
 لَيُوحِيَنَّ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ (الأنعام ١٢١)، وَقَالَ: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
 يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام ١١٢)، وَالْوَحْيُ
 أَمْرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة ٥)، قَالَ الرَّاجِزُ:

وَحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ

أَيَّ أَمْرَهَا بِالْقَرَارِ فَقَرَّتْ، يَعْنِي الْأَرْضَ، وَيُقَالُ: سَخَّرَهَا .

وَالْبَيْتُ بَتَمَامِهِ كَمَا فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» مَادَّةُ (وَحَى):

وَحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثَّبَتِ

وَذَكَرُوا أَيْضًا فِي مَعْنَى الْوَحْيِ: الْإِعْلَامُ خُفْيَةً، كَمَا فِي «أَضْوَاءِ
 الْبَيَانِ» لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٤٠٩)، وَلَعَلَّهُ أَشْهُرُ
 مَعَانِيهِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي الْإِعْلَامِ بِالْوَسْوَسَةِ، إِلَّا أَنَّ
 الْوَسْوَسَةَ الْمَذْكُورَةَ تَقَعُ فِي الشَّرِّ، لَكِنِ الْجَامِعُ بَيْنَ مَا يَقَعُ فِي الشَّرِّ وَمَا
 يَقَعُ فِي الْخَيْرِ وَقُوعُهَا خُفْيَةً.

وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ كَلَامَهُ لِنَبِيِّهِ بَلَاءً وَاسْطَةً وَحْيًا، فَقَالَ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ
 عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم ١٠)، نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ الْجَوَازِيِّ فِي «مُنْتَحَبِ

قَرَّةُ الْعُيُونِ النَّوَظِرِ فِي الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ « (ص ٢٣٨).

فَتَلَخَّصَ مِنْ مَعَانِي الْوَحْيِ إِذَا مَا يَأْتِي:

الْأَوَّلُ: الْأَمْرُ، الثَّانِي: الْإِلْهَامُ، الثَّالِثُ: الْقَوْلُ بِلَا وَاسِطَةٍ، الرَّابِعُ:
الْإِعْلَامُ فِي الْمَنَامِ، الْخَامِسُ: الْإِعْلَامُ بِالْوَسْوَسَةِ، السَّادِسُ: الْإِعْلَامُ
بِالْإِرْسَالِ، السَّابِعُ: الْإِعْلَامُ بِالْإِشَارَةِ، الثَّامِنُ: الْإِعْلَامُ خُفِيَةً، وَلَعَلَّ
هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرَ هُوَ الَّذِي يَجْتَمِعُ تَحْتَهُ أَكْثَرُ الْمَعَانِي السَّابِقَةِ، وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ.

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

قَاعِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ عِبَادَةِ الْخَالِقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ

﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ (العاديات ٦-٨).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « التَّبَيَّنِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ » (١/ ٥١ - ٥٢):
 « وَالْكَنُودُ لِلنَّعْمَةِ، وَفِعْلُهُ كَنَدَ يَكْنُدُ كُنُودًا، مِثْلُ: كَفَرَ يَكْفُرُ كُفُورًا،
 وَالْأَرْضُ الْكُنُودُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا، وَامْرَأَةٌ كَنْدَى أَيُ كَفُورٌ
 لِلْمُعَاشَرَةِ، وَأَصْلُ اللَّفْظِ مَنَعَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَرَجُلٌ كَنُودٌ: إِذَا كَانَ
 مَانِعًا لِمَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَعِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ تَدُورُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، قَالَ
 ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَأَصْحَابُهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى: هُوَ الْكَفُورُ، وَقِيلَ: هُوَ
 الْبَخِيلُ الَّذِي يَمْنَعُ رَفْدَهُ ^(١)، وَيُجِيعُ عَبْدَهُ، وَلَا يُعْطِي فِي النَّائِبَةِ ^(٢)،
 وَقَالَ الْحَسَنُ: هُوَ اللَّوَامُ لِرَبِّهِ؛ يَعُدُّ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَى النِّعَمَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:
 ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٦ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ أَنَّ رَبَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ
 لَشَهِيدٌ، وَقِيلَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَشَهِيدٌ عَلَىٰ ذَٰلِكَ، إِنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ أَشْهَدَ
 رَبَّهُ عَلَيْهِ حَالَهُ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ سِيَاقُ الضَّمَائِرِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّهُ
 لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ لِلْإِنْسَانِ، فَافْتَتَحَ الْخَبَرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِكُونِهِ

(١) الرِّفْدُ: الْعَطَاءُ، وَالْقَدَحُ الضَّخْمُ، وَالتَّرَافُدُ التَّعَاوُنُ، كَذَا فِي « الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ »
 لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي، وَهِيَ مُسْتَعْمَلَةٌ كَثِيرًا فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الْيَوْمِ، يَقُولُونَ: رَفَدَهُ،
 وَيَعْنُونَ بِهَا: حَمَلَهُ.

(٢) النَّائِبَةُ: النَّازِلَةُ وَالْمُصِيبَةُ، انْظُرْ « تَهْذِيبُ اللُّغَةِ » لِلْأَزْهَرِيِّ.

كنودا، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلاً بما له
 حبه إياه، ويؤيد قول ابن عباس رضي الله عنه أنه أتى ب (علي)، فقال: ﴿وإنه
 على ذلك لشديد﴾ (٧)، أي مطلع عالم به، كقوله: ﴿ثم الله شديد على
 ما يفعلون﴾ (٨) (يونس ٤٦)، ولو أريد شهادة الإنسان لآتى بالباء،
 فقيل: وإنه بذلك لشهيد، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا
 مسجداً لله شهديين على أنفسهم بالكفر﴾ (التوبة ١٧)، فلو أراد شهادة
 الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد؛ فإن كنوده المشهود به ونفسه
 هي المشهود عليها، ثم قال تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ (٩)،
 والخير هنا المال باتفاق المفسرين، والشديد البخل من أجل حب
 المال، فحب المال هو الذي حمل على البخل، هذا قول الأكثرين، وقال
 ابن قتيبة: بل المعنى إنه لشديد الحب للخير، فتكون اللام في قوله:
 ﴿لحب الخير﴾ متعلقة بقوله: ﴿لشديد﴾، على حد تعلق قولك: إنه
 لزيد لضارب، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما
 قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز؛ فإن قوله: ﴿ليريم﴾ معمول
 ﴿لكنود﴾، وقوله: ﴿على ذلك﴾، معمول ﴿لشديد﴾، ولا وجه
 للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور،
 فالحق جواز (إن لزيد لضارب)، فوصف سبحانه الإنسان بكفران
 نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير، فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى
 خلقه، بل بخيل بشكره، بخيل بما له، وهذا ضد المؤمن الكريم؛ فإنه
 مخلص لربه، محسن إلى خلقه، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان،

والفاجرُ له الكُفْرُ والبُخلُ، وقد ذمَّ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذَيْنِ الخُلُقَيْنِ
المُهْلِكَيْنِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾^(١)
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرْءَوْنَ ﴿٣﴾ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٤﴾ (الماعون ٤-٧)، فَالرِّيَاءُ ضِدُّ الْإِخْلَاصِ، وَمَنْعُ الْمَاعُونِ
ضِدُّ الْإِحْسَانِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا
فَخُورًا﴾^(٤) الَّذِينَ يَتَخَلَّوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٥﴾ (النساء ٣٦)، فَاخْتِيَالُهُ وَفَخْرُهُ مِنْ كُفْرِهِ وَكُنُودِهِ،
وَهَذَا ضِدُّ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ﴾^(٥) (البقرة ٣)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنَا﴾^(٦) الْآيَةِ (النساء ٣٦)، وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الخُلُقَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ
فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٧) (النساء ٣٨)، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾^(٨) (النساء ٣٨)، وَنَظِيرُهُ مَا تَقَدَّمَ فِي
سُورَةِ اللَّيْلِ مِنْ ذَمِّ الْمُسْتَغْنِيِ الْبَخِيلِ، وَمَدْحِ الْمُعْطِيِ الْمُصَدِّقِ
بِالْحُسْنَى، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾^(٩) الَّذِي جَمَعَ مَالًا
وَعَدَّدَهُ^(١٠) (الهمزة ١-٢)، فَإِنَّ الْهُمَزَةَ وَاللُّمَزَةَ مِنَ الْفَخْرِ وَالْكَبْرِ،
وَجَمْعُ الْمَالِ وَتَعْدِيدُهُ مِنَ الْبُخْلِ، وَذَلِكَ مُنَافٍ لِسِرِّ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
وَمَقْصُودِهِمَا، ثُمَّ خَوَّفَ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ الَّذِي هَذَا وَصَفُهُ حِينَ يُبْعَثَرُ
مَا فِي الْقُبُورِ وَيُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ، أَيْ مُيزَ وَجُمِعَ وَبَيَّنَّ وَأُظْهِرَ وَنَحُو
ذَلِكَ، وَجَمَعَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْقُبُورِ وَالصُّدُورِ كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي

قَوْلِهِ: (مَلَأَ اللَّهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا)^(١)، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُوَارِي
صَدْرَهُ مَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَيُوَارِي قَبْرَهُ جِسْمَهُ، فَيُخْرِجُ الرَّبُّ
جِسْمَهُ مِنْ قَبْرِهِ وَسِرَّهُ مِنْ صَدْرِهِ، فَيَصِيرُ جِسْمُهُ بَارِزاً عَلَى الْأَرْضِ،
وَسِرُّهُ بَادِئاً عَلَى وَجْهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُعَرِّفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾
(الرحمن ٤١)، وَقَالَ: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (القلم ١٦) .

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

سورة القارعة

أنواع الموزونات يوم القيامة

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ﴾ (١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ﴾ (٢) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ﴾ (٣) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۖ﴾ (٤) (القارعة ٦-٩).

ذَكَرَ اللهُ هُنَا مَوَازِينَ النَّاسِ مُجْمَلَةً وَلَمْ يُعَيِّنْ مَا يُوزَنُ مِنْهَا، وَقَدْ جَاءَتْ نُصُوصٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءَ، هِيَ:

١- وَزْنُ الْأَعْمَالِ: فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» متفق عليه.

٢- وَزْنُ صَحَائِفِ الْأَعْمَالِ: فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيَخْلُصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَى! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: اخْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتَوَضَّعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَنْقُلُ مَعَ

اسم الله شيءٌ » رواه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٣٥)، وقال: « وفي الحديث دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مُشاهدتان، وأن الأعمال - وإن كانت أعراضاً - فإنها تُوزَن، والله على كل شيء قدير، وذلك من عقائد أهل السنة، والأحاديث في ذلك مُتضافرة إن لم تكن مُتواترة ».

٣- وَزَنَ الْعَامِلُ نَفْسِهِ: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَؤُوا: ﴿ فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ » (الكهف ١٠٥) أخرجه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)، والذي ينفي أن يكون الوزن هنا معنوياً ما رواه أحمدُ بسندٍ حسنٍ عن ابن مسعودٍ أنه « كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكَآ مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُوهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَهَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ ».

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

عِلْمُ الْيَقِيْنِ وَعَيْنُ الْيَقِيْنِ وَحَقُّ الْيَقِيْنِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ

﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿٧﴾﴾ (التَّكْوِيْنُ ٥-٧).

ذَكَرَ اللهُ هُنَا فِي الْعِلْمِ مَرَّتَيْنِ: الْأُولَى: عِلْمُ الْيَقِيْنِ، وَالثَّانِيَةُ: عَيْنُ الْيَقِيْنِ، وَذَكَرَ فِي الْآيَةِ (٥١) مِنْ سُورَةِ الْحَاقَّةِ مَرَّتَةً ثَالِثَةً وَهِيَ حَقُّ الْيَقِيْنِ، فَقَالَ: ﴿وَلَئِنَّ لِحَقِّ الْيَقِيْنِ ﴿٨﴾﴾، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّبْيَانِ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» (ص ١١٩-١٢١): «ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مَرَاتِبَ الْيَقِيْنِ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ: حَقُّ الْيَقِيْنِ، وَعِلْمُ الْيَقِيْنِ، وَعَيْنُ الْيَقِيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿٧﴾﴾، فَهَذِهِ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ لِلْيَقِيْنِ:

أَوَّلُهَا: عِلْمُهُ، وَهُوَ التَّصْدِيقُ التَّامُّ بِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْزُضُ لَهُ شَكٌّ وَلَا شُبْهَةٌ تَقْدُحُ فِي تَصْدِيقِهِ، كَعِلْمِ الْيَقِيْنِ بِالْجَنَّةِ مَثَلًا، وَتَيَقُّنُهُمْ أَنَّهَا دَارُ الْمُتَّقِيْنَ وَمَقَرُّ الْمُؤْمِنِيْنَ، فَهَذِهِ مَرْتَبَةُ الْعِلْمِ، كَيْقِيْنُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ أَخْبَرُوا بِهَا عَنْ اللهِ، وَتَيَقُّنُهُمْ صِدْقَ الْمُخْبِرِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: عَيْنُ الْيَقِيْنِ، وَهِيَ مَرْتَبَةُ الرُّؤْيَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ﴿٧﴾﴾، وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا فَرْقٌ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمُشَاهَدَةِ؛ فَالْيَقِيْنُ لِلسَّمْعِ، وَعَيْنُ الْيَقِيْنِ لِلْبَصَرِ،

فِي الْمُسْنَدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ مَرْفُوعًا: (لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ)^(١)، وَهَذِهِ لَرْتَبَةُ هِيَ الَّتِي سَأَلَهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى بِحَصَلٍ لَهُ مَعَ عِلْمِ الْيَقِينِ عَيْنُ الْيَقِينِ، فَكَانَ سُؤْالُهُ زِيَادَةً لِنَفْسِهِ طُمَأْنِينَةً لِقَلْبِهِ، فَيَسْكُنُ الْقَلْبُ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ، وَيَطْمَئِنُّ لِقَطْعِ الْمَسَافَةِ تِي بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْعِيَانِ، وَعَلَى هَذِهِ الْمَسَافَةِ أَطْلَقَ النَّبِيُّ ﷺ لَفْظَ شَكٍّ، حَيْثُ قَالَ: (نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ)^(٢)، وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ كُونَ هُنَاكَ شَكٌّ لَا مِنْهُ وَلَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا هُوَ عَيْنٌ بَعْدَ عِلْمٍ، شُهُودٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَمُعَايَنَةٌ بَعْدَ سَمَاعٍ^(٣).

الْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ: مَرْتَبَةُ حَقِّ الْيَقِينِ، وَهِيَ مُبَاشَرَةُ الشَّيْءِ بِالْإِحْسَاسِ «، كَمَا إِذَا أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَتَمَتَّعُوا بِمَا فِيهَا، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مَرْتَبَةِ عِلْمٍ يَقِينٍ، وَفِي الْمَوْقِفِ حِينَ تُزْلَفُ وَتُقَرَّبُ مِنْهُمْ حَتَّى يُعَايِنُوهَا فِي مَرْتَبَةِ نِينَ الْيَقِينِ، وَإِذَا دَخَلُوهَا وَبَاشَرُوا نَعِيمَهَا فِي مَرْتَبَةِ حَقِّ الْيَقِينِ،

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١/ ٢٧١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ»، وَلَهُ تَنْمَّةٌ مُنَاسِبَةٌ لِلْمَعْنَى الَّتِي يُرِيدُهَا ابْنُ الْقَيِّمِ، وَهِيَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ فَأَنْكَسَرَتْ»، وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُشَاهَدَةَ الشَّيْءِ أَبْلَغُ فِي الْيَقِينِ مِنَ الْخَبَرِ، وَإِنْ كَانَ الْمُخْبَرُ مُصَدَّقًا فِي الْحَالَتَيْنِ.

(٢) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ.

(٣) شَرَحَ ذَلِكَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ هَذِهِ، فَقَالَ: «أَحَبُّ أَنْ يَتَرَقَّى مِنَ عِلْمِ الْيَقِينِ بِذَلِكَ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ، وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهَدَةً، فَقَالَ: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّ الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمَّيْنِ قُلِّي» (البقرة ٢٦٠)، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» لابْنِ حَجَرٍ (٦/ ٤١٣).

ومباشرةً المعلوم تارةً يكون بالحواس الظاهرة، وتارةً يكون بالقلب،
 فلهذا قال: ﴿وَأَنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ، فَإِنَّ القلبَ يُبَاشِرُ الإيمانَ به
 ويُحَالِطُهُ كما يُبَاشِرُ بالحواسِّ مَا يَتَعَلَّقُ بها، فحينئذٍ يُحَالِطُ بِشَاشَتِهِ
 القلوبَ، وَيَبْقَى لها حَقُّ اليقينِ، وهذه أعلى مراتب الإيمان، وهي
 الصِّدِّيقِيَّةُ الَّتِي تَتَفَاوَتْ فيها مَرَاتِبُ الْمُؤْمِنِينَ، وقد ضَرَبَ بَعْضُ
 الْعُلَمَاءِ لِلْمَرَاتِبِ الثَّلَاثَةِ مِثَالاً، فَقَالَ: إِذَا قَالَ لَكَ مَنْ تَجَزُّمُ بِصِدْقِهِ:
 عِنْدِي عَسَلٌ أُرِيدُ أَنْ أَطْعِمَكَ مِنْهُ فَصَدَّقْتَهُ كَانَ ذَلِكَ عِلْمَ يَقِينٍ، فَإِذَا
 أَحْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْكَ صَارَ ذَلِكَ عَيْنَ اليقينِ، فَإِذَا ذُقْتَهُ صَارَ ذَلِكَ حَقَّ
 اليقينِ، وعلى هذا فَلَيْسَتْ هَذِهِ الإِضَافَةُ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى
 صِفَتِهِ، بَلْ مِنْ إِضَافَةِ الْجِنْسِ إِلَى نَوْعِهِ، إِنَّ الْعِلْمَ وَالْعَيْنَ وَالْحَقَّ أَعْمُ
 مِنْ كَوْنِهَا يَقِيناً، فَأُضِيفَ الْعَامُّ إِلَى الْخَاصِّ، مِثْلُ: بَعْضُ الْمَتَاعِ وَكُلُّ
 الدَّرَاهِمِ، وَلَمَّا كَانَ الْمُضَافُ وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ يَصْدُقَانِ عَلَى
 ذَاتٍ وَاحِدَةٍ بِخِلَافِ قَوْلِكَ: دَارُ عَمْرٍو، وَثَوْبُ زَيْدٍ، ظَنٌّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا
 مِنْ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هِيَ مِنْ بَابِ
 إِضَافَةِ الْجِنْسِ إِلَى نَوْعِهِ، كَثَوْبٍ خَزٍّ، وَخَاتَمٍ فَضَّةٍ، فَالْمُضَافُ إِلَيْهِ قَدْ
 يَكُونُ مُغَايِراً لِلْمُضَافِ لَا يَصْدُقَانِ عَلَى ذَاتٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ يُجَانِسُهُ
 فَيَصْدُقَانِ عَلَى مَسْمًى وَاحِدٍ .

سُورَةُ الْعَصْرِ

خُسْرَانُ الدِّينِ بِالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

الكَلَامُ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ يَنْبَنِي عَلَى مُقَدِّمَتَيْنِ:

الأولى: سَبَقَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى سُورَةِ التِّينِ نَقْلُ مُقَارَنَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جِهَةِ الْإِسْتِثْنَاءِ الَّذِي فِيهِمَا، فَقَدْ وَسَّعَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ التِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِطْ فِي النَّجَاةِ مِنَ السُّفُولِ سِوَى شَرْطَيْنِ: الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ، فَقَالَ: ﴿ثُمَّ رَدَّدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝١ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢﴾، وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَدْ اشْتَرَطَ اللَّهُ لِلنَّجَاةِ مِنَ الْخُسْرِ أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ، هِيَ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشُّرُوطَ كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ ضَاغَتْ بِأَهْلِهَا؛ وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ أَنَّ مَحَوْرَ الْكَلَامِ فِي السُّورَتَيْنِ مُخْتَلِفٌ، فَفِي سُورَةِ التِّينِ كَانَ مَقْصُورًا عَلَى إِصْلَاحِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَالْكَلَامُ عَنِ إِصْلَاحِهِ نَفْسَهُ وَإِصْلَاحِهِ غَيْرَهُ.

المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَّةُ: الْكَلَامُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَنِ خَسَارَةِ الْإِنْسَانِ، لَكِنْ لَمْ يُبَيَّنْ فِيهَا أَسْبَابُهَا، وَقَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي كَلَامٍ مِّنْ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١﴾ (النَّحْلُ ٤٤)، فَعَنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

الله ﷻ: « مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ أَرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ » أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٧٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

والمقصود بالحِرْص على الشَّرَف الحِرْص على السُّلْطَانِ، كَمَا فَسَّرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، انْظُرْ « مَجْمُوعُ فَتَاوَى ابْنِ تَيْمِيَّةٍ » (١٤٢ / ٢٠)، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْخَبَرُ الَّذِي فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ عَمَّنْ يُؤْتِي كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ يَعْتَرِفُ بِأَنَّ مَالَهُ وَسُلْطَانَهُ اللَّذَيْنِ فَتَنَاهُ عَنْ دِينِهِ لَا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿١٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿١٩﴾ ﴾ (الْحَاقَّةُ ٢٨-٢٩)، وَلِذَلِكَ كَانَتْ سَلَامَةُ الْمَرْءِ مِنْ هَاتَيْنِ الْآفَتَيْنِ هِيَ السَّلَامَةُ الْمَحَقَّقَةُ مِنَ الْخُسْرِ وَالْفَسَادِ؛ لِأَنَّ الْخُسْرَ مَذْكُورٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَأَمَّا الْفَسَادُ فَمَذْكُورٌ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَرَّ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ تَرْتِيبُ السُّورِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْعَصْرِ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

بَعْدَ هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ أَقُولُ: قَدْ أُخِّرَ التَّحْذِيرُ مِنْ هَاتَيْنِ الْمَفْسَدَتَيْنِ إِلَى سُورَةِ الْعَصْرِ وَلَمْ يَأْتِ ذَلِكَ مُرْتَبَأً عَلَى سُورَةِ التِّينِ؛ لِأَنَّ سُورَةَ التِّينِ عُنِيَتْ بِالْحَدِيثِ عَنْ كَمَالِ الْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ، وَأَمَّا سُورَةُ الْعَصْرِ فَقَدْ زَادَتْ عَلَى كَمَالِ الْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ تَكْمِيلَهُ غَيْرَهُ؛ وَذَلِكَ بِدَعْوَتِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ التَّحْذِيرَ مِنْ فِتْنَتِي الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصِ عَلَى السُّلْطَانِ بَعْدَ سُورَةِ الْعَصْرِ يَشْمَلُ الْمَرْءَ الْمُتَعَبِّدَ فِي نَفْسِهِ، كَمَا يَشْمَلُ الْمُتَعَبِّدَ وَالِدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا أَشْمَلُ، فَتَرْتِيبُ مَا ذُكِرَ أَنْفَعُ وَأَكْمَلُ؛ فَكَمْ مُنْتَصِبٍ لِلدَّعْوَةِ مَا أَفْسَدَهُ إِلَّا حِرْصُهُ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ، فَغَفَلَ

عن كونه خادماً للدَّعوة، بل تَحَوَّلَ مِنْ خادِمٍ إِلَى مَخْدومٍ؛ لِأَنَّ نِيَّتَهُ أَنْ
تَخْدَمَهُ الدَّعوةُ، فَتُوطَأَ عَقْبُهُ وَتُؤَمَّ مُجَالِسُهُ وَتُصَدَّرَ كَلِمَاتُهُ وَتَكْثُرَ هَدَايَا
النَّاسِ لَهُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

سُورَةُ الْهُمَزَةِ فِتْنَةُ الْمَالِ

قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿مَحْسَبٌ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهُمَزَةُ ١-٣).

فِي هَذِهِ السُّورَةِ التَّحْذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ فِي الْمَالِ مَفَاسِدَ عَظِيمَةً لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، مَعَ ذَلِكَ فَالْمُتَعَرِّضُونَ لَطَلَبِهِ كَثِيرٌ، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ (٢٣٣٦) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ».

وَقَدْ جَاءَ فِي تَعْرِيفِ الْهُمَزَةِ اللَّمَزَةِ قَوْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٥٢١/١٦): «هُوَ الطَّعَانُ الْعِيَابُ»، وَهُمَا صِفَتَانِ مُتِلَازِمَتَانِ كَمَا قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي «الْمُحَرَّرِ الْوَجِيزِ فِي تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ» (٥٢١/٥)، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْهُمَزَةَ اللَّمَزَةَ بِالْجَامِعِ لِلْمَالِ الْمُعَدِّدِ لَهُ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْجَمُوعِ الْمَنُوعِ، وَهُوَ وَصْفٌ ثَالِثٌ، وَقَدْ جَاءَ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ مَا يُشَبِّهُ هَذِهِ السُّورَةَ فِي تَنَاسُقِ الْآيَاتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّاازٍ مُّشَاءٍ بِنَعِيمٍ﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿الْقَلَمِ ١١-١٢﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٥٢٢/١٦) فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ: «وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾»، وَصَفَهُ بِالطَّغْنِ فِي النَّاسِ وَالْعَيْبِ لَهُمْ وَبِجَمْعِ الْمَالِ وَتَعْدِيدِهِ، وَهَذَا نَظِيرُ

قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ) ﴿الحديد ٢٣-٢٤﴾، في الحديد، ونظيره في المعنى في النساء (٣٦-٣٧)؛ فَإِنَّ الْهُمَزَةَ اللَّمَزَةَ يُشْبِهُ الْمُخْتَالَ الْفَخُورَ، وَالْجَمَاعُ الْمُحْصِي نَظِيرُ الْبَخِيلِ، وَكَذَلِكَ نَظِيرُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ﴾ ﴿(القلم ١١-١٣)﴾، وَصَفَهُ بِالْكِبَرِ وَالْبُخْلِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَغْنَى﴾ ﴿(الليل ٨)﴾، فَهَذِهِ خَمْسَةُ مَوَاضِعَ، وَذَلِكَ نَاشِئٌ عَنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّرَفِ تَحْمِلُ انْتِقَاصَ غَيْرِهِ بِالْهُمَزِ وَاللَّمَزِ وَالْفَخْرِ وَالْحِيَلَاءِ، وَمَحَبَّةُ الْمَالِ تَحْمِلُ عَلَى الْبُخْلِ، «وَانْظُرْ «التَّبَيَانُ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ» لابن القيم (ص ٥٢).

قلت: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْمَفْتُونَ بِالْمَالِ مَفْتُونٌ بِالْخِرَاصِ عَلَى السُّلْطَانِ كَمَا فِي كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ السَّابِقِ، لَكِنَّ افْتِتَانَهُ بِالْمَالِ أَخْصَصُ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

سُورَةُ الْفِيلِ فِتْنَةُ السُّلْطَانِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ
سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

لَمَّا حَذَّرَ اللَّهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَبَيَّنَ نَتِيجَتَهَا
الْوَحِيمَةَ، شَرَعَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ فِتْنَةِ السُّلْطَانِ وَبَيَانَ
نَتِيجَتَهَا؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمَلِكِ أِبْرَهَةَ الَّذِي أَطْغَاهُ مُلْكُهُ حَتَّى رَامَ هَدْمَ
الْكَعْبَةِ، وَقَدْ قِيلَ:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ أَطْفَى مَنَ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى بَغَى فِيهَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

وَقَدْ أَتَى هَذَا الْجَبَّارُ بِأَضْحَمِ حَيَوَانٍ مَّرْكُوبٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ،
فَأَهْلَكَهُ اللَّهُ بِأَحْقَرِ طَيْرٍ وَأَضْعَفِهِ! فَسُبْحَانَ الْمَلِكِ الْمُهِيمِنِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ
الْمُتَكَبِّرِ!

وَالْغَرَضُ هُنَا بَيَانُ تَرْتِيبِ السُّورِ الثَّلَاثِ: الْعَصْرِ وَالْهُمَزَةِ وَالْفِيلِ،
وَأَنَّهَا رُتِّبَتْ عَلَى أَوَّلِ تَرْتِيبٍ:

فَفِي سُورَةِ الْعَصْرِ الْإِشَارَةُ إِلَى الْحَذَرِ مِنَ الْخُسْرِ جُمْلَةً، وَلَمَّا كَانَتْ
خَسَارَةُ الْإِنْسَانِ تَابِعَةً لِحَرَصِهِ عَلَى الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ كَمَا مَرَّ، فَقَدْ شَرَعَ
اللَّهُ فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ فِي السُّورَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَهَا.

فَفِي سُورَةِ الْهُمَزَةِ التَّصْرِيحُ بِالْوَاقِعِ فِي السَّبَبِ الْأَوَّلِ.

وفي سورة الفيل التّصريحُ بالوَّاقعِ في السَّببِ الثَّاني.
فبانَ حِينئذٍ سرُّ ارتباطِ هذه السُّورِ الثَّلاثِ بَعْضُها بَبَعْضٍ، كما
أشارَ إليه ابنُ تيمية فيما نقلته عنه قَريباً، والعِلْمُ عندَ الله.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

الْعِبَادَةُ ضَمَانٌ لِلْمَالِ الطَّيِّبِ وَالسُّلْطَانِ الْمَحْمُودِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿١﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٢﴾﴾ (قُرَيْشٍ ٣-٤).

لَمَّا تَحَدَّثَ اللَّهُ فِي السُّورِ السَّابِقَةِ عَمَّا يُسَبِّهُ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ فَسَادٍ فِي الدِّينِ، شَرَعَ فِي تَذْكِيرِ النَّاسِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ الطَّيِّبِ وَالسُّلْطَانِ الْمَحْمُودِ الَّذِينَ يُضَمَّنُ بِهِمَا أَمْنُهُمْ وَطَعَامُهُمْ، فَالرِّزْقُ الطَّيِّبُ يُقَابِلُ فِتْنَةَ الْمَالِ، وَالسُّلْطَانُ الْمَحْمُودُ يُقَابِلُ فِتْنَةَ الشَّرَفِ، وَهَذِهِ مُنَاسِبَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَقَدْ مَرَّتْ بِنَا آيَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى سُورَةِ الْمُلْكِ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٥/٤٣٣): «فَالْقُوَّةُ الْغَضَبِيَّةُ هِيَ قُوَّةُ النَّصْرِ، وَالْقُوَّةُ الشَّهْوِيَّةُ هِيَ قُوَّةُ الرِّزْقِ، وَهُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾﴾، وَالرِّزْقُ وَالنَّصْرُ مُقْتَرِنَانِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ النَّاسِ كَثِيرًا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «تَأْوِيلِ مُشْكِلِ الْقُرْآنِ» (ص ٤١٥): «أَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ فَقَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿١﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْجَدِيدِ مِنَ الْجُوعِ، وَأَمَنَهُمْ فِيهِ وَالنَّاسُ يُتَخَطَّفُونَ حَوْلَهُ مِنْ الْخَوْفِ».

قُلْتُ: فَكَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: لَا دَاعِيَ لِلْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ مَحْمُودَهُمَا مَضْمُونٌ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا أَنَّ الْمُحْصَلَ مِنْهُمَا مُبَارَكٌ بِالْعِبَادَةِ؛

لَأَنَّ ذَلِكَ سَبِيلُ الشَّاكِرِينَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ
شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم ٧)، وَمَا لِلنَّاسِ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ
وَقَدْ رَزَقَهُمْ وَأَمَّنَّهُمْ؟! وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

سُورَةُ الْمَاعُونِ

تَقْسِيمُ الْعِبَادَةِ إِلَى أَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ وَأَدَاءِ حَقِّ خَلْقِهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ ﴿٢﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ ﴿٧﴾﴾.

هَذِهِ السُّورَةُ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجِلَ فِي سَابِقَتِهَا؛ فَإِنَّهُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ ﷻ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ بِعِبَادَتِهِ إِجْمَالًا، فَقَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ﴿٢﴾﴾ (قُرَيْشٍ ٣)، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا.

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ كَثِيرًا مَا تَنَجَّهُ فَهُومُهُمْ لِلْعِبَادَةِ إِلَى أَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ فَقَطَّ، قَسَمَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْعِبَادَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ، هُمَا: عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى خَلْقِهِ، وَذَمُّ مُضَيِّعِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ هُوَ مَحْوَرُ سُورَةِ الْمَاعُونِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

هَذَا مُضَيِّعُ الْعِبَادَةِ مَاخُذٌ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴿١﴾﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ ﴿٦﴾﴾، فَالآيَةُ الْأُولَى فِيمَنْ ضَيَّعَ الْعِبَادَةَ كُلَّهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَعْمَلُ شَيْئًا لِلَّهِ؛ فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «هَشَامُ بْنُ الْمُغِيرَةِ كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيَفُكُّ الْعُنَاةَ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَلَوْ أَدْرَكَ أَسْلَمَ، هَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا؛ إِنَّهُ كَانَ يُعْطِي لِلدُّنْيَا وَذِكْرَهَا وَحَمْدَهَا، وَلَمْ يَقُلْ يَوْمًا قَطُّ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي

يَوْمَ الدِّينِ « رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى (٦٩٦٥) وَالطَّبْرَانِيُّ فِي « الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ » (٢٣/٢٧٩ و ٣٩١) بِسَنَدٍ صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي « السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٢٩٢٧)، وَالآيَةُ الْأُخْرَى فِيمَنْ ضَيَّعَ عِبَادَتَهُ بِالْمُرَاءَاةِ وَلَوْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَأَمَّا ذُمْ مُضَيِّعِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، فَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ: ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ ٢١٩ ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ﴿ ٢٢٠ ﴾.

وَبَيَانُ هَذِهِ الْقِسْمَةِ ضَرُورِيٌّ؛ لِأَنَّ أَذْهَانَ النَّاسِ غَالِبًا مَا تَذَهَبُ فِي تَعْرِيفِ الْعِبَادَةِ إِلَى الْقِسْمِ الْأَوَّلِ فَقَطْ، وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: « سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٠٤) وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢٤٦)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي « السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ » (٩٧٧)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْخِلَاصَةُ: كَانَتْ الْعِنَايَةُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ مُنْصَبَّةً عَلَى بَيَانِ الْأَسْبَابِ الْمُسْتَوْجِبَةِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَمَّا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَإِنَّهَا عُنِيَتْ بِبَيَانِ أَقْسَامِ الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا هُدِيَ إِلَى ضَرُورَةِ آدَاءِ شُكْرِ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ، وَجَبَ تَعْرِيفُهُ بِالْأَقْسَامِ الَّتِي يُتَوَجَّهُ بِهَا لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَتَحْذِيرُهُ مِمَّا يَنْقُضُهَا وَيَحْدِثُهَا، وَأَنَّ آدَاءَ حَقِّ اللَّهِ لَا يُغْنِي عَنْ آدَاءِ حُقُوقِ الْخَلْقِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ الْمُتَابَعَةُ شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ﴿ ابْنُ شَابِنِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ﴿ (الكوثر ١-٣) .

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ بِالْعِبَادَةِ وَالْخُلُقِ، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ صِحَّةَ ذَلِكَ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ الْقُدْوَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَالْمُتَابَعَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْآيَةِ الْآخِرَةِ مِنْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ شَأْنَيْ الرَّسُولِ ﷺ وَمُحَالِفَهُ مَقْطُوعٌ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ جَمَعَتْ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ، أَمَّا الْمُتَابَعَةُ فَقَدْ مَرَّ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الْإِخْلَاصُ فَمُنْتَزَعٌ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ﴿، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّهَا عَلَى رَأْسِ الْعِبَادَاتِ، كَمَا ذَكَرَ النَّحْرَ؛ لِأَنَّهُ عَلَى رَأْسِ الْخُلُقِ الْحَسَنِ؛ لِأَنَّ النَّاجِرِينَ تَمْدُو حُونَ مَا أَطْعَمُوا غَيْرَهُمْ مِمَّا نَحَرُوا، لَكِنْ أَكَّدَ عَلَى الْمُتَابَعَةِ وَرَكَّزَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٦/٥٢٦-٥٢٩): «سُورَةُ الْكَوْثَرِ: مَا أَجْلَهَا مِنْ سُورَةٍ! وَأَغْزَرَ فَوَائِدَهَا عَلَى اخْتِصَارِهَا! وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهَا تُعَلِّمُ مِنْ آخِرِهَا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَتَرُ شَأْنِيَّ رَسُولِهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، فَيَبْتَرُ ذِكْرَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَيَخْسِرُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَيَبْتَرُ حَيَاتَهُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا، وَلَا يَتَزَوَّدُ فِيهَا صَالِحًا لِمَعَادِهِ، وَيَبْتَرُ قَلْبَهُ فَلَا يَعْيِي الْخَيْرَ، وَلَا يُؤْهِلُهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ

والإيمان برسوله، ويبتز أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتزه من الأنصار فلا يجد له ناصرًا ولا عونًا، ويبتزه من جميع القُرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعمًا ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء مَنْ شئنا بعض ما جاء به الرسول ﷺ وردّه لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره، كمن شئنا آيات الصفات وأحاديث الصفات، وتأولها على غير مُراد الله ورسوله منها، أو حملها على ما يُوافق مذهبه ومذهب طائفته، أو تمنى ألا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ... ومن أقوى علامات شئنا لها وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدلُّ بها أهل السنة على ما دلّت عليه من الحق اشمأز من ذلك، وحاد ونفر من ذلك، لما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها، فأبيّ شانيء للرسول أعظم من هذا؟!... وكذا مَنْ أثر كلام الناس وعُلوّهم على القرآن والسنة، فلولاً أنه شانيء لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتّى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان!...

فاحذرو! الحذرو! أيها الرجل من أن تكره شيئاً ممّا جاء به الرسول ﷺ أو تردّه لأجل هواك، أو انتصاراً لمذهبك أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشّهوات أو بالدنيا؛ فإن الله لم يُوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد؛ فإن من يُطيع أو

يُطَاعُ إِنَّمَا يُطَاعُ تَبَعًا لِلرَّسُولِ، وَإِلَّا لَوْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ مَا أُطِيعَ.

فَاعْلَمْ ذَلِكَ، وَاسْمَعْ وَأَطِعْ، وَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ، تَكُنْ أَبْتَرَّ مَرْدُودًا
عَلَيْكَ عَمَلُكَ، بَلْ لَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ أَبْتَرَّ مِنَ الْإِتِّبَاعِ، وَلَا خَيْرَ فِي عَامِلِهِ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

الإِخْلَاصُ شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكاغرون ١-٦).

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ أَحَدَ شَرْطِي قَبُولِ الْعِبَادَةِ، أَتْبَعَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْشَّرْطِ الْآخَرِ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ، أَلَا وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كُلَّهَا حَرْبٌ عَلَى الشُّرْكِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»: «هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ الْمُشْرِكُونَ، وَهِيَ أَمْرَةٌ بِالْإِخْلَاصِ فِيهِ»، وَلِذَلِكَ كَانَتْ تُسَمَّى سُورَةَ الْبَرَاءَةِ مِنَ الشُّرْكِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ عَنْ فَرُوهَ بِنِ نَوْفَلٍ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلَّمَنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَوَيْتُ إِلَى فِرَاشِي، قَالَ: اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشُّرْكِ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٤٠٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

وَهَذِهِ السُّورَةُ جَمَعَتْ كَذَلِكَ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ حَاكِيًا الْأَقْوَالَ الْأَرْبَعَةَ لِلْمُفَسِّرِينَ، وَجَعَلَ هَذَا هُوَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ، لَكِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَخَصَّ بِالْإِخْلَاصِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَالَّذِي قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ هُوَ كَوْنُهَا مُشْتَمِلَةً عَلَى ذِكْرِ الْمُتَابَعَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا مُتَنَزِعٌ مِنْ أَوَّلِ كَلِمَةٍ فِي السُّورَةِ، أَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾؛ لِأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَأْمُورٌ مُتَّبِعٌ، كَمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ.

سُورَةُ النَّصْرِ

النَّصْرُ لِمَنْ حَقَّقَ الْإِخْلَاصَ وَالْمُتَابَعَةَ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (النصر ١-٣).

سَبَقَ أَنْ بَيَّنْتُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ النَّصْرَ مَرهُونٌ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَزِدْتُهُ تَوْضِيحًا عِنْدَ سُورَةِ الصَّافِّ، وَلَمَّا كَانَ النَّصْرُ يَعْقِبُ الْإِخْلَاصَ وَالْمُتَابَعَةَ جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ - سُورَةُ النَّصْرِ - عَقِبَ سُورَتَيِ الْكَوْثَرِ وَالْكَافِرُونَ؛ لِأَنَّ الْأُولَى عُيِّنَتْ بِالْمُتَابَعَةِ، وَالثَّانِيَةُ عُيِّنَتْ بِالْإِخْلَاصِ، وَهَذَا لَيْسَ بَغَرِيبٍ؛ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنَّ السُّورَةَ الَّتِي مَا بَيْنَ سُورَةِ الْعَصْرِ إِلَى سُورَةِ الْمَاعُونِ رُكَّزَ الْكَلَامُ فِيهَا عَلَى الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ، وَأَمَّا مِنْ سُورَةِ الْكَوْثَرِ إِلَى هَذِهِ السُّورَةِ فَقَدْ رُكَّزَ الْكَلَامُ فِيهَا عَلَى الْعَدَاوَاتِ الَّتِي تُكَنُّ لَهُ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمُشْرِكِينَ عُمُومًا، فَنَاسَبَ الْحَدِيثُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ عَنْ أَسْبَابِ نَجَاةِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْخُسْرِ وَالْعَذَابِ الرَّبَّانِيِّ، كَمَا نَاسَبَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي الْحَدِيثُ عَنْ أَسْبَابِ الْإِنْتِصَارِ عَلَى الْعَدُوِّ الْخَارِجِيِّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحِكْمَتِهِ.

سُورَةُ الْمَسَدِ

الزَّوْجَانِ الْكَافِرَانِ إِذَا أَسْلَمَا لَمْ يُعِيدَا عَقْدَ النِّكَاحِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد ٤).

استدلَّ الفقهاء بهذه الآية على أنَّ نكحةَ الجاهليَّةِ صحيحةٌ، وأنَّ الزَّوجَيْنِ الْكَافِرَيْنِ إِذَا أَسْلَمَا لَمْ يُعِيدَا عَقْدَ الزَّوَاجِ؛ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (٣٢ / ١٧٥): «بَلْ لَوْ أَسْلَمَ الزَّوْجَانِ الْكَافِرَانِ أَقْرَأًا عَلَى نِكَاحِهِمَا بِالْإِجْمَاعِ، وَإِنْ كَانَا لَا يُقَرَّانِ عَلَى وَطْءِ شُبْهَةٍ، وَقَدْ احْتَجَّ النَّاسُ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ نِكَاحَ الْجَاهِلِيَّةِ نِكَاحٌ صَحِيحٌ^(١)؛ وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ (التَّحْرِيمُ ١١)، وَقَالُوا: قَدْ سَمَّاها اللَّهُ (امْرَأَةً)، وَالْأَصْلُ فِي الْإِطْلَاقِ الْحَقِيقَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»، وَقَالَ أَيْضًا: «فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: قَالَ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنزِلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَانُوا مُشْرِكِينَ أَهْلَ حَرْبٍ يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ، وَمُشْرِكِينَ أَهْلَ عَهْدٍ لَا يُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَهُ، وَكَانَ إِذَا هَاجَرَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لَمْ تُخْطَبْ حَتَّى تَحِيضَ وَتَطْهَرَ، فَإِذَا طَهَرَتْ حَلَّ لَهَا النِّكَاحُ، فَإِنْ هَاجَرَ زَوْجُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْكَحَ رُدَّتْ إِلَيْهِ»، يَعْنِي أَنَّ نِكَاحَهَا الْأَوَّلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُعَدُّ صَحِيحًا وَلَوْ بَعْدَ إِسْلَامِهَا، ثُمَّ قَالَ (٣٢ / ١٧٦): «وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْمُهَاجِرَةِ يُوَافِقُ الْمَشْهُورَ مِنْ

(١) يُرِيدُ حَدِيثَ «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ، لَا مِنْ سِفَاحٍ»، ذَكَرَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ أَنَّهُ مِنْ مَرَاسِيلِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ وَغَيْرِهِ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ لغيرِهِ فِي «إِرْوَاءِ الْغَلِيلِ» (١٩١٤).

أَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُذِّتْ عَلَى أَبِي الْعَاصِ ابْنِ الرَّبِيعِ
بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي الْفِقْهِ فِي هَذَا آثَاراً وَنُصُوصاً عَنِ الْإِمَامِ
أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ .

وزاد ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ الْمَسْأَلَةَ شَرْحاً فِي « أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ »
(٢/ ٦١٤)، فَقَالَ: « وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غَالِبُهُمْ إِنَّمَا وُلِدُوا مِنْ نِكَاحٍ كَانَ
قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِي حَالِ الشَّرْكِ، وَهُمْ يُنْسَبُونَ إِلَى آبَائِهِمْ انْتِسَاباً لَا رَيْبَ
فِيهِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَسْلَمَ الْجُمُ الْغَفِيرُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ
ﷺ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُجَدِّدَ عَقْدَهُ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَلَوْ كَانَتْ أَنْكَحَهُ
الْكَفَّارُ بَاطِلَةً لِأَمْرِهِمْ بِتَجْدِيدِ أَنْكَحَتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَدْعُو أَصْحَابَهُ لِأَبَائِهِمْ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْاضْطِرَارِّ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ،
وَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهُودِيَيْنِ زَنِيَاءَ، فَلَوْ كَانَتْ أَنْكَحَتُهُمْ فَاسِدَةً لَمْ
يَرْجُمَهُمَا؛ لِأَنَّ النِّكَاحَ الْفَاسِدَ لَا يُحْصِنُ الزَّوْجَ... وَأَيْضاً فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ
أَمَرَ مَنْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ أَنْ يَخْتَارَ مِنْهُنَّ أَرْبَعاً وَيُفَارِقَ الْبَوَاقِي،
وَأَمَرَ مَنْ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ أُخْتَانِ أَنْ يُمْسِكَ إِحْدَاهُمَا وَيُفَارِقَ الْأُخْرَى،
وَلَوْ كَانَتْ أَنْكَحَتُهُمْ فَاسِدَةً لَمْ يَأْمُرْ بِالْإِمْسَاكِ فِي النِّكَاحِ الْفَاسِدِ، وَلَا
رَتَّبَ عَلَيْهِ شَيْئاً مِنْ أَحْكَامِ النِّكَاحِ، وَلَمْ يَنْصُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ
عَلَى بُطْلَانِ أَنْكَحَةِ الْكَفَّارِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ . »

سورة الإخلاص مجيء لفظ «أحد» نكرة خاص بالله

قَالَ اللهُ ﷻ فِي مَطْلَعِهَا: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ﷻ اللهُ الصَّمَدُ ﴿﴾
(الإخلاص ١-٢).

كَلِمَةُ ﴿أَحَدٌ﴾ جَاءَتْ نَكْرَةً، وَكَلِمَةُ ﴿الصَّمَدُ﴾ جَاءَتْ مُعَرَّفَةً
بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، مَعَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهِمَا وَاحِدٌ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصِّفَةَ الْمُضَافَةَ
لِلَّهِ تُعَرَّفُ إِذَا كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ أَيْضاً لِغَيْرِ اللهِ، فَتُعَرَّفُ لِبَيَانِ تَفَرُّدِ اللهِ
بِالصِّفَةِ مُطْلَقاً، وَأَمَّا مَا اسْتُعْمِلَ لِلْمَخْلُوقِ فَمَقْيَّدٌ وَنَاقِصٌ وَتَابِعٌ، كَمَا
سَيَأْتِي فِي كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَتْ الْعَرَبُ فِي أَشْعَارِهَا كَلِمَةَ
(صَمَد) لِلْمَخْلُوقِ، قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٨/ ٧٣٩-الفتح):
«وَالْعَرَبُ تُسَمِّي أَشْرَافَهَا الصَّمَدَ»، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ﷻ فِي
«تَفْسِيرِهِ» هَذِهِ السُّورَةَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ بَعْمُرِ بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
، وَأَمَّا سَبَبُ مَجِيءِ لَفْظَةِ ﴿أَحَدٌ﴾ نَكْرَةً، فَقَدْ عَلَّلَهُ ابْنُ كَثِيرٍ بِقَوْلِهِ:
«وَلَا يُطْلَقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللهِ ﷻ؛ لِأَنَّهُ
الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ»، وَلَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ اللَّفْظَةُ مُثَبَّتَةً
مُفْرَدَةً غَيْرَ مُضَافَةٍ إِلَّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ تَحْتَجْ حِثْنًا إِلَى أَنْ تُعَرَّفَ
بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَلَمْ تَأْتِ فِي حَقِّ غَيْرِ اللهِ إِلَّا مَنْفِيَّةً أَوْ مُضَافَةً، كَقَوْلِ
اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَهْلٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿البقرة ١٠٢﴾، وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا
تَلُودُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ (آل عمران ١٥٣)، وقوله: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ
أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ (الأعراف
٨٠)، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٦٦﴾﴾ (الفجر ٢٥)، هذا
في النَّفْيِ، وأما في الإضافة فيمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفْوَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ (الإسراء ٢٣)، ومثل
هذه الآيات كثير، وقد قال بهذا من أئمة اللغة الأزهرية رحمهم الله،
فاعتَرَضَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ عَطِيَّةُ سَالِم رحمهم الله بقوله في تَبَيَّنَتْهُ عَلَى «أَصْوَاءِ
الْبَيَانِ» (٦١٢/٩): «وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ (أَحَدًا) تُسْتَعْمَلُ فِي النَّفْيِ، فَقَدْ
جَاءَ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْإِثْبَاتِ أَيْضًا، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ
الْغَايِبِ﴾ (المائدة ٦)، فَتَكُونُ أَغْلِبِيَّةً فِي اسْتِعْمَالِهَا، وَدَلَالَتُهَا فِي الْعُمومِ
وَاضِحَةٌ»، وَهَذَا الْإِعْتِرَاضُ مُعْتَرِضٌ، وَدَلِيلُهُ مُنْتَقِضٌ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ
(أَحَدٌ) فِي الْآيَةِ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ الْمَنْفِيِّ، كَمَا
نَجَبِيٌّ فِي سِيَاقِ الْإِسْتِفْهَامِ الْمَنْفِيِّ، وَهِيَ مِنْ صِيغِ النَّفْيِ لَا الْإِثْبَاتِ كَمَا
هُوَ مَعْلُومٌ، وَمِثْلُهُ - وَلَعَلَّهُ أَقْوَى مِنْ حَيْثُ الْإِسْتِثْنَاءُ - قَوْلُهُ تَعَالَى مُخْبِرًا
عَنِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهَدْيَ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾
(آل عمران ٧٣)، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا سَبَقَ كَمَا فَسَّرَهَا بَعْضُ
السَّلَفِ، أَيْ إِنَّ كَلِمَةَ (أَحَدٌ) سَيَقَتْ مَسَاقَ النَّفْيِ، وَنَصَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ

في « تفسيره » (٥ / ٥٠٥ - هجر) ، وقال : « فَيَكُونُ تَأْوِيلُهُ حِينَئِذٍ : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ، وَلَا تُؤْمِنُوا أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، بِمَعْنَى : لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » ، وذكرَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٧٣) جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً مِنْ خِطَابِ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وسائرُ الكلامِ خِطَابُ الْيَهُودِ لِقَوْمِهِمْ .

وقال ابنُ تيمية في « مجموع الفتاوى » (١٧ / ٢٣٥ - ٢٣٨) : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ﴾ فَأَدْخَلَ اللَّامَ فِي (الصَّمَد) وَلَمْ يُدْخِلْهَا فِي (أَحَد) ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْجُودَاتِ مَا يُسَمَّى أَحَدًا فِي الْإِثْبَاتِ مُفْرَدًا غَيْرَ مُضَافٍ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى بِخِلَافِ النَّفْيِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ ، كَالشَّرْطِ وَالِاسْتِفْهَامِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : هَلْ عِنْدَكَ أَحَدٌ ، وَإِنْ جَاءَنِي أَحَدٌ مِنْ جِهَتِكَ أَكْرَمْتُهُ ، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَ فِي الْعَدَدِ الْمُطْلَقَ ، يُقَالُ : أَحَدٌ ، اثْنَانِ ، وَيُقَالُ : أَحَدَ عَشَرَ ، وَفِي أَوَّلِ الْآيَاتِ يُقَالُ : يَوْمَ الْآخِرَةِ ... وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ لَفْظَ (الْأَحَد) لَمْ يُوصَفْ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْيَانِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِ اللَّهِ فِي النَّفْيِ ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : يَقُولُ : لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ ، وَلَا تَقُلْ : فِيهَا أَحَدٌ ، وَلِهَذَا لَمْ يَحْيَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي غَيْرِ الْمَوْجِبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (الحاقة ٤٧) ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (الأحزاب ٣٢) ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ (التوبة ٦) ، وَفِي الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ ﴾ (الكهف ١٩) ، وَ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ (الكهف ٣٢) ، وَأَمَّا اسْمُ الصَّمَدِ فَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي

حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ كَمَا تَقَدَّمَ، فَلَمْ يَقُلْ: اللَّهُ صَمَدٌ، بَلْ قَالَ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾
 (الإخلاص ٢)، فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمَسْتَحِقُّ لِأَن يَكُونَ هُوَ الصَّمَدُ دُونَ مَا سِوَاهُ،
 فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِمَا يَتَّبِعُهُ عَلَى الْكَمَالِ، وَالْمَخْلُوقُ - وَإِنْ كَانَ صَمَدًا مِنْ
 بَعْضِ الْوُجُوهِ - فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصَّمَدِيَّةِ مُنْتَفِيَةٌ عَنْهُ، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ
 وَالتَّجْزِئَةَ، وَهُوَ أَيْضًا مُحْتَاجٌ إِلَى غَيْرِهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ
 مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْمُدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إِلَى
 شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ
 وَيَتَفَرَّقَ وَيَتَقَسَّمُ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ
 الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ «، وَانْظُرْ «بَصَائِرُ ذَوِي التَّمْيِيزِ فِي
 لَطَائِفِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ» لِلْفَيْرُوزِ أَبَادِي (٢/ ٩١-٩٢).

سُورَةُ الْفَلَقِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ لِدَفْعِ شَرِّ الْحَاسِدِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق ٥).

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ فِيهَا خَلَقَ شَرًّا، وَأَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ بِهِ
سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا
خَلَقَ ﴿١﴾، ثُمَّ فَصَّلَ فِي الشُّرُورِ الَّتِي يُكَادُ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَذَكَرَ مِنْهَا
الْحَسَدَ كَمَا فِي آيَةِ الْبَابِ، وَقَدْ تَفَحَّصَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ نُصُوصَ الْكِتَابِ
وَالسُّنَّةِ فِي دَفْعِ شَرِّ الْحَاسِدِ إِذَا حَسَدَ، فَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ فِي
ذَلِكَ، ذَلِكَ الْعَالِمُ هُوَ ابْنُ الْقَيِّمِ رحمته الله، فَقَدْ قَالَ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ»
(٢/ ٤٦٤-٤٧١): «كَيْفَ يَنْدَفِعُ شَرُّ الْحَاسِدِ عَنِ الْمَحْسُودِ؟

وَيَنْدَفِعُ شَرُّ الْحَاسِدِ عَنِ الْمَحْسُودِ بِعَشْرَةِ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ شَرِّهِ وَالتَّحَصُّنُ بِهِ وَاللُّجُوءُ إِلَيْهِ،
وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لَا سِتْعَاذَتَهُ، عَلِيمٌ بِمَا
يَسْتَعِيدُ مِنْهُ، وَالسَّمْعُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ سَمْعُ الْإِجَابَةِ لَا السَّمْعَ الْعَامَّ، فَهُوَ
مِثْلُ قَوْلِهِ: سَمِعَ اللَّهُ لَمَنْ حَمِدَهُ، وَقَوْلِ الْحَلِيلِ عليه السلام: ﴿إِنْ نَعَى لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ﴾ (إبراهيم ٣٩)، وَمَرَّةً يَقْرُنُهُ بِالْعِلْمِ، وَمَرَّةً بِالْبَصَرِ لَا قِتْضَاءَ حَالِ
الْمُسْتَعِيدِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَعِيدُ بِهِ مِنْ عَدُوٍّ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ، وَيَعْلَمُ
كَيْدَهُ وَشَرَّهُ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمُسْتَعِيدَ أَنَّهُ سَمِيعٌ لَا سِتْعَاذَتَهُ، أَيِ
مُجِيبٌ عَلَيْهِ بِكَيْدِ عَدُوِّهِ يَرَاهُ وَيُبْصِرُهُ لِيَنْبَسِطَ أَمْلُ الْمُسْتَعِيدِ وَيُقْبَلَ
بِقَلْبِهِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَتَأْمَلْ حِكْمَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَيْفَ جَاءَ فِي

الاستِعَاذَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي نَعْلَمُ وُجُودَهُ وَلَا نَرَاهُ بَلْفَظٍ: (السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) فِي الْأَعْرَافِ وَحَمِ السَّجْدَةِ، وَجَاءَتْ الاستِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْإِنْسِ الَّذِينَ يُؤْنَسُونَ وَيُرَوْنَ بِالْأَبْصَارِ بَلْفَظٍ: (السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فِي سُورَةِ حَمِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ مُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر ٥٦)؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ هَؤُلَاءِ أَفْعَالُ مُعَايِنَةٍ تُرَى بِالْبَصَرِ، وَأَمَّا نَزْعُ الشَّيْطَانِ فَوْسَاوَسٌ وَخَطَرَاتٌ يُلْقِيهَا فِي الْقَلْبِ يَتَعَلَّقُ بِهَا الْعِلْمُ، فَأَمَرَ بِالاستِعَاذَةِ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيمِ فِيهَا، وَأَمَرَ بِالاستِعَاذَةِ بِالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ فِي بَابِ مَا يُرَى بِالْبَصَرِ وَيُدْرَكَ بِالرُّؤْيَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

السَّبَبُ الثَّانِي: تَقْوَى اللَّهِ وَحِفْظُهُ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَوَلَّى اللَّهُ حِفْظَهُ وَلَمْ يَكِلْهُ إِلَى غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ (آل عمران ١٢٠)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ: (اَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، اَحْفَظِ اللَّهَ تَحْجِزْهُ تَجَاهَكَ) ^(١)، فَمَنْ حَفَظَ اللَّهَ حَفِظَهُ اللَّهُ، وَوَجَدَهُ أَمَامَهُ أَيْنَمَا تَوَجَّهَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ حَافِظَهُ وَأَمَامَهُ فَمِمَّنْ يَخَافُ وَمَنْ يَحْذَرُ؟!

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: الصَّبْرُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَا يُقَابِلَهُ وَلَا يَشْكُوهُ وَلَا يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بِأَذَاهُ أَصْلًا، فَمَا نُصِرَ عَلَى حَاسِدِهِ وَعَدُوِّهِ بِمِثْلِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَسْتَطِلُّ تَأْخِيرَهُ وَبَغْيِهِ؛ فَإِنَّهُ كَلَّمَا بَغَى عَلَيْهِ

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

كَانَ بَغْيُهُ جُنْدًا وَقُوَّةٌ لِلْمَبْغِيِّ عَلَيْهِ الْمَحْسُودِ، يُقَاتِلُ بِهِ الْبَاغِي نَفْسَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَبَغْيُهُ سِهَامٌ يَرْمِيهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَوْ رَأَى الْمَبْغِيُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ لَسَرَّهُ بَغْيُهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لَضَعْفِ بَصِيرَتِهِ لَا يَرَى إِلَّا صُورَةَ الْبَغْيِ دُونَ آخِرِهِ وَمَا لَهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَلَّقَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ﴾ (الحج ٦٠)، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ ضَمِنَ لَهُ النَّصْرَ مَعَ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْفَى حَقَّهُ أَوَّلًا، فَكَيْفَ بَمَنْ لَمْ يَسْتَوْفِ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ، بَلْ بُغِيَ عَلَيْهِ وَهُوَ صَابِرٌ، وَمَا مِنَ الذُّنُوبِ ذَنْبٌ أَسْرَعُ عُقُوبَةً مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَقَدْ سَبَقَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ جُعِلَ الْبَاغِي مِنْهُمَا دَكًّا.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق ٣)، وَالتَّوَكُّلُ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي يَدْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مَا لَا يُطِيقُ مِنْ أَدَى الْخَلْقِ وَظُلْمِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَسْبُهُ، أَيُ كَافِيهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيَهُ وَوَاقِيَهُ فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوِّهِ وَلَا يَضُرُّهُ إِلَّا أَدَى لَا بَدَّ مِنْهُ، كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَأَمَّا أَنْ يَضُرَّهُ بِمَا يَبْلُغُ مِنْهُ مُرَادَهُ فَلَا يَكُونُ أَبَدًا، وَفَرْقٌ بَيْنَ الْأَدَى - الَّذِي هُوَ فِي الظَّاهِرِ إِيْذَاءٌ لَهُ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ وَإِضْرَارٌ بِنَفْسِهِ - وَبَيْنَ الضَّرْرِ الَّذِي يَتَشَفَّى بِهِ مِنْهُ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءً مِنْ جِنْسِهِ، وَجَعَلَ جَزَاءَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ نَفْسَ كِفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق ٣)، وَلَمْ يَقُلْ: نُؤْتُهُ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأَجْرِ، كَمَا قَالَ

في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك وكفاه ونصره، وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في كتاب الفتح القدسي، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة أنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وبيننا أنه من أجل مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله، وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره؛ فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليُمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكاً وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقطعة ومناماً لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما، فإذا جبد روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا

يَحْطَرُّهُ بِيَالِهِ، فَإِذَا خَطَرَ بِيَالِهِ بَادَرَ إِلَى مَحْوِ ذَلِكَ الْخَاطِرِ وَالِاشْتِغَالِ بِهَا
هُوَ أَنْفَعُ لَهُ وَأَوْلَى بِهِ بَقِيَّ الْحَاسِدِ الْبَاغِي يَأْكُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ
كَالنَّارِ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ أَكَلَ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَهَذَا بَابٌ عَظِيمُ النَّفْعِ
لَا يُلْقَاهُ إِلَّا أَصْحَابُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ وَالْهَمَمِ الْعَالِيَةِ، وَبَيْنَ الْكَيْسِ
الْفَظْنِ وَبَيْنَهُ، حَتَّى يَذُوقَ حَلَاوَتَهُ وَطِيبَهُ وَنَعِيمَهُ، كَأَنَّهُ يَرَى مِنْ أَعْظَمِ
عَذَابِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ اشْتِغَالَهُ بَعْدَوُهُ وَتَعَلُّقَ رُوحِهِ بِهِ، وَلَا يَرَى شَيْئًا
أَلَمَ لِرُوحِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُصَدِّقُ بِهَذَا إِلَّا النُّفُوسُ الْمُطْمَئِنَّةُ الْوَادِعَةُ
الَّتِي رَضِيَتْ بِوَكَاةِ اللَّهِ لَهَا، وَعَلِمَتْ أَنَّ نَصْرَهُ لَهُ خَيْرٌ مِنْ
انْتِصَارِهَا هِيَ لِنَفْسِهَا، فَوَثِقَتْ بِاللَّهِ وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ،
وَعَلِمَتْ أَنَّ ضَمَانَهُ حَقٌّ وَوَعْدَهُ صِدْقٌ، وَأَنَّهُ لَا أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ،
وَلَا أَصْدَقَ مِنْهُ قِيلًا، فَعَلِمَتْ أَنَّ نَصْرَهُ لَهَا أَقْوَى وَأَثْبَتُ وَأَدْوَمُ وَأَعْظَمُ
فَائِدَةً مِنْ نَصْرِهَا هِيَ لِنَفْسِهَا أَوْ نَصْرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهَا لَهَا، وَلَا يَقْوَى عَلَى
هَذَا إِلَّا ب :

السَّبَبُ السَّادِسُ: وَهُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ وَالِإِخْلَاصُ لَهُ وَجَعْلُ
مَحَبَّتِهِ وَتَرْضِيهِ وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ فِي مَحَلِّ خَوَاطِرِ نَفْسِهِ وَأَمَانِيهَا تَدَبُّ فِيهَا
دَبِيبَ تِلْكَ الْخَوَاطِرِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَقْهَرَهَا وَيَغْمُرَهَا وَيُذْهِبَهَا
بِالْكَلِيَّةِ، فَتَبْقَى خَوَاطِرُهُ وَهَوَاجِسُهُ وَأَمَانِيَّةُ كُلِّهَا فِي مَحَابِّ الرَّبِّ
وَالْتَقَرُّبِ إِلَيْهِ وَتَمَلُّقِهِ وَتَرْضِيهِ وَاسْتِعْطَافِهِ وَذِكْرِهِ، كَمَا يَذْكُرُ الْمُحِبُّ
التَّامُّ الْمَحَبَّةَ لِمَحْبُوبِهِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ الَّذِي قَدْ امْتَلَأَتْ جَوَانِحُهُ مِنْ حُبِّهِ،
فَلَا يَسْتَطِيعُ قَلْبُهُ انْصِرَافًا عَنْ ذِكْرِهِ، وَلَا رُوحُهُ انْصِرَافًا عَنْ مَحَبَّتِهِ، فَإِذَا

صَارَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْتَ أَفْكَارِهِ وَقَلْبَهُ مَعْمُورًا
بِالْفِكْرِ فِي حَاسِدِهِ وَالبَاغِي عَلَيْهِ والطَّرِيقَ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ وَالتَّدْبِيرَ
عَلَيْهِ؟! هَذَا مَا لَا يَتَسَعُّ لَهُ إِلَّا قَلْبٌ خَرَابٌ لَمْ تَسْكُنْ فِيهِ مَحَبَّةُ اللَّهِ
وَإِجْلَالُهُ وَطَلَبُ مَرْضَاتِهِ، بَلْ إِذَا مَسَّهُ طَيْفٌ مِنْ ذَلِكَ وَاجْتَارَ بَبَابَهُ مِنْ
خَارِجٍ نَادَاهُ حَرَسُ قَلْبِهِ: إِيَّاكَ وَحِمَى الْمَلِكِ! اذْهَبْ إِلَى بُيُوتِ الْحَنَاتِ
الَّتِي كُلُّ مَنْ جَاءَ حَلَّ فِيهَا وَنَزَلَ بِهَا، مَا لَكَ وَلِبَيْتِ السُّلْطَانِ الَّذِي
أَقَامَ عَلَيْهِ الْيَزْكُ^(١) وَأَدَارَ عَلَيْهِ الْحَرَسَ وَأَحَاطَهُ بِالسُّورِ، قَالَ تَعَالَى
حِكَايَةً عَنْ عَدُوِّهِ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٥) إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّصِينَ ﴿١٦﴾ (ص ٨١ - ٨٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر ٤٢)، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ
عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ (النحل ٩٩ -
١٠٠)، وَقَالَ فِي حَقِّ الصَّدِيقِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ﴾ (١٩) (يوسف ٢٤)، فَمَا
أَعْظَمَ سَعَادَةَ مَنْ دَخَلَ هَذَا الْحِصْنَ وَصَارَ دَاخِلَ الْيَزْكِ، لَقَدْ آوَى إِلَى
حِصْنٍ لَا خَوْفٌ عَلَى مَنْ تَحَصَّنَ بِهِ، وَلَا ضِيعَةٌ عَلَى مَنْ آوَى إِلَيْهِ، وَلَا
مَطْمَعٌ لِلْعَدُوِّ فِي الدُّنُوِّ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

(١) كَلِمَةٌ فَارْسِيَّةٌ، مَعْنَاهَا: طَلِيعَةُ الْجَيْشِ، كَمَا فِي التَّعْلِيقِ عَلَى «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ»
(٢/٧٦٩ - العمران).

السَّبَبُ السَّابِعُ: تَجْرِيدُ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي سَلَّطَتْ عَلَيْهِ أَعْدَاءَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى ٣٠)، وَقَالَ خَيْرُ الْخَلْقِ وَهُمْ أَصْحَابُ نَبِيِّهِ ﷺ دُونَهُ: ﴿أَوَلَمْآ أَصِيبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنِ هَٰذَا قُلٌّ هُوَ مِنَّ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران ١٦٥)، فَمَا سُلَّطَ عَلَى الْعَبْدِ مَن يُؤْذِيهِ إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أَوْ لَا يَعْلَمُهُ، وَمَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِّنْ ذُنُوبِهِ أَضْعَافُ مَا يَعْلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَنْسَاهُ مِمَّا عَمِلَهُ وَعَلِمَهُ أَضْعَافُ مَا يَذْكُرُهُ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَشْهُورِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ^(١)، فَمَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ مِنْهُ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ أَضْعَافُ أَضْعَافُ مَا يَعْلَمُهُ، فَمَا سُلَّطَ عَلَيْهِ مُؤْذٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَقِيَ بَعْضُ السَّلَفِ رَجُلٌ، فَأَغْلَظَ لَهُ وَنَالَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: (قِفْ حَتَّى أَدْخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْكَ، فَدَخَلَ فَسَجَدَ لِلَّهِ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَتَابَ وَأَنَابَ إِلَى رَبِّهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: ثُبْتُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي سَلَّطَكَ بِهِ عَلَيَّ)، وَسَنَذْكُرُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَرٌّ إِلَّا الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا، فَإِذَا عُوْفِيَ مِنَ الذُّنُوبِ عُوْفِيٍّ مِنْ مُّوجِبَاتِهَا، فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ إِذَا بُغِيَ عَلَيْهِ وَأُوزِيَ وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ خُصُومُهُ شَيْءٌ أَنْفَعَ لَهُ مِنَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَعَلَامَةُ سَعَادَتِهِ أَنْ يَعْكَسَ فِكْرُهُ وَنَظَرُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَذُنُوبِهِ وَعُيُوبِهِ فَيَسْتَغْلِبَهَا وَيُصْلِحُهَا وَبِالتَّوْبَةِ مِنْهَا، فَلَا يَبْقَى فِيهِ فِرَاقٌ لِّتَدَبُّرِ مَا نَزَلَ بِهِ، بَلْ يَتَوَلَّى هُوَ التَّوْبَةَ وَإِصْلَاحَ عُيُوبِهِ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» (٧١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

نُصْرَتَهُ وَحِفْظَهُ وَالِدَفْعَ عَنْهُ وَلَا بَدَّ، فَمَا أَسْعَدَهُ مِنْ عَبْدٍ! وَمَا أَبْرَكَهَا مِنْ نَازِلَةٍ نَزَلَتْ بِهِ! وَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهَا عَلَيْهِ! وَلَكِنَّ التَّوْفِيقَ وَالرُّشْدَ بِيَدِ اللَّهِ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعَ، فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يُوَفَّقُ لِهَذَا، لَا مَعْرِفَةً بِهِ وَلَا إِرَادَةً لَهُ وَلَا قُدْرَةً عَلَيْهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: الصَّدَقَةُ وَالْإِحْسَانُ مَا أَمَكَّنَهُ؛ فَإِنَّ لَذَلِكَ تَأْثِيرًا عَجَبِيًّا فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَدَفْعِ الْعَيْنِ وَشَرِّ الْحَاسِدِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا إِلَّا تَجَارِبُ الْأُمَمِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا لَكَفَى بِهِ، فَمَا يَكَادُ الْعَيْنُ وَالْحَسَدُ وَالْأَذَى يَتَسَلَّطَ عَلَى مُحْسِنٍ مُتَصَدِّقٍ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَانَ مُعَامَلًا فِيهِ بِاللُّطْفِ وَالْمَعُونَةِ وَالتَّأْيِيدِ، وَكَانَتْ لَهُ فِيهِ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ، فَالْمُحْسِنُ الْمُتَصَدِّقُ فِي خَفَارَةِ إِحْسَانِهِ وَصِدْقَتِهِ، عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ جُنَّةٌ وَاقِيَةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ، وَبِالْجُمْلَةِ فَالشُّكْرُ حَارِسُ النِّعْمَةِ مِنْ كُلِّ مَا يَكُونُ سَبَبًا لَزَوَالِهَا، وَمِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ حَسَدُ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَفْتَرُّ وَلَا يَنْبِي وَلَا يَبْرُدُ قَلْبُهُ حَتَّى تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنِ الْمَحْسُودِ، فَحِينَئِذٍ يَبْرُدُ أَنْبِيُّهُ وَتَنْطَفِئُ نَارُهُ لَا أَطْفَأَهَا اللَّهُ، فَمَا حَرَسَ الْعَبْدُ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِمِثْلِ شُكْرِهَا، وَلَا عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ بِمِثْلِ الْعَمَلِ فِيهَا بِمَعَاصِي اللَّهِ، وَهُوَ كُفْرَانُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ بَابٌ إِلَى كُفْرَانِ الْمُنْعَمِ، فَالْمُحْسِنُ الْمُتَصَدِّقُ يَسْتَعِذُّ جُنْدًا وَعَسْكَرًا يُقَاتِلُونَ عَنْهُ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جُنْدٌ وَلَا عَسْكَرٌ وَلَهُ عَدُوٌّ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ عَدُوُّهُ، وَإِنْ تَأَخَّرَتْ مَدَّةُ الظَّفَرِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: وَهُوَ مِنْ أَصْعَبِ الْأَسْبَابِ عَلَى النَّفْسِ وَأَشَقِّهَا

عَلَيْهَا وَلَا يُوقَّقُ لَهُ إِلَّا مَنْ عَظُمَ حَظُّهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ إِطْفَاءُ نَارِ الْحَاسِدِ
وَالْبَاغِيِ وَالْمُؤْذِي بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَكَلَّمَا ازْدَادَ أَدَى وَشَرًّا وَبَغْيًا
وَحَسَدًا ازْدَدَتْ إِلَيْهِ إِحْسَانًا وَلَهُ نَصِيحَةٌ وَعَلَيْهِ شَفَقَةٌ، وَمَا أَظْنُكَ
تُصَدِّقُ بَأَنَّ هَذَا يَكُونُ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تَتَعَاطَاهُ، فَاسْمَعِ الْآنَ قَوْلَهُ ﷺ :
﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ وَمَا يَنْزَعْنِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَزَعٌ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت ٣٤-٣٦)، وَقَالَ: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ
أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ۚ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴾ (القصص ٥٤)، وَتَأَمَّلْ حَالَ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي حَكَى عَنْهُ
نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّهُ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ حَتَّى أَدْمَوْهُ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ:
(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ^(١)، كَيْفَ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
أَرْبَعَ مَقَامَاتٍ مِنَ الْإِحْسَانِ، قَابِلٌ بِهَا إِسَاءَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ إِلَيْهِ:

أَحَدُهَا: عَفْوُهُ عَنْهُمْ.

وَالثَّانِي: اسْتِغْفَارُهُ لَهُمْ.

الثَّالِثُ: اعْتِذَارُهُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

الرَّابِعُ: اسْتِعْطَافُهُ لَهُمْ بِإِضَافَتِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: (اغْفِرْ لِقَوْمِي)؛ كَمَا
يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ فِيمَنْ يَتَّصِلُ بِهِ: هَذَا وَلَدِي، هَذَا غُلَامِي،

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٤٧٧) وَمُسْلِمٌ (١٧٩٢).

هَذَا صَاحِبِي فَهَبْهُ لِي.

وَاسْمَعْ الْآنَ مَا الَّذِي يُسَهِّلَ هَذَا عَلَى النَّفْسِ وَيُطَيِّبَ لَهَا وَيُنْعِمَهَا بِهِ، اَعْلَمْ أَنَّ لَكَ ذُنُوبًا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَخَافُ عَوَاقِبَهَا، وَتَرْجُوهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهَا وَيَغْفِرَهَا لَكَ وَيَهَبَهَا لَكَ، وَمَعَ هَذَا لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مُجَرَّدِ الْعَفْوِ وَالْمُسَامَحَةِ حَتَّى يُنْعِمَ عَلَيْكَ وَيُكْرِمَكَ وَيَجْلِبَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْإِحْسَانِ فَوْقَ مَا تُؤَمِّلُهُ، فَإِذَا كُنْتَ تَرْجُو هَذَا مِنْ رَبِّكَ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ إِسَاءَتِكَ، فَمَا أَوْلَاكَ وَأَجْدَرُكَ أَنْ تُعَامِلَ بِهِ خَلْقَهُ وَتُقَابَلَ بِهِ إِسَاءَتِهِمْ لِيُعَامِلَكَ اللَّهُ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ؛ فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا تَعْمَلُ مَعَ النَّاسِ فِي إِسَاءَتِهِمْ فِي حَقِّكَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَعَكَ فِي ذُنُوبِكَ وَإِسَاءَتِكَ جَزَاءً وَفَاقًا، فَانْتَقِمَ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ اعْفُ، وَأَحْسِنُ أَوْ اتْرُكْ، فَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَفْعَلُ مَعَ عِبَادِهِ يُفْعَلُ مَعَكَ، فَمَنْ تَصَوَّرَ هَذَا الْمَعْنَى وَشَغَلَ بِهِ فِكْرَهُ هَانَ عَلَيْهِ الْإِحْسَانُ إِلَى مَا أَسَاءَ إِلَيْهِ، هَذَا مَعَ مَا يَحْصُلُ لَهُ بِذَلِكَ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ وَمَعِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلَّذِي شَكَى إِلَيْهِ قَرَابَتَهُ وَأَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يُسِيئُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: (لَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ)^(١)، هَذَا مَعَ مَا يَتَعَجَّلُهُ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ كُلُّهُمْ مَعَهُ عَلَى خَصْمِهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ سَمِعَ أَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَى ذَلِكَ الْغَيْرِ، وَهُوَ مُسِيءٌ إِلَيْهِ وَجَدَ قَلْبَهُ وَدُعَاءَهُ وَهَمَّتَهُ مَعَ الْمُحْسِنِ عَلَى الْمُسِيءِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ فَطَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ، فَهُوَ بِهَذَا الْإِحْسَانِ قَدْ اسْتَخْدَمَ عَسْكَرًا لَا يَعْرِفُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يُرِيدُونَ مِنْهُ إِقْطَاعًا وَلَا

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٥٨).

خُبْرًا، هَذَا مَعَ أَنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ مَعَ عَدُوِّهِ وَحَاسِدِهِ مِنْ إِحْدَى حَالَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَمْلِكَهُ بِإِحْسَانِهِ فَيَسْتَعْبِدَهُ وَيَنْقَادَ لَهُ وَيَذِلَّ لَهُ، وَيَبْقَى مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يُفْتَتَ كَبَدَهُ وَيَقْطَعَ دَابِرَهُ، إِنْ أَقَامَ عَلَى إِسَاءَتِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُذِيقُهُ بِإِحْسَانِهِ أَضْعَافَ مَا يَنَالُ مِنْهُ بِلِتْقَامِهِ، وَمَنْ جَرَّبَ هَذَا عَرَفَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمُوَفِّقُ الْمُعِينُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا وَإِخْوَانَنَا فِي ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَفِي الْجُمْلَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ مَنَفْعَةٍ لِلْعَبْدِ لِعَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، سَنَذْكُرُهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: وَهُوَ الْجَامِعُ لِذَلِكَ كُلِّهِ وَعَلَيْهِ مَدَارُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، وَهُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ وَالتَّرَحُّلُ بِالْفِكْرِ فِي الْأَسْبَابِ إِلَى الْمُسَبَّبِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّ هَذِهِ آلَاتٌ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَاتِ الرِّيَّاحِ، وَهِيَ بِيَدِ مُحَرِّكِهَا وَفَاطِرِهَا وَبَارِئِهَا، وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَمْسُ عَبْدَهُ بِهَا، وَهُوَ الَّذِي يَصْرِفُهَا عَنْهُ وَحْدَهُ لَا أَحَدَ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (يونس ١٠٧)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ)^(١)، فَإِذَا جَرَّدَ الْعَبْدُ التَّوْحِيدَ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ خَوْفُ مَا سِوَاهُ، وَكَانَ عَدُوُّهُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخَافَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

يُفِرُّهُ اللهُ بِالْمَخَافَةِ وَقَدْ أَمَنَهُ مِنْهُ، وَخَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ اهْتِمَامُهُ بِهِ وَاشْتِغَالُهُ بِهِ وَفِكْرُهُ فِيهِ، وَتَجَرَّدَ اللهُ مُحَبَّةً وَخَشْيَةً وَإِنَابَةً وَتَوَكُّلاً وَاشْتِغَالاً بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَيَرَى أَنَّ إِعْمَالَهُ فِكْرَهُ فِي أَمْرِ عَدُوِّهِ وَخَوْفَهُ مِنْهُ وَاشْتِغَالُهُ بِهِ مِنْ نَقْصِ تَوْحِيدِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ جَرَّدَ تَوْحِيدَهُ لَكَانَ لَهُ فِيهِ شُغْلٌ شَاغِلٌ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى حِفْظَهُ وَالِدَفْعَ عَنْهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِناً فَاللَّهُ يَدْفَعُ عَنْهُ وَلَا بَدَّ، وَبِحَسَبِ إِيْمَانِهِ يَكُونُ دِفَاعُ اللَّهِ عَنْهُ، فَإِنْ كَمَلَ إِيْمَانُهُ كَانَ دَفْعُ اللَّهِ عَنْهُ أَتَمَّ دَفْعٍ، وَإِنْ مَزَجَ مُزَجَ لَهُ، وَإِنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً، فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جُمْلَةً، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ جُمْلَةً، وَمَنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً، فَالتَّوْحِيدُ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ، الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمِينِينَ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فَهَذِهِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ يَنْدَفِعُ بِهَا شَرُّ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ وَالسَّاحِرِ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ وَثِقَتِهِ بِهِ، وَأَنْ لَا يَخَافَ مَعَهُ غَيْرَهُ، بَلْ يَكُونُ خَوْفُهُ مِنْهُ وَحْدَهُ، وَلَا يَرْجُو سِوَاهُ، بَلْ يَرْجُوهُ وَحْدَهُ، فَلَا يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَسْتَغِيثُ بِسِوَاهُ، وَلَا يَرْجُو إِلَّا إِيَّاهُ، وَمَتَى عَلَّقَ قَلْبَهُ بِغَيْرِهِ وَرَجَاهُ وَخَافَهُ وَكِلَإً إِلَيْهِ وَخُذِلَ مِنْ جِهَتِهِ، فَمَنْ خَافَ شَيْئاً غَيْرَ اللَّهِ سُلِّطَ عَلَيْهِ، وَمَنْ رَجَا شَيْئاً سِوَى اللَّهِ خُذِلَ مِنْ جِهَتِهِ وَحُرِمَ خَيْرِهِ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً.»

سورة الناس

مطابقة آخر المصحف لأوله

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ (الناس ١-٦).

خَتَمَ اللَّهُ كِتَابَهُ بِمَا بَدَأَهُ بِهِ، فَقَدْ بَدَأَهُ بِذِكْرِ حَامِدِهِ، بَدَأَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، فَقَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾.

ثُمَّ بِذِكْرِ مُلْكِهِ، فَقَالَ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢﴾﴾، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّاسِ: ﴿مَلِكِ النَّاسِ ﴿١﴾﴾.

ثُمَّ بِالْأُلُوهِيَّةِ، فَقَدْ ذَكَرَ اسْمَهُ (اللَّهُ) الدَّالَّ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴿١﴾﴾، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّاسِ: ﴿إِلَهِ النَّاسِ ﴿٢﴾﴾، وَقَالَ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٣﴾﴾، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّاسِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾؛ وَالْأُلُوهِيَّةُ مَأْخُودَةٌ هُنَا مِنْ تَعَوُّذِ الْمَرْءِ بِرَبِّهِ لَا بَغَيْرِهِ، مَعَ مَا فِي الْعَوَظِ مِنْ مَعَانِي الْعُبُودِيَّةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، ثُمَّ هَذَا كُلُّهُ ثَنَاءٌ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَفِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ دُعَاءٌ بِقِسْمِيهِ: دُعَاءُ الشَّنَاءِ وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، فَدُعَاءُ الشَّنَاءِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى، وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ فِي بَاقِي السُّورَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٢﴾﴾، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا

دُعَاءُ كُلِّهِ؛ لِأَنَّهَا بُدِئَتْ بِالتَّعَوُّذِ بِاللَّهِ وَاللَّجَأِ إِلَيْهِ وَالتَّحَصُّنِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ
دُعَاءٌ بِقِسْمَيْنِ: أَمَّا الْمَسْأَلَةُ فَهِيَ هَذِهِ، وَأَمَّا الشَّأْنُ فَقَدْ مَضَى.
بَقِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَمْرَيْنِ وَرَدَا فِي الْفَاتِحَةِ إِشَارَةً، وَقَدْ يَخْفَيَانِ فِي سُورَةِ
النَّاسِ:

- الْأَوَّلُ: تَوْحِيدُ الْمُتَابِعَةِ الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُدًى لِّلَّذِينَ
أَتَوْاكَ بِالْحَقِّ وَبِالْغَيْبِ﴾ صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٢﴾، انْظُرْ «مدارج
السالكين» لابن القيم (١/ ٣٧ و ٤٥ - دار الكتاب العربي).

- الثَّانِي: دُعَاءُ اللَّهِ بِالنَّجَاةِ مِنْ طَرِيقٍ مَنْ انْحَرَفَ عَنِ الصِّرَاطِ
الْمُسْتَقِيمِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾
(الفاتحة ٧)، وَقَدْ فَسَّرَهُ الرَّسُولُ اللَّهُ ﷺ فَقَالَ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ
عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَلَالٌ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٩٥٤)، وَصَحَّحَهُ
الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣٢٦٣).

أَمَّا تَوْحِيدُ الْمُتَابِعَةِ فِي سُورَةِ النَّاسِ، فَهُوَ مُنْتَزَعٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ﴾؛
عِنْدَ مَطْلَعِ السُّورَةِ؛ فَإِنَّ فِعْلَ الْأَمْرِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِمُتَبِعِ لَا
مُبْتَدِعٍ.

وَأَمَّا دُعَاءُ اللَّهِ بِالنَّجَاةِ مِنْ طَرِيقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَلَمْ يَأْتِ
لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ذِكْرٌ فِي سُورَةِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا جَاءَ ذِكْرُ الْمُتَسَبِّبِ فِي
وُجُودِهِمْ، أَلَا وَهُوَ الشَّيْطَانُ، لَكِنْ يُمَكِّنُنَا التَّدْرُجُ إِلَى فَهْمِ الْمُنَاسِبَةِ
الَّتِي بَيْنَ بَدَايَةِ الْمُصْحَفِ وَنَهَايَتِهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِثَلَاثِ مُقَدِّمَاتٍ:

الْأُولَى: أَنَّ أَعْظَمَ الْفِتَنِ الَّتِي تَحْرَفُ الْمَرْءَ عَنْ دِينِهِ هِيَ فِتْنُ

الشَّهَوَاتِ وَفِتْنُ الشُّبُهَاتِ، كما مرَّ في سُورَةِ الدُّخَانِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ فِي سُورَةِ النَّاسِ بِالتَّعَوُّذِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ أَوَّلَ وَاقِعٍ فِي الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ مِنْ شُبُهَاتِهِ اتِّهَامَ رَبِّهِ بَعْدَمَ الْحِكْمَةِ حِينَ فَضَّلَ آدَمَ عَلَيْهِ وَأَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَمِنْ شَهَوَاتِهِ طَلْبُهُ الرِّيَاسَةِ وَهَذَا ظَاهِرٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُجْتَمِعٌ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (الأعراف ١٢)، وَإِذَا كَانَتْ السَّيِّئَاتُ لَا تَخْرُجُ عَنْ شَهْوَةٍ أَوْ شُبْهَةٍ، عَلِمَ أَنَّهُ مَا وَقَعَتْ سَيِّئَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا لِلشَّيْطَانِ فِيهَا نَصِيبٌ، بَلْ هُوَ الْأَمْرُ بِهَا بِالْمُبَاشَرَةِ أَوْ بِالْوَاسِطَةِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (البقرة ١٦٨-١٦٩)، فَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ بِالْأَمْرِ بِكُلِّ شَرٍّ، سِوَاءِ كَانَ شَهْوَاتٍ، وَهِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ هُنَا بِاسْمِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، أَوْ كَانَ شُبُهَاتٍ، وَهِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ هُنَا بِاسْمِ الْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي « الْجَوَابِ الصَّحِيحِ لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ » (٤٥٩/٦): « وَالْعِلْمُ لَا يُعَارِضُهُ الظَّنُّ، وَالْبَيِّنَاتُ لَا تُعَارِضُ بِالشُّبُهَاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ السُّوْفِسْطَائِيَّةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ نَهَى عَنِ الْكَلَامِ بِلَا عِلْمٍ »، ثُمَّ نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمِثْلَاتِهَا.

فَهُوَ الْمَوْسُوسُ لِكُلِّ عَاصٍ بِاقْتِرَافِ مَعْصِيَتِهِ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي السُّورَةِ الَّتِي نَحْنُ بَصَدِّدُهَا: ﴿ الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ

النَّاسِ ﴿٥﴾ (النَّاس ٥)، فَهُوَ يُوسُوسُ إِذَا بِالشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ ذَكَرُوا أَنَّ فِي الْاِقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ هَاتَيْنِ الْمِلَّتَيْنِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ حِكْمَةٌ بِالِغَةِ، وَهِيَ أَنَّهَا أَعْظَمُ الْأُمَمِ وَقُوعًا فِي تَيْنِكَ الْفِتْنَتَيْنِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ نَبِيِّنَ كَرِيمَيْنِ، لَكِنِ الْيَهُودُ أَخْصُ بِالشَّهَوَاتِ، وَالنَّصَارَى أَخْصُ بِالشُّبُهَاتِ، وَلَمَّا كَانَتْ الْمَعَاصِي لَا تَخْرُجُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ أَمَرَ اللَّهُ فِي الْفَاتِحَةِ بِالْانْحِرَافِ عَنْ صِرَاطِ الَّذِينَ وَقَعُوا ضَحِيَّةً لَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ بِالْوَصْفَيْنِ: الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمِ وَالضَّالِّينَ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ النَّاسِ فَقَدْ سَمِيَ صَاحِبَ الْوَسْوَسَةِ الْأَصْلِي وَأَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمَتَسَبِّبُ فِي انْحِرَافِ تَيْنِكَ الْأُمَّتَيْنِ وَوُقُوعِهَا فِي الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا مَرَّ، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى» (١٦/٤٧٨-٤٧٩): «وَأَمَّا سُورَةُ الْإِخْلَاصِ وَالْمَعَوَّذَتَانِ، فَفِي الْإِخْلَاصِ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ، وَفِي الْمَعَوَّذَتَيْنِ دُعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ لِيُعِيذَهُ، وَالثَّنَاءُ مَقْرُونٌ بِالدُّعَاءِ كَمَا قُرْنَ بَيْنَهُمَا فِي أَمِّ الْقُرْآنِ الْمَقْسُومَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ نِصْفُهَا ثَنَاءٌ لِلرَّبِّ، وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ لِلْعَبْدِ، وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ الْإِيمَانُ بِمَقْصُودِ ذَلِكَ وَغَايَتِهِ، وَهُوَ مَا يَنْتَهِي الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ وَهُوَ الْجَزَاءُ، ثُمَّ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ الْمَقْصُودِ وَسَبَبِهِ، وَهُوَ الْأَعْمَالُ خَيْرُهَا لِيَفْعَلَ، وَشَرُّهَا لِيُتْرَكَ، ثُمَّ خَتَمَ الْمُصْحَفَ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ وَدُعَاؤُهُ كَمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ أَمُّ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ

هُوَ الْمَنْطِقُ، وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ: خَيْرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَأَفْضَلُ الْخَيْرِ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا كَانَ خَبَرًا عَنْ اللَّهِ، كِنِصْفِ الْفَاتِحَةِ وَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ، وَأَفْضَلُ الْإِنْشَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجِبُهُ مَا كَانَ طَلَبًا مِنْ اللَّهِ، كَالنِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْفَاتِحَةِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ «.

وهذا دليل على أن سورة الفاتحة جمعت ما تفرق في هذه السور الثلاث: الإخلاص والمعوذتين، وقد شرح ذلك ابن القيم، فقال في «مدارج السالكين» (١/٢٣-٢٤): «ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسماؤه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يردُّ معهما الدعاء، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي.

أحدهما: حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: (سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: والذي نفسي بيده! لقد سألك الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعِيَ

به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى)، قال الترمذي: حديثٌ صحيحٌ^(١)، فهذا توسُّلٌ إلى الله بتوحيده وشهادته الداعي له بالواحدانية وثبوت صفاته المدلول عليها باسم الصِّمد، وهو كما قال ابن عباس: العالمُ الَّذي كَمُلَ عِلْمُهُ، القادرُ الَّذي كَمُلَتْ قُدْرَتُهُ، وفي رواية عنه: هو السِّدُّ الَّذي قد كَمُلَ فيه جميعُ أنواعِ السُّوددِ، وقال أبو وائل: هو السِّدُّ الَّذي انتهَى سُودُّهُ، وقال سعيد بن جبير: هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأقواله، وبني التشبيه والتَّمثيل عنه بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسُّل بالإيمان بذلك والشَّهادة به هو الاسمُ الأعظمُ.

والثاني: حديث أنس (أنَّ رسولَ الله ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ! فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ)^(٢)، فهذا توسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَقَدْ جَمَعَتِ الْفَاتِحَةُ الْوَسِيلَتَيْنِ، وَهُمَا التَّوَسُّلُ بِالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَتَمْجِيدِهِ، وَالتَّوَسُّلُ إِلَيْهِ بِعُبُودِيَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، ثُمَّ جَاءَ سُؤَالُ أَهَمِّ الْمَطَالِبِ وَأَنْجَحِ الرِّغَائِبِ وَهُوَ الْهُدَايَةُ بَعْدَ الْوَسِيلَتَيْنِ، فَالدَّاعِي بِهِ حَقِيقٌ بِالْإِجَابَةِ، وَنَظِيرُ هَذَا دُعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ إِذَا قَامَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ

(١) هو في «المُسند» (٣٤٩/٥) وسنن الترمذي (٣٤٧٥) وصحيح ابن حبان (٨٩٢)، وصحَّحه الألباني في تعليقه على «السُّنن».

(٢) هو في «المُسند» (٢٤٥/٣) وسنن الترمذي (٣٥٤٤) وصحيح ابن حبان (٨٩٣)، وصحَّحه الألباني في تعليقه على «السُّنن».

رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس: (اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)، فَذَكَرَ التَّوَسُّلَ إِلَيْهِ بِحَمْدِهِ وَالشَّنَاءِ عَلَيْهِ وَبِعُبُودِيَّتِهِ لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ.

على كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَنَّ الْقُرْآنَ بُدِئَ بِالدُّعَاءِ بِقِسْمِيهِ: دُعَاءُ الشَّنَاءِ وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، وَخُتِمَ بِهِمَا، وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ (٢٩٦٩) وَأَبُو دَاوُدَ (١٤٧٩) وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨٢٨) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ النُّعْمَانِ ابْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ »، وَقَرَأَ: ﴿ وَرَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ دَاخِرِينَ ﴾، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ بَدَايَةَ الْقُرْآنِ كَانَتْ كَخَاتِمَتِهِ تَرْكِيزاً عَلَى الْعِبَادَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا بَيْنَهُمَا كُلَّهُ عِبَادَةٌ: إِمَّا بِالْأَصْلِ أَوْ بِالتَّبَعِ، وَإِمَّا بِالْغَايَةِ أَوْ بِالسَّبَبِ، وَعِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقْنَا؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الدَّارِيَاتُ ٥٦).

واللهُ أَعْلَمُ بِحِكْمِ تَنْزِيلِهِ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ مِنْهَا،
 وَمَا خَفِيَ مِنْهَا عَلَى أَهْلِ الرُّسُوحِ - فَضْلاً عَمَّنْ دُونِهِمْ - أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ،
 قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِمَاتِي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ
 تَنفَدَ كَلِمَاتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف ١٠٩).

الفهارس

فهرس الأحاديث والآثار ص ٤٨٧

فهرس الموضوعات ص ٥٠٢

تَرَكْتُ فَهْرَسَةَ آيَاتِ الْقُرْآنِ لِكَثْرَتِهَا، وَلَأَنَّ الْكِتَابَ كُلَّهُ فِي الْقُرْآنِ،
وَعَسَى أَنْ يَكُونَ فِي فَهْرِسِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّذِي هُوَ عَلَى تَرْتِيبِ
الْمُصَحَّفِ غُنْيَةٌ عَنْهَا.

فهرس الأحاديث والآثار (١)

٣٠٧	أَبْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حُلَّةَ سَيَرَاءَ.....
٣٧٦	أَتَرَى بِنَا أَقُولُ بِأَسَا.....
٢١٠	اتَّقِ اللَّهَ! وَأْمِسْكَ عَلَيْكَ رَوْحَكَ.....
٢٣	أَتْلُ أَوَّلَ الْآيَةِ: جَابِرُ.....
١١٢	أَجَلُ لَعْمَرِي! لَقَدْ اسْتَيْقَنُوا بِذَلِكَ: عَائِشَةُ.....
٦١	أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعُ.....
٤٧٦، ٤٦٧	أَحْفَظُ اللَّهَ يَحْفَظُكَ.....
٧٩	أُحِلَّتْ لَنَا مِيتَتَانِ.....
٧٢	أَحْمِلْنِي؛ فَوَاللَّهِ! لَأَنَا أَفْرُسُ مِنْكَ: رَجُلٌ.....
١٥٨	أَخَّرَ عَنِّي يَا عُمَرُ.....
١٦٨	أَدْرِكُ مَا فَاتَكَ مِنْ لَيْلَتِكَ فِي تَهَارَكَ: عُمَرُ.....
٥٥	إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ.....
١٠٤	إِذَا اخْتَلَفَ الْبَيْعَانِ وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا بَيِّنَةٌ.....
٤٠٨	إِذَا جَاءَكَ طَالِبُ الْعِلْمِ فَلَا تَنْهَرِهِ: يَحْيَى بْنُ آدَمَ.....
٢٢	إِذَا حَدَّثْتَ عَنْ اللَّهِ حَدِيثًا، فَفَقِفْ حَتَّى تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ: مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ.....
٣٣٠	إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فَابْتَغُوهُ فِي الشَّعْرِ: ابْنُ عَبَّاسٍ.....
٢٧٢	إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ.....
١٨٧	إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ: عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ.....
٢٢	إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ: كَيْفَ يَقْرَأُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟ ابْنُ مَسْعُودٍ.....
٦٧	إِذَا شَتَمَكَ شَتَمْتَهُ بِمِثْلِهَا: السَّدي.....
٣٨٠	إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، قِيلَ: أَيْنَ الظَّالِمَةُ وَأَعْوَاهُم؟ أَثَرُ.....
٧٥	إِذَا وَجَدْتُمْ الْإِمَامَ سَاجِدًا فَاسْجُدُوا.....
٢٢٨	اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.....

(١) مَا كَانَ مِنْ أَثَرٍ ذَكَرْتُ قَائِلَهُ، وَأَمَّا الْمَخْلِيَّةُ مِنْ قَائِلٍ فَهِيَ الْمَرْفُوعَاتُ.

- ٤١٦ اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تَخْصُوا.
 ٣٢٥ أَشْبَاهُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ: عمر في تفسير ﴿وَأَنزَوْنَهُمْ﴾.
 ٣٨١ اشفَعُوا تَوْجَرُوا.
 ٤٠٨ اشْكُرْ هَذِهِ النُّعْمَةَ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: مُقَاتِلٌ فِي تَفْسِيرِ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.
 ٧٧ أَعْطَاهَا شَيْئًا (حَاشِيَةٌ).
 ٣٨٠ أَعْوَانُ الظُّلَمَةِ مَنَ أَعَانَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُ لَأَقَّ لَهُمْ دَوَاءً: غير واحد من السلف.
 ٢٣١ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ: أَسْمَاءُ (حَاشِيَةٌ).
 ٤٥٨ اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَتْلُوا الْكُفَرُوتَ﴾؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ.
 ٤١٧ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ إِذَا كَانَ سَاجِدًا: مُجَاهِدٌ.
 ٤١٧، ٧٤ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.
 ٢٢٠ أَكْبَهُ عَلَيَّ وَجْهِهِ: ابن عباس وغيره.
 ٣٧٩ أَلْحَقْ كُلَّ امْرِئٍ بِشِيعَتِهِ: الْيَهُودِيُّ مَعَ الْيَهُودِ: الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ.
 ٤٧٤ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.
 ٤٧٢ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ.
 ٥٥ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.
 ١٧ اللَّهُمَّ فَفِّهْ فِي الدِّينِ.
 ٤٨٤ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نَوْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ.
 ٢٧٠ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِحَمِيهِ﴾؟ عَائِشَةُ.
 ٢٧٠ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ حَفْصَةُ.
 ٤٠٨ أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ بِالسَّائِلِ الَّذِي يَأْتِيكَ، وَلَكِنْ طَالِبُ الْعِلْمِ: الْحَسَنُ.
 ١٤٥ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ.
 ١٦٧ إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ.
 ٣٩١ إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذِيبُ الذَّنْبَ لَا يَكُونُ شَيْئًا مِّنْ عَمَلِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْهُ: أَبُو هُرَيْرَةَ.
 ٣٥١ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ.
 ٢١٨ إِنَّ اللَّهَ ﷻ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ.
 ٢٦٧ إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ.

- ٤٣٩ إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْحَلَاثِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 ٨٨ إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ
 ٣١٥ إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ
 ١٠٩ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَقُولُ لِنَفْسِهِ: شَمِيطُ بْنُ عَجَلَانَ
 ١٣٠ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ
 ٤١٧ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ
 ٢٣١ إِنَّ بَلْعَنِي بَعْدَ أَنْكَ تَجَالِسُهُمْ أَوْ جَعْتِكَ ضَرْبًا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ (حَاشِيَةٌ)
 ١١٥ أَنَّ دَعْوَةَ الْحَقِّ هِيَ التَّوْحِيدُ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
 ٦٣ أَنَّ رَجُلًا عَطَسَ إِلَى جَنْبِ ابْنِ عُمَرَ: نَافِعٌ
 ١٣٠ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ
 ٧٦ إِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغْلًا (حَاشِيَةٌ)
 ٤٤٧ إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ
 ٤٧ إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يُقَاتِلُ عَلَى تَأْوِيلِ هَذَا الْقُرْآنِ
 ٢٤٦ إِنَّ تَأْخُذَ بَسْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ حَتَّى نَحَرَ الْهَذِي: عُمَرُ
 ٢٢٦ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ
 ٢٧٠ إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ: ذُو الْحَوِیْصَةِ
 ٩٣ أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرْنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَاتُهُ
 ٣٥٤ أَنْبِئْنِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ حَكِيمُ بْنُ أَفْلَحٍ
 ٤١٨ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ جَمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا: ابْنُ عَبَّاسٍ
 ٣٧٦ أَنْزَلَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومِ الْأَعْمَى: عَائِشَةُ
 ٣٩٢ انظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ
 ١١٧ إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 ٣٨٧ إِنَّمَا بَعَثْتُ إِلَيْكَ لِأَسْأَلَكَ عَنِ الْخَوْضِ: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ
 ٣٩٩، ١٨١ إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ
 ٣٠٦ إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 ٤٤٠ إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

- إني لصاحب المرأة التي آتي بها عمر وَضَعْتَ لِسْتَةَ أَشْهَر: ابن عباس ٢١
- إني لم أَبْعَثْ إِلَيْكَ لِتَلْبَسَهَا ٣٠٧
- أولي القُوَّة في العِبَادَةِ: الكلبي في تفسير ﴿أُولَى لِأَيْدِي﴾ ٢٠٥
- أولي القُوَّة في طَاعَةِ اللَّهِ، والمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ: ابن عَبَّاس في تفسير ﴿أُولَى لِأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ ٢٠٥
- أَنِّي حَدِيثُهَا مَا لِي؟ ١٧١
- أَيُّ سِمَاءٍ تُظَلُّنِي: أبو بكر ٢٥
- أَيُّهَا النَّاسُ! أَتَهْمُوا رَأْيَكُمْ: سهل بن حُنَيْف ٢٦٩
- الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ٣٧٩
- الْإِسْلَامُ: السُّدِّي في تفسير ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ ٢٤٣
- الاشْتِغَالُ بِوَقْتِ مَا ضَيَّعَ وَقْتِ ثَانٍ: أبو سَعِيد الْخَرَّاز ١٠٩
- بَابِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَاللَّهِ! لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ: أبو بكر ١٢٦
- بِالْقُرْآنِ: مُجَاهِد في تفسير ﴿وَأَمَّا بِبِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٤٠٨
- بَلَّغَ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ وَحَدَّثَ بِالنَّبُوءَةِ: الرَّجَّاج في تفسير ﴿وَأَمَّا بِبِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٤٠٨
- بِمَعْنَى أَظْهَرَهَا: الكلبي في تفسير ﴿وَأَمَّا بِبِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٤٠٨
- تَرَكْتُ بِالْعِرَاقِ شَيْئًا يُقَالُ لَهُ التَّغْيِيرُ: الشَّافِعِي ١٩١
- تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ ٤٥٤
- ثَلَاثٌ أَخْلَفَ عَلَيْهِنَّ ٨٨
- ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ٣١٠
- جَعَلَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَيْنِ: ابن زيد ٧٣
- جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءً مِنْ جَنْسِهِ: بَعْضُ السَّلَفِ ٤٦٨
- حَدَّثَ بِالنَّبُوءَةِ الَّتِي أَعْطَاكَ اللَّهُ: مُجَاهِد في تفسير ﴿وَأَمَّا بِبِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ٤٠٨
- حَمَلَةُ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ: أَثَرُ ٧٠
- خَلَفْتُ بِبَغْدَادَ شَيْئًا أَخَذَتْهُ الزَّنَادِقَةُ يُسَمُّوهُ التَّغْيِيرُ: الشَّافِعِي ٢٠٠
- خَلَقَ اللَّهُ اللَّيْلَ قَبْلَ النَّهَارِ: ابن عباس ٢١٨
- خَيْرُ الْقُرُونِ الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِ ٢٠٠
- خَيْرُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ ٣٤٣

- دَعَا مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ..... ٣٦٨
- الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ..... ٤٨٤
- الدُّنْيَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ: الْحَسَنُ الْبَصْرِي..... ١٠٨
- الذَّبُّ عَنِ الشُّنَّةِ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ بِمَحْيَى بْنِ مَحْيَى..... ٥٠
- رَأَاهُ بِقَلْبِهِ: ابْنُ عَبَّاسٍ..... ٣٣٧
- الرَّاجِحُونَ يَرْحِمُهُمُ الرَّحْمَنُ..... ٤٠٠، ٣٦٤
- رَأَى عُمَرُ حُلَّةً عَلَى رَجُلٍ تُبَاعُ: ابْنُ عَمْرٍو..... ٣٠٦
- رُخِّصَ لَهُ إِذَا سَبَّهَ أَحَدٌ أَنْ يَسَبَّهُ: الْحَسَنُ..... ٦٧
- رُفِعَتْ إِلَى عَمْرٍو امْرَأَةٌ وَلَدَتْ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ: أَبُو عُبَيْدٍ..... ٢١
- رَوَّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ: زَيْنَبُ..... ٢١٠
- رَبُّنَا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ..... ١٩٩
- سَأَلَ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي حَرَّةٍ..... ١١٣
- سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ..... ٦٧
- سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ..... ٤١٠
- سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ..... ٦٣
- سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ..... ٢٨٣
- سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رَجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى سُجُوجٍ كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ..... ١٣٣
- صَدَقَهُ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ..... ١٥٧
- الصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْفَاجِرُ مَعَ الْفَاجِرِ فِي النَّارِ: عَمْرٍو..... ٣٢٦
- طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ: مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»..... ٢٤٢
- طُولُ الْقُنُوتِ (حَاشِيَةٌ)..... ٤١٤
- عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ: عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ..... ١٥٧
- عَجِلْتُ! إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ: ابْنُ عَبَّاسٍ..... ٢٣٧
- عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ..... ٢٢٧
- عُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ مَفْتُوحٌ لِأُمَّتِي بَعْدِي فَسَرَّنِي..... ٤٠٩
- عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ..... ١٨٢

- عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ٢٨٦
- عن ظلم: السَّدِّي في تفسير ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ ٦٦
- العالم الَّذِي كَمُلَ عِلْمُهُ، القَادِرُ الَّذِي كَمُلَتْ قُدْرَتُهُ: ابن عَبَّاس في تفسير الصَّمَد ٤٨٣
- العَجَّ والشَّج ٢٤٦
- فَأَدَّوْا لِلَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ خَيْرًا فِي هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: قتادة ١٦٨
- فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدَقَةَ الْفِطْرِ طَهْرَةً لِلصَّائِمِ ٣٩٥
- فَمَا أَفْبَحَ مِنْ ذِي حَلِيَّةٍ - وَكَيْفَ إِذَا كَانَ شَيْئَةً؟! - يَرْقُصُ وَيُصَفِّقُ: ابن عَقِيل ... ٢٠٣
- فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهُ عَلَى مُتَأَفِّقٍ ١٥٩
- الْفَاجِرُ مَعَ الْفَاجِرِ، وَالصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ: عمر ٣٧٨
- قُرْنَاؤُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ، كُلُّ كَافِرٍ مَعَهُ شَيْطَانُهُ فِي سِلْسِلَةٍ: الضَّحَّاكُ وَمِقَاتِل ... ٣٧٨
- قَفَّ حَتَّى أَدْخَلَ الْبَيْتَ: بعض السَّلَف ٤٧٢
- الْقُوَّةُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ: مجاهد في تفسير ﴿أُولَى لَا يُدَى﴾ ٢٠٥
- الْقُوَّةُ فِي الْعَمَلِ: سعيد بن جبير في تفسير ﴿أُولَى لَا يُدَى﴾ ٢٠٦
- كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يُقْرَأُ الْقُرْآنَ رَجُلًا: ابن يَزِيد الْكِنْدِيُّ ١٠١
- كَانَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ شَاطِرًا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ: الفضل بن موسى ٢٩٧
- كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَعْلَمَهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجِهِ: علي بن الْحُسَيْنِ ٢٠٨
- كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى مَنَزَلَتَيْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ٤٦٠
- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَتَيْتَهُ ١٦٨
- كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ ٩٦
- كَانَ عَمْرُو بْنُ يَدِخْلَنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ: ابن عَبَّاس ١٨
- كَانَ لِلْمَأْمُونِ - وَهُوَ أَمِيرُ إِذَاكَ - مَجْلِسٌ: يحيى بن أَكْثَم ٥
- كَانَ لَنَا أَمَانَانِ: أَبُو مُوسَى ٩٨
- كَانَ يُعْجِبُهُمُ الزِّيَادَةُ فِي الْعَمَلِ: إِبْرَاهِيمُ النَّخْعِيُّ ١٦٩
- كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَصِيرَةً ١٦٥
- كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَدْلُوا، فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا: إِبْرَاهِيمُ النَّخْعِيُّ ٦٦
- كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ٤٣٩

- كل مَنْ عَمِلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِمْ: فَأَهْلُ الْحُمْرِ مَعَ أَهْلِ الْحُمْرِ: قتادة والكلبي ٣٧٨
- كُنْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ: أَبُو الْهَيَّاجِ الْأَسَدِي ٣١٧
- كُنْتُ بِالْبَحْرَيْنِ: أَبُو هُرَيْرَةَ ٨٠
- كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ؟ ابْنُ عَرُوةَ بْنِ الزُّبَيْرِ (حاشية) ٢٣١
- الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ: ابْنُ عُمَرَ ٤٢٥
- لَا؛ إِنَّهُ كَانَ يُعْطِي لِلدُّنْيَا وَذِكْرَهَا وَحَمْدَهَا ٤٥٣
- لَا تَحْقِرِ الْيَتِيمَ؛ فَقَدْ كُنْتَ يَتِيمًا: مُقَاتِل ٤٠٨
- لَا تَخْضُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ ٢١٩
- لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ٢٥٧
- لَا تَقْهَرْهُ عَلَى مَالِهِ فَتَذْهَبَ بِحَقِّهِ لَضَعْفِهِ: الْفَرَاء ٤٠٨
- لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا ٣٠٩
- لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ١٥٩
- لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ ٣٩٩
- لَا يَرِيهِ أَحَدٌ ٣٦٨
- لَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ ٤٧٥
- لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٣٨٤
- لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا يَزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ ١٩٩
- لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمَ ٤٨٣
- لَقَدْ فَرَّطْنَا فِي قَرَارِيطَ كَثِيرَةٍ: ابْنُ عُمَرَ ٤١٢
- لِلَّهِ أَشَدُّ أَدْنَا لِلرَّجُلِ حَسَنِ الصَّوْتِ ١٩٩
- لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ٣٩٠
- لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الرُّومِ (حاشية) ٧٧
- لَمَّا تَزَوَّجَ عَلِيٌّ فَاطِمَةَ: ابْنُ عَبَّاسٍ (حاشية) ٧٧
- لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ: أُمُّ سَلَمَةَ ٢٥٢
- لَوْ أَفْتَيْتَهُمْ بغيرِ هَذَا لَعَلُّوكَ بِالذَّرَّةِ: عُمَرُ ٨٠
- لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا لَكُنْتُمْ هَذِهِ: أَنَسٌ ٢١٠

- لو كَانَ مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ صَحِيحًا فِي الْاسْتِثْنَاءِ: فتاة..... ١٤٣
- لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرِهِمْ بِالسَّوَالِكِ عِنْدَ كُلِّ وَضُوءٍ..... ٣١٢
- لَيْسَ الْحَبْرُ كَالْمُعَايِنَةِ..... ٤٤٢
- لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ..... ١٩٩
- مَا أَذِنَ اللَّهُ إِذْنًا..... ١٩٩
- مَا بَالُنَا نَقْصِرُ الصَّلَاةَ وَقَدْ أَمِنَّا؟ عَمْرُ..... ٢٧٠
- مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصْعَقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ: مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ..... ٢٣٠
- مَا ذُتَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ..... ٤٤٥
- مَا ظَنَنْتُكَ بِأَنْتَيْنِ اللَّهُ تَالِئُهُمَا..... ٩٤
- مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ..... ٩
- مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ مَظْلَمَةً فَعَفَا..... ٦٧
- مَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ..... ٣٥
- مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ..... ٢٩٩
- مَلَأَ اللَّهُ أَجْوَافَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا..... ٤٣٨، ٢٤٠
- مَنْ أَدْرَكَ مَعْنَاهُ الصَّلَاةَ..... ٢١٩
- مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ: ابْنُ مَسْعُودٍ..... ١٢
- مَنْ اشْتَغَلَ بِالْأَوْقَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ ذَهَبَ وَقْتُهِ بِلاَ فَائِدَةٍ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُنَازِلٍ..... ١٠٨
- مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..... ١٨١
- مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِكُلِّيَّتِهِ أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جُمْلَةً: بَعْضُ السَّلَفِ..... ٤٧٧
- مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ: أَبُو عَثْمَانَ النَّيْسَابُورِي..... ١٨٤
- مَنْ أَنْكَرَ هَذَا حُرْمَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: بَعْضُ السَّلَفِ..... ٣٨٦
- مَنْ تَكَلَّفَ السَّمَاعَ فُتِنَ بِهِ: الْجُنَيْدُ..... ٢٠٠
- مَنْ حَفِظَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْقَاتَهُ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ شَيْبَانَ..... ١٠٩
- مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ: بَعْضُ السَّلَفِ..... ٤٧٧
- مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..... ٣٨٣
- مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟..... ٣١٧

- ١٤٠ مَنْ عَبْدَ اللَّهِ بِالْحَبِّ وَحَدَهُ فَهُوَ زَنْدِيقٌ: بعض السلف
 ٢٥ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ
 ٣٨٥ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ
 ١٦٠ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ لِيُضِلَّ بِهِ النَّاسَ
 ٤٦ مَنْ كَفَرَ بِحَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ: ابن مسعود
 ٣٩٩ مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمَ
 ١٦٩ مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ
 ٣٦٤ مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ
 ٣٧٩ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ
 ٣٧٩ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ
 ٣٨٠ الْمَشْرَكَاتُ: الحسن البصري في تفسير «وَأَزَوْجَهُمْ»
 ٣٤٥ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ
 ٤٤٢ نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ
 ١٨٨ نَزَلَتْ فِي الْغِنَاءِ وَأَشْبَاهِهِ: ابن عباس
 ٣٠٦ نَعَمْ! صِلِي أَمْلِكِ
 ١٤٦ نَعَمْ! قَدْ وَصَلْ، وَلَكِنْ إِلَى سَقَرٍ: أبو علي الروذباري
 ٣١٣ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا
 ٣٣٧ نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ
 ٣٠٣ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ: سعد بن أبي وقاص
 ٢٤١ النَّظْرَةُ لَوْجُوهِهِمْ، وَالشُّرُورُ لِقُلُوبِهِمْ: الحسن البصري
 ٧٢ هَذَا مِنْعَنِي حَقِّي: رجل
 ٢٦٨ هَذَا نَبِيِّكُمْ وَخِيَارُ أُمَّتِكُمْ، فَكَيْفَ أَنْتُمْ؟! أبو سعيد الخدري
 ٢٢٦ هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ: قتادة
 ٣٣٠ هَذَا يَوْمٌ كَرِبٌ شَدِيدٌ: ابن عباس
 ٣٢٩ هَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ
 ١٣ هَلْ خَصَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ: سائل

- هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ ٦٣
- هُمَا مَشْرِقَا الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ: مجاهد ٢٨٩
- هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُودُّهُ: أبو وائل في تفسير الصَّمَد ٤٨٣
- هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كُمُلَ فِيهِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السُّودِّ: ابن عَبَّاسٍ في تفسير الصَّمَد ٤٨٣
- هُوَ الْغِنَاءُ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: ابن مسعود ١٨٨
- هُوَ الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ في تفسير الصَّمَد ٤٨٣
- هُوَ الْكَفُورُ: ابن عَبَّاسٍ في تفسير الْكَنُود ٤٣٥
- هُوَ اللَّوَامُ لِرَبِّهِ؛ يَعُدُّ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَى النُّعَمَ، الْحَسَنُ في تفسير الْكَنُود ٤٣٥
- هُوَ رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ ٧٩
- هُوَ مُحَدَّثٌ أَكْرَهُهُ: أحمد بن حنبل ٢٠٠
- هِيَ الرَّجْعَةُ: فاطمة بنت قيس ٣١٨
- هِيَ الطَّرْقُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْأَرَاءُ وَالْأَهْوَاءُ الْمُتَفَرِّقَةُ: ابن عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ في تفسير ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ٢٤٣
- وَأَشْبَاهُهُمْ: ابن عباس ٣٧٨
- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمَ ٤٨٢
- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! هُمَا أَنْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ ٤٤٠
- وَاللَّهُ! لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا ١٣٣
- وَأَمَّا مَنْ بَخَلَ بِالْفَضْلِ، وَاسْتَغْنَى عَنْ رَبِّهِ: ابن عَبَّاسٍ ٤٠٤
- وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ١٨٠
- وَأَيُّ ذَا؟ أَذَوَى مِنَ الْبُخْلِ؟! ٤٠٤، ٣١٧
- وَذَلِكَ حِينَ يَكُونُ النَّاسُ أَرْوَاجًا ثَلَاثَةً: ابن عَبَّاسٍ ٣٧٩
- وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ ١٥٨
- وَعَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ: ابن عَبَّاسٍ في تفسير ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ ٢٤٣
- وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ، لَا مِنْ سِفَاحٍ ٤٦٠
- وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا: عائشة ٢١٠
- وَمَا تَذَبَّرُ آيَاتِهِ إِلَّا أَتْبَاعُهُ: الحسن البصري ٨
- وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ٤٢٩

- وَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ ٣٦٤
- وَتَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ٥٣
- يَا أَبَا عَائِشَةَ! ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: عَائِشَةُ ٢١٠، ٣٠٣
- يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! آيَةٌ بَلَغَتْ مِنِّي كُلَّ مَبْلَغٍ: مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ ١١٣
- يَا أَبَا مُوسَى! ذَكَّرْنَا رَبَّنَا: عُمَرُ ١٩٩
- يَا أَبَا مُوسَى! لَقَدْ مَرَزْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ ١٩٩
- يَا ابْنَ أُخْتِي! أُمِرُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَبُّهُمْ: عَائِشَةُ ٣٠٣
- يَا أَنْجَشَهُ! رُوَيْدَكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ ٣١٥
- يَا دَاوُدُ! أَمَّا الذَّنْبُ فَقَدْ غَفَرْنَاهُ، وَأَمَّا الْوُدُّ فَلَا يَعُودُ ٣٩٠
- يُحْشَرُ الْمَرْءُ مَعَ صَاحِبِ عَمَلِهِ: الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ ٣٧٩
- يُحْكَى عَنِ الْمَنْصُورِ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُخَالِفُ مَذْهَبَ ابْنِ عَبَّاسٍ ١٤٢
- يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْمٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ٢٣
- يُرِيدُ أَنْ رَبَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرٍ: ﴿وَلَهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٤٣٥
- يُزَوَّجُ نَظِيرُهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ: عُمَرُ ٣٧٨
- يُظْهِرُهُمُ الرَّبُّ ﷻ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ: أَنَسُ ٢٧٢
- يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ٣٦٤
- يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ٣٦٤
- يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ ٣٣٠
- يُمَزَّجُ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ مَرْجَأٌ، وَيَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ صِرْفًا: ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ٣٦٣
- الْيَقِينُ الْمَوْتُ: سَالِمٌ ١٤٦
- الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضَلَالٌ ٤٧٩

فهرس الموضوعات

٣.....	مَهَيَّنَد.....
٥.....	حفظ الله القرآن.....
٧.....	تدبر القرآن.....
١٢.....	استنباط الأحكام والفوائد من القرآن.....
١٥.....	أنواع التفسير.....
١٧.....	بعض استنباطات السلف.....
٢٤.....	أمثلة من التفسير الإشاري المنحرف.....
٢٩.....	سورة الفاتحة: اشتياؤها على شفاء القلوب وشفاء الأبدان.....
٣٦.....	سورة البقرة: مناسبة مطلعها لخاتمها.....
٤٤.....	مجاهدة محالفي القرآن على تنزيله وعلى تأويله.....
٥٢.....	سورة آل عمران: المحافظة على الأدعية الماثورة.....
٥٥.....	ما في حديث البراء من المعاني الجامعة.....
٦٤.....	سورة النساء: دليل قوهم: إنما العقو ما كان عن مقدرة.....
٧٤.....	سورة المائدة: سر التعبير بالركوع وإرادة الصلاة كلها.....
٧٩.....	هل جاء في القرآن حكم الحوت الطافي؟.....
٨٢.....	سورة الأنعام: أحسن رد قرآني على أهل الكلام في خبر الآحاد.....
٨٦.....	الدليل على أن سورة الأنعام نزلت قبل النحل.....
٨٧.....	سورة الأعراف: مطابقة حديث الولي للكتاب الكريم.....
٩٨.....	سورة الأنفال: حكمة استعمال الفعل تارة واسم الفاعل تارة.....
١٠١.....	سورة التوبة: حكم القراءة بالمد المتصل.....
١٠٣.....	سورة يونس: دلالة حذف المفعول وإثباته.....
١٠٦.....	سورة هود: سر اقتران التوبة بالاستغفار.....
١١٠.....	سورة يوسف: أنواع تعبير الرؤيا الصالحة.....
١١٢.....	دفع إشكال في تنوع الضمائر والفرح بذلك.....
١١٥.....	سورة الرعد: دعوة التوحيد هي دعوة الحق.....

- سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: بعض أسرار تنوع أدوات الحصر..... ١٢١
- سُورَةُ الْحَجَرِ: من فقه الجهاد الذي يتخفى على جماعات الجهاد اليوم..... ١٢٨
- سُورَةُ النُّحْلِ: اختراع السيَّارات وغيرها في القرآن..... ١٣٢
- سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: مقارنة بين ضمير الخطاب والغائب في آيتين..... ١٣٧
- آيَةُ جَمَعَتْ أركانَ العبادة..... ١٤٠
- سُورَةُ الْكَهْفِ: حكم تأخير الاستثناء عن المُستثنى منه..... ١٤٢
- سُورَةُ مَرْيَمَ: الرَّدُّ على الحُرَّافِينَ مُسْقِطِي الشَّرَائِعِ..... ١٤٥
- سُورَةُ طه: مقارنة بين مطلع السُّورة ومُنتهاها..... ١٤٨
- سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: الفرق بين الْأَخْسَرِينَ وَالْأَسْفَلِينَ..... ١٥٠
- سُورَةُ الْحَجِّ: تركيب الكلمة التي أريدَ بها الفعل والتي أريدَ بها الوصف..... ١٥٢
- عاقبة العدل في الانْتِصار من الباغي..... ١٥٥
- سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: من موانع اعتبار مفهوم المخالفة..... ١٥٦
- سُورَةُ النُّورِ: أدنى عددٍ للتواتر..... ١٦٢
- حكم لبس المرأة الكعب العالي..... ١٦٥
- سُورَةُ الْفُرْقَانِ: تدارك الفوائد..... ١٦٨
- سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: مُصاحبةُ الشَّيَاطِينِ لِذَوِي الْخَلْقِ السَّيِّئِ في القول والفعل..... ١٧٠
- سُورَةُ النَّملِ: أنواع الخطاب..... ١٧٢
- سُورَةُ الْقَصَصِ: هل أبو المَرَاتَيْنِ هو سُعَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟..... ١٧٤
- اِقْرَأِ اللَّيْلَ بِالسَّمْعِ وَالنَّهَارَ بِالْبَصَرِ..... ١٧٦
- سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ: الفرق بين السَّنة والعام..... ١٧٨
- سُورَةُ الرُّومِ: مناسبة أول السُّورة لخاتمها: النَّصْرُ مع الصَّبْرِ..... ١٨٠
- السَّيِّئَةُ عاقبةُ السَّيِّئَةِ والحسنةُ عاقبةُ الحسنة..... ١٨٢
- سُورَةُ لُقْمَانَ: بلاغة الكلمة القرآنية وحكم الغناء..... ١٨٨
- سُورَةُ السَّجْدَةِ: نيل الإمامة في الدِّين بالصَّبْرِ واليَقِينِ..... ٢٠٥
- سُورَةُ الْأَحْزَابِ: وجه الإعجاز في قصَّة زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ..... ٢٠٧
- سُورَةُ سَبَأٍ: سدُّ طُرُقِ الشُّرْكِ على طَريقَةِ التَّنَزُّلِ..... ٢١٢

- سُورَةُ فَاطِر: حِكْمَةُ تَقْدِيمِ السَّمَوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْعَكْسِ..... ٢١٥
- سُورَةُ يَس: حِكْمَةُ تَقْدِيمِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ..... ٢١٧
- سُورَةُ الصَّافَّات: إِذْعَانُ الْأَبِّ وَالْابْنِ لِأَمْرِ اللَّهِ..... ٢٢٠
- سُورَةُ ص: مَعْنَى يَدِي اللَّهِ سُبْحَانَهُ..... ٢٢١
- سُورَةُ الزُّمَر: الْحُشُوعُ الْمَشْرُوعُ..... ٢٢٥
- سُورَةُ غَافِر: حَالَاتُ الْإِنْسَانِ الثَّلَاثُ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ..... ٢٣٢
- سُورَةُ فُصِّلَتْ: اقْتِرَانُ اسْمِ السَّمِيعِ بِالْعَلِيمِ..... ٢٣٥
- سُورَةُ الشُّورَى: مَعْنَى الْمَوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى..... ٢٣٧
- سُورَةُ الزُّخْرَف: الْحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ وَمُقَابِلِهِ..... ٢٣٩
- سُورَةُ الدُّخَان: الشُّبُهَاتُ وَالشَّهَوَاتُ..... ٢٤٧
- سُورَةُ الْجَاثِيَةِ: بَسْطُ الْكَلَامِ وَاخْتِصَارُهُ بِحَسَبِ الْمَقَامِ..... ٢٥٠
- سُورَةُ الْأَحْقَاف: دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ وَاحِدَةً..... ٢٥١
- سُورَةُ مُحَمَّد: مَعْنَى نُصْرَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ..... ٢٦٠
- سُورَةُ الْفَتْح: الْفَرْقُ بَيْنَ (مِنْ) التَّبَعِيضَةِ وَ(مِنْ) الْبَيَانَةِ..... ٢٦٤
- سُورَةُ الْحَجَرَات: حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى الْوَحْيِ..... ٢٦٨
- دَلِيلُ اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ (قَوْم) لِلْإِنَاثِ..... ٢٧١
- سُورَةُ ق: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ..... ٢٧٢
- سُورَةُ الذَّارِيَات: أَدَبُ الْحَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي رَدِّ السَّلَامِ..... ٢٧٤
- سُورَةُ الطُّور: الْإِعْجَازُ بِالسَّهْلِ الْمُتَمَتِّعِ..... ٢٧٨
- سُورَةُ النَّجْم: سُرُّ اقْتِرَانِ الضَّلَالِ بِالْغَوَايَةِ..... ٢٨٥
- سُورَةُ الْقَمَر: تَفْصِيلُ قِصَصِهَا لِمُجْمَلِ مَا فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا..... ٢٨٨
- سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الْمَشْرِقُ وَالْمَشْرِقَانِ وَالْمَشَارِقُ..... ٢٨٩
- سُورَةُ الْوَاقِعَةِ: اخْتِيَارُ الْفَاكِهَةِ وَتَشْبِهِهِ اللَّحْمِ..... ٢٩٦
- سُورَةُ الْحَدِيد: تَرَكُ الْحُشُوعِ، فَفُسُوءَةٌ، فَفُسُوقٌ..... ٢٩٧
- سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: صِدْقُ الْإِخْبَارِ عَمَّا فِي نَفْسِ الْغَيْرِ دَلِيلُ صِدْقِ النَّبُوَّةِ..... ٣٠٠
- سُورَةُ الْحَشْرِ: تَرْتِيبُ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَسَبَ تَفَاضُلِهِمْ فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ..... ٣٠٢

- سُورَةُ الْمُتَحَنِّنَةِ: بِذَلِكَ الْخُلُقِ الْحَسَنِ لِلْكَفَّارِ لَا يَقْدَحُ فِي الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ..... ٣٠٤
- حُكْمُ إِهْدَاءِ الشَّيْءِ الْمَحْرَمِ لِلْكَفَّارِ..... ٣٠٧
- سُورَةُ الصَّافَّاتِ: هَلْ نُصْرَةُ الْمُؤْمِنِ رَبَّهُ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالسَّيْفِ؟..... ٣٠٨
- سُورَةُ الْجُمُعَةِ: الْأَمْرُ بَعْدَ الْحَظَرِ يَعُودُ إِلَى أَصْلِهِ..... ٣١٢
- سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ: مِنْ طَرُقٍ تَأْوِيلُ الرُّوْيَا..... ٣١٤
- سُورَةُ التَّغَابُنِ: اتِّقَاءُ شُحِّ النَّفْسِ هُوَ الْفَلَاحُ..... ٣١٧
- سُورَةُ الطَّلَاقِ: إِطْلَاقَاتُ كَلِمَةِ (الْأَمْرِ)..... ٣١٨
- سُورَةُ التَّحْرِيمِ: الْفَرْقُ بَيْنَ الزَّوْجَةِ وَالْمَرَأَةِ..... ٣٢٤
- سُورَةُ الْمُلْكِ: سِرُّ اقْتِرَانِ النَّصْرِ بِالرِّزْقِ..... ٣٢٨
- سُورَةُ الْقَلَمِ: هَلْ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِي الْعَقِيدَةِ؟..... ٣٣٠
- سُورَةُ الْحَاقَّةِ: سِرُّ إِمْهَالِ اللَّهِ الْمُلُوكَ الظَّالِمِينَ وَعَدَمُ إِمْهَالِ الْمُبْتَدِعَةِ..... ٣٣٨
- سُورَةُ الْمَعَارِجِ: أَقْسَامُ النَّاسِ مَعَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ..... ٣٤١
- سُورَةُ نُوحٍ: حِكْمَةُ التَّعْبِيرِ بِالْكُلِّ مَعَ إِرَادَةِ الْجُزْءِ..... ٣٤٦
- سُورَةُ الْحَجِّ: تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ عِصْمَةٌ مِنَ الْأَعْدَاءِ..... ٣٥٠
- سُورَةُ الْمَزَّمَلِ: نَسْخُ قَرْضِ قِيَامِ اللَّيْلِ..... ٣٥٣
- سُورَةُ الْمَدَّثَرِ: لَا وَقُوفٌ فِي حَيَاةِ الْمَرءِ إِنَّمَا هُوَ تَقَدُّمٌ أَوْ تَأَخُّرٌ..... ٣٥٦
- سُورَةُ الْقِيَامَةِ: بَصَائِتُ الْإِنْسَانِ مُعْجَزَةٌ بَارِعَةٌ..... ٣٦٠
- سُورَةُ الْإِنْسَانِ: الْفَرْقُ بَيْنَ جِزَاءِ الْمُقَرَّرِينَ وَجِزَاءِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ..... ٣٦٣
- سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ: نَحْيٌ (أَوْ) بِمَعْنَى (الْوَاوِ)..... ٣٦٩
- سُورَةُ النَّبَأِ: كَلَامُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَدْمُهُ..... ٣٧٢
- سُورَةُ النَّازِعَاتِ: إِيجَاظُ الْمُخْرَجِ مِنَ الْأَرْضِ فِي كَلِمَتَيْنِ..... ٣٧٥
- سُورَةُ عَبَسَ: مِنْ أَدَلَّةِ صِدْقِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ..... ٣٧٦
- سُورَةُ التَّكْوِينِ: مَعْنَى تَزْوِيجِ النَّفْسِ..... ٣٧٨
- سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ: أَرْبَعُ فَوَائِدَ فِي تَرْتِيبِ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا عَلَيْهَا..... ٣٨٢
- سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: رُؤْيَا اللَّهِ ﷻ..... ٣٨٦
- سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ: مُنَاسِبَتُهَا لِمَا قَبْلَهَا..... ٣٨٨

٣٨٩.....	سُورَةُ الْبُرُوجِ: اقتران المغفرة بالودِّ
٣٩٣.....	سُورَةُ الطَّارِقِ: مناسبة القسم للمقسم عليه
٣٩٥.....	سُورَةُ الْأَعْلَى: استنباط أداء زكاة الفطر قبل الصلاة من القرآن
٣٩٧.....	سُورَةُ الْغَاشِيَةِ: تفصيل ما في السُّورَةِ الَّتِي قَبْلُهَا
٣٩٨.....	سُورَةُ الْفَجْرِ: تضييع الحياة بتضييع الزَّمان
٣٩٩.....	سُورَةُ الْبَلَدِ: أقسام النَّاسِ فِي الصَّبْرِ وَالرَّحْمَةِ
٤٠١.....	سُورَةُ الشَّمْسِ: سرُّ تخصيص ثمود بالذكر
٤٠٤.....	سُورَةُ اللَّيْلِ: التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَالرَّحْمَةِ لِعِبَادِ اللَّهِ
٤٠٦.....	سُورَةُ الضُّحَى: مناسبة نور الضُّحَى لِنُورِ الْوَحْيِ
٤١٠.....	سُورَةُ الشَّرْحِ: أنواع ما أكرمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ
٤١١.....	سُورَةُ التِّينِ: مقارنة بينها وبين سُورَةِ الْعَصْرِ
٤١٤.....	سُورَةُ الْعَلَقِ: كمال المرء بالعلم والعمل
٤١٨.....	سُورَةُ الْقَدَرِ: الفرق بين (أنزل) و(نزل)
٤٢٣.....	سُورَةُ الْبَيْتَةِ: أسباب الاختلاف
٤٣٢.....	سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ: معاني الْوَحْيِ
٤٣٥.....	سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ: قاعدة الجمع بين عبادة الخالق والإحسان إلى الخلق
٤٣٩.....	سُورَةُ الْقَارِعَةِ: أنواع الموزونات يوم القيامة
٤٤١.....	سُورَةُ التَّكْوِيْنِ: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين
٤٤٤.....	سُورَةُ الْعَصْرِ: خسران الدِّينِ بِالْجِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ
٤٤٧.....	سُورَةُ الْهُمَزَةِ: فتنة المال
٤٤٩.....	سُورَةُ الْفِيلِ: فتنة السُّلْطَانِ
٤٥١.....	سُورَةُ قُرَيْشٍ: العبادة ضماناً للمال الطَّيِّبِ وَالسُّلْطَانِ الْمَحْمُودِ
٤٥٣.....	سُورَةُ الْمَاعُونِ: تقسيم العبادة إلى أداء حقِّ الله وأداء حقِّ خلقه
٤٥٥.....	سُورَةُ الْكَوْثَرِ: المتابعة شرط في قبول الأعمال
٤٥٨.....	سُورَةُ الْكَافِرُونَ: الإخلاص شرط في قبول الأعمال
٤٥٩.....	سُورَةُ النَّصْرِ: النصر لمن حقق الإخلاص والمتابعة

- سُورَةُ الْمَسَدِ: الزَّوْجَانِ الْكَافِرَانِ إِذَا أَسْلَمَا لَمْ يُعِيدَا عَقْدَ النِّكَاحِ..... ٤٦٠
- سُورَةُ الْإِخْلَاصِ: مَجِيءُ لَفْظِ « أَحَدٌ » نَكْرَةً خَاصَّةً بِاللَّهِ..... ٤٦٢
- سُورَةُ الْفَلَقِ: عَشْرَةُ أَسْبَابٍ لِدَفْعِ شَرِّ الْحَاسِدِ..... ٤٦٦
- سُورَةُ النَّاسِ: مُطَابَقَةُ آخِرِ الْمُصْحَفِ لِأَوَّلِهِ..... ٤٧٨
- الْفَهَارِسُ..... ٤٨٦